

المجوىرى

ميراث الترجمة

كشف المحجوب

دراسة و ترجمة و تعليق
إسعاد عبد الهادى قنديل
مراجعة و تقديم: بدیع جمعة
المجزء الاول



1042



هذا الكتاب من أقدم الكتب الفارسية وأهمها في مجال التصوف الإسلامي، وهو يضاهي الرسالة القشيرية، والتعرف إلى التصوف في اللغة العربية.

وقد أفاد منه كل من فريد الدين العطار في كتابه "تذكرة الأولياء"، وعبد الرحمن الجامي في كتابه "نفحات الأنس". ويعد كتاب "كشف المحجوب" تذكرة مهمة جمعت توارخ مشايخ التصوف وأحوال الأصفياء والأولياء وأقوالهم؛ مما يجعل هذا الكتاب لا غنى عنه في المكتبة الإسلامية سواء في لغته الفارسية أو في ترجمته العربية.

كشف المحجوب

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المحرر: طلعت الشايب

- العدد : ١٠٤٢ -

- كشف المحجوب (الجزء الأول)

- أبو الحسن على بن عثمان الهجویری

- إسعاد عبد الهادی قنديل

- بديع جمعة

- ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

كشف المحجوب

تأليف : أبو الحسن على بن عثمان بن أبي على الجلابی الغزنوی الهجویری

المجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلایة بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٢٥٨٠٨٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084

كشف المحجوب

(الجزء الأول)

تأليف : أبو الحسن على بن عثمان الهجویری
دراسة وترجمة وتعليق : إسعاد عبد الهادی قنديل
تقديم : بديع جمعة



بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أبو الحسن على بن عثمان بن أبي على الجلابى الغزنوى الهجورى
كشف المحجوب / للهجورى ؛ دراسة وترجمة وتعليق : إسعاد عبد الهادى
قنديل ؛ تقديم : بديع جمعة - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧ .
٤٠٠ ص ؛ ٢٤ سم ؛ مج ١ - (المشروع القومى للترجمة : ١٠٤٣)
(أ) التصوف الإسلامى .
(ب) إسعاد عبد الهادى قنديل (دراسة - مترجمة - معلق) .
(ج) جمعة ؛ بديع (مقدم) .
(د) العنوان

٢٦٠

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٣٩٧١
الترقيم الدولى 6 - 202 - 437 - 977 - I.S.B.N.
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

تقديم

كتاب كشف المحجوب فى اللغة الفارسية بمكانة كتاب "اللمع" فى اللغة العربية ؛ فكل منهما يُعد أقدم المؤلفات الصوفية فى لغته ، وهما أكثر كتب التصوف فى اللغتين قيمة وأوفرها مادة فى دراسة التصوف .

وقد اعتمد الهجویری ، مؤلف كشف المحجوب ، على الكتب العربية فى التصوف السابقة عليه ، أمثال : "اللمع" ، و "طبقات الصوفية" و "الرسالة القشيرية" . ونتيجة لأنه أول كتاب فارسى فى هذا المضمار ، فقد أفاد منه جميع من جاؤا بعده من المؤلفين الفرس ، ومنهم فريد الدين العطار فى كتابه "تذكرة الأولياء" . وعبد الرحمن الجامى فى مؤلفه "نفحات الأنس" ، وقاسم غنى فى كتابه "تاريخ تصوف دار اسلام" وغيرهم كثيرون .

وقد أثر الهجویری أن يختار لكتابه عنواناً دالاً وهو : "كشف المحجوب" ؛ حيث قال : « طالما كان اسم الكتاب ناطقاً على ما فيه ، فإن أهل البصيرة حين يسمعون اسم هذا الكتاب يعرفون الغرض منه ولما كان هذا الكتاب فى بيان طريق الحق ، وكشف حجب البشرية ، فإنه لا يناسبه غير هذا الاسم » .

وقد ألف الهجویری كتابه استجابة لسؤال أحد مواطنيه عن أصول الطريقة ومقام الصوفية ومعاملاتهم ، فاجتهد الهجویری أن يقدم للسائل منهجاً كاملاً لعلم التصوف : أصوله وفروعه وأدابه ومعاملاته ، ليثبت لعلماء الظاهر وغيرهم ممن ينكرون هذا العلم ويتهمون أصحابه بالجهل ، بأن لعلم التصوف أصولاً راسخة تقوم على أسس علمية سليمة ، إلى جانب استنادها إلى آيات القرآن الكريم وصحيح الحديث النبوى الشريف .

ونتيجة لهذا المنهج العلمى السليم الذى اتبعه الهجويرى فى كتابه ، فقد حظى هذا الكتاب منذ تأليفه وحتى اليوم باهتمام جميع من شغلوا بدراسة التصوف الإسلامى سواء من علماء المسلمين أو من المستشرقين الذين أولوا هذا العلم جل اهتمامهم .

وقد توفر لهذه الترجمة العربية لكتاب "كشف المحجوب" عدد من كبار الأساتذة المهتمين بالتصوف الفارسى فى مصر ، كان أولهم المرحوم الأستاذ الدكتور أمين الشواربى الذى طالما كان ينوه بقيمة هذا الكتاب وأهميته فى محاضراته الجامعية ، والتى كانت الدافع لاختياره هذا الكتاب موضوعاً لنيل درجة الدكتوراه للمت ترجمة المرحومة الأستاذة الدكتورة إسعاد عبد الهادى قنديل تحت إشراف أستاذنا المرحوم الدكتور عبد النعيم حسنين أستاذ اللغة الفارسية وآدابها فى كلية الآداب جامعة عين شمس ، وبعد الانتهاء من إعداد الرسالة ونيل درجة الدكتوراه شرعت المترجمة فى تحقيق آمال أستاذها المرحوم الدكتور الشواربى فى ضرورة ترجمة هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية ، وقد استعانت المترجمة فى إتمام هذا العمل بمراجع مشهود له بالدقة العلمية المتناهية وهو المرحوم الأستاذ الدكتور أمين عبد المجيد بدوى . وقد تلازمت دقة المترجمة وتبخرها فى علم التصوف مع التزام الدكتور أمين بحرفية الترجمة وأمانتها ، وكانت النتيجة أن قدما للمكتبة العربية ترجمة دقيقة ملتزمة لهذا الكتاب القيم الذى لا غنى عنه لأى دارس للتصوف الإسلامى أو للفلسفة الإسلامية فى اللغتين العربية والفارسية .

رحم الله كل من شارك فى إخراج هذا العمل المتميز ونقله إلى اللغة العربية وأثراها بهذا المؤلف الجدير بالاعتناء والدراسة ، والشكر كل الشكر للمجلس الأعلى للثقافة بمصر لإقدامه على إعادة طبع هذا الكتاب وتوفيره لدارسى التصوف وليريدى هذا الفكر الإسلامى المستنير .

وبالله التوفيق؛ ...

أ. د. بديع محمد جمعة

كلمة وفاء

بدأت معرفتي بالهجویری وكتابه « كشف المحجوب » في عام ١٩٥٧ ، حين كنت أدرس التصوف في إيران على أستاذي الجليل المغفور له الأستاذ الدكتور إبراهيم أمين الشواربي أستاذ اللغة الفارسية بكلية الآداب جامعة عين شمس. وكان أستاذي رحمه الله كثير الإشارة الى الكتب الفارسية في التصوف الإسلامي ، وكان يألم ويأمل من أجلها : يألم لأن المستشرقين سبقوا الى نشر بعضها ، وترجمة البعض الى لغاتهم ، ويأمل في أن يقوم تلاميذه يوماً بنقل هذا الجزء الهام من التراث الإسلامي الى اللغة العربية وإثراء المكتبة العربية بهذا النتاج القيم للفكر الإسلامي .

وكان من بين الكتب التي عنى أستاذي بالحديث عنها كتابان طالما نبه الى قيمتهما في دراسة التصوف ، وهما : كتاب « أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد » لمحمد بن المنور ، وكتاب « كشف المحجوب » لعلي بن عثمان الجلابي الهجویری .

وعندما تهيأت للدراسات العليا وقع اختياري على الكتاب الأول ليكون موضوع دراستي للماجستير ، وأتممت في عام ١٩٦٤ اعداد بحث عن أبي سعيد بن أبي الخير مع ترجمة كتاب أسرار التوحيد . وفي نفس العام اخترت الكتاب الثاني ليكون موضوع دراستي للدكتوراه ، وعلى مدى خمس سنوات تمكنت بمعون الله في عام ١٩٦٩ من اعداد بحث عن « الهجویری ومذهبه في التصوف كما يبدو من كتابه كشف المحجوب » تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد التعميم محمد حسنين .

غير أن صحتي لكشف المحجوب لم تنقطع بعد الدكتوراه ، فقد كنت أشعر في قرار نفسي بأهمية نقل هذا الكتاب النفيس الى اللغة العربية حتى يفيد منه الدارسون للتصوف الإسلامي ممن لا يعرفون اللغة الفارسية ، فعكفت على ترجمة الكتاب ، واعداد حواشي وأنية وتعليقات على

الترجمة ، وتحقيق ما ورد في الكتاب من اقوال وروايات وردتها الى
اصولها العربية .

وتم هذا العمل بعون الله ، واني ارجو به ان اكون قد وفقت الى تحقيق
شيء مما كان يأمل فيه استاذي ، وان يعمل غيري لاكمال المسيرة ، فيتم
نقل جميع الكتب الصوفية الفارسية الى لغتنا العربية الحبيبة .

والله ولي التوفيق ..

د. اسعاد عبدالهادي قنديل

جمادى الاولى ١٣٩٢
يونيه ١٩٧٣

تقديم

مؤلف كشف المحجوب هو : ابو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجویری الغزنوی، كان عالما من علماء الصوفية في القرن الخامس الهجري ، ومعاصرا للدولة الغزنوية (٢٨٧ — ٥٨٢ هـ) ، وتوفي في عهد السلطان ابراهيم الغزنوی (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) .

والهجویری ولد في مدينة «غزنه» بالهضبة الامغانية ، ومنها استمد لقبه « الغزنوی » ، كما يلقب بالجلابی والهجویری نسبة الى « جلاب » و « هجویر » وهما محلتان من توابع غزنة . وتاريخ ميلاد الهجویری غير معروف ، وان كان من المرجح انه ولد في اواخر القرن الرابع الهجري .

ولا نعرف عن حياة الهجویری الخاصة الا القليل مما يشير اليه في كتابه كشف المحجوب ، ونجيب منه انه تتلمذ على أبى العباس الشقاني ، وسلك طريق الصوفية بارشاد أبى الفضل محمد بن الحسن الختلى ، وتلقى بعض التعاليم الصوفية على أبى القاسم الجرجاني (٤٥٠ هـ) و (خواجه) المظفر أحمد بن حمدان ، والتقى بمعاصره أبى القاسم القشيري (٤٦٥ هـ) .

ويبدو أن الهجویری تلقى علومه الأولى في موطنه غزنة، ولما بلغ مبلغ الشناب سلك مسلك علماء عصره في السفر والتجول ، وقام برحلات واسعة النطاق ، تنقل خلالها في أرجاء العالم الاسلامي : من سوريا الى التركستان ، ومن بحر قزوين الى الهند ، فزار: العراق وخراسان وما وراء النهر وخوزستان ومارس وآذربيجان وجرجان والهند ، وأمضى في هذه المناطق فترات كانت تقصر حيناً وتطول أحياناً ، واختلف خلالها الى عدد من شيوخ الصوفية المعروفين ، فكان يلازم بعضهم وينخرط في سلك مريدتهم ، ويتردد على البعض الآخر ويتلقى منهم تعاليمهم .

وقد امتدت رحلات الهجویری حتى سنة ٤٣١ هـ ، وهي السنة التي زار فيها مدينة لاهور بالهند للمرة الأولى ، وكان لا يزال في هذه المدينة

عندما وقعت بها الفتنة سنة ٤٣٥ هـ في عهد السلطان مودود الفزنوى (٤٣٢ - ٤٤١ هـ) وأسر بين الأسرى . ومن المرجح أن الهجویری ترك لاهور عائدا الى غزنه وخراسان في الفترة ما بين ٤٣٥ ، ٤٤١ هـ ، غير انه رجع الى الهند مرة أخرى ، واستقر به المقام نهائيا في مدينة لاهور ، وظل بها الى أن توى .

وقد هيأت هذه الرحلات الطويلة للهجویری سبل الاتصال بعدد كبير من شيوخ الصوفية ، وائمة المذاهب الدينية ، ورؤساء الفرق الاسلامية المختلفة ، ومكنته من الوقوف على جميع التيارات الدينية التي كانت تسود العالم الاسلامي في القرن الخامس الهجري ، ويسرت له فرص الاطلاع على العديد من المؤلفات الدينية والصوفية ، فاكسب عن طريق هذا وذاك خبرات علمية واسعة ، ومارس التجربة الصوفية علما وعملا . كما امدته هذه الرحلات بحصيلة وغيرة من المعلومات القيمة التي ضمنها كتابه واستخدمها في مناقشاته للموضوعات التي تناوئها .

وكان الهجویری من اوائل الدعاة الى الاسلام في شبه القارة الهندية ، وقد اسهم في تحول عدد كبير من سكان لاهور الى الاسلام ، وكان في مقدمتهم « راي راجو » نائب لاهور في عهد السلطان مودود . وظل الهجویری يعمل على نشر الدين الاسلامي والتعاليم الروحية في مدينة لاهور حتى أدركته الوفاة بها حوالي سنة ٤٦٥ هـ ، ودفن بهذه المدينة ، ولا يزال قبره بها داخل مزاره المعروف بمزار « داتا كنج بخش » وهو الاسم الذي يعرف به الهجویری في الهند وباكستان .

والهجویری ألف كتابا كثيرة اشير الى اسمائها في كشف المحجوب ، وبعض هذه الكتب فقد في حياة المؤلف ، وبعضها فقد بعد وفاته . ولم يبق من مؤلفات الهجویری سوى كتابه كشف المحجوب الذي يرتبط اسمه دائما باسم مؤلفه .

وكتاب كشف المحجوب يعتبر اقدم مؤلف في التصوف باللغة الفارسية ، وأول كتاب منظم في الاصول النظرية والعملية للتصوف . وقد نوه بقيمة هذا الكتاب الشرقيون والمستشرقون ممن عنوا بدراسة التصوف الاسلامي، سواء منهم من بحثوا في هذا الموضوع ، او من تصروا جهودهم على نشر كتب التصوف وترجمتها .

وتاريخ تأليف كشف المحجوب غير معروف على وجه التحديد ، وان كان من المرجح أن مؤلفه بداه حوالي سنة ٤٣٥ هـ ، وانه حوالي سنة ٤٤٢ هـ .

ويشتتل كشف المحجوب على خمسة وعشرين قسما تكلم فيها المؤلف في الأصول النظرية والعملية للتصوف ، وتراجم :لائمة وشيوخ الصوفية ، وأقوال الصوفية ورموزهم ، والفرق الصوفية ، والمعائد الدينية والعبادات ، والمعاملات ، ورسوم الصوفية وتقاليدهم .

وموضوع كتاب كشف المحجوب جاء ردا على السؤال الذي وجهه الى الهجویری احد رفاقه في غزنة وطلب اليه ان يبين له طريق الصوفية ومقاماتهم ومذاهبهم وأقوالهم ورموزهم ومعاملاتهم . وقد أجاب الهجویری على هذا السؤال اجابة مطولة ، ذلك انه وضع في اعتباره ان يوضح لعامة الناس الطريقة والشريعة ، وان يوائم بين تعاليم الصوفية والدين الاسلامی ، وهو ما حاوله قبله مؤلفو الصوفية كابى نصر السراج الطوسی في اللمع ، وابی القاسم القشیری في الرسالة ، وما فعله بعده الامام الغزالی في احياء علوم الدين .

وكتاب كشف المحجوب يشبه الى حد كبير كتاب اللمع ، سواء في المنهج العام ، أو المواد التي تناولها كل من مؤلفيهما ، مما يوضح أن الهجویری اعتمد على اللبع . كما يتضمن كشف المحجوب ترجمة فارسية لبعض فصول من الرسالة القشيرية ، مما يؤكد ان مؤلفه اطلع عليها وأفاد منها .

وبالإضافة الى اللمع والرسالة ، فقد اعتمد الهجویری اعتمادا كبيرا على كتاب طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمی ونقل عنه كثيرا ، لاسيما في الجزء الخاص بتراجم شيوخ الصوفية .

وقد أفاد مؤلفو الصوفية الفرس من كشف المحجوب ، وعلى الاخص « فريد ادين المعطار » في كتابه «تذكرة الأولياء» ، و «عبد الرحمن الجامی» في كتابه « نفحات الأنس » . كما أفاد من كشف المحجوب ، على نطاق واسع ، اثنان ممن كتبوا في التصوف في العصر الحديث وهما : قاسم غنى ، وابو العلا عفيفی ، وأولهما كتب باللغة الفارسية ونقل عن النص الفارسی اكشف المحجوب ، والثاني كتب باللغة العربية ونقل عن الترجمة الانجليزية للكتاب .

وكشف المحجوب طبع لأول مرة في ليننجراد سنة ١٩٢٦ م ، وطبع للمرة الثانية في طهران سنة ١٣٣٦ هـ ش (ويقابلها ١٣٧٧ هـ ق — ١٩٥٧ م) ، وقام بترجمته الى الانجليزية المستشرق الانجليزى نيكولسون ، ونشرت الترجمة في لندن سنة ١٩١١ م .

ولما كان موضوع هذه الدراسة هو : كتاب كشف المحجوب ، فقد قسمتها الى بابين :

الباب الأول : في التعريف بمؤلف الكتاب

ويشمل الحديث عن عصر الهجویری من النواحي السياسية والثقافية والدينية والصوفية ، والتعريف بمدينة « غزنه » باعتبارها موطن الهجویری ومسقط رأسه ، ومدينة « لاهور » باعتبارها الموطن الثانی للهجویری ومثواه الأخير .

ويتبع ذلك التعريف بالهجویری من حيث اسمه وألقابه ومولده ونشأته وزواجه والمعلوم التي حصلها وأساتذته وشيوخه ورحلاته ووفاته ومؤلفاته .

والباب الثاني : في التعريف بكتاب كشف المحجوب

ويشمل الحديث عن الكتاب وموضوعه وأقسامه ومصادره ومنزله بين كتب التصوف العربية والفارسية السابقة عليه والمؤلفة بعده ، والقيمة العلمية للكتاب .

ويتبع ذلك تعريف بمخطوطات الكتاب وطبعاته والترجمة الانجليزية .

القسم الأول

دراسة حول

الاجبيري وكتابه كشف المحجوب

الباب الأول

التعريف بالاجبیری

الفصل الأول

عصر الجويرى

من النواحي السياسية والثقافية والدينية

أولا : الناحية السياسية :

« على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجویری » مواطن غزنوی ينسب الى مدينة « غزنه » موطن الأسرة الغزنوية التي أسست في النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى دولة كبيرة ، عرفت في التاريخ الاسلامى باسم الدولة الغزنوية .

والهجویری عاش حياته كلها في ظل الدولة الغزنوية . وعلى الرغم من أننا لانعرف تاريخى ميلاده ووفاته على وجه التحديد ، الا انه من المرجح انه عاش في الفترة ما بين العقدین التاسع والعاشر من القرن الرابع الهجرى والعقد السابع من القرن الخامس الهجرى ، وهذه الفترة تعاصر في نصفها الأول فترة المجد الحقيقى للدولة الغزنوية التي حكم فيها أشهر سلاطينها الثلاثة الأول : « سبكتكين » وابنه « محمود » و « مسعود بن محمود » ، وتعاصر في نصفها الثاني فترة أقل قوة في تاريخ الدولة الغزنوية، حكم فيها سلاطين ثلاثة آخرون هم : « مودود بن مسعود » و « عبد الرشيد بن محمود » و « فرخزاد بن مسعود » . وتوفى الهجویری في عهد « ابراهيم بن مسعود » .

ويعتبر « سبكتكين » المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية التي قامت أول الامر في مدينة غزنة عندما أسسها مولى من الموالى الأتراك يدعى « البتكين » — وكان يلى قيادة الجيش السامانى من قبل عبد الملك السامانى ، فلما توفى عبد الملك انسحب البتكين الى غزنة — وكان أبوه حاكما عليها من قبل السامانيين ، فتولى حكمها بعده .

وكان لالبتكين عبد مملوك يدعى سبكتكين ، لم يلبث أن أصبح صهرا له ، ثم خلفه في حكم غزنة سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وضم اليها قصدار

والباميان وطخارستان (١) ، وشن حملتين موفقتين على ملك البنجساب « جيال » وهزمه واكرهه على ان يتخلى له عن اقليم كابل الذي يسيطر على المسالك المؤدية الى السهل الهندي الخصيب (٢) .

وعندما استجد نوح بن منصور الساماني بسبكتكين على قواده ، اسرع اليه ومعه ابنه محمود ، وحرزا له النصر ، فكافا سبكتكين بولاية خراسان ، وولى ابنه محمودا قيادة الجيش . وهكذا سيطر سبكتكين على خراسان وصفت له (٣) .

وبعد وفاة سبكتكين في بلخ سنة ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، خلفه في الحكم ابنه الاصغر اسماعيل ، غير ان اخاه محمودا لم يلبث ان انتزع العرش منه .

ويعتبر « محمود الغزنوى » (٣٨٨ - ٤٢١ هـ / ٩٩٨ - ١٠٣٠ م) اشهر حكام الغزنويين على الاطلاق ، وواحدا من الشخصيات العظيمة التي لعبت دورا كبيرا في آسيا الوسطى (٤) . وهو اول شخص في الاسلام خوطب بلقب السلطان من قبل الخليفة (٥) العباسى القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢ هـ / ٩٩١ - ١٠٣١ م) .

وقد بلغت الدولة الغزنوية في عهد السلطان محمود اوج مجدها واتسعت ممتلكاتها حتى ضمت جميع بلاد العجم : من خراسان وخوارزم وطبرستان والمراق وفارس وجبال الغور وطخارستان ، وانقاد له ملوك التركستان (٦) . وما لبث هذا الامير المحارب ان ولى وجهه شطر الهند ، فغزاها سبع عشرة مرة في مدى سبعة وعشرين عاما (٧) فيما بين عامى ٣٩١ ، ٤١٧ هـ (١٠٠٠ ، ١٠٢٦ م) فخضع له شمال شبه القارة الهندية من بنارس الى غزنة ، ومن الهملايا الى الدكن ، واكسبته هذه الغزوات حبه للاسلام لقب «محطم الأصنام» . وتوفى السلطان محمود سنة ٤٢١ هـ (٨) .

واذا كان السلطان محمود قد استطاع عن طريق غزواته ان يرفع راية الاسلام فوق قلاع الهند ومعابدها ، وان يخطط باسنة سهامه وسيوفه تربة

(١) « طبقات ناصرى » منهاج السراج : كابل ١٢٤٢ هـ ش ٢٢٦

(٢) « تاريخ الشعوب الاسلامية » بروكلمان : ترجمة نبيه امين : بيروت ١٩٥٣ ج ٢ ص ١١٩

(٣) « طبقات ناصرى » ص ٢٢٧ .

(٤) « Sykes » : A History of Persia, London, 1961, V. 2, p. 26.

(٥) « طبقات ناصرى » ص ٢٢٨ .

(٦) « السابق » ص ٢٣٠

(٧) « الكابل » ابن الاثير : القاهرة ١٣٤٨ هـ . (انظر حوادث سنة ٣٩١ - ٤١٧ .

(٨) « الكابل » انظر حوادث ٤٢١ هـ .

تلك الديار ويمهدا لبذر بذور الدين الاسلامي ، فانه لم تمض وقت طويل حتى ذهب الى تلك البلاد غزنوى آخر ، فبذر تلك البذور بالخرقة والسجادة بدلا من السهام والسيوف ، وكان ذلك الرجل هو « على بن عثمان بن ابي على الهجویری الغزنوی » (١) .

وقد تميز اواخر عهد السلطان محمود بظهور قوة ناشئة هي قوة السلاجقة التي بدأت تمارس نشاطها في اقليم خراسان ، ولكن محمودا اوقفهم عند حدهم ، فلزموا جانب الهدوء والسكينة طوال حياته ، غير ان خطرهم لم يابث ان تفاقم بعد وفاته ، فسيطرو على الولايات الغربية من الدولة الغزنوية ، واستطاعوا في اقل من عشر سنوات ان ينتزعوا خراسان جميعها من ابنه مسعود .

وكان « مسعود » (٤٢١ - ٤٣٢ هـ / ١٠٣٠ - ١٠٤٠ م) قد استخلص الملك من اخيه الأصغر « محمد » - الذي اجلسه رجال الحاشية والامراء على العرش في غزنة بعد وفاة ابيه - وسجنه بقلعة « كوهتيز » وارسل الى الخليفة القادر في طلب اللواء والعهد ، فآثره الخليفة على ما دخل في حوزته من ولايات : « الري » و « الجبال » و « اصفهان » ، وامره بان يعجل بالسير الى خراسان كيلا يقع اضطراب في ذلك الثغر العظيم (٢) .

غير ان ما كان يخشاه الخليفة قد حدث بالفعل ، فقد كانت قوة السلاجقة آخذة في الازدياد ، وبدأوا يغيرون غارات منظمة على خراسان منذ عام ٤٢٥ هـ ، مما جعل مسعودا يذهب بنفسه الى نيسابور لقتالهم ، وتمكنت جيوشه من هزيمتهم بالقرب من « نسا » عام ٤٢٦ هـ . وعندما بلغ هذا الخبر مسامع داود السلجوقي استعان بجيش كبير وقا تل الغزنويين ، وتغلب عليهم (٣) وكانت هذه اول هزيمة جدية وقعت لمسعود ، واضطر معها الى ان يعقد صلحا مع السلاجقة لكي يتفرغ للذهاب الى الهند ، ولم يلبث ان سار اليها وفتح قلعة « هانسي » سنة ٤٢٨ هـ (٤) .

وعند عودة مسعود من الهند علم بارتفاع شأن السلاجقة في خراسان وجا ول ان يجلبهم عنها ، وهاجمهم بالقرب من « سرخس » عام ٤٢٩ هـ ،

(١) مجلة « هلال » جلد بنجم شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ هـ ش : مقال بظم « غلام سرور »

(٢) « تاريخ البيهقي » ابو افضل البيهقي : ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ، القاهرة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م : ص ١٧ .

(٣) « زين الاخبار » الكرديزي : طهران ١٣١٥ هـ ش . ص ٨١

(٤) « السابق » ص ٨٣ ، « تاريخ البيهقي » ص ٥٨٠ .

غير أن السلاجقة تمكنوا من هزيمته ولم يلبث « طغرل بك » السلجوقي أن دخل نيسابور ، وجلس على عرش مسعود ، وأعلن نفسه سلطانا للسلاجقة (١) .

وازداد مسعود غضبا على السلاجقة ، وخرج من غزنة الى خراسان قاصدا الثار ، ولكن جهوده باءت بالفشل ، فقد هزمه السلاجقة هزيمة نكراء عند « داندانقان » بالقرب من « مرو » عام ٤٣١هـ (٢) ، وكانت هذه الموقعة حدا فاصلا في تاريخ الدولتين الغزنوية والسلجوقية ، فقد قضت نهائيا على نفوذ الغزنويين في خراسان ، وأكدت نفوذ السلاجقة بها .

ورجع السلطان مسعود الى غزنة التي كان يسودها الاضطراب والمذابح والمعارك ، فقد حاصرها السلاجقة وسدوا الطريق اليها ، وقبض مسعود على بعض الفارين من رجاله وأرسلهم الى الهند ليسجنوا بها .

وخلال تلك الاضطرابات رحل الهجویری عن غزنة على عجل ، بحيث لم يستطع أن يحمل معه كتبه ، فتركها هناك (٣) ، وتوجه الى بلاد الهند . وكان ذهابه اليها حوالي سنة ٤٣١ هـ (٤) .

ويبدو أن الهجویری كان مرتبطا في حياته بالدولة الغزنوية ، يعيش في المناطق الخاضعة لنفوذه ، ويتنقل بينها . وقد عرفنا من كشف المحجوب أنه قضى فترة كبيرة من حياته في السفر والتجول ، ومن خلال تتبعنا لرحلاته نعرف أنه قضى الجزء الأكبر من فترة التجول في إقليم خراسان ، وزار عددا كبيرا من مدنه ، وأقام ببعضها فترات كانت تقصر حيناً وتطول أحيانا (٥) . ومن الواضح ان الفترة التي قضاها متنقلا بين مدن خراسان تقابل الفترة التي كان فيها نفوذ الغزنويين يسيطر على هذه المنطقة فلما انجسر نفوذهم عنها رجع الى غزنة ، وواجه فيها تلك الاضطرابات . وربما أحس الهجویری

(١) « تاريخ البيهقي » ص ٣٠٦ ، « الكامل » حوادث ٤٢٩ ، « راحة الصدور » الراوندي : ترجمة ابراهيم الشواربي وعبد النعيم حسنين ومؤاد المياد : القاهرة ١٩٦٠ ص ١٥٨ .

(٢) « تاريخ البيهقي » ص ٦٨٤ ، « راحة الصدور » ص ١٦٢ ، « طبقات نامري » ص ٢٢٢ .

(٣) « كشف المحجوب » لابي الحسن علي بن عثمان بن ابي علي الجعلاي الهجویری الغزنوي : طهران ١٣٣٦ هـ (١) (انظر : ص ١١٠) .

(٤) « تذكرة حضرت علي هجویری » حكيم سيد ابن الدين دهلوي : لاهور ١٩٦٢ ص ٢٠ .
The Life and Teachings of Hazrat Data — Ganjbakhsh : Lahore 1967, p. 23.

(٥) « كشف المحجوب » انظر ص ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٣٠١ .

عقب هزيمة مسعود ان الامر على وشك ان يخرج من ايدى الغزنويين في غزنة ، كما خرج من ايديهم في خراسان ، فترك غزنة الى الهند حيث بدأ يمارس نشاطه الثيفي والروحي في تلك البلاد تحت رعاية الغزنويين ، وقام بنشر تعاليم الدين الاسلامي ، وهداية الناس وارشادهم .

اما السلطان مسعود فقد فكر ، بعد هزيمته على ايدى السلاجقة، في ان يذهب الى الهند ليجمع جيشا يحارب به السلاجقة من جديد ، وخرج من غزنة حاملا معه خزانته. وعند « ماريكه » خرج عليه غلمانه، وقبضوا عليه ، وارسلوه الى قلعة كسرى (١) ، واجلسوا اخاه محمدا على العرش . ثم لم يلبث مسعود ان قتل على ايدى ابناء محمد سنة ٤٣٢ هـ (٢) .

وتولى مودود بن مسعود امر الغزنويين في غزنة عام ٤٣٢ هـ (٤٠٠ م). وكان اول عمل قام به ان اتجه لقتال عمه محمد ، انتقاما لمقتل ابيه ، فقبض على محمد وابنه والقواد وقتلهم (٣) .

وفي سنة ٤٣٥ هـ ، اراد مودود ان يسترد نفوذ الغزنويين في خراسان ، فسير اليها حاجبه . وعلم بذلك داود السلجوقي فارسل ابنه « الب ارسلان » والتقى الطرفان واقتتلا ، وكان الظفر لالب ارسلان ، وعاد عسكر غزنة منهزما (٤)، واستولى السلاجقة على « بست » و « سيستان » ، وبذلك انتهى حكم الغزنويين في ايران ، واقتصرت نفوذهم على غزنة وممتلكاتهم بالهند .

ومن ابرز الاحداث التي وقعت في الهند في عصر مودود : فتنة الراجات، فقد اجتمع ثلاثة من ملوك الهند وحاصروا لاهور سنة ٤٣٥ هـ ، وعلم السلطان مودود بذلك ، فارسل جيشا تمكن بالتعاون مع مقدم العساكر الاسلامية في تلك الديار من هزيمتهم (٥) وتسلم قواد مودود جميع الاقلاع ، وغنم المسلمون الاموال ، واطلقوا ما في الحصون من اسرى المسلمين ، وكاتبوا خمسة آلاف رجل (٦) . ومن المرجح ان الهجویری كان بين الاسرى، فقد اشار في كشف المحجوب الى انه وقلع أسيرا في لاهور حيث شغل بتأليف كتابه (٧) .

-
- (١) « زين الاخبار » ص ٨٧
(٢) الكامل : حوادث سنة ٤٣٢ ، « زين الاخبار » ص ٨٧ ، « طبقات ناصري » ص ٢٢٤
(٣) « زين الاخبار » ص ٨٨ - ٨٩ ، « الكامل » حوادث ٤٣٢ .
(٤) « الكامل » : حوادث ٤٣٥ .
(٥) « جامع التواريخ » رشيد الدين فضل الله : انقره ١٩٥٧ ، المجلد الثاني ج ٤ ص ٢١٧
(٦) « الكامل » انظر حوادث ٤٣٥ .
(٧) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

وتوفي السلطان مودود سنة ٤٤١ هـ (١) .

وتوالى على عرش غزنة بعد مودود : « محمود بن مودود » ، و « على ابن مسعود » . ولما لم تكن لهما دراية بأمور الحكم فقد خلعا وسجنا ، وجلس على العرش بعدها عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين (٤٤١) — ٤٤٤ هـ (١) .

ثم تولى عرش غزنة من بعده : « فرخزاد بن مسعود » (٤٤٤ — ٥١٠ هـ ١٠٥٢ — ١٠٥٩ م) الذى استطاع هزيمة السلاجقة واسر قائدهم فى إحدى المعارك التى دارت بين الدولتين ، فلم يفكر السلاجقة فى مهاجمة غزنة طوال فترة حكم فرخزاد . وتوفي فرخزاد عام ٥١٠ هـ (٣) ، وتولى بعده : « ابراهيم بن مسعود » (٥١٠ — ٤٩٢ هـ / ١٠٥٩ — ١٠٩٨ م) ، فأحسن السيرة واستعد لجهاد الهند ، وفتح حصونا امتنعت على أبيه وجده ، منها قلعة آجود (٤) . وقلعة يقال لها روبال (٥) .

وتبىز عصر ابراهيم بالمهادنة مع السلاجقة ، وسعى « داود » السلجوقى لعقد صلح معه ، ووقع بذلك عهدا ، وثبت عليه ابنه ألب أرسلان الذى تولى بعده (٦) . وزوج ابراهيم ابنه من ابنة ملكشاه السلجوقى ، وبهذه المصاهرة أمن جانب السلاجقة . وطالت مدة حكمه ، وأعاد لدولة محمود رونقها ، وعمر كثيرا من الأماكن ، وحكم ٤٢ سنة .

وفى خلال فترة حكم السلطان ابراهيم توفي الهجویری حوالى سنة ٤٦٥ هـ . وقام السلطان ببناء ضريح له (٧) .

وتوالى على عرش غزنة بعد وفاة السلطان ابراهيم سنة ٤٩٢ هـ : « مسعود بن ابراهيم » و « أرسلان ن شاه بن مسعود » و « بهرامشاه ابن مسعود » الذى دعا للسلاجقة على منابر غزنة ، ولذلك يعتبر يوم جلوس بهرامشاه تاريخا لسقوط غزنة فى أيدي السلاجقة (٨) .

(١) « الكابل » انظر حوادث ٤٤١ .

(٢) « طبقات ناصرى » ص ٢٢٥ .

(٣) « الكابل » انظر حوادث سنة ٥١٠ .

(٤) « جامع التواريخ » ج ٤ ص ٢١٨

(٥) « الكابل » انظر حوادث سنة ٤٧٢ ، سلطنة غزنويان : خليلي : كابل ١٣٢٢ ص ٢٤٨

(٦) « طبقات ناصرى » ص : ٢٣٩ .

(٧) تنكرة على هجویری ص ٤٩ .

(٨) سلطنة غزنويان . ص ٢٥٤ .

وبتميز عصر بهرامشاه بالنزاع مع ملوك الغور الذين ازداد خطرهم ، واستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على غزنة واقليم كابل ، بل انهم تعقبوا خسروشاه بن بهرامشاه الغزنوى وابنه بهرامشاه الثانى آخر سلاطين الدولة الغزنوية وطاردوها حتى قتلوها ، وبذلك انتهت سيرة دولة الغزنويين التى عمرت قرنين من الزمان ، ومهدت بفضل فتوحاتها العظيمة لتوطيد اقدام المسلمين فى أرض الهند .

ثانيا : الناحية الثقافية :

يعتبر العصر الغزنوى من ازهى العصور التى ازدهرت فيها الحضارة الشرقية الاسلامية . وقد اجمع المؤرخون والنقاد على ان النهضة العلمية والأدبية برزت فى ذلك العصر على نحو لم يسبق له مثيل ، وتركزت هذه النهضة بصفة خاصة فى بلاط السلطان محمود الغزنوى (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) الذى استطاع أن يجعل من قصره فى غزنة مركزا للنشاط العلمى والأدبى، كانت ترنوا اليه الأنظار ، وتشخص اليه الأبصار (١) .

وكانت هناك فى الفترة المبكرة من العصر الغزنوى مراكز أربعة تجتذب اليها رجال العلم والأدب وهى :

قصر « صاحب بن عباد (٢) » فى اصفهان والرى .

قصر « السامانيين » فى بخارى .

قصر « قابوس بن وشمكير » فى طبرستان .

قصر « المأمونيين » فى خيوه .

ولكن حدث فى الفترة ما بين ٣٨٧ : ٤٠٨ هـ، أن توفى صاحب بن عباد ، وزالت الدولة السامانية من الوجود ، وقتل قابوس بن وشمكير ومأمون الثانى ، واستطاع السلطان محمود بواسطة ذلك ، وبواسطة الفتح والغزو أن يضم اليه رجال العلم والأدب الذين كانوا يحيطون هؤلاء الأمراء (٣) .

(١) تاريخ الادب فى ايران : ادوارد براون . ترجمة ابراهيم أمين الشواربى القاهرة ١٣٧٢ هـ ، ١٩٥٤ م ١١٠ - ١١١ .

(٢) « صاحب اسماعيل بن عباد » وزير البويهيين المتوفى سنة ٢٨٧ هـ ، يرد عنه انه كان يملك من كتب المسلم ما يحمل على أرميئة جمل أو أكثر وكان فهرس كتبه يقع فى عشر مجلدات (انظر : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع » آدم ميتز : ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده القاهرة ١٩٤٧ ج ١ ص ٢) .

(٣) « تاريخ الادب فى ايران » براون ص ١١٧ - ١١٨ .

ومن المشهور عن بلاط السلطان محمود في غزنة انه كان يجتمع فيه من اهل الادب زهاء اربعمائة (١) ، من بينهم مجموعة من الشعراء الكبار ، امثال « عنصري » و « فردوسي » و « أسدي » و « عسجدي » وغضائري ، وفرخي (٢) . وكان السلطان محمود يصطحب معه في غزواته بعض هؤلاء الشعراء فكانوا يصفون المعارك والاحداث ، ويسجلون الوقائع والغزوات .

وقد خلف هؤلاء الشعراء والأدباء دواوين رائعة تزخر بالمدائح لهذا السلطان ، والفوا المؤلفات العديدة في محامده ومآثره ، نظما ونثرا ، باللغتين العربية والفارسية ، فالف أبو منصور محمد بن عبد الجبار العتبي تاريخه المعروف بتاريخ العتبي (٣) وأتم الفردوسي شاهنامته التي تعد أروع دليل على روح الأسلوب الملحمي الفارسي في قمة اكتماله .

لم تكن عناية السلطان محمود بالعلوم أقل من عنايته بالادب ، فكان يحرص على أن يضم الى بلاطه في غزنة النابهين من العلماء ، ولم يدخر وسعا في استقدامهم اليه حتى انه كما يلجا الى الترغيب تارة والترهيب تارة (٤) . وقد نجح في أن يضم اليه «العراق» و «الخمارة» و «البيروني» وكان كل من هؤلاء اماما في فنه ، فقد كان أبو نصر العراق الثاني لبطليموس في العلوم الرياضية ، وأبو الخير الخمار الثالث لبقراط وجالينوس في الطب (٥) ، وأما أبو ريحان البيروني فكان عالم عصره العظيم وأحد كبار العلماء في العالم الاسلامي كله . وقد التحق ببلاط السلطان محمود بعد مقتل مأهون الثاني ، ومن غزنة قام البيروني بعدة رحلات علمية في الديار الهندية وتعلم اللغة السنسكريتية ، والف كتابه الشهير عن الهند (٦) الفريد في الادب العربي ، والذي أدى للدراسات الأوروبية خدمة جليلة أيضا (٧) .

وكان السلطان محمود يطمح في أن يضم الى بلاطه « ابن سينا » ولكنه فر (٨) وظل محمود يأسف لفراره طويلا .

(١) « شعر المعجم » شبلى نعماني ترجمة : محمد تقي مخدومي كيلاني طهران ١٣١٦

أنظر ج : ١ ص ٣٦

(٢) السابق « ص ٢٨ » .

(٣) تاريخ العتبي : قام بشرحه أحمد المنيبي ويعرف بتاريخ يميني .

(٤) جهار مقاله « نظامي عروضي سمرقندي ليدن » ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م ص : ٧٧

(٥) نفس المرجع السابق ص ٧٦

(٦) كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في القول او مرفوضة » أنظر « سبك شناسي »

بهار : طهران ١٣٢١ هـ ش ج ٢ ص ٢٨ حاشية ٢١

(٧) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٢١

(٨) جهار مقاله ، ص ٧٧

ومما يدل ايضا على عناية السلطان محمود بالعلوم والآداب ، تلك المدرسة التي الحقها بجامع غزنة وكانت تعرف بدار العلم ، وأسس فيها مكتبة جمع فيها جميع المؤلفات القديمة والنادرة التي لم يتوفر وجودها الا في غزنة (١) .

ولم تكن العناية بالعلوم والآداب مقصورة على السلطان محمود وحده ، فقد كان ابنه السلطان مسعود يهتم بالشعراء والأدباء ، ويصلهم بصلات كبيرة ، قال عنه ابن الأثير انه كان محبا للعلماء ، كثير الإحسان اليهم والتقرب لهم ، صنفوا له التصنيفات الكثيرة في فنون العلم ، وأجاز الشعراء جوائز عظيمة ، أعطى شاعرا على قصيدة ألف دينار ، وأعطى آخر لكل بيت ألف درهم (٢) .

ثالثا : الناحية الدينية :

كان المجتمع الاسلامي في القرن الرابع الهجري مقسما من الناحية الدينية الى كتلتين : أهل السنة ، والشيعة ، فالخلفاء العباسيون في بغداد ومن تبعهم من الملوك والحكام سنيون يتعصبون للسنة ، والفاطميون في مصر والشام والمغرب ، وبنو بويه في العراق شيعيون يتعصبون للشيعة ، وكان الخلاف قائما على أشده بين الكتلتين .

وفي القرن الخامس الهجري كثرت انفرق الاسلامية واشتد النزاع بينها ، ولم يعد الخلاف مقصورا على أهل السنة والشيعة ، بل تعدى ذلك الى أهل السنة فيما بينهم ، فظهر النزاع بين مذاهب أهل السنة المختلفة كالشافعية والحنفية ، وتنازع الفقهاء بعضهم مع البعض ، وبلغت الخلافات المذهبية بين الشيعة وأهل السنة والأشعرية والمعتزلة والاسماعيلية ، وايضا النزاع والجدل بين المذاهب السنية ، الى حد أن مجادلات العلماء ومناظراتهم كانت تنتهي أحيانا بالمراك والقتل والنهب والحرق (٣) .

ولم تكن الدولة الغزنوية بمعزل عما يجري في العالم الاسلامي ، فقد كان الغزنويون يعتقدون مذهب أهل السنة ، ويدينون بالولاء للعباسيين أصحاب هذا المذهب ، ويشاركون فيما يجري حولهم من أحداث .

(١) شعر العجم ج ١ ص : ٣٥

(٢) « الكامل » : حوادث ٤٣٢ .

(٣) « تاريخ تصوف در اسلام » قاسم غني : طهران ١٣٢٢ هـ ش ، ص ٤٦٨ .

وعلى الرغم من ان الدولة التي سبقت الغزنويين في ايران ، وهى الدولة السامانية ، كانت أيضا تنتمى الى المذهب السنى ، وتدين بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد ، الا انها كانت تهادن المخالفين لمذهبها ، حتى ان الاسماعيليه بلغوا شيئا من النفوذ فى عهد نصر بن احمد السامانى . وربما كان هناك اثر للتعصب المذهبى فى بعض نواحى ايران ، مثل نيسابور ، الا ان الحكومات لم تكن تتدخل فى هذه الأمور (١) . غير ان هذا الوضع لم يلبث ان تغير فى القرن الخامس ، واخذ الملوك والحكام يتدخلون بالتدريج فى هذا الصراع . وكان السلطان محمود الغزنوى اول ملك من ملوك ايران نكل بالمخالفين لمذهبه (٢) . وقد بلغ من تعصبه للمذهب السنى الذى كان يعتنقه ، ان امثل لامر الخليفة العباسى « القادر » ، وشن حربا لا هوادة فيها على المعتزلة والفلاسفة والاسماعيليه والقرامطة واعمل فيهم القتل والصلب ، وامر بلعنهم على المنابر ، وشردهم من ديارهم . وجعل كثيرا من كتب الحكمة والفلسفة والنجوم ورسائل المعتزلة طعمة للنيران (٣) . واعترف هو نفسه بهذا ، فقال انه ادخل اصبه ، من اجل العباسيين ، فى كل جهات العالم يبحث عن القرامطة ويشنق كل من يجده وتثبت عليه القرمطة (٤) .

وفى ذلك الوقت كانت مذاهب اهل السنة بعضها يتجه الى الضعف وبعضها يتجه الى الانتشار والرواج . وكان المقبول من المذاهب الاصلية فى جميع الممالك الاسلامية : « المالكي » و « الحنفى » و « الشافعى » ، وكان رواج المذهبين الشافعى والحنفى اكثر من غيرهما فى ايران . وقد ورد عن السلطان محمود انه كان يعتنق المذهب الحنفى ، ولم يلبث ان تحول عنه الى المذهب الشافعى ، يقول ابن خلكان : « وكانوا يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه وهو يسمع ، وكان يستفسر الأحاديث فوجد اكثرها موافقا لمذهب الشافعى فوقع فى خلده حكمه » (٥) .

وكان الشيوخ والائمة والحكماء يجتمعون فى بلاط غزنة ويتجادلون حول

(١) « تاريخ ادبيات در ايران » ذبيح الله صفا : طهران ١٣٤٢ هـ ش ج ١ ص ٢٠٢
(٢) « السابق » ص ١٣٧ .

(٣) « لما اغار السلطان محمود على الري » سنة ٤٢٠ هـ استخراج من بيت كتب « المصاحب » كل ما كان فى علم الكلام وامر بحرقه (« مجز » ج ١ ص ٢٤٦) . وخلق « مجد الدولة » وامر بنفيه فى خراسان ، واتبع ذلك بصلب جماعة من الباطنية ونشرد المعتزلة وحرق كتبهم وكتب الفلاسفة والمنجمين . انظر « الكامل » حوادث ٤٢٠

(٤) « تاريخ البيوتى » ص ١٩٤ .

(٥) « وفيات الاعيان » : ابن خلكان ج ٢ ص ٨٦

المذاهب بين يدي السلطان . ويبدو أن الهجویری كان یشارك فی هذه المجادلات ، فقد ورد فی « رسالة ابدالية » انه تجادل مرة مع واحد من حکماء الهند فی مجلس السلطان محمود وأفحمه تماما (١) .

وأشار الهجویری فی كشف المحجوب انی مجادلة وقعت فی بلاط غزنة بینہ وبين واحد ممن كانوا يدعون الإمامة والعلم فی مسألة تتعلق بالتصوف (٢) .

وعلى الرغم من أن الصوفية كانوا خصوما الداء للفقهاء ، وقد عبروا عن احتقارهم لعلم الفقه تعبیرا قاسيا فكانوا یسمونه عام الدنيا (٣) ، إلا أن شیوخ القرنين الرابع والخامس الهجريين ، نظرا لمعاصرتهم للحكام السنيين المتعصبين ، أخذوا یسمون لتحصيل علوم الظاهر (٤) واتجهوا لتأليف الكتب ، فبدأ فی القرن الرابع الهجرى تأليف الكتب فی مقامات الصوفية وشرح أسس التصوف ، بحيث وجدت فی أواخر هذا القرن كتب قيمة مثل « اللمع » و « التعرف » و « قوت القلوب » ، وجميعها مؤلفة باللغة العربية .

(١) «Bulletin of the School of Oriental Studies» London, 1926.

نقلا عن : « رسالة ابدالية » يعقوب بن عثمان جرخی

(٢) « كشف المحجوب » انظر ص ١١٥ .

(٣) « الحضارة الاسلامية » : میتز ج ١ ص ٢٦٦

(٤) « سبك شناسی » ج ٢ ص ١٨٢

الفصل الثانى

« التصوف فى عصر الهجويرى »

تمهيد :

اتجه كثير من المستشرقين والباحثين فى أصل التصوف الى رده لعوامل خارجية بعيدة عن البيئة الاسلامية ، فمنهم من ارجعه الى أصل هندي ، ومنهم من رده الى الرهبة المسيحية ، ومنهم من قال انه رد فعل للمقلية الآرية ضد دين فرضه الغزاه المسلمون على أهل فارس فرضا ، ومنهم من زعم انه وليد الفلسفة اليونانية . وهناك من خالف هؤلاء وقال ان التصوف الاسلامى نابع من البيئة الاسلامية والدين الاسلامى . والصوفية انفسهم يعتقدون أن طريقتهم مشيدة بالكتاب والسنة ، وانها مبنية على سلوك اخلاق الانبياء والأصفياء (١) .

والتصوف نزعة روحية تميل بالانسان عن العالم المادى وترتفع به الى العالم الروحى ، وهو بهذا المفهوم ظاهرة انسانية تنشأ فى كل بيئة دينية ، وتنمو نتيجة لعوامل داخلية موجودة فى تلك البيئة ، فمما لا شك فيه أن التصوف الاسلامى جزء من الأجزاء التى يتألف منها التراث الدينى والعقلى والنفسى للإسلام ، خضع كما خضع غيره من مظاهر الحياة الاسلامية لعوامل النشوء والارتقاء ، وأن تاريخ التصوف فى الاسلام جزء لا يتجزأ من تاريخ الاسلام نفسه ، ومظهر من مظاهر هذا الدين ، وما أحاط به من ظروف ، وما دخل فيه من شعوب ، وليس شيئا اجتلب من الخارج دون أن تكون له صلة بالدين الاسلامى وروحه وتعاليمه .

على اننا يجب ألا ننكر وجود مؤثرات خارجية ساعدت على نموالتصوف الاسلامى وتطوره ، فقد تعاونت العناصر الروحية الوافدة على البيئة الاسلامية مع العوامل الدينية التى كانت موجودة فى تلك البيئة ، وعملت

(١) « الطبقات الكبرى » : الشمرانى القاهرة ١٣١٦ هـ ج ١ ص ٢

معها على تطوير التصوف وبلوغه النضج والكمال ، وان كان هذا فيما بعد نشأته الأولى .

(١) نشأة التصوف الاسلامى والمراحل التى مر بها حتى عصر الهجورى :

نشأ التصوف الاسلامى نشأة اسلامية ، فقد ظهرت بذوره الأولى فى نزعات الزهد التى سادت العالم الاسلامى فى القرن الاول الهجرى ، وكان قوامه الانصراف عن الدنيا ومتاعها ، والعناية بأمور الدين ، ومراعاة أوامر الشريعة ، وكانت غايته التى يتطلع اليها العباد والزهاد هى الظفر برضوان الله والنجاة من عقابه .

وكان زهد الزهاد والعباد فى صدر الاسلام معتدلا ، بمعنى أنهم كانوا يشاركون فى الحياة الاجتماعية ، ويسعون لكسب معاشهم ، ويرعون أوامر دين والشرع بكل طاقاتهم ، ويحافظون عليها بأرواحهم .

وفى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ظهر من بين الزهاد أفراد يحبون حياة تخالف حياة الآخرين ، من حيث المبالغة فى الزهد ، وترك متاع الدنيا ، ورياضة النفس ، فكان لا بد أن يتسموا باسم خاص ، فأطلق عليهم اسم الصوفية . وكان تصوف هؤلاء امتدادا لزهد ومسلك زهاد القرن الاول مع شئ من المبالغة ، فقد قطعوا فى طريق الزهد مراحل أبعد من زهاد القرن الاول ، الا أن التأمل فى أقوالهم لا يجد فيها شيئا من العناصر الأساسية للتصوف مثل المحبة والفناء ووحدة الوجود ، والشخص الوحيد الذى تحدث من بينهم عن المحبة الالهية هو « رابعة العدوية » (١) المتوفاه سنة ١٨٠ أو ١٨٥ هـ . ويظهر رابعة تطور مفهوم التصوف ، فقد أصبح الزهد وسيلة من الوسائل التى يستعان بها على مطالعة وجه الله ومشاهدة جماله الأزلى .

وفى القرنين الثالث والرابع الهجريين وصل التصوف الى مرحلة النضج ، وأخذت المسائل الصوفية التى ظهرت أول الأمر غامضة ساذجة تتضح وتدق ، ذلك أن العناصر الغريبة التى بدأت تتسرب الى الاسلام منذ القرن الثالث الهجرى أخذت تنفذ الى التصوف وتتفاعل معه . وكان من نتيجة هذا التفاعل أن تطور مفهوم التصوف وأصبح شيئا جديدا لا يقف عند حد الرياضة والمجاهدة ، ولا يقنع فيه الإنسان بالمشاهدة ، وإنما تجاوز هذا

(١) « تاريخ تصوف در اسلام » ص ٣١

كله الى غاية اسبى هى فناء الانسان عن نفسه ، ويقاؤه بربه ، واتحاده به .

والتأمل فى اقوال صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين يلهمس تحولا فكريا طرا على مفهوم التصوف ، فقد ظهرت فى اقوالهم افكار جديدة ، واصطلاحات وتعبيرات خاصة ، بعضها يتعلق **بالجانب النظرى للتصوف** ؛ من تحديد لمعالم الطريق ، وترتيب للمقامات والاحوال . وكان من الرواد الاوائل فى هذا المجال « ذى النون المصرى » (٢٤٥ هـ) و « سرى السقطى » (٢٥١ هـ) ، فيعزى الى ذى النون انه اول من تكلم فى مصر فى الاحوال والمقامات (١) ، والى سرى انه اول من تكلم فى بغداد فى ترتيب المقامات وبسط الاحوال (٢) . وبعضها يتعلق **بالجانب النفسى والوجدانى** الذى يرمى الى الفناء فى الله ، واتحاد المحب والمحبوب ، ومحو الوجود المجازى فى الوجود المطلق الحقيقى . وتنشأ عن هذا ، القول بوحدة الوجود ، وان الوجود الحقيقى هو الله ، وان ما سواه عدم محض .

وكما كان الحب طابعا للزهد الذى عرف عند رابعة فى القرن الثانى الهجرى فقد أصبح هذا الحب من اخص خصائص التصوف عند صوفية القرن الثالث ، فاقوال « معروف » و « الجنيد » و « ذى النون » تشتمل على هذه الكلمة ، وظهر فى القرنين الثالث والرابع رجال عرفوا بنظريات فى المحبة ، منهم « المحاسبى » و « التستري » و « سمنون » و « الشبلى » وغيرهم ، وبلغت فكرة الحب الالهى ذروتها عند اصحاب وحدة الوجود امثال ابى يزيد البسطامى والحسين بن منصور الحلاج .

ومن الموضوعات التى تطرقت الى التصوف فى هذه الفترة ان روح احكام الشريعة وباطنها اهم من شكلها وصورتها الظاهرية ، وان انية مقدمة على العمل ، وان السنة خير من الفرض ، وان الطاعة خير من العبادة . وقد اثارت هذه الاقوال انتباه الناس فى ذلك الوقت واسترعت انظارهم ، وخصوصا طبقة الفقهاء الذين عدوا هذه الاقوال خطرا على المجتمع الاسلامى ، واتهموا الصوفية باختلاق البدع تارة ، وبالكفر والالحاد تارة (٣) . كما جرت عليهم اقوالهم فى المحبة والاتحاد والحلول سخط الفرق الاسلامية الاخرى .

(١) « فى التصوف وتاريخه » نيكولسون : ترجمة أبو العلا عفيفى ص ٧

(٢) « كشف المحجوب » ص ١٣٧

(٣) « تاريخ تصوف » ص ٥٢

وبالنسبة للفقهاء ومواقفهم من الصوفية، قد شهد القرن الثالث الهجري بداية الصراع بين هاتين الطائفتين . ويرجع النزاع بينهما الى أن أحكام الشريعة في أول عهد الاسلام كانت تؤخذ بالرواية ، لا فرق بين عبادات واعتقادات أو معاملات ، ثم لم يلبث المسلمون أن بدأوا يناقشون مسائل الدين ويتدارسونها ، ويبحثون عن علل الأحكام على نمط علمي ، ويدونون ما يناقشون فيه . وهنا نشأ علم الفقه وأقبل الناس عليه يناقشون في تدارسه والعمل بأحكامه ، حتى أن كثيرا من المسلمين كانوا يظنون الاشتغال بهذا العلم والعمل به هو الغاية من الدين (١) .

ثم ظهر امر الصوفية ، وكان لهم رأيهم الخاص فيما يتعلق بالمسائل الدينية والأحكام الشرعية ، فقد كانوا يرون أن الدين أصبح في عرف الفقهاء جملة من رسوم وأوضاع لا حياة ولا روحانية فيها ، وأن الكمال الديني يكمن في البحث في المعاني الباطنية للأحكام بالاضافة الى معانيها الظاهرية : ومن هنا ظهر علم التصوف ، او بمعنى آخر ، انقسم علم الشريعة الى قسمين : ظاهر وباطن ، واختص الفقهاء بالاهتمام بالظاهر ، وعنى الصوفية بالباطن ، واصبح لكل من الطائفتين وجهة نظرهم الخاصة في ماهية الدين (٢) .

وكان من الطبيعي ان يقع الصدام بين الطائفتين لاختلاف وجهتي نظرهما وما لبث الفقهاء أن اعلنوا عن عدائهم للصوفية، فتصدوا لبعضهم بالمعارضة، واتهموا البعض الآخر بالكفر والزندقة . وقد حفظت لنا الكتب المتقدمة اخبار سلسلة من الاضطهادات التي لاقاها الصوفية على ايدي الفقهاء ، حتى أن مجموعات كبيرة من شيوخ الصوفية سيقوا الى المحاكمات وحكم عليهم بالموت ، واستطاع بعضهم أن يفلت من العقوبة ، وراح البعض الآخر ضحية لهذا التعصب .

وقد ظهر اضطهاد الفقهاء للصوفية على اشده فيما عرف بمحنة الصوفية ببغداد ، او محنة غلام الخليل (٣) ، وهي المحنة التي فر على اثرها ابو سعيد الخراساني الى مصر ، واتهم فيها نحو سبعين صوفيا

(١) « التصوف الثورة الروحية » ص ١١١ - ١١٢

(٢) « التصوف الثورة الروحية » ص ١١٣

(٣) « هو أحمد بن محمد بن خالد بن مرداس » . ولد بالبصرة وتوفي ببغداد سنة ٢٦٢ هـ . كان مشهورا بالورع والتقوى ولكنه كان مكروها من أهل عصره الذين رموه بالرياء . وقد وصله الهجو يري بالكر والشعوذة والحد على الصوفية (انظر كشف المحجوب ص ١٧٢ وما بعدها) .

بالزندقة ، من بينهم الجنيد والنورى ، وحكم عليهم بالموت ، وكاد الحكم ينفذ في بعضهم ، ثم أفرج عنهم (١) . الا أن هذا الاضطهاد بلغ ذروته في المأساة التى ذهب ضحيتها الحسين بن منصور الحلاج ، فسجن وعذب وقتل ، وكان مقتله بافتاء من الفقهاء وان بدا بأمر الخليفة .

وبالنسبة للفرق الاسلامية الأخرى التى اظهرت عداها للصوفية ، ومنها : « الامامية » فى القرن الثالث ، الذين انكروا كل نزوع الى التصوف لأنه يستحدث بين المؤمنين ضربا من الحياة الشاذة . ومنها « الحشوية » ، الذين أخذوا على التصوف أنه يغذى الفكر ، ويصرف أصحابه عن ظاهر العبادة ، ويحميهم على طلب الخلعة مع الله ، فيستبيحون اغفال الفرائض . و « المعتزلة » ، الذين كانوا يستكروون العشق الإلهى لأنه يقوم من الناحية النظرية على التشبيه ، ومن الناحية العملية على الملامسة والطول (٢) .

وقد كان من نتيجة هذا التعصب أن أخذ كبار الصوفية يتشبثون أكثر من ذى قبل بالقرآن والحديث والأدلة العقلية ، وانشغلوا بالتأليف والتصنيف ، ونهضوا للدفاع عن أنفسهم بسلاح الكتاب (٣) . ولعل علم التصوف أصبح علما مدونا فى هذه الفترة ، فقد بدأ فى القرن الرابع الهجرى تأليف الكتب فى مقامات الصوفية ، وبيان انواع المجاهدات وما ينشأ عنها من الأدواق والمواجيد ، والفت فى هذه الفترة كتب قيمة مثل « الميع » لأبى نصر السراج (٣٧٨ هـ) ، « والتعرف لذهب أهل التصوف » للكلاباذى (٣٨٠ هـ) ، « وقوت القلوب » لأبى طالب المكي (٣٨٦ هـ) .

وقد انتشر الصوفية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، وأخذوا ينظمون أنفسهم فى جماعات وقرق لها طرقتها الخاصة وشيوخها وسالكوها . وكانت هناك مدارس كثيرة للتصوف (٤) فى هذه الفترة ، لكل منها طابع معين . وقد عدد لنا الهجویری الفرق الصوفية أو — المدارس الصوفية بالتعبير الحديث — التى وجدت فى هذه الفترة باثنى عشرة فرقة . ونسب كل واحدة منها الى شيخ من شيوخ القرنين الثالث والرابع الهجريين .

(١) أنظر : الرسالة التشريعية ج ٢ ص ٥٠٣ .

(٢) « دائرة المعارف الإسلامية » مادة : « تصوف » .

(٣) « تاريخ تصوف » ج ٢ ص ٥٤ .

(٤) « التصوف : تنورة الروحية » : أنظر ص ٩٤ وما بعدها .

والواقع أن القرنين الثالث والرابع قد حفلا بكثير من الشخصيات الصوفية المفذة والمذاهب الروحية النظرية والعملية التي سوف نتعرف عليها من خلال الباب المتمع الذي أفرده الهجویری فی كشف المحجوب للحديث عن الفرق الصوفية (١) .

وتصارى القول ، أن الصرح المتكامل للتصوف الاسلامی اذی خلد على مر الزمان ویدا متین الأساسی شامخ البنیان ، قد ارمى أسسه وقواعده رجال عاشوا فی القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ووضع كل منهم ابنة فی هیکله حتى اكتمل البناء . وإذا كانت هناك تغيرات طرات على التصوف بعد ذلك فإن أكثر هذه التغيرات يرجع الى التعبيرات والاصطلاحات والظواهر والاشكال ، أما الاسس فقد ظلت ثابتة حتى الآن .

(ب) التصوف فی عهد الهجویری (التصوف فی القرن الخامس الهجری) :

كان العالم الاسلامی فی القرن الخامس الهجری تسوده الاضطرابات والمنازعات فی النواحي السياسية والدینیة والعلمیة ، ففی الناحیة السیاسیة كانت الخلافات مستمرة بین الخفاء العباسیین فی بغداد ومن یوالونهم من الحکام السنین کالفزونیین والسلاجقة فی ایران ، و بین الفاطمیین فی مصر واتباعهم من الشيعة والباطنية الذين انتشروا فی أنحاء كثيرة من العالم الاسلامی ، وخصوصا فی ایران . وفی الناحیة الادینیة كانت الخلافات المذهبیة على اشدها ، وكثر النزاع المذهبی بین الفرق الاسلامیة ولم یكن هذا النزاع مقصورا على السنة والشيعة بل تعدى ذلك الى المذاهب السنیة فیما بینها . أما الناحیة العلمیة فلم تكن أحسن حالا ، فقد سرت العداوة والبغضاء بین أهل العلم ، واستحكم الخلاف بین الفقهاء والفلاسفة بحيث انقضى البحث الحر ، وركد كل ما كان مخالفا للدين والسیاسة (٢) .

وعلى الرغم مما أوجدته هذه الاضطرابات والقتال والمنازعات من اثر سبیء فی شتى المجالات ، الا انها احدثت نتائج عکسیة فی مجالین ، هما : المجال الصوفی ، والمجال العلمی .

ففی المجال الصوفی ، ساعدت هذه الاضطرابات على انتشار التصوف انتشارا کبیرا ، ولیس تعلیل ذلك بالأمر الصعب ، فإن اضطراب الحیاة السیاسیة ، وتفرق الناس فی مذاهبهم شیعا وأحزابا ، وجنوح كل فريق

(١) « انظر : الباب الرابع عشر من كشف المحجوب » .

(٢) « تاریخ تصوف » ج ٢ ص ٤٧٠

الى التعصب ، اشاع في الناس اليأس والقنوط ، وملا نفوسهم بالخوف والقلق ، فلم يجدوا لهم ملجأ غير التصوف .

ومن ناحية أخرى فإن الانشغال بالاضطرابات السياسية والمنازعات الدينية هيا الفرصة للصوفية لترويج مبادئهم ونشر تعاليمهم . وكان لبعدهم عن المجادلات المذهبية أثر كبير في احترام الناس والامراء والسلاطين لهم ، مما ادى الى انتشار التصوف وبروز طبقة المتصوفة (١) . وقد ظهرت في هذا القرن جماعة من كبار شيوخ الصوفية في العالم الاسلامي عامة ، وفي ايران خاصة ، فكان هناك في النصف الاول من القرن الخامس امثال السلمى والخرقانى وابى سعيد بن أبى الخير وابى القاسم الجرجانى والقشيرى وغيرهم ممن يرجع اليهم الفضل في تربية جيل من التلاميذ والمريدين الذين صاروا اعلاما في تاريخ الحياة الروحية في القرون التالية .

على ان انتشار التصوف في هذه الفترة ساعد على ان اندس بين الصوفية كثير من الادعاء والصوفية المزيفين الذين انضموا الى صفوف الصوفية اما لحماية انفسهم ، واما طمعا فيما كان يتمتع به هؤلاء من احترام وتقدير . وقد قام هؤلاء الادعاء بترويج البدع والخرافات ، ودعا بعضهم الى التحرر من التقاليد الاسلامية ، واسقاط التكاليف الشرعية ، وروج بعضهم العقائد الشيعية والاسماعيلية الباطنية ، الأمر الذى اساء الى الصوفية واتى ظلالات قاتمة على التصوف .

اما المجال العلمى ، فإنه بالرغم مما أحدثته هذه الاضطرابات من ظهور الفرقة بين الطوائف المختلفة ، قد كان لها أثر كبير في ايجاد نهضة علمية واسعة ، اذ نشطت كل فرقة للدفاع عن نفسها بسلاح القلم ، وظهرت كثير من المؤلفات التى ألفها المعتزلة والاسماعيلية والصوفية وغيرهم من علماء الفرق المختلفة (٢) .

وكانت علوم الصوفية الدينية اهم العلوم وأكثرها نجاحا ، فقد كانت هى الحركة العلمية التى ضمت اعظم القوى الدينية في ذلك الوقت ، وتركزت هذه الحركة بصفة خاصة في خراسان التى أصبحت اكبر مركز للتصوف في العالم الاسلامي .

وهنا يجدر بنا ان نشير الى ان اقليم خراسان الفارسي كان مهدا للكتابات لصوفية ، وموطن كبار العلماء الذين ألفوا في التصوف الاسلامي مثل أبى

(١) « سلاجقة ايران والعراق » عبد النعيم حسنين : القاهرة ١٩٥٩ ص ١٨١

(٢) « سلاجقة ايران » ص ١٩٢

نصر السراج الطوسي ، وأبى عبد الرحمن السلمى النيسابورى ، وأبى القاسم القشيرى النيسابورى ، وحجة الاسلام الامام الغزالى الطوسى .

ومن أهم الكتب الصوفية التى الفت فى القرن الخامس الهجرى كتابان ألفا فى النصف الأول منه ، وهما : « الرسالة » و « كشف المحجوب » .

والرسالة ألفها بالعربية « أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى » وشرح فيها الأسس الصوفية واحوال المتصوفة . وآراؤه فيها مثل للتوسط والاعتدال (١) .

وكشف المحجوب ألفه بالفارسية «أبو الحسن على بن عثمان الهجویری» وسلك فيه مسلك معاصره القشيرى فى الاعتدال ، فهو يربط فى كتابه بين الشريعة والحقيقة ، ويبين أن الشريعة بدون الحقيقة ليست إلا رياء ، وأن الحقيقة بدون الشريعة ليست إلا نفاقاً (٢) .

والواقع أن القشيرى والهجویری كانا من الرواد الأوائل وكانت لهما جهودها التى لا تنكر فى سبيل إعادة التصوف الى سيرته الأولى وتنقيته مما علق به من شوائب ، فقد ألفا كتابيهما فى وقت كان التصوف فيه قد بلغ حدا جعل الكثيرين يأخذون أنفسهم بالأزورار عنه ، والنفور من أهله ، وتوجيه المطاعن اليه ، والقاء الشبهات على تعاليمه ، فقد كان ينظر الى التصوف وقتئذ على أنه زندقة وخروج على تعاليم الكتاب والسنة . ولم تكن هذه النظرة ناشئة عما كان يدعو اليه بعض الصوفية من التعاليم المنطوية على التحرر من التقاليد ، واسقاط التكاليف فحسب، وإنما كانت ناشئة أيضا عما كان هناك من امتزاج بين بعض التعاليم والمذاهب الصوفية وبين بعض العقائد الشيعية والاسماعيلية الباطنية (٣) .

وقد كان لهذه الحال اثرها العميق فى نفوس المخلصين من مفكرى الصوفية أمثال القشيرى والهجویری ، وإن من يقرأ مقدمات « الرسالة » و « كشف المحجوب » يقف على مدى أسف مؤلفيهما لانهيار التصوف فى عصرهما ، ولهفتهما على العودة به الى سابق عهده ، ويلمس الحرارة والإخلاص فيما كتبه كل منهما، والأمل الذى راودهما فى زوال النكسة التى حلت بالتصوف ، هذا الأمل الذى دعاهما الى تأليف كتابيهما . كما يقف فى نفس الوقت على مدى العلاقة الوثيقة بين هاتين المذاهبتين ، فقد عالج المؤلفان بعمق ،

(١) « سبك شناسى » ج ٢ ص ١٨٦

(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٩٩

(٣) « الحياة الروحية فى الاسلام » محمد مصطفى حلى ، القاهرة ١٩٤٥ : انظر ص ١٢١

نفس الموضوع ، وانفقا على التفاضيل ، بل وفي استخدام نفس التعبيرات ،
وان كانت المعالجة على أساس مختلف :

فالتشيرى يعالج الموضوع على أساس انقراض المثلين الحقيقيين
للتصوف ، وان كان لا ينكر وجود التصوف ، فهو يقول :

« اعلّموا ، رحمكم الله ، ان المحققين من هذه الطائفة انقراض اكثرهم
ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة الا اثرهم ، كما قيل :

اما الخيام فانها كخيامهم * وأرى نساء الحى غير نساها

حصلت الفترة في هذه الطريقة ، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة .
بعض الشيوخ الذين كان بهم اهداء ، وقل الشباب الذين لهم بسرّتهم
وسنتهم اقتداء « (١) » .

ويذكر التشيرى ان هذا هو السبب الذى دعاه لان يؤلف رسالته
ويضمنها سير الشيوخ السابقين ، مبينا آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم
وعقائدهم ومواجيدهم ، لتكون نبراسا لجيل جديد من المريدين الصادقين .

يقول : « فعلقت هذه الرسالة اليكم ، اكرمكم الله ، وفكرت فيها
بعض سر شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم ، وعقائدهم
بقلوبهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم وكيفية تربيهم من بدايتهم الى
نهايتهم ، لتكون لمرىدى هذه الطريقة قوة « (٢) »

واما الهجوبرى ، فيعالج نفس الموضوع على أساس الاختفاء التام
لعلم التصوف في زمنه ، وخصوصا في المنطقة التى يعيش فيها ، وأنه لم
يبق منه الا صورة مشوهة مخالفة للأصل .

يقول : « اعلم ان هذا العلم قد اندرس في الحقيقة في زماننا ، وبخاصة
في هذه الديار حيث انشغل الخلق جميعا بأهوائهم ، وأعرضوا عن طريق
الرضا . وقد بدت لعلماء هذا العصر وأدعياء هذا الوقت صورة لهذه
الطريقة على خلاف أصلها ، فاستحضر همتك لأمر قصرت عنه أيدي أهل
هذا الزمان وأسرارهم باستثناء خواص حضرة الحق ، وانقطع عنه مراد
أهل الإرادة ، وانعزلت عن وجوده معرفة أهل المعرفة غير خواص حضرة

(١) « الرسالة » ج ١ ص ٢٠

(٢) « السابق » ص ٢٢

الحق ، ورضى خاصة الخلق وعامتهم من ذلك بالعبارة ، واشتروا حجابهم عنه بالروح والقلب ، وانقلب الأمر من التحقيق الى التقليد « (١) » .

فهذه الصورة المشوهة للتصوف هي التي دفعت الهجویری لأن يرسم في كتابه صورة واضحة للتصوف يبين فيها أصوله النظرية والعملية ، ويؤيد كل أصل منها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ويقرن فيها بين الشريعة والحقيقة ، ويوائم بين التكليف الشرعية والمعاني الصوفية التي تنطوي عليها ، ويتصدى لآراء المنحرفين والادعياء الذين أساءوا الى التصوف والصوفية .

وقد كان لهاتين المحاولتين من القشيري والهجویری اثرهما في تثبيح الأذهان الى الخطر الذي حاق بالتصوف ، والدعوى الى تنقيته وتصنيفته مما لحق به من شوائب . وقد قيض لهاتين المحاولتين الصادقتين ان تؤتيا اكتهما على يد الامام الغزالي الذي جاء بعدهما وبذل جهده لادخال التصوف في صلب الاسلام السني ، وأصبح كتابه « احياء علوم الدين » الذي ألفه في اواخر القرن الخامس مصدرا للتصوف السني بغير جدال (٢) .

واذا كان الفضل يرجع للغزالي في اقامة التصوف الذي يعتبر ابلغ تعبير وأوضح تحديد للمذهب السني (٣) ، فقد كانت للقشيري والهجویری جهودهما التي لا تنكر في الدعوة الى هذا الاصلاح وتهيئة الجو له .

ومن المميزات التي تميز بها التصوف في هذه الفترة ان نفوذ التصوف بدأ يظهر في الشعر الفارسي واخذ هذا النفوذ يزداد قوة على مر الايام ، واصبح للشعراء الصوفية في القرن الخامس لسان مرموز ، فعلى الرغم من أنهم استعملوا نفس الفاظ ومصطلحات القرن الرابع ، الا أنهم استعملوها على سبيل الكنايات والاستعارات ، فالله عندهم هو « الحبيب » و « المعشوق » و « المحبوب » ، والوجد الحاصل من التفكير فيه : هو « الخمر » و « الخمار » ، والظاهر والباطن منه عبارة عن « طلعتة المنيرة » أو « طرته السوداء القائمة » ، وما الى ذلك من التعبيرات الرمزية الكثيرة (٤) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٧

(٢) « تاريخ الفلسفة العربية » حنا الفاخوري : بيروت ١٩٥٧ . ص ٢٤٨

(٣) « تاريخ الادب في ايران » ج ٢ ص ٣٦٨

(٤) « تاريخ الادب في ايران » براون ج ٢ ص ٣٢٤

وكان أبو سعيد بن أبي الخير أول من استعمل هذا اللسان الرموز من شعراء الصوفية في إيران . ويعزى إليه أنه أول ما ابتدع الشمر الصوفي ، ويعتبر في ذلك أمما لمن جاء بعده من شعراء الصوفية الكبار في إيران أمثال « السنائي » و « العطار » و « جلال الدين الرومي » .

وقد استقر صوفية القرن الخامس في الخانقاهات التي بدأت في الانتشار منذ القرن الرابع الهجري ، وازداد انتشارها بشكل ملحوظ في أوائل القرن الخامس حتى عمت جميع أنحاء العالم الإسلامي . وكان هناك عدد كبير من هذه الخانقاهات في خراسان والعراق وفارس وأنحاء كثيرة من إيران (١) ، ووضعوا نظاما معيناً للحياة فيها ، وكان يقوم بإدارة كل واحدة منها شيخ من شيوخ الصوفية المعروفين في هذه الفترة . ونجد على رأس هؤلاء أبا سعيد بن أبي الخير الذي يعتبر أول من شرع نظام الحياة في الخانقاهات ، وأدار عددا منها ، واعتلى المنبر في نيسابور ، وعقد المجالس ، وتصدى لعلماء الظاهر وأئمة المذاهب وجادلهم وحاورهم مما عرض حياته للخطر في بعض الأحيان (٢) . وقد ظل أبو سعيد يعمل قرابة نصف قرن على نشر تعاليمه الصوفية في خراسان ، مستقرا في نيسابور وموطنه « ميهنة » تارة ، ومتنقلا ما بين « طوس » و « خرقان » و « مرو » تارة أخرى ، وتجمع حوله المريدون من كل مكان ، ونال حظوة كبيرة عند العامة والخاصة .

والواقع أن أبا سعيد قاد حركة صوفية واسعة النطاق في إقليم خراسان في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، وخصوصا بعد انقضاء فترة الغزنويين الكبار وظهور أمر السلاجقة في إيران ، فقد فتح الميدان أمام المتصوفة في هذه الفترة وراجت سوقهم في العصر السلجوقي .

ونجد في « راحة الصدور » و « أسرار التوحيد » اشارات الى زيارات (٣) ولقاءات (٤) بين أمراء السلاجقة وشيوخ الصوفية في عصرهم .

وقد تعاصر مع أبي سعيد عدد من شيوخ الصوفية المعروفين أمثال أبي عبد الرحمن السلمى (٤١٢ هـ) ، وأبى حسن الخرقانى (٤٢٥ هـ) ، وأبى العباس الششكانى ، وأبى الفضل الختلى ، وأبى القاسم الجرجانى (٤٥٠ هـ) ، وأبى القاسم القشيرى (٤٦٥ هـ) . وقام كل من هؤلاء بنشاط

(١) « أسرار التوحيد » تأليف محمد بن المنور : ترجمة اسماعيل عبد الهادى ، القاهرة ١٩٦٦ : انظر ص ٤١ ، ٨١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٨٢ وغيرها .

(٢) « السابق » انظر ص ٨٩ — ٩٥ .

(٣) « أسرار التوحيد » الترجمة : انظر ص ١٤٠ ، ١٨٢

(٤) « راحة الصدور » الترجمة : انظر ص ١٦٠ — ١٦١

كبير في نشر التعاليم الصوفية في خراسان وأجزاء أخرى من إيران ،
وانشغل كل منهم بتربية عدد من المريدين الذين برزت منهم مجموعة
بلغوا بدورهم مرتبة الشيوخ ، وقاموا بتربية جيل آخر من المريدين ،
وأداروا الخانقاهات ، وقاموا برحلات واسعة النطاق لنشر التعاليم
الصوفية . ومن هؤلاء :

« أبو علي الفارمدى » (٤٧٧ هـ) شيخ حجة الإسلام الغزالي ، فقد
كان تلميذا ومريدا لكل من أبي القاسم القشيري وأبي القاسم الجرجاني ،
وتلقى الخرقه على يد هذا الأخير وخلفه بعد وفاته ، وأصبح شيخ
شيوخ خراسان (١) .

و « أبو الفتح بن سألبة » (٤٧٣ هـ) ابن شيخ الشيوخ أبي الحسن
ابن سألبة البيضاوى ، وكان تلميذا ومريدا لأبي مسلم الفارسي وخواجه
علي بن حسن الكرماني ، وصحب الشيخ أبا علي الداستاني ، واتخذ
باب كوار خانقاها خدماً فيها ثلاثين سنة ، وجاور عنده كثير من العلماء
والصالحين . وتوفي سنة ٤٧٣ هـ ودفن في خانقاها (٢) .

و « أبو الحسن علي بن عثمان الهجویری » (٤٦٥ هـ) الذي تتلمذ
على يد أبي العباس الشقاني ، وكان مريدا لكل من أبي الفضل الختلي
وأبي القاسم الجرجاني ، والتقى بمعاصره القشيري ، وقام برحلات واسعة
النطاق في أنحاء العالم الإسلامي التقى خلالها بعدد كبير من شيوخ
الصوفية الكبار والائمة ورؤساء المذاهب ، وجمع معلومات قيمة ضمنها
كتابه كشف المحجوب ..

(١) « سفينة الأولياء » ص ٧٥ .

(٢) « شد الازار » ص ١٨٠ - ١٨١

الفصل الثالث

التعريف بالهجويرى

موطنه - أسرته - اسمه وألقابه - مولده - زواجه

موطنه :

الحديث عن موطن الهجويرى لا يقتصر على التعريف بمنطقة واحدة ، فحياته مقسمة الى ثلاث فترات ، أمضى كل فترة منها فى بقعة ، فقد ولد فى مدينة « غزنه » وأمضى بها الفترة الاولى من حياته ، ولما بلغ مبلغ الشباب تجول فى أرجاء العالم الاسلامى وزار عددا كبيرا من مدنه وأقاليمه ، ثم استقر به المقام فى مدينة « لاهور » بالهند حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته . ومن هنا يشمل حديثنا عن موطن الهجويرى :

١ - التعريف بمدينة غزنه باعتبارها مسقط رأس الهجويرى ، والمدينة التى أمضى بها فترة طفولته وصباه .

٢ - التعريف بمدينة لاهور باعتبارها المدينة التى أمضى بها الفترة الأخيرة من حياته ، ومثواه الأخير .

أما الفترة التى تتوسط هاتين فيصعب أن نحدد له فيها موطننا ، لأنه لم يكن مستقرا فى بقعة معينة .

التعريف بغزنة :

عرفت « غزنه » فى التاريخ الاسلامى بأنها موطن سلاطين الغزنويين وعاصمتهم الاولى التى أصبحت فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس من أشهر المدن الاسلامية والمدينة الثانية بعد بغداد ، التى ترنو اليها أنظار المسلمين فى جميع العالم الاسلامى وتهفو اليها أفئدتهم ، وتحتل من تاريخهم مركزا مرموقا ، فمنها خرجت جيوشهم الى حيث لم تبلغه فى الاسلام رابية ، ولم تزل به قط سورة ولا آية (١) .

(١) « وفيات الاعيان » ج ٢ ص ٨٥

و « غزنه » (١) التي تعرف بهذا الاسم تارة ، وعرفت باسم « غزني »
و « غزنين » (٢) تارة أخرى : هي مدينة تقع في وسط الهضبات الأفغانية
المرتفعة . وهذه المدينة توجد الآن على الطريق بين كابل وقندهار (٣) في
أفغانستان .

وغزنة مدينة قديمة ، ورد ذكرها في كتب التاريخ والجغرافيا قبل
الغزنويين . وقد ذهب إليها السائح الصيني « هيوان تسانج » حوالي
سنة ٦٤٤ م ، وسماها عاصمة « تساو كيو تو » أي « زابلستان » ، وسجل
اسمها على هذا النحو : « هوسي نا » أي « غزنه » (٤) .

وقد ضبط ياقوت اسمها فقال : « غزنه » بفتح أوله وسكون ثانيه ثم
نون ، هكذا ي تلفظ بها العامة ، والصحيح عند العلماء « غزنين » ويعربونها
فيقولون « جزنه » ويقال لجموع بلادها زابلستان ، وغزنه قصبته ،
وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان ، وهي الحد بين
خراسان والهند (٥) .

وكان الجغرافيون العرب يسمون الإقليم الجبلي في أعالي نهر هيلمند
ونهر قندهار « زابلستان » وهي البلاد التي حول غزنه ، أما المنطقة التي
بين غزنه وكابل فكانت تعرف بكابلستان (٦) .

ويعرف ياقوت زابلستان بأنها كورة واسعة قائمة برأسها جنوبي بلخ
وطخارستان وهي منسوبة الى زابل جد رستم بن دستان ، ويقول ان
العجم يزيدون السين وما بعدها في أسماء البلدين (٧) .

وكانت غزنه تضم في أطرافها عددا من المحلات والقرى من توابعها ،
من بينها محلتين باسم « جلاب » (٨) و « هجوير » (٩) ، استوطنتهما أسرة
الهجويري فانتقلت من أحدهما الى الأخرى (١٠) ، ومنهما استمد لقبه ، فهو

-
- (١) هكذا يسميها « ابن الأثير » و « النسوي » و « رشيد الدين فضل الله »
(٢) تسمى غزنين في : « زين الاخبار » و « تاريخ بيهقي » و « راحة الصدور »
و « طبقات ناصري » .
(٣) « سلطنت غزنويان » : أنظر مقدمة المؤلف :
(٤) « السابق » .
(٥) « معجم البلدان » : ياقوت الحموي : طهران ١٩٦٥ ج ٦ ص ٢٨٩
(٦) « بلدان الخلافة الشرقية » ص ٢٨٨
(٧) « معجم البلدان » ج ٢ ص ٩٠٤
(٨) « جلاب » صاحبة من ضواحي غزنة اشتهرت بنوع من المرمر النليس
(٩) « هجوير » بضم الهاء وسكون الجيم : من مضافات غزنين (أنظر « هدية
المباركين » اسماعيل البغدادي استانبول ١٩٥١ ج ١ ص ٦٩١
(١٠) « سيرة الأولياء » : دارا شكوه : لکهنو ١٢٩٥ هـ - ١٨٧٨ م ص ١٦٤

يلقب بالجلابى تارة ، وبالهجویری تارة أخرى ، وكثيرا ما يضاف كلاهما الى اسمه فيقال له : الجلابى الهجویری (١) .

ولا يوجد فى مدينة غزنه حاليا او على مقربة منها موضع باسم جلاب او هجویر ، وقد قام السيد « حبيبى » منذ سنوات بزيارة ضريح الشيخ عثمان والد الهجویری ، وذكر أن هذا الضريح يوجد الآن فى قرية تسمى « أربابها » على بعد ميل من غزنه ، وأنه ربما كانت واحدة من المحلتين السابقتين تقع فى موضع أربابها غير أن دورة الأيام محت اسمها او بدلتها (٢) .

ويبدو أن الهجویری كان يحب موطنه غزنه حبا جما ، وظل برغم رحلاته المعيدة مرتبطا بمستط رأسه يحمل له الاعزاز والتقدير ، فهو لا يذكر اسم غزتين الا بقوله : « غزنین حرسها الله » (٣) . وقد أبدى أسفه لأنه عندما كان يؤلف كتاب كشف المحجوب ، فى مدينة لاهور ، لم يكن فى متناول يده كُتبه ومراجعته التى كان قد تركها فى غزنین (٤) .

التعريف بـ لاهور :

تعتبر « لاهور » الموطن الثانى للهجویری ، فهى المدينة التى أمضى بها الفترة الاخيرة من حياته وتوفى بها ، ولا يزال قبره فيها .

و « لاهور » مدينة هندية قديمة يرجع تاريخها الى الفى عام ، وتدخل الآن ضمن نطاق الاراضى الباكستانية .

ويرد اسم لاهور فى التناسير الهندية القديمة على أنه مأخوذ من الكلمة السنسكريتية « لوه أور » التى تعنى : قلعة « لوه » أحد توائم الاله الهندي العظيم « راما » بطل الملحمة الهندية الشهيرة « رامايانا » . وقد اشار السائح الضيفى « هيوان تسانج » الى لاهور فى سجله عام ٦٣٠ م . وتذكر لاهور فى بعض المصادر على أنها : « لهاوور » (٥) او « لوهوور » او « لهاوور » (٦) او « لاهوور » . وضبط ياتوت اسمها فقال : « لوهوور » بفتح أوله وسكون ثانيه والهاء وآخره راء ، والمشهور من اسم هذا البلد « لهاوور » وهى مدينة عظيمة ومشهورة فى بلاد الهند (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ١

(٢) « هلال » جلد پنجم شماره ١ - خرداد ١٣٣٦ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠ ، ١١٥

(٤) « السابق » ص ١١٠

(٥) انظر : « الكابل » حوادث ٤٣٥ ، جامع التواريخ المجلد الثانى ج ٤ ص ٣١٧

(٦) « كشف المحجوب » ص ١١٠ حاشية ٣٥

(٧) « معجم البلدان » ج ٤ ص ٣٧١

ولاهور عاصمة اقليم البنجاب ، وهو واحد من الاقاليم الاربعة التى يشتمل عليها وادى السند ، وهى : « البنجاب » و « راجبوتانا » و « والكجرات » و « والسند » ، ويسمى هذا الوادى بالهند الاسلامية لسيطرة الفاتحين المسلمين عليه ، ولما احتواه من المباني التى اسفرت عنها الحضارة الاسلامية (١) .

ويقع اقليم البنجاب فى أسفل جبال الهملايا . وكلمة البنجاب مكونة من كلمتين « بنج » و « آب » ومعناها بالفارسية : الأنهار الخمسة ، اذ تجرى فى البنجاب الأنهار « ستلج » و « جناب » و « بياس » (الاندوس) و « جهلم » و « راوى » وجميعها روافد لنهر السند ، تنبع من جبال همالايا الغربية ، وتجرى حاليا فى أرض الباكستان وتتخلل البنجاب سلسلة من التلال ، وبها منطقتان من الغابات فى مقاطعتى : مولتان ولاهور (٢) .

ويرد ذكر لاهور فى كشف المحجوب على انها من توابع المولتان (٣) ، بينما يذكرها القزوينى على أنها من المدن الكبرى فى السند شأنها فى ذلك شأن المولتان ، يقول : « السند مملكة كبيرة من الاقليم الثانى ، ومدنها الكبرى هى : المنصورة ، ملتان ، لاهور ، هياطيه (بهاطيه) ، فرشاور (بشاور) . . . والاهالى هناك يتحدثون ، غالبا بالفارسية » (٤) .

و « لاهور » تقع قرب الشاطئ الأيسر لنهر راوى ، وتشغل موقعها منذ أزمنة مبكرة ، ومعظم مناطقها أكثر علوا من المناطق المحيطة بها ، وقد أقيمت المدينة الحالية على بقايا المساكن القديمة التى كانت فى تلك المنطقة (٥) ، ولا تزال بعض المناطق القديمة باقية على حالها حيث كانت تقوم المدينة القديمة ، ويوجد بها مزار الهجویری (٦) .

وتمتاز لاهور بأنها أكبر مركز للثقافة الاسلامية فى شبه القارة الهندية ، وهى مقر جامعة البنجاب أقدم أكاديمية للآداب والعلوم فى الهند .

نسب الهجویری وأسرته :

لا نكاد نعرف شيئا عن أسرة الهجویری ، فهو لم يشر قط فى كتابه الى أسرته أو أبويه . وكل ما لدينا من معلومات فى هذا الصدد هو مجرد اشارة

(١) « حضارة الهند » جوستاف لويون : ترجمة عادل زمير - القاهرة ١٣٦٧ هـ -

١٩٤٨ م ص ٦٩ .

(٢) السابق « باكستان المعاصرة » حافظ حمدي ومحمود الشرنقاوى : القاهرة (بدون تاريخ) ص ٨ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

(٤) « نزهة القلوب » ص ٢٥٩ .

(٥) Encyclopaedia - Britannica : Vol. 13 : «Lahore» p. 595.

(٦) « تفكرة حضرت على هجویری » أنظر : ص ٨٧ .

طفيفة وردت في سفينة الاولياء ، لا تتعدى انه كان من اسرة تتصف بالتقوى والزهد ، استوطنت مدينة غزنه (١) .

وهناك شجرة لنسب الهجویری ، لم يرد ذكرها الا في « خزينة الاصفیاء » ، وهذه الشجرة توصل نسبه الى الامام على بن ابي طالب . وفكر مؤلف الخزينة ان هذه الشجرة مدرجة في تواريخ السابقين ، ولكنه لم يذكر اسماء هذه التواريخ .

يقول : « شجره نسبی حضرت ممدوح بدین نوع درج تواریخ متقدمین است که حضرت مخدوم علی بن عثمان بن سید علی بن عبد الرحمن بن شاه شجاع بن ابو الحسن علی بن حسین اصغر بن سید زید شهید بن حضرت امام حسن رضی الله عنه بن علی کرم الله وجهه » (٢) .

وترجمته : « شجرة نسب حضرة الممدوح مدرجة في تواريخ المتقدمين على هذا النحو : ان حضرة المخدوم علی بن عثمان بن السيد علی بن عبد الرحمن ، بن شاه شجاع بن ابي الحسن علی بن الحسين الاصغر ، ابن السيد الشهيد زید ، ابن حضرة الامام الحسن رضی الله تعالى عنه ، ابن علی کرم الله وجهه » .

وقد اشير الى هذا النسب في هدية العارفين ، فاضاف البغدادي لقب « الحسيني » الى اسم الهجویری (٣) . وورد ذكره ايضا في مقالين في مجلة (هلال) ، فذكر الكاتب في المقال الاول ان نسب الهجویری يتصل من ناحية ابيه بالامام الحسن (٤) ، وفكر في الثاني ان الشيخ عثمان والد الهجویری يتصل نسبه في الظهر الثامن بالامام علی المرتضى (٥) . ويبدو من هذه العبارات ان الهجویری كان من اصل عربي .

والده :

والد الهجویری هو الشيخ عثمان بن ابي علی ، وكان — كما وصفه — غلام سرور — رجلا متدينا جدا ، علی قدر كاف من التصوف والمرغان .

(١) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ .

(٢) « خزينة الاصفیاء » مفتی غلام سرور : لاہور ١٩١٤ (انظر : ج ٢ ص ٢٢٢) .

(٣) « هدية العارفين » ج ١ عمود ٦٩١ .

(٤) « هلال » شماره سوم اردیبهشت ١٣٢٢ .

(٥) « هلال » جلد پنجم — شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ .

ويبدو أن الشيخ عثمان كان على قيد الحياة حتى عصر السلطان محمود الغزنوى ، وأدرك فترة ازدهار غزنه في ذلك العصر . يقول غلام سرور ما ترجمته :

« وفي تلك الفترة كان العلماء والفضلاء وأرباب المعرفة والشعراء والصوفية يتوجهون الى مدينة غزنه من جميع أرجاء العالم الاسلامى ، بحيث أصبحت تلك المدينة والقرى التابعة لها مركزا للعلوم الدينية والآداب الاسلامية . وكان الشيخ عثمان من بين الوافدين على غزنه ، فاتخذ مسكنه فى ضواحيها ، وصار موضع احترام الاهالى ، ومحل ثقتهم واعتقادهم » .

وتوفى الشيخ عثمان فى غزنه ، ولا يزال قبره بها ، فى قرية تسمى « أربابها » على بعد ميل من غزنه الحالية (١) .

والفقه :

أما عن والده الهجویری ، فقد كانت هى أيضا من بيت متدين . وقد أشار « داراشكوه » الى واحد من اخوتها باسم الشيخ « تاج الاولياء » ، ويبدو أنه كان من الرجال الصالحين المعروفين فى غزنه وتوفى ودفن بها ، ولا يزال ضريحه معروفا باسمه هناك . وقد زار « دارا شكوه » هذا الضريح الذى يقع بالقرب من ضريح والد الهجویری ، ويتصل به قبر والدته (٢) .

اسمه وألقابه :

« الهجویری » اسمه : « على بن عثمان » . وقد اثبت هذا الاسم فى مقدمة كشف المحجوب (٣) ، وكرره كثيرا فى ثنايا الكتاب ، فقد كان فى كل مرة يتحدث فيها عن نفسه ، يصر على أن يقول :

« ومن كه على بن عثمان الجلابى ام » .

أى : « وأنا على بن عثمان الجلابى » .

حتى أن هذه العبارة وردت ثمان وعشرين مرة فى كتاب كشف المحجوب (٤)

(١) « هلال » جلد پنجم — شماره ١ ، خرداد ماه ١٣٣٦

(٢) « سفينة الأوتياء » ص ١٦٥

(٣) « كشف المحجوب » ص ١

(٤) « السابق » (انظر الصفحات رقم : ١ ، ٧ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ١١٦ ، ١٤٨ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٥٥ ، ٢٣٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٤٤٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٥ ، ٤٧٦ ، ٤٩٢ ، ٥٣٧ ، ٥٤٦) .

والاسم الكامل الذى يرد للهجویری ، مضافا اليه كنيته والقباه ، هو :

« أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابی الهجویری الغزنوی » ،
ويعرف في بعض المصادر باسم : « دانا كنج بخش لا هوری » (١) . كما
أنه يسمى أحيانا في اختصار : « الغزنوی » أو « الهجویری » أو « الجلابی »

وإذا تأملنا هذا الاسم الطويل ، نجد انه ينقسم الى ثلاثة أقسام :

كنية : اسم ثلاثى ، القاب .

فالكنية : أبو الحسن (٢) .

والاسم : على بن عثمان بن أبى على (٣) .

والألقاب : الجلابی والهجویری والغزنوی .

ولا يوجد في أى من المصادر التى تحدثت عن الهجویری خلاف حول
كنيته ، أو اسمه أو اسم أبيه ، وإن كان هناك خلاف يسير حول اسم جده ،
فقد ذكرته بعض المصادر على أنه « على » (٤) وذكرته بعضها الآخر على
أنه « أبو على » . ويبدو أن الأخير هو الأصح لأنه المذكور في مقدمة
كشف المحجوب .

أما عن الألقاب التى يلقب بها الهجویری ، فقد ارتبطت كلها بموطنه
والأماكن التى عاش فيها :

فهو يلقب بالجلابى نسبة الى « جلاب » .

ويلقب بالهجویری نسبة الى « هجویر » (٥) .

(١) « خزينة الاصلباء » مفتى غلام سرور : لاهور ١٩١٤ (انظر ج ٢ ص ٢٢٤) ،
« سلطنت غزنویان » ص ٣٢٨ ، « فهرست کتابهای جایی فارسی » خنابا بمشار :
تهران ١٣٣٧ (انظر ج ١ عمود ١٢٦٥) ، تفكره حضرت على هجویری « ص ١٧ ،
وكلية « دانا » تطلق على رجل الدين في مقابل الكلمة العربية ، و « كنج بخش »
بمعنى : واهب الكنز ،

(٢) « نفحات الانس » عبد الرحمن بن أحمد جلمى : طهران ١٣٣٦ هـ ش - ص ٢١٦ ،
« سفينة الاولياء » ص ١٦٤ ، « هدية المارئين » ج ١ ص ٦٩١ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١ ، « نفحات الانس » ص ٢١٦ ، « سفينة الاولياء » ص ١٦٤
(٤) انظر : « نيكولسون » مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب ، « Ethe »
Catalogue of persian Manuscripts (India office Library) Vol. I.

(٥) يخطئه البعض في ترجمة لقب الهجویری عن الانجليزية فيترجمونه : « الهجویری »
انظر : « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى » آدام ميتز : ج ٢ ص ١٧
وغيرها ، « مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمى » ترانتر روزنتال : ترجمة
انيس مريجة : بيروت ١٩٦١ ص ١٢٨ .

ويلقب بالغزنوى نسبة الى « غزنه » .

وجلاب وهجوير محلتان من محلات مدينة غزنه مسقط رأس الهجويرى .
يبقى بعد ذلك لقب : داتا كنج بخش لاهورى ، الذى تطلقه بعض المصادر
على الهجويرى . وقد ذكر صاحب « خزينة الاصفياء » ان « معين الدين
حسن السنجرى » (١) هو الذى اطلق عليه هذا الاسم ، ذلك انه عندما
تقلد خلعة مطب لاهور ، ذهب الى ضريح الهجويرى واختلى هناك ،
وعندما هم بمغادرة المكان وقف فى مواجهة القبر وقال هذا البيت :

كنج بخش هردو عالم مظهر نور خدا
كاملان رابير كامل ناقصان را راهنما

وترجمته :

انه واهب كنز كلا العالمين ومظهر نور الله ،
وشيوخ كامل للكاملين ، وهاد للناقصين .

ومنذ ذلك اليوم اشتهر باسم : « كنج بخش » (٢) .

غير انه ورد فى مقال فى مجلة « هلال » ان هذه الرواية موضة شك ،
وذكر الكاتب ان هذا اللقب ورد على لسان الهجويرى فى كتابه « كشف
الاسرار » حيث يقول ما ترجمته :

« يا على ، ان الناس يسمونك بالوهاب ، وانت لا تملك فلسا
واحدا . فلا تدع لهذا الادعاء سبيل الى قلبك ، والا كان هذا
محض غرور . فالوهاب هو الله وحده ، فلا تكن شريكا له والا هلكت .
وهو بلا شك اله واحد ، وليس له شريك » (٣) .

ويبدو من هذه العبارة ان الهجويرى كان يلقب بداتا كنج بخش اثناء
حياته ، وانه لم يكن يستحسن هذا اللقب .

« وداتا كنج بخش » هو الاسم الذى يعرف به الهجويرى فى الهند
وبباكستان ، منذ قرون طويلة . وقد لا يعرف عامة الناس هناك اسم
« على الغزنوى » ، ولكن لا يوجد من لا يعرف الاسم المحبوب « داتا
كنج بخش » .

(١) « معين الدين حسن السنجرى » من سلسلة شيوخ الجشتية . كان مريدا للشيخ
عثمان الهارونى وتوفى سنة ٦٣٣ هـ (انظر ترجمته فى : « سفينة الاولياء » ص ٩٢

— ٩٤ ، « خزينة الاصفياء » ج ١ ص ٢٥٦ وما بعدها .
ص ٩٢ — ٩٤ ، « خزينة الاصفياء » ج ١ ص ٢٥٦ وما بعدها) .

(٢) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٤

(٣) انظر : مجلة « هلال » شماره سوم : ارديبيست ١٣٣٢ .

أما لقب « لاهورى » (١) فقد اكتسبه الهجویری من اقامته في مدينة لاهور خلال الفترة الأخيرة من حياته .

مولده ونشأته :

تاريخ ميلاد الهجویری مجهول تماما ، فكتاب كشف المحجوب خال من الاشارة الى هذا الامر ، كما انه لم يرد ذكر هذا التاريخ في أى من المصادر التى تحدثت عن الهجویری ، حتى اقربها اليه عهدا .

والواقع انه لا سبيل أمامنا لمعرفة تاريخ ميلاده ، على وجه التقريب الا بالرجوع الى بعض الاشارات ، غير المباشرة ، التى وردت في كشف المحجوب ، والتى يشير فيها الهجویری الى معاصريه من الصوفية .

ومن المعروف ، في كثير من المصادر ، ان الهجویری عاصر كلا من أبى سعيد بن أبى الخير (٣٥٧ — ٤٤٠ هـ) ، وأبى القاسم القشیری (٣٧٦ — ٤٦٥ هـ) .

وبالنسبة لأبى سعيد ، فقد ذكرت بعض المصادر انه والهجویری كانا مریدین لشيخ واحد هو « أبو الفضل حسن السرخسی » (٢) ومن هنا اطلقت عليه لقب « شقيق أبى سعيد » (٣) . ولكننا بالرجوع الى كشف المحجوب نضع أيدنا على الحقائق التالية :

اولا : ان الهجویری كان مریدا لأبى الفضل محمد بن الحسن الختلى (٤) ، لا أبى الفضل حسن السرخسی ، وهو لم ير هذا الأخير وانما حدثه عنه (خواجه) الامام الحزاسى (٥) .

(١) انظر : « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٢٢

« سلطنت غزنویان » ص ٢٢٨

« بزم شوق » نشریه ماهیانه ادبی وبرهنکی : اکادمی نارسى کراچى نونبر ١٩٦٣ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٢) انظر :

مقدمة مخطوطة كشف المحجوب التابعة لمكتبة بينا ، والمحفوظة تحت رقم ٢٤٤ من مجموعة « هابر » ، « لصل الخطاب » محمد بارسا (نقلًا عن « كشف المحجوب » مقدمة المصحح ص ٦١ — ٦٢) ، « سبك شناسى » ج ٢ ص ١٨٧ .

« هلال » جلد سوم اردیبهشت ١٣٢٢ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٣) « رسالة آبدالية » يعقوب بن عثمان الجرجسى نقلًا من :

« Etthe », Cat. Vol. I.

(٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٥) « السابق » ص ٢٨٧ .

ثانيا : لم يلتق الهجویری بأبی سعید بن أبی الخیر أثناء حياته ، وإنما قام بزيارة قبره في ميمنه(١) بعد وفاته ، والتقى بابنه « المظفر » ، وخدم أبی سعید الخاص « حسن بن المؤدب » . وسمع من هذا الآخر بعض اخبار أبی سعید(٢) ، وسمع بعضها الآخر من أبی مسلم الفارسی أحد معاصري أبی سعید(٣) .

ثالثا : ترجم الهجویری لأبی سعید ضمن عدد من شيوخ الصوفية من معاصريه ، وذلك في الباب الثاني عشر من كشف المحجوب المسمى « باب في ذكر ائمتهم من المتأخرين »(٤) :

والمجموعة الاولى من هؤلاء الشيوخ لم يدركهم الهجویری ، وهم بالنسبة لأبی سعید أما شيوخه مثل : أبی العباس القصاب (٣٩٧ هـ) (٥) وأبی علی الدقاق (٤٠٥ هـ) (٦) ، وأما رفاقه مثل : أبی عبد الله الداستاني (٤١٧ هـ) وأبی الحسن الخرقاني (٤٢٥ هـ) .

والمجموعة الثانية : وان كانوا أيضا من طبقة أبی سعید ، الا أن الهجویری ادركهم وتلمذ عليهم ، وهم يمثلون أساتذته : شيوخه ، مثل : أبی العباس الششتي(٧) ، وأبی القاسم الجرجاني (٤٥٠ هـ) (٨) وأبی الفضل الختلي وخواجه مظفر بن حمدان(٩) .

ويتضح من هذا الموضع الذي ترجم فيه الهجویری لأبی سعید ، ومن لهجة التقدير والاحترام الكبير التي ترجم له بها ، أنه كان يعده في مرتبة شيوخه وأساتذته الذين كانوا جميعا ينتمون الى جيله ، وبالتالي فإن الهجویری يمثل الجيل الذي تلا هؤلاء الشيوخ وهو جيل تلاميذهم ومريديهم .

وبالنسبة للقشيري : فمن الواضح من كشف المحجوب أن الهجویری التقى به وسمع منه بعض آرائه(٩) . ولكننا في الوقت نفسه نستشف من الموضع الذي ترجم له فيه — وهو نفس الباب الذي ترجم فيه لأبی سعید

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠١

(٢) « السابق » ص ٢٠٥

(٣) السابق ص ٤٥٠ — ٤٥١

(٤) السابق ص ٢٠٢ — ٢١٤

(٥) « أسرار التوحيد » أنظر ص ٥٦ ، ٦٢

(٦) « السابق » أنظر ص ٧٠ — ٧١

(٧) « أسرار التوحيد » أنظر ص ٢٤٦ — ٢٤٧

(٨) « السابق » أنظر ص ٨١

(٩) « السابق » ص ٢٢٠ — ٢٢١

(١٠) « كشف المحجوب » ص ٢٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٨٧

ولاساتذته وشيوخه - ومن اللهجة التي تحدث بها عنه : انه كان يعدده هو الآخر في عداد اساتذته . وليس هذا غريبا ، فالتقشيري كان معاصرا لأبي سعيد بن أبي الخير ، وقد تلازما مدة طويلة في نيسابور (١) ، كما عاصر التقشيري أيضا أساتذة الهجویری وشيوخه (٢) ، وكان على اتصال وثيق بهم .

وكان يوجد الى جوار هذه المجموعة من الشيوخ ، التي تضم أبا سعيد والتقشيري وأساتذة الهجویری وشيوخه ، عدد من التلاميذ والمريدين الذين كانوا يتلمذون على بعض هؤلاء الشيوخ ويلزمون بعضهم ، وهؤلاء التلاميذ عرفوا فيما بعد ، وبلغوا هم أيضا مرتبة الشيوخ ، ونذكر منهم « أبا الفتح ابن سالبه » (٣) و « أبا علي الفارمدی » .

أما « أبو الفتح » فهو ابن شيخ الشيوخ أبي الحسن بن سالبه البیضاوی (٤) ، كان تلميذا لعدد من الشيوخ من طبقة أبي سعيد (٥) ، وتوفي سنة ٤٧٣ هـ . وقد أشار اليه الهجویری ، في كشف المحجوب ، بما يدل على أنه كان من طبقته ، وصرح بأنه لم ير شيخ الشيوخ ولكنه رأى ابنه ، وذكر اسم أبي الفتح بين أسماء الصوفية المعاصرين له ، وقال انه سوف يصبح خلفا طيبا لأبيه ، ومرجوا فيه (٦) ..

وأما « أبو علي الفارمدی » (٧) المتوفى سنة ٤٧٧ هـ ، فقد كان مريدا

(١) أسرار التوحيد « انظر : الفصل الاول من الباب الثاني .

(٢) كشف المحجوب « ص ١٨٩ .

(٣) « أبو الفتح بن سالبه : عبد السلام بن أحمد ، « أبو الفتح الصوفي ويعرف بابن سالبه » ، من أهل فارس . سافر الكثير ، وجال في البلاد وسبع بها الحديث . ورد بغداد في سنة خمس ومشرين وأربعمائة ، فسمع بها من أبي القاسم بن بشران ، وأبي علي ابن شادان . وتوفي ببغداد فارس سنة ٤٧٣ هـ « انظر : « المنتظم في تاريخ الملوك والامم » ابن الجوزي : حيدر آباد ١٢٥٨ هـ - ج ٢ ص ٣٢٨ .

(٤) « شيخ الشيوخ أبو الحسين أحمد بن محمد بن جعفر البیضاوی المعروف بابن سالبه » ، وكان من كبار مشايخ الصوفية في فارس في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس . من معاصري أبي اسحاق بن شهريار الكزروني (٤٢٦ هـ) وأبي حيان التوحيد (٤٠١ هـ) . توفي سنة ٤١٥ هـ ، ودفن في ببغداد فارس . « شد الأزار في حط الأوزار عن زوار الزار » معين الدين أبو القاسم جنيد الشيرازي . تصحيح : محمد قزوینی وعباس اقبال : طهران ١٣٢٨ هـ - انظر حواشي ص ٤٧٦ .

(٥) تائب « أبو الفتح » بالشيخ أبي مسلم الفارسي ، ولقي الشيخ أبا الحسن علي بن خواجه الكرجاني ، وصحب الشيخ أبا عبد الله الداسقاني - وثلاثتهم من معاصري أبي سعيد وزملائه .

(٦) انظر : « شد الأزار » ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٧) كشف المحجوب « ص ٢١٥ .

(٨) « أبو علي الفارمدی » : شيخ حجة الاسلام الغزالي (انظر : نفعات الانس ص ٣٧٠) ، اسمه الفضل بن محمد بن علي الفارمد ، وفارمد من تهری طوس (انظر : « معجم البلدان » ج ٣ ص ٨٣٩) ، وكان شيخ شيوخ خراسان وتلميذا للامام التقشيري ، ومريدا للشيخ أبي القاسم الجرجاني ، والتقى بالشيخ أبي سعيد بن أبي الخير . وتوفي سنة ٤٧٧ هـ ، وقبره في طوس (انظر : « سفينة الاولياء » ص ٧٥) .

لأبي الحسن الخرقاني (١) ، وتلميذا ومريدا لأبي القاسم القشيري ، ثم انضم إلى حلقة مريدي أبي القاسم الجرجاني (٢) . وفي خلال فترة تلمذته على الجرجاني ، بعث به إلى أبي سعيد بن أبي الخير ، فأقام عنده فترة في ميهنة (٣) ، ثم رجع إلى الجرجاني وتسلم منه الخرقة ، وأصبح خليفة له بعد وفاته .

وقد أشار الهجویری إلى الفارمدي خلال ترجمته لشيخه أبي القاسم الجرجاني ، ووصفه بأنه لسان الوقت ، وتنبأ له بأنه سوف يكون خير خلف للشيخ وخير قدوه للصوفية . ثم أشار إلى نفسه في الترجمة ذاتها بما يفيد أنه ، عند اتصاله بأبي القاسم الجرجاني وتعرفه على مريده الفارمدي ، كان لا يزال في سن الشباب (٤) .

ويتضح من هاتين الإشارتين أن الهجویری والفارمدي كانا مريدين لشيخ واحد ، هو « أبو القاسم الجرجاني » ، وكانا كلاهما ينتميان إلى جيل التلامذة والمريدين ، مما يدل على أنهما متقاربان في السن ، ومن طبقة واحدة ..

وبالإضافة إلى هؤلاء ، أشار الهجویری في الباب الثالث عشر من كشف المحجوب (باب في ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على حسب البلدان) (٥) إلى عدد من الصوفية من بينهم مجموعة من الشبان من أبناء الشيوخ من طبقة أبي سعيد ، وهم :

المظفر بن أبي سعيد (٤٤٠ هـ) .

أحمد بن أبي الحسن الخرقاني (٤٢٥ هـ) .

أبو الحسن علي بن أبي علي الأسود (سياه) (٤٢٤ هـ) .

وربما كان هؤلاء يمثلون الطبقة التالية لطبقة الهجویری ..

وبعد هذا العرض لطبقات ثلاث من معاصري الهجویری ، نستنتج أنه كان يمثل طبقة تتوسط طبقة الشيوخ من أقران أبي سعيد بن أبي الخير ، وطبقة أبناء هؤلاء الشيوخ . وبناء عليه يمكن أن نرجح أنه ولد فيما بين العتدين

(١) : نفعات الاتس « ص ٣١٨ .

(٢) : أسرار التوحيد « انظر ص ١٤٢ - ١٤٤ .

(٣) : السابق « ص ٢٠٧ .

(٤) : كشف المحجوب « ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٥) : كشف المحجوب « ص ٢١٤ - ٢١٨ .

التاسع والعاشر من القرن الرابع الهجرى . واذا افترضنا انه ولد حوالى منتصف هذه الفترة ، فان ذلك لا يتعارض مع ما ورد فى بعض المصادر من انه عاصر السلطان « محمود المزنوى » (١) المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، وابنه السلطان مسعود (٢) (٤٣٢ هـ) .

اما عن نشأة الهجویری ، فمن الواضح انها كانت نشأة دينية خالصة ، فقد ولد فى بيئة متدينة عرفت بالزهد والتقوى (٣) ، بين أب على قدر كاف من التصوف والعرفان (٤) وأم من بيت متدين عرف افراده بالصلاح والتقوى فتلقى التعاليم الاولى للدين الاسلامى على افراد أسرته ، وصحب أباه خلال فترة طفولته ، فتعرف على مبادئ التصوف فى سن مبكرة ، وتشرب روحه منذ الصغر ، وكان لذلك اثره الكبير فى اتجاهه الى التصوف ، وسلوكه طريق الصوفية .

زواجه :

وردت فى كشف المحجوب اشارة عابرة اثار فيها الهجویری الى زواجه ، ويبدو منها ان تجربته فى الحياة الزوجية كانت قصيرة وغير سارة ، ذلك ان القدر اراد له ان يرتبط بامرأة لم يكن قد رآها ، وافسدت عليه هذه المرأة حياته لمدة عام ، انتقلت بعده الى رحمة الله .

يقول ما ترجمته : « وأنا على بن عثمان الجلابى ، من بعد أن حفظنى الحق من أمة الزواج أحد عشر عاما ، قدر أن وقعت فى الفتنة ، وصار ظاهرى وباطنى أسير الصفة التى كانوا عليها معى ، دون أن تكون هناك رؤية . وقد استغرقت فى ذلك عاما بحيث كاد يفسد على دينى ، الى أن بعث الحق تعالى بكمال فضله وتبام لطفه عصمته لاستقبال قلبى المسكين ، ومن على بالخلاص برحمته . والحمد لله على جزيل نعمائه » (٥) .

وقد اختلف « زوكوفسكى » و « نيكولسون » غيما اذا كان الهجویری قد مر بتجربة عاطفية خلال هذا العام ، أم انه تزوج فعلا . ويبدو أن

(١) « سلطنت غزنویان » ص ٣٣٨ ، « رسالة آبدالية » (نقل من مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .

(٢) « تصوف » عباس مهران : كابل ص ٣٢ .

(٣) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ .

(٤) « هلال » جلد بنجم - شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ (مقال بقلم فلام سرور) .

(٥) « كشف المحجوب » ص ٢٧٦ .

زوكوفسكى فهم من العبارة السابقة ان الهجویری لم يكن متزوجا (١) ، وان التجربة التى مر بها كانت تجربة عاطفية (٢) ، بينما يرى نيكولسون انه قد تزوج فعلا (٣) .

ولا شك ان الصواب فى جانب نيكولسون ، لاننا اذا رجعنا الى النص نجد الهجویری يقول :

« من بعد ان حفظنى الحق تعالى من آفة الزواج احد عشر عاما ، فقد قدر ان وقعت فى الفتنة » ومعنى هذا ان تغييرا قد حدث من حالة الى حالة مغايرة ، اى من عدم الزواج الى الزواج ، واستمر هذا التغيير لمدة عام ..

وقد ذكر « محمد الدين » مؤلف كتاب : « حیات حضرت دانا كنج بخش » فى فصل من الكتاب عنوانه : « الزواج الاول والثانى لحضرة دانا كنج بخش » ان الهجویری تزوج مرتين ، واستند فى ذلك الى النص الذى ورد فى كشف المحبوب .

وبدا الكاتب هذا الفصل بقوله ان حضرة دانا كنج بخش آثار الى زواجه الثانى ولم يذكر شيئا عن زواجه الاول ، عندما قال فى كشف المحبوب .

« وانا على بن عثمان الجلابى ، من بعد ان حفظنى الحق تعالى من آفة الزواج احد عشر عاما ، فقد قدر ان وقعت فى الفتنة » .

واستنتج الكاتب من هذه العبارة ان الهجویری تزوج مرتين :

المرة الاولى : عندما كان لا يزال صغيرا ، فتزوج بناء على رغبة والديه ، غير ان هذا الزواج لم يدم طويلا ، اذ توفيت الزوجة الاولى .

وظل الهجویری بدون زواج لمدة أحد عشر عاما ، كما هو واضح من عبارته .

المرة الثانية : عندما قدر له ان يقع فى حب الأسرة والاولاد ، وكانت تسيطر عليه عندئذ عاطفة قوية جعلته يرتبط بامرأة لم يكن قد رآها من

(١) « يشترك » يميز مع زوكوفسكى فى هذا الرأى ، انظر : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع » ج ٢ ص ٢٤ .

(٢) Bulletin of : Oriental Studies : A Translation of Zhukovsky's Intro duction.

(٣) انظر : نيكولسون : مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحبوب .

قبل ، فتزوج بها ، ولم يقدر له التوفيق في زواجه الثانى ، ذلك أن المرأة التى تزوجها كانت أن تفسد عليه دينه . واستمرت هذه التجربة القاسية لمدة عام ، كما يدل عليه قوله :

« واستفترقت في ذلك عاما ، حتى كاد يفسد على دينى ، الى أن بعث الحق تعالى بكمال فضله وتمام لطفه ، عصمته لاستقبال قلبى المسكين ، ومن على بالخلاص برحمته » .

فهذه العبارة تدل ، في رأى الكاتب ، على أن الزوجة الثانية توفيت أيضا بعد عام من الزواج . ويضيف الكاتب أن الزواج الثانى للهجویری تم أيضا استجابة لرغبة والديه ، ذلك أنه على الرغم من كراهيته للزواج — كما يتبين من أقواله في كتابيه : كشف المحجوب وكشف الأسرار — اضطر أمثالا لأوامرهما أن يتزوج مرتين ، اذ لم تكن لديه المقدرة على رفض طلبهما ، احتراما لهما (١) .

والواقع أن الكاتب حل النص الوارد في كشف المحجوب تحليلا لا بأس به ، توصل عن طريقه الى ترجيح أن الهجویری تزوج مرتين ، وهو ما تؤيده فيه ، الا أننا نأخذ عليه بعض التضارب في أقواله ، فهو تارة يقول ان الهجویری تزوج في المرة الثانية استجابة للرغبة القوية التى تملكته حبا في تكوين الأسرة والأولاد ، وتارة أخرى يقول انه كان كارها للزواج عازفا عنه ، وإنما اضطر اليه ارضاء لوالديه .

وفي رأينا أن الهجویری تزوج للمرة الأولى في حياة أبويه ، وكان لا يزال شابا حديث السن . وربما كان زواجه استجابة لرغبة والديه ، كما يقول « محمد الدين » .

أما المرة الثانية فيبدو أنها كانت بعد وفاة أبويه . ومن المرجح أن زواجه الثانى تم خلال فترة الرحلات ، ذلك أن العبارة الواردة في النص تشير الى انه ظل بدون زواج لمدة أحد عشر عاما ، ومعنى هذا انه كان قد تخطى الثلاثين من عمره . ومما لا شك فيه أن هذه الفترة من عمره تقابل فترة الرحلات .

وقد انمكست مرارة التجربة الثانية الفاشلة للهجویری في الزواج على أقواله ورأيه في الزواج في كتابه كشف المحجوب ، وجعلته يقسو على النساء في حكمه ، حتى أنه صرح بأن المرأة سبب البلاء في الدنيا والآخرة ، وأنها كانت كذلك منذ البداية ، وبقيت هكذا الى يومه (٢) .

(١) « تفكرة حضرت على هجویری » ص ٤٠ — ٤٢ .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٧٥ — ٤٧٦ .

الفصل الرابع

ثقافته - أبحاثه وشيخه الشخصيات التي تأثر بها

١ - ثقافته ونوع العلوم التي حصلها :

من الواضح من كشف المحجوب أن الهجویری كان على درجة كبيرة من ثقافة عصره ، فكتابه مرآة لثقافة دينية واسعة النطاق ، ودراية كاملة باللغتين الفارسية والعربية . ويبدو أنه بدأ دراسته في موطنه غزنه في سن مبكرة ، فاشتغل بها كان يشتغل به اثرابه في ذلك الوقت من دراسة العلوم المتعارفة على عهده : كقراءة القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والادب ، وكرس جهدا كبيرا لدراسة العلوم الدينية والشرعية كال تفسير والحديث والروايات والفقه . وقد توفرت له في شبابه فرصة طيبة لتنمية معارفه عن طريق الرحلات المتعددة التي تجول خلالها في أرجاء العالم الاسلامي (١) ، فتزود من انواع الثقافة الاسلامية التي كانت منتشرة في كل بقعة من العالم الاسلامي .

وبالاضافة الى هذا ، فقد افاضته تلك الرحلات في الاطلاع على العديد من الكتب والمؤلفات الدينية عامة ، والصوفية خاصة ، مما وسع افقه ، وعمق مفهومه للناحيتين الدينية والروحية .

واذا استعرضنا بعض الشواهد البارزة والواضحة في كتاب كشف المحجوب ، فانه يمكننا عن طريق ذلك أن نتعرف في وضوح على العلوم التي حصلها الهجویری اثناء دراسته ، والمعارف التي اكتسبها من اطلاعاته وقرائاته .

و اول ما يستلفت نظرنا في الكتاب ، كثرة الايات القرآنية التي وردت فيه ، فالهجویری استعمل ٢٣٦ آية قرآنية (٢) استعمالا دل على معرفته الكاملة بالقرآن الكريم ، واستيعابه للمعاني التي تهدف اليها آياته الكريمة ، والمغزى

(١) انظر تفصيل هذه الرحلات في الفصل الخامس من هذا الباب .

(٢) « كشف المحجوب » انظر فهرست الايات القرآنية من ٥٧٦ - ٥٨٠ .

العميق الذى تنطوى عليه كل آية ، فكان يستشهد ببعض هذه الآيات لاثبات
الآراء التى يذهب اليها ، ويرجع الى بعضها ليجلو معنى أساء البعض فهمه ،
ويشرح بعضها ليطلع القارئ على المغزى الذى تنطوى عليه ، ويؤكد عن
طريق عدد منها بعض الأسس والاصول الصوفية .

ولا شك أن هذا ان دل على شيء فانما يدل على أنه تعلم القرآن قراءة ،
وتعمقه فهمها وتفسيرا .

والى جوار الآيات القرآنية ، استعمل الهجویری ١٣٨ حديثاً (١) ، وشرح
كثيراً منها شرحاً وافياً ، ونقل معظمها الى اللغة الفارسية . وفى هذا أيضاً
ما يدل على المساهمة الكبيرة بعلم الحديث ، مما يؤكد أنه درس هذا العلم
دراسة وافية . وقد صرح هو نفسه بأنه تتلمذ على بعض الشيوخ ممن
كانوا أساتذة فى علوم الحديث (٢) والتفسير (٣) .

وبالإضافة الى الآيات القرآنية والأحاديث ، فقد روى الهجویری ما يقرب
من خمسمائة قول لشيوخ الصوفية ، بعضها للسابقين عليه ، ابتداء من
الرواد الأوائل للصوفية ، وبعضها لشيوخه والمعاصرين له .

وفى هذا دلالة على معرفته بالروايات التى كان شيخه الختلى من المبرزين
فيها ، وكانت له مجموعة منها اشار الهجویری اليها فى كتابه (٤) .

أما عن دراسة الهجویری للفقه ، فقد بدأ اثر تلك الدراسة واضحاً فى
الجزء الأخير من كشف المحجوب ، الذى تحدث فيه عن الأحكام الشرعية
للطهارة (٥) والصلاة (٦) والزكاة (٧) والصيام (٨) والحج (٩) ، فالهجویری
فى هذه الأقسام يبين فى دقة الأحكام الشرعية لهذه العبادات من الناحية
الفقهية — أى من ناحية ظاهرها وأحكامها التى تجرى على الجوارح — ثم
يوائم بين هذه الأحكام الظاهرية وبين المعانى الباطنية التى تنطوى عليها ،
والتى هى من أعمال القلوب لا الجوارح ، مما يدخل فى نطاق المفهوم
الصوفى لهذه العبادات . كما تكلم فى المعاملات كالزواج والصحة وغيرها .

(١) « كشف المحجوب » انظر فهرست الأحاديث ص ٥٨١ — ٥٨٨ .

(٢) « انظر : ترجمة خواجه » المظفر بن حمدان حسن التعريف بأساتذة الهجویری »

(٣) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٤) « السابق » ص ١١٠ .

(٥) « السابق » ص ٣٧٤ — ٣٨٦ .

(٦) « السابق » ص ٢٨٦ — ٤٠٤ .

(٧) « السابق » ص ٤٠٤ — ٤١٣ .

(٨) « السابق » ص ٤١٣ — ٤٢٢ .

(٩) « السابق » ص ٤٢٢ — ٤٣٢ .

ويبدو أن الهجویری درس الفقه على مذهب أبی حنیفة ، فقد صرح في ترجمته له بأنه كان يميل اليه ويعتق مذهبه (١) .

والى جوار العلوم الدينية ، فقد درس الهجویری اللغتين الفارسية والعربية ، وإجادهما أجادة مكنته من أن يمسك بزمام اللغتين ، فينقل من أحدهما الى الأخرى في سهولة ويسر . وقد حرص دائما على ترجمة الأحاديث والأقوال الماثورة وأقوال شيوخ الصوفية ، فهو يثبت أصل الحديث أو القول باللغة العربية ، ثم يتبعه بترجمة له بالفارسية . وكثيرا ما يشرح هذه الأحاديث والأقوال بالفارسية بما يبين المعانى الواسعة لها أو النواحي الغامضة فيها . والحق أن هذه الترجمات والشروح فيها الدليل الكافي على مدى إجادته للغتين ، والمأمه بدقائق كل منهما ..

وفي الكتاب أيضا كثير من الأشعار والإشارات الأدبية الفارسية والعربية، التي استعملها الهجویری في مواضعها الصحيحة مما ينبىء عن فهم عميق وذوق أدبی سليم مدعم بدراسة واعية للأدب وإطلاع على الآثار الأدبية ، حقيقة أن الذوق الأدبی موهبة فطرية في الإنسان ، إلا أن الدراسة تصقل هذه الموهبة وتبرزها وتنميتها . يضاف الى ذلك ما صرح به الهجویری من أنه كان شاعرا ، وله ديوان من الشعر ، وإن كان هذا الديوان مفقودا (٢) .

٢ — أساتذته وشيوخه :

ذكر الهجویری في كتابه عددا من الأساتذة والشيوخ الذين تتلمذ عليهم وأئاد منهم واقتدى بهم . وقد أدرك صحة بعض هؤلاء الشيوخ ورافقهم لمدة طويلة ، وكان يتردد على البعض الآخر وينخرط في سلك مريدتهم ، ويتلقى عنهم تعاليمهم الصوفية . وجميع هؤلاء الشيوخ كانوا من الأئمة وشيوخ الصوفية المعروفين الذين عاشوا في الفترة ما بين النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى والنصف الأول من القرن الخامس ، وهى الفترة التي تعد من أزهى الفترات في تاريخ التصوف ، فقد برزت فيها معالم الحياة الصوفية في أجلى صورها ، واتخذت شكل الفرق المنظمة ، وكان لكل فرقة منها نظمها وتقاليدها ورسومها الخاصة بها ، وإن التقت جميعها حول هدف واحد ينشده كل صوفي .

(١) « كشف المحجوب » ص ١١٦ .

(٢) « السابق » ص ٢٠ .

وكانت كل فرقة من هذه الفرق تقوم على مجموعة من التلاميذ والمريدين يلتفون حول شيخ يشرف على تربيتهم واعدادهم ، ويلقنهم تعاليمه ومبادئه ، فانتشرت الزوايا والخانقاهات في كل مكان ، وكانت كل واحدة منها يديرها شيخ من الشيوخ الكبار له نظامه الخاص في تربية تلاميذه ومريديه ، ويخلفه في رئاستها اشهر هؤلاء التلاميذ والمريدين .

ونعرف من المعلومات الواردة في كشف المحجوب ان الهجویری تتلمذ في بعض الملوم على « ابي العباس احمد بن محمد الشقائي » ، وقد وصفه بأنه كان اماما في فنون العلم اصوله وفروعه ، ناضجا في جميع المعاني ، رأى كثيرا من الشيوخ ، وكان من كبار اهل التصوف واجلهم .

والشقائي كان من شيوخ الصوفية الذين يتمسكون بالشريعة ، فقد ذكر الهجویری أنه لم ير طيلة حياته رجلا من اى صنف كان يعظم الشرع اكثر منه .

ويبدو أنه كانت هناك روابط من المودة والعطف المتبادل تربط بين الهجویری وأستاذه ، على نحو ما يظهر من قوله عنه : « وكان لى معه انس عظيم ، وكان يشفق على شفقة صادقة » (١) .

ولا ندرى متى توفي أبو العباس الشقائي على وجه التحديد ، وان كنا نعرف من كتابي « كشف المحجوب » و « أسرار التوحيد » (٢) أنه كان معاصرا لأبي سعيد بن أبي الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وأبي القاسم الجرجاني المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

وكان الشقائي من القائلين بالفناء ، وله فيه عبارات غامضة اختص بها . وكان يصيح قائلا : « أشتهى عدما لا عود فيه » (٣) .



أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى :

صرح الهجویری بأنه سلك الطريق بارشاد أبي الفضل محمد بن الحسن الختلى ، وترجم له في كتابه فقال :

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ .
(٢) انظر : كشف المحجوب ص ١٨٩ ، أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٢٤٧ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ .

« ومنهم زين الأوتاد وشيخ العباد : أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى
رضى الله عنه ، وبه قدوتى فى هذه الطريقة . كان عالماً بعلم التفسير
والروايات ، ويذهب مذهب الجنيد فى التصوف ، وكان مريداً للحصري » (١)

ونتبين من هذه العبارة أن الختلى كان جنيدى المذهب ، فهو مريد
أبى الحسن الحصرى (٣٧١ هـ) . وكان الحصرى مريداً للشبلى (٣٣٤ هـ) ،
والشبلى مريداً للجنيد البغدادى (٢٩٧ هـ) .

وطريق الجنيد مبنى على الصحو على عكس أبى يزيد البسطامى فطريقه
مبنى على السكر ، ومن ثم قال الختلى : « السكر ملعب الصغار ، والصحو
مغنى الرجال » (٢) .

ومن الختلى اعتنق الهجویری مذهب الجنيد واشاد به .

وقد خلطت بعض المصادر بين أبى الفضل محمد بن الحسن الختلى مرشد
الهجویری وقدوته ، وبين أبى الفضل حسن السرخسى مرشد أبى سعيد
ابن أبى الخير ، وتكررت أن الهجویری وأبا سعيد كانا مريدین لشيخ واحد (٣) .
وعلى الرغم من أن سلسلة شيوخ أبى الفضل حسن السرخسى تنتهى أيضاً
إلى الجنيد (٤) ، إلا أنه — كما يدل عليه اسمه — سرخسى — منسوب إلى
مدينة « سرخس » فى إقليم خراسان ، وقد عاش فى هذه المدينة وتوفى بها
فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وقبره هناك (٥) . أما أبو الفضل الختلى
فقد عاش معظم حياته فى سوريا ، وتوفى فى قرية تسمى « بيت الجن » تقع
بين « باتيار » و « دمشق » (٦) .

ولا نعرف متى توفى الختلى ، فلم يرد ذكر تاريخ وفاته فى « نفحات
الأنس » أو « سفينة الأولياء » ، وإن كان صاحب « خزينة الأصفياء » يحدد
لوفاته سنة ٥٣ هـ ويذكر أنه حصل على هذا التاريخ من حاشية لنفحات
الأنس (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٢) « السابق » ص ٢٣٢ .

(٣) سبك شناسى ج ٢ ص ١٨٧ ، « فصل الخطاب » (نقلًا عن « كشف المحجوب »
ص ٦١ ، ٦٢ من مقدمة زوكوسكى) ، « هلال شمارة سوم — اردیبهشت ١٣٣٢ انظر :
مقال بقلم غلام سرور .

(٤) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ٤٣ .

(٥) « السابق » ص ٦٠ ، « نفحات الأنس » ص ٢٨٤ ، « ديوان أبو سعيد أبو الخير »
نشر سعيد نفيسى : طهران ١٣٣٤ هـ ش (انظر ص ٢ من المقدمة) .

(٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .

(٧) « خزينة الأصفياء » ج ٢ ص ٢٣١ .

ولكن يبدو أن هذا التاريخ ليس صحيحا تماما ، ومن المرجح أنه توفي قبل هذا التاريخ وذلك للأسباب التالية :

أولا : أن الهجویری ذكر أنه رافق شيخه. الختلى لفترة طويلة ، وظل على صلة به الى أن توفي في بيت الجن ، واستمع الى آخر كلماته ، وهى الوصية التى أوصاه بها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة (١) .

ثانيا : وردت في كشف المحجوب فقرة تفيد أن الهجویری بدأ تأليف الكتاب في بلاد الهند حيث كان أسيرا في مدينة لاهور بين أناس ليسوا من جنسه . وتضمنت الفترة نفسها اشارات من الهجویری الى مجموعة الروايات التى جمعها الختلى ، وأبدى الهجویری أسفه لأنه ترك هذه المجموعة في موطنه غزنين (٢) .

ثالثا : بالنسبة لفترة الأسر المذكورة ، فقد كانت في عام ٤٣٥ هـ ، وهو العام الذى وقعت فيه فتنة الراجات الهندود في لاهور ، وأسروا عددا كبيرا من المسلمين (٣) . ومن المرجح أن الهجویری كان من بين الأسرى .

رابعا : ذكر صاحب « تذكرة على هجویری » أن الهجویری ذهب الى لاهور بعد هزيمة السلطان مسعود الغزنوى على أيدى السلاجقة ووقوع الاضطرابات والقتال في غزنه وكان ذلك حوالى سنة ٤٣١ هـ (٤) .

واستنادا الى ما تقدم نستنتج أن الختلى توفي قبل عام ٤٣١ هـ . وهذا لا يتعارض مع ما ذكره الهجویری من أن شيخه الختلى كان من اقربان شيخ الشيوخ أبى الحسن بن سالبه (٥) المتوفى سنة ٤١٥ هـ ، وأبى عمر القزوينى ، (٦) المتوفى سنة ٤٤٢ هـ (٧) .

-
- (١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .
 - (٢) « السابق » ص ١١٠ .
 - (٣) « الكامل » حوادث سنة ٤٣٥ هـ ، « سلطنة غزنويان » ص ٢٢٧ .
 - (٤) « تذكرة على هجویری » ص ٢٠ .
 - (٥) « خلط جامى بين شيخ الشيوخ أبى الحسن بن سالبه المتوفى سنة ٤١٥ هـ ، وبين ابنه أبى الفتح المتوفى سنة ٤٧٢ هـ ، فالترجمة التى وردت في النسخات لشيخ الشيوخ هى ترجمة ابنه أبى الفتح التى وردت في شد الأزار (قابل بين « شد الأزار » ص ١٢٨ - ١٢٩ ، و « نفحات الأنس » ص ٢٧٩) .
 - (٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .
 - (٧) « الكامل » حوادث سنة ٤٤٢ هـ ، « صلوة الصفة » أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى حيدر آباد ١٣٥٥ هـ ، ج ٢ ص ٢٧٥ .

وكان من بين الشيوخ الذين تتلمذ عليهم الهجویری وأفاد منهم :

« أبو القاسم على الجرجاني الطوسي » : من شيوخ الصوفية المعروفين من طبقة أبي سعيد بن أبي الخير (٤٤٠ هـ) ، ومريد أبي عثمان المغربي (٣٧٣ هـ) .

تحدث الهجویری عن الجرجاني فوصفه بأنه : « لا نظير له في عصره ، ولا بديل منه في زمانه ، وقام بأسفار شاقة في المعاملة » (١) .

وقد لجأ الهجویری الى الجرجاني لحل مشاكله ، ووضع فيه ثقته ، ومنحه أسرارہ ، ففى الوقت الذى كان لا يزال فيه الهجویری شابا مغرورا ، كان الجرجاني يمثل القطب الذى يدور حوله أهل زمانه ، وتتجه اليه قلوب الصوفية في كل مكان ، ويعتمد عليه المريدون ، فقد كان آية في كشف وقائع المريدین ، وعالما بفنون العلم (٢) .

وكانت للجرجاني كرامات وصف لنا الهجویری واحدة منها حدثت معه شخصا (٣) ، ويبدو أنه كان يتردد عليه كثيرا في طوس ويسأله في كل ما يعن له من أمور ، فقد سأله عن الشروط التى ينبغى توفرها في الدرويش لكي يكون جديرا بأن يلقب بالفقير (٤) . كما سأله عن شروط الصحبة (٥) .

وفي حديث للهجویری عن الأحوال وانروى التى ظهرت له ، والرياضات التى مارسها : قال له الجرجاني ، عندما رأى نخوة الصبي وجذوة الشباب تقوده الى الزهو والغرور :

« يا بني ، ليس للآدمى نسبة الى هذه الطريقة أكثر من أنه حين يوصل بها يأخذه الزهو بادراكها ، وحين يعزل عنها ينال زهو العبارة . والآدمى لا يخلص أبدا من أسار الزهو » (٦) .

وكن الجرجاني جنيدى المذهب ، ترتبط سلسلة شيوخه بالجنيد بثلاث وسائط (٧) ، فهو مريد أبي عثمان المغربي (٣٧٣ هـ) ، وكان المغربي مريدا لأبي على الكاتب (٣٤٠ هـ) ، والكاتب مريدا لأبي على الرودباري (٣٢٢ هـ) ، والرودباري مريدا للجنيد البغدادي (٢٩٧ هـ) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١١ .

(٢) « السابق » ص ٢١١ .

(٣) « السابق » ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٤) « السابق » ص ٥٥ .

(٥) « السابق » ص ٤٤١ .

(٦) « السابق » ص ٢١٢ .

(٧) « نفحات الانس » ص ٢٠٧ .

ولكن « دارا شكوه » خلط بين الجرجاني وتلميذه ومريده أبى على الفارمدى ، فذكر أن الجرجاني كان يجمع بين مذهب الجنيد ، ومذهب أبى يزيد البسطامي عن طريق أبى الحسن الخرقاني (١) . والصحيح أن الفارمدى هو الذى كان مريدا للخرقاني من ناحية ، وللجرجاني من ناحية أخرى (٢) . أما الجرجاني فقد كان معاصرا لأبى الحسن الخرقاني وأبى سعيد بن أبى الخير وأبى العباس الشقاني وأبى القاسم القشيري .

وكانت هناك علاقات ودية ، تقوم على أساس من التقدير والاحترام المتبادل ، تربط بين الجرجاني وأبى سعيد والقشيري ، فقد كان الجرجاني يرسل مريده الى أبى سعيد ليتم لهم تعليمهم (٣) ، وكان أبو سعيد يعد الجرجاني مساويا له في الدرجة (٤) . أما القشيري فقد اعترف بأن الجرجاني يتفوق عليه في مجال التصوف (٥) .

كذلك خلط « العطار » في تذكرة الأولياء بين أبى القاسم الجرجاني وأبى القاسم بشر ياسين ، فنقل عن « أسرار التوحيد » قصة لقاء أبى القاسم بشر ياسين بأبى سعيد بن أبى الخير عندما كان طفلا ونسبها الى أبى القاسم الجرجاني (٦) . ومن المعروف أن أبا القاسم بشر ياسين عاش في ميهنه مواطن أبى سعيد ، وتوفى بها عام ٣٨٠ هـ (٧) .

وكان الجرجاني على قيد الحياة عندما ألف الهجویری كشف المحجوب ، وتوفى عام ٤٥٠ هـ (٨) ، وأن كان « ابن العماد الحنبلي » يذكر لوفاة الجرجاني تاريخا آخر هو عام ٤٦٩ هـ (٩) . ولكن التاريخ الأول هو الأصح ..

وقد تقلد على الجرجاني ، بالإضافة الى أبى على الفارمدى ، « أبو بكر

(١) « سفينة الأولياء » ص ٧٥ .

(٢) « فتحات الانس » ص ٢٦٨ .

(٣) « أسرار التوحيد » الترجمة ص ٢٠٧ .

(٤) « السابق » ص ٨١ .

(٥) « السابق » ص ١٤٤ .

(٦) « تذكرة الأولياء » مرید الدین العطار : نشر نیکلسون لیدن ١٢٢٢ هـ - ١٩٠٥ م النصف الثاني ص ٢٥٢ .

(٧) « أسرار التوحيد » الترجمة ص ٢٢ - ٣٦ .

(٨) « سفينة الأولياء » ص ٧٥ ، « طرائق الحقائق » معصو معليشاة : طهران ١٣١٨ ، ج ٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .

« شذرات الذهب في أخبار من ذهب » لأبى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلي : القاهرة ١٣٥٠ هـ ، ج ٣ ص ٣٣٤ .

النساج « استاذ الشيخ احمد الغزالي (١) شقيق الامام الغزالي . وغيره
من المريدين ممن وصفهم الهجویری بان كلا منهم زينة لعالم (٢) .

والى جوار الشغاني والخفلى والجرجاني ، توجد شخصية أخرى طالما
تردد عليها الهجویری وتلقى عنها بعض التعاليم الصوفية ، وهى شخصية :
(خواجه) ابو احمد المظفر بن احمد بن حمدان (النوتاني) (٣) الملقب
بالسيد الامام . كان من كبار الصوفية وأئمة أهل الحديث المعروفين (٤) ،
ترجم له الهجویری فقال :

« ومنهم رئيس الاولياء ، وناصح أهل الصفاء : ابو احمد المظفر بن احمد
ابن حمدان رضى الله عنه ، كان متربعا فى الرئاسة ، وقد فتح الله عز وجل
له باب التصوف ، وتوجه بتاج الكرامه » (٥) .

ولا نعرف متى توفى خواجه المظفر ، ولكن يبدو من كتابى كشف المحجوب
وأسرار التوحيد انه كان معاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير (٤٤٠ هـ)
وأبى القاسم الجرجاني (٥٠٠ هـ) ، ومن المرجح انه توفى قبل تأليف كتاب
كشف المحجوب ، فقد وردت فى الترجمة التى كتبها له الهجویری عبارة تدل
على انه لم يكن على قيد الحياة فى ذلك الوقت ، وانه قد بقى منه خلف طيب
هو ابنه السيد احمد (٦) . ومعنى هذا انه توفى قبل سنة ٤٣٥ هـ .

والمظفر كان من الصوفية الذين ينتمون الى أسر عريقة ، قطع فى طريق
التصوف مرحلة كبيرة ، وبلغ فيه مكانة مرموقة تبدو من قوله : « ان ما أدركه
العظماء بقطع البوادی والمغازات أدركته وأنا جالس على الحشاياء فى مكان
الصدارة » .

وكان المظفر ممن يتكلمون فى الفناء والبقاء ، وله فيه بيان حسن وعبرة
عالية (٧) .

وبالرغم من أن المظفر ألف كتابا فى إباحة السماع ، إلا أنه حذر الهجویری
من التعمد عليه ، وقال له عندما رأى نشوته به :

-
- (١) « نفحات الانس » ص ٣٧٠ ، طرائق الحقائق » ج ٢ ص ٢٥١ .
(٢) « كشف المحجوب » : ص ٢١١ .
(٣) « أسرار التوحيد » : الترجمة : ص ٣١٣ .
(٤) « كشف المحجوب » : ص ٥٢٤ .
(٥) « السابق » ص ٢١٢ .
(٦) « السابق » ص ٢١٣ .
(٧) « السابق » ص ٢١٣ .

« سوف يأتى وقت يتساوى فيه لديك هذا السماع ونعيق الغراب ، لأن قوة السمع تكون طالما لا تكون المشاهدة ، فاذا حصلت المشاهدة فنبت ولاية السمع » (١) .

٣ - الشخصيات التى تأثر بها الهجویری :

بالاضافة الى الاساتذة والشيوخ الذين تتلمذ عليهم الهجویری ، هناك عالم من علماء الصوفية وشيخ من شيوخهم من المعاصرين للهجویری ، كان له اثر واضح فى شخصيته وفى كتابه ، وهو :

« ابو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشیری » من شيوخ خراسان ، وامام نيسابور ، وصاحب الرسالة القشيرية .

وعلى الرغم من أن الهجویری لم ينص على انه تتلمذ على القشیری ، الا انه من الواضح انه كان من الشخصيات التى تركت اثرا بارزا فيه ، فقد حذا حذوه فى كتابه (٢) ، ونقل من رسالته كثيرا من رؤوس الموضوعات التى تناولها ، وبعض الآراء المتعلقة بالاصول الصوفية ، بل أن هناك علاقة وثيقة بين مقدمة الرسالة للقشیری ومقدمة كشف المحجوب ، فالحقارى للمقدمتين يدرك لأول وهلة مدى التشابه بينهما حتى فى استعمال نفس العبارات والألفاظ .

والقشیری كان مريدا لأبى على الدقاق (م ٤٠٥ هـ) (٣) ، واستأذا لشيخ شيوخ خراسان أبى على الفارمدى (م ٤٧٣ هـ) (٤) .

وقد ترجم الهجویری للقشیری فى الباب الذى ترجم فيه لأساتذته وشيوخه (٥) . كما نقل عنه بعض الآراء التى سمعها منه شخصا ، كرايه فى مسألة الفقر والغنى (٦) ، ، ورايه فى المحبة (٧) ، وموقفه من الحلاج (٨) ، وقصد زيارته لأبى الحسن الخرقانى فى خرقان (٩) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١٤ .

(٢) « السابق » ص ١٤١ .

(٣) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ .

(٤) « نفحات الانس » ص ٣١٣ .

(٥) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .

(٦) « السابق » ص ٢٨ .

(٧) « السابق » ص ٤٠١ .

(٨) « السابق » ص ١٠٩ .

(٩) « السابق » ص ٢٠٥ .

وكان القشيري ينتمى الى حلقة ابي سعيد بن ابي الخير ، وكان ابو سعيد يبدى اعجابه الشديد بالقشيري ويصفه بأنه استاذ الاساتذة (١) . كما تحدث القشيري عن ابي سعيد بعد وفاته في احترام وتقدير عظيمين ، وقال في حقه : « عندما راينا الشيخ ابا سعيد لأول مرة لم نكن صوفية ، ولم نر صوفية ، ولو لم نره لقرانا التصوف في الكتب » (٢) .

وهناك عدد آخر من شيوخ الصوفية المعروفين تأثر بهم الهجویری علی الرغم من أنه لم يلتق بهم . ومن هؤلاء من كان معاصرا للهجویری ولم تسنح له الفرصة للقاءه مثل ابي سعيد بن ابي الخير ، ومنهم من كان سابقا عليه وتأثر به عن طريق اطلاعه على كتبه ومؤلفاته وجمع أخباره مثل الحسين بن منصور الحلاج ومحمد بن علی الترمذی .

اما « ابو سعيد بن ابي الخير » فهو « ابو سعيد فضل الله بن ابي الخير محمد بن أحمد الميمني » ، من اكبر الشخصيات الصوفية التي عاشت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، والنصف الاول من القرن الخامس .

وقد ترجم الهجویری لأبي سعيد فوصفه بأنه « سلطان سلاطين المحبين ، ومملك ملوك الصوفيين ، سخر له جميع اهل زمانه : فريق بالمشاهدة ، وفريق بالاعتقاد ، وفريق بقوة الحال . كان عالما بفنون العلم ، وذا حال عجيبة وشأن عظيم في درجة اشرافه على الأسرار ، وكان له آيات وبراهين كثيرة » (٣) .

وابو سعيد ولد في مدينة « ميمنه » من أعمال « خاوران » باقليم « خراسان » سنة ٣٥٧ هـ ، وتلقى علومه الأولى فيها ، ثم انتقل الى مدينة « مرو » لدراسة الفقه ، فقرأ على ابي عبد الله الخضرى خمس سنوات ، وبعد وفاته تحول الى ابي بكر القفال المروزی فقرأ عليه خمس سنوات أخرى ، ترك بعدها مرو الى « سرخس » حيث درس التفسير وعلم الأصول وأخبار الرسول على الامام ابي علی زاهر بن أحمد (٤) . ثم لم يلبث ابو سعيد أن ترك دراسة علوم الدين واعتنق الصوفية ، واتخذ ابا الفضل حسن السرخسی مرشدا له وقنوة (٥) .

(١) « اسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ١٠٢ .

(٢) « السابق » ص ٤١٢ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٢٠٦ .

(٤) « اسرار التوحيد » : الترجمة ص ٤٠ .

(٥) « السابق » ص ٤١ - ٤٢ .

وقام أبو سعيد برياضات شاقة لمدة خمسة عشر عاما ، قضى سبعة أعوام منها معتكفا في زاوية داره (١) ، ثم رجع الى سرخس فمارس الرياضة تحت اشراف ابن الفضل عما (٢) ، بدأ بعده فترة أخرى من الرياضة امتدت لسبع سنوات قضها متجولا في صحراء خاوران (٣) . وفي خلال هذه الفترة الأخيرة توفي أبو الفضل ، فاتصل أبو سعيد بأبي عبد الرحمن السلمي في نيسابور وتلقى منه الخرقة الاولى (٤) ، ثم اتصل بأبي العباس القصاب ونال على يديه الخرقة الثانية (٥) .

وكان أبو سعيد يعتقد مذهب أبي يزيد البسطامي ، الذي يقوم على فكرة وحدة الوجود ، وأصبح هو ومعاصره أبو الحسن الخرقاني من أكبر المروجين لهذه الفكرة (٦) .

ويعتبر أبو سعيد الرائد الأول لشعراء الصوفية من الإيرانيين ، فقد كان أول من صاغ عقائده نظما بالفارسية ، فكان مثلا احتذاه فيما بعد شعراء الصوفية الكبار من الإيرانيين أمثال « السنائي » و « العطار » و « جلال الدين الرومي » (٧) ، بل أن أغلب المستشرقين اعتمدوا في دراساتهم لتماليم أبي سعيد وعلاقتها بالتطور التاريخي للصوفية على الرباعيات التي نسبت اليه (٨) .

وقد احتل أبو سعيد من التصوف الاسلامي مكانة مرموقة عندما اتخذ ، في مطلع القرن الخامس الهجري من مدينة نيسابور مركزا لنشاطه (٩) ، واخذ يعقد المجالس فيها لمدة طالت حتى قاربت الثلاثين عاما ، التف خلالها حوله كثير من المريدين ، وذاع صيته في اقليم خراسان ، وتهافت الناس على مجالسه (١٠) ، واختلف اليها كثير من شيوخ الصوفية ورجال الدين وائمة المذاهب المختلفة ، من بينهم « أبو العباس الشقاني » و « أبو القاسم الجرجاني » و « أبو محمد الجويني » (١١) والد امام الحرمين أبي المعالي الجويني ، و « أبو القاسم القشيري » (١٢) .

(١) « أسرار التوحيد » ص ٤٤ .

(٢) « السابق » ص ٥٤ .

(٣) « السابق » ص ٤٥ ، ٥٦ .

(٤) « السابق » ص ٥٠ .

(٥) « السابق » ص ٦٤ .

(٦) Nicholson : Studies in Islamic Mysticism : London, 1921, p. 76.

(٧) « ديوان أبو سعيد أبو الخير » نشر سعيد نفيسي انظر ص ٦ من المقدمة .

(٨) Studies in Islamic Mysticism : p. 48.

(٩) « أسرار التوحيد » : الترجمة ص ٧٧ .

(١٠) « السابق » ص ٨٢ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٦ .

(١١) « السابق » ص ١٠٨ ، ١٥٦ ، ١٧٢ ، ٢٢١ .

(١٢) « السابق » ص ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ .

ويعزى الى أبى سعيد انه أول من أسس نظام الخانقاهات فى الاسلام (١) ،
فقد كان يعيش بين مريديه فى عدد من هذه الخانقاهات ، ووضع لحياتهم بها
القواعد والأسس (٢) .

وكان أبو سعيد يتميز بشخصية قوية ، ومقدرة فائقة على قراءة الافكار ،
وقد مكنت له هاتان الميزتان من أن يسيطر على أعدائه والمناوئين له ،
فهابوه ، وتخلوا عن معارضتهم له (٣) .

واثرت عن أبى سعيد كرامات كثيرة تحدث عنها حفيده « محمد بن النور »
باسهاب فى كتاب أسرار التوحيد . وتوفى أبو سعيد فى ميّنه عام ٤٤٤هـ (٤) .

وعلى الرغم من أن الهجويرى لم يلتق بأبى سعيد فى حياته ، إلا انه تأثر
ببعض أقواله وآرائه التى استمع اليها من معاصريه ، وناقش رأى
أبا سعيد فى الفقر والغنى (٥) واستشهد ببعض أشعاره وأقواله فى مواضع
من كشف المحجوب . وقام بزيارة قبره بعد وفاته ، وأقام على القبر ثلاثة
أيام ، رأى خلالها كرامة من كرامات أبى سعيد (٦) .

وأما « الحلاج » (٧) فيرجع اهتمام الهجويرى به الى بداية شبابه ، وقد
خصه فى ذلك الوقت بكتاب مستقل شرح فيه أقواله ، وتحدث عن أحواله
فى كتاب آخر له اسمه : « منهاج الدين » (٨) .

وكان الهجويرى قد قرأ معظم مؤلفات الحلاج التى وقعت فى يده ،
وجمع أشعاره وأقواله وحكمه من مختلف الشيوخ ، واستخدمها فى
مناقشاته وجدله فى كشف المحجوب (٩) . كما ضمن الكتاب ترجمة للحلاج ،
وبين موقف شيوخ الصوفية منه ، وصرح بأن اثنين من شيوخه ، وهما :
« أبو العباس الششاقى » و « أبو القاسم الجرجانى » كانا من بين المعتقدين
فى الحلاج ، والمعظمين لأمره (١٠) .

(١) « فى التصوف الاسلامى وتاريخه » نيكولسون : ترجمة أبى العلا عفيفى القاهرة

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م ، ص ٥٨ .

(٢) « أسرار التوحيد » : الترجمة ص ٣٦١ - ٣٦٣ .

(٣) « السابق » ص ٨٩ - ٩٤ .

(٤) « السابق » ص ٣٩٨ .

(٥) « كشف المحجوب » ص ٢٤ ، ٢٦ .

(٦) « السابق » ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٧) ترجم له السلسى فى الطبقات فذكر أن اسمه « : أبو ميثم الحسين بن منصور
الحلاج (انظر : طبقات الصوفية ص ٢٠٨) ويسميه ابن التديم : مبيد الله بن أحمد

ابن أبى طاهر الحسين بن منصور الحلاج (انظر : الفهرست ص ٢٦٩) .

(٨) « كشف المحجوب » ص ١٩٢ .

(٩) « السابق » انظر : ص ٢٣٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٣٦١ وغيرها .

(١٠) « السابق » ص ١٨٩ .

وقد اختلف شيوخ الصوفية في الحلاج ، فمنهم من قبله ، ومنهم من رده ،
ومنهم من توقفوا في أمره :

فالذين ردوه كثيرون . والذين قبلوه منهم : « ابن عطاء » و « ابن خفيف »
و « النصرابادي » ، ومن المتأخرين « أبو سعيد بن أبي الخير » ، وقد أشاد
أبو سعيد بالحلاج ووصفه بأنه كان فريد عصره في علوم التصوف في المشرق
والمغرب (١) .

وأما الذين توقفوا في أمره فمنهم : « القشيري » (٢) والشيخ « عبد الله
الأنصاري » (٣) .

والحلاج صلب ببغداد سنة ٣٠٩ هـ ، ويرجع السبب في قتله الى مقالته
المشهورة : « أنا الحق » التي أعلن فيها اتحادها بالذات الالهية ، والى
مجموعة أخرى من الأسباب . كما اتهم بالسحر والشعوذة وادعاء
الكرامات .

وقد دافع الهجویری عن الحلاج دفاعا حارا ، وحاول أن ينفى عنه
ما نسبوه اليه من الاحتيال والسحر ، ظنا منهم أن الحسين بن منصور
الحلاج هو الحسن بن منصور الملحد البغدادي ، أستاذ محمد بن زكريا ورقيق
أبي سعد القرمطي (٤) .

وكان الهجویری أول من طرق هذه الفكرة بأنه كان هناك شخصان يدعى
كل منهما الحلاج : أحدهما ذلك الملحد الذي ينسب الى بغداد ، والآخر
الحلاج الحقيقي الفارسي المنسوب الى بيضاء فارس . وقد نقل كل من
« العطار » (٥) و « محمد بارسا » (٦) هذه الفكرة عن الهجویری .

ويذكر الهجویری أن الحلاج الحقيقي الذي اختلف المشايخ في أمره
وهجروه ، لم يكن هجرهم له يعنى الطعن في دينه ومذهبه ، بل في حال
دنياه ، والا لما قال عنه الشبلي : « أنا والحلاج شيء واحد » ، وقال محمد
ابن خفيف « هو عالم رباني » . وانما كان هجرهم له بسبب اغضابه
لشيوخه ، فقد كان في بداية أمره مريد سهل بن عبد الله ، وانصرف عنه دون

(١) « اسرار التوحيد » الترجمة ص ٩٤ .

(٢) « كشف المحجوب » ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٣) « نحات الانس » انظر : ص ١٥٠ .

(٤) « كشف المحجوب » ١٩٠ .

(٥) « تذكرة الاولياء » (انظر ج ٢ ص ١٤٦) .

(٦) Bulletin of Oriental Studies: Zhukovsky's Introduction.

نقلا عن : نمل الخطاب .

استئذان واتصل بعمر بن عثمان ، وذهب من عنده بلا إذن وتعلق بالجديد ، فلم يقبله . ولهذا السبب هجروه جميعا ، فهو مهجور المعاملة لا مهجور الأصل (١) .

وساق الهجویری الدلیل علی بطلان ما نسب الی الحلاج من السحر فذكر ان السحر فی اصول اهل السنة والجماعة حق كالكرامة ، وان اظهار السحر فی حال الکمال كفر واظهار الکرامة معرفة ، لان الاول يكون نتيجة لسخط الله جل جلاله ، والاخر قرينة علی رضائه .

واضاف الهجویری ان اهل السنة والجماعة متفقون علی أن المسلم لا يكون ساحرا ، وأن الکافر لا يكون مكرما ، لان الاضداد لا تجتمع . والحسين بن منصور كان طوال عمره فی ثياب الصلاح : من صلوات طيبة ، واذکار ومناجيات كثيرة ، وصيامات متصلة ، وتحميدات مہذبة ، ونکات لطيفة فی التوحيد ، فلو كانت أفعاله سحرا لكان هذا كله منه محالا . وعلى هذا فان ما نسب الیه كان من الکرامات . والکرامات لا تكون الا لولی محقق (٢) .

کذلك دافع الهجویری عن الحلاج للمرة الثانية بشأن ما نسب الیه من الأقوال التي تعبر عن الامتزاج والاتحاد ، فذكر أن ذلك كان مبالغة منه وتهويلا فی العبارة لا فی المعنى ، اذ لا سلطان للمقلوب علی العبارة حتى تصح عبارته فی غلبة الحال . وذكر أيضا انه يجوز أن يكون معنى تلك العبارات صعبا فلا يستطيعون فهم مقصوده منها ، ويصور لهم وهمهم صورة عنها ينكرونها ، وانكارهم هذا يرجع الیهم لا الی ذلك المعنى (٣) .

ولا شك ان رأى الهجویری هذا فی الحلاج يختلف كثيرا عن آراء غيره فيه . ويبدو هذا الاختلاف جليا اذا ما قارنا اقواله بقول واحد من معاصري الحلاج ، وهو : « الاصطخرى » الذى اثار الی الحلاج وصور نظريته فی الحلول فقال : « الحسين بن منصور المعروف بالحلاج من اهل البیضاء ، وكان رجلا حلاجيا ينتحل النسك ، فما زال يرتقى به طبقا عن طبق حتى انتهى به الحال الی أن زعم أن من هذب فی الطاعة نفسه ، واشغل بالأعمال الصالحة قلبه ، وصبر علی مفارقة اللذات ، وملك نفسه فی منع الشهوات ارتقى به الی مقام المقربين . ثم لا يزال يتنزل فی درج المصافاة حتى يصفو

(١) كشف المحجوب « ص ١٩٠ .

(٢) السابق « ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣) كشف المحجوب « ص ١٩٢ .

عن البشرية طبعه ، فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حل فيه روح الله الذي كان منه عيسى بن مريم ، فيصير مطاعاً فلا يريد شيئاً إلا كان من كل ما ينفذ فيه أمر الله ، وأن جميع فعله حينئذ فعل الله ، وجميع أمره أمر الله « (١) » .

وعلى الرغم مما رأيناه من الدفاع المستميت للهجویری عن العلاج ، إلا أنه يصرح بأنه لم يكن يصلح لأن يكون قدوة ، وهو يوضح السبب في ذلك فيه ذكر أنه كان مغلوباً في حالة غير متمكن ، وينبغي للقدوة أن يكون متمكناً حتى يمكن الاقتداء به . وكذلك لم يمنعه تصريحه بأن العلاج يحتل من قلبه مكاناً عزيزاً ، من أن ينقد طريقه ، فيصفه بأنه لم يكن مستقيماً على أي أصل ، وأن حاله غير مستقرة على وجه ، وفي أحواله فتن كثيرة (٢) .

وذكر الهجویری أنه رأى في بغداد ونواحيها طائفة من الملاحدة يدعون توليهم للعلاج ، وقد اتخذوا من أقواله حجة لزندقتهم ، واسموا أنفسهم الحلّاجيين .

وتنسب إلى الحلّاج مؤلفات كثيرة ، رأى منها الهجویری خمسين مؤلفاً ، بعضها في بغداد ، وبعضها في خوزستان وفارس وخراسان (٣) . وقد ذكر ابن النديم أسماء سبعة وأربعين مؤلفاً من مؤلفات الحلّاج (٤) .

والى جوار الحلّاج كانت هناك شخصية أخرى تآثر بها الهجویری وهى شخصية « أبى عبد الله محمد بن على الترمذی » المعروف بالحكيم . وهو متكلم سنى من أهل خراسان ، ومتحدث وفقه حنفى ، توفى عام ٢٨٥هـ (٥) . ذكره السلى في طبقات الصوفية على أنه من كبار شيوخ خراسان (٦) ، وترجم له الهجویری بوصفه بأنه كان كاملاً وإماماً في فنون العلم ، ومن المشايخ المحتشمين ، له تصانيف كثيرة طيبة ، وكرامات مشهورة (٧) . وكانوا يطلقون عليه اسم « حكيم الأولياء » (٨) .

-
- (١) انظر ص ١١٤ من : « الحياة الروحية في الإسلام » محمد مصطفى طس : القاهرة ١٩٤٥ (نقلاً عن الإسطخرى) .
(٢) كشف المحجوب ص ١٩٢) .
(٣) كشف المحجوب ص ١٩١ .
(٤) الفهرست ص ٢٧١ - ٢٧٢ .
(٥) التصوف الثرة الروحية ص ٣٠٨ .
(٦) طبقات الصوفية ص ٢١٧ .
(٧) كشف المحجوب ص ١٧٧ .
(٨) تنكرة الأولياء ج ٢ ص ٩١ .

وكان الترمذى شيخاً لأبى على الجوزجاني ، وأبى بكر الوراق الترمذى وروى عنه هذا الأخير أن الخضر عليه السلام كان يحضر إليه كل يوم أحد ، وكانا يتساءلان الوقائع (١) .

وقد حظى الترمذى بتعظيم الهجویری وجهه عن طريق قراءته لكتبه التي أشار إلى عدد منها في كشف المحجوب ، لا سيما كتابه « ختم الولاية » الذي اعتمد عليه الهجویری في مناقشته لموضوع الولاية . كما نسب إليه فرقة الحكيمية (٢) من المتصوفة ، وذكر أن أساس مذهبها يقوم على الولاية .

ويعد الترمذى رائد « ابن عربي » الذي جاء بعده بثلاثة قرون ، فقد درسه وأعجب به ، ولا سيما بكتابه المفقود « ختم الولاية » .

(١) « كشف المحجوب » ص ١٧٨ .

(٢) « السابق » ص ٢٦٥ وما بعدها .

الفصل الخامس

رحلات الهجویری

بعد أن أتم الهجویری دراسته الأولى فی موطنه غزنه ، وحصل قدرا كافیا من العلوم المعروفة علی عهده ، سلك مسلك علماء عصره فی السفر والتجول طلبا للعلم والمعرفة ، فرحل الی بلاد متعددة ، وطوف طویلا فی العالم الإسلامی ، من سوريا الی التركستان ، ومن بحر قزوين الی الهند ، فزار العراق وخوزستان وفارس والشام وأذربيجان وجرجان وخراسان وما وراء النهر والتركستان والهند . وقد أفادته هذه الرحلات فأمده بحصيلة وفيرة من المعلومات والمعارف ، ومكنته من لقاء كثير من رجال العلم والأئمة وشيوخ الصوفية المعروفين فی عصره ، والممثلين الصادقين والادعیاء للمذاهب والفرق المختلفة . وحادث بعض هؤلاء ، وجادل بعضهم ، واستمع الی آراء كثير من الشيوخ وجمع أقوالهم ، وبهذا حصل علی مادة متنوعة وحیة استخدمها فی حکایاته عن الشيوخ الذين ترجم لهم ، وفی القائه الاضواء علی مختلف الأمور التي عالجاها فی كتابه .

ویبدو ان الهجویری مر بفترة عاصفة من حیاته قبل أن يتصوف ، وأنه بدأ رحلاته فی خلال تلك الفترة وهو لا يزال فی سن الشباب ، وكانت أولى رحلاته .

رحلته الی العراق : وقد صور لنا حیاته فیها ، وكيف أنه انشغل بجمع الثروة وبعثرتها ، والتف حوله بعض الفضولیین واخوان السوء الذین ارهقوه بمطالبهم حتی عجز عن تحقیق رغباتهم ، وغرق فی الدیون .

ویبدو ان الهجویری كان علی صلة ببعض رجال الدین والأئمة المعروفين فی ذلك العصر ، وربما كانوا من طبقة والده أو من أساتذته الذین تتلمذ علیهم ، وكان من بین هؤلاء شخص يتابع أخباره ، وعرف نوع الحیاة التي انغمس فیها ، فاشفق علیه منها ، وبعث الیه برسالة ينصحه فیها ويحذره من أن يشغل قلبه عن الله بالاهتمام بتحقیق رغبات أولئك الذین ملأ الهوى قلوبهم ، وطلب منه أن یکف عن ذلك (١) .

(١) كشف المحجوب ص ٢٢٩ .

وأحدثت رسالة ذلك السيد اثرها في نفس الهجویری في الحال ، وأحس بالراحة ، ويبدو انه اتجه بعدها الى التوبة .

وفي العراق زار الهجویری « بغداد » ونواحيها ، ورأى هناك جماعة من الصوفية المزيّفين ، سماهم « الملاحدة » ، وكانوا يدعون كذبا انهم ينتسبون الى الحلاج ، واتخذوا من بعض اقواله حجة لزندقتهم ، وأطلقوا على انفسهم اسم « الحلاجيين » (١) . وكان الشيخ الكبير أبو جعفر محمد ابن المصباح الصيدلانی ومعه أربعة آلاف من اتباع الحلاج الحقيقيين المنتشرين في العراق يصبون اللعنة على هؤلاء الحلوليين الذين ينسبون انفسهم زورا الى الحلاج (٢) .

رحلته الى فرغانه : من المرجح أن تكون هذه الرحلة هي الرحلة الثانية من رحلات الهجویری ، وانه قام بها بعد أن اقلع عن حياة اللهو والمبث واتجه الى التوبة ، وأخذ يتقرب الى شيوخ الصوفية بزيارة بعض الاحياء منهم ، وزيارة قبور من ودعوا الحياة . ونجد في مقدمة الاحياء الذين زارهم : « الباب الفرغانی » (٣) .

والباب هذا كان شيخا من الاوتاد يدعى « عمر » ، ويقيم في قرية من قرى فرغانه اسمها « شلاتك » ، وقد اطلقوا عليه هذا الاسم جريا على عادة أهل تلك الديار الذين كانوا يطلقون اسم « الباب » على الشيوخ الكبار (٤) .

ولما مثل الهجویری بين يدي « الباب » سأله : لم جئت ؟ قال : لأرى الشيخ ، وليشملني بعين رعايته . فقال له الباب : يابني ؟ انني أراك منذ اليوم (الفلانی) ، فلما أحصى الهجویری السنين والايام وجد أن اليوم المشار اليه هو اليوم الذي بدأ فيه توبته . ونصحه الباب أن يقلع عن السفر والتجول ، فالأمر ليس موقوفا على زيارة المشايخ ، وانما عليه بالهمة .

وفي هذه الزيارة رأى الهجویری كرامة من كرامات الباب (٥) .

(١) كشف المحجوب من ١٩٢ .

(٢) السابق من ٢٢٤ .

(٣) ترجم له جامی في نعات الانس وقال ان شيخ الاسلام عبد الله الاتصاری ذكر ان الشيخ « مو » راه (انظر : « نعات الانس » من ٢٨٢) ، والشيخ « مو » : كنيته أبو اسماعيل ، واسمه أحمد بن محمد بن حمزة الصوفي ، توفي سنة ٤٤٢ هـ وتبره في هراة (انظر : « سفينة الاولياء » من ١٦٣) .

(٤) « كشف المحجوب » من ٣٠١ .

(٥) « كشف المحجوب » من ٣٠١ .

رحلته الى الشام :

يبدو ان نصيحة الباب للهجویری بالكف عن زيارة المشايخ قد لاقت منه اقتناعا وقبولا . وكان عليه بعد ذلك ان يختار لنفسه موجه روحيا ومرشدا يسلم اليه امره ، ويسلك الطريق بارشاده .

ورحل الهجویری الى بلاد الشام ، وهناك التقى بأبى الفضل محمد بن الحسن الختلى فاتخذ منه مرشدا وقدوة (١) .

وكان الختلى يسكن « بيت الجن » وهى قرية تقع بين « بانيار » و « دمشق » . ولازم الهجویری شيخه الختلى مدة طويلة ، وظل يصحبه الى ان توفى ، وكان يتردد على دمشق فى رفقته (٢) .

وفى بلاد الشام زار الهجویری قبر « بلال » مؤذن الرسول عليه السلام ، وبات ليلة على القبر ، ورأى الرسول فى نومه (٣) .

كذلك ذهب الى الرملة لزيارة « ابن المعلا » وكان شيخا من كبار شيوخ الصوفية وسادة اهل زمانه . وقد وجده الهجویری من المهتمين بالحسين ابن منصور الحلاج (٤) .

رحلته الى آذربيجان :

فى اثناء الفترة التى لازم فيها الهجویری شيخه الختلى كان يتردد فى رفقته على ديار آذربيجان ، فرأى بضعة افراد من أصحاب المرقعات واقفين على بيدر قمح ، وقد مدوا أنيال مرتعاتهم ليضع فلاح فيها القمح ، فالتفت الشيخ اليهم وقرا : « اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى بما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » (٥) فسأل شيخه : بأى خذى ابتلى هؤلاء وفضحوا على هذا النحو ؟ فأجابه الشيخ بأن شيوخهم كانوا يحرصون على جمع المريدين وهم يحرصون على جمع اسباب الدنيا ، وليس حرص بأولى من حرص (٦) .

وفى جبال آذربيجان رأى الهجویری درويشا كان يسير وهو يردد أبياتا من الشعر ، وبدا عليه الشحوب ، وجلس مسندا ظهره الى حجر ثم فارق الحياة (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٢) « السابق » ص ٣٠٠ .

(٣) « السابق » ص ١١٦ .

(٤) « السابق » ص ٤٤٧ .

(٥) « سورة البقرة » آية ١٦ .

(٦) « كشف المحجوب » ص ٦٤ .

(٧) « السابق » ص ٥٣٥ .

رحلته الى خوزستان وفارس :

من بين الأقاليم التي أشار الهجویری الى انه قام بزيارتها اقلية خوزستان وفارس . وقد رأى فيهما وفي بغداد وخراسان خمسين مؤلفا من مؤلفات الحلاج (١) .

رحلته الى جرجان :

كذلك زار الهجویری اقليم جرجان ، وتردد كثيرا على « بسطام » حيث يوجد قبر أبي يزيد البسطامي ، فقد اعتاد كلما اعترضته مشكلة في الطريق ان يذهب الى بسطام ويقيم فيها مجاورا على قبر أبي يزيد حتى تحل مشكلته . وفي احدى المرات امتدت اقامته على القبر لمدة ثلاثة اشهر (٢) .

رحلته الى خراسان :

وذهب الهجویری الى اقليم خراسان ، ويبدو انه اقام فيه طويلا ، وزار عددا من ولاياته ومدنه وقراه .

وقد وصف الهجویری خراسان في عصره بأنها موضع اقبال الحق ، وذكر انه رأى فيها وحدها ثلاثمائة من الصوفية لكل منهم مشرب خاص ، ويكنى أن يكون في العالم واحد منهم ، ذلك ان شمس المحبة واقبال الطريقة في طالع خراسان (٣) .

ومن بين المناطق التي زارها الهجویری في خراسان ولاية « قومس » ، وكان في ذلك الوقت يعاني مشكلة اعترضته في الطريق ، وهناك نزل في خانقاه للدراويش ، واساء هؤلاء معاملته ، ولكن هذه المعاملة الخشنة افادته من ناحية أخرى ، فقد أحس بعدها بالراحة ، وحلت واقعته (٤) .

وكان الهجویری يتردد على « نيسابور » لزيارة (خواجه) المظفر ابن حمدان وهناك سمع منه رأيه في الفناء والبقاء (٥) .

كذلك التقى الهجویری في « نيسابور » بأبي القاسم القشيري ، وحدثه القشيري بقصة ذهابه الى خرقان لزيارة أبي الحسن الخرقاني (٦) ، وسمع

(١) « كشف المحجوب » ص ١٠١ .

(٢) « السابق » ص ٧٧ .

(٣) « السابق » ص ٢١٦ .

(٤) « السابق » ص ٧٧ .

(٥) « السابق » ص ٢١٢ .

(٦) « السابق » ص ٢٠٥ .

الهجویری فی نيسابور ایضا رأى القشیری فی مسألة الفقر والغنى (١) .
أما مدينة « طوس » فیبیدو أن الهجویری أقام فیها فترة ، كان یتردد خلالها
على شیخه أبی القاسم الجرجانی ویلتقى منه تعالیمه الروحية (٢) .

وقد التقى الهجویری فی مدينة « سرخس » بالسید الامام الحزامی الذی
حدثه بقصة کرامة من کرامات الشیخ أبی الفضل حسن السرخسی (٣) .

وفی مدينة « مرو » رأى الهجویری الرسائل المتبادلة بین أهل « مرو »
وأهل « نسا » من السیارية أتباع أبی العباس السیاری (٤) .

وفی مرو ایضا قال له واحد من أئمة الحدیث المعروفین انه ألف کتابا فی
إباحة السماع ، فقال له الهجویری : انها لمصیبة کبری حلت بالدين أن
أحل السید الامام لهوا هو أصل جمیع الفساد (٥) .

کذلك زار الهجویری مدينة « میهنه » موطن أبی سعید بن أبی الخیر
وأقام على قبره ثلاثة أيام ، ورأى کرامة من کراماته (٦) ، والتقى أثناء هذه
الزيارة بلظفر (٧) ابن الشیخ أبی سعید . ورأى ایضا خادم أبی سعید
الخاص ومريده « حسن بن المؤدب » ، وقص علیه هذا الآخر قصة زیارة
أبى سعید لأبى الحسن الخرقانی فی خرقان (٨) .

رحلته الى ما وراء النهر :

نکر الهجویری انه كان لفترة طويلة ، فی ما وراء النهر ، صديقا لأحمد
ابن حماد السرخسی (٩) ، ورأى منه عجائب كثيرة (١٠) . ومن الأشياء التى
استمع إليها منه قصة توبته (١١) ، ورأيه فی الزواج (١٢) .

وفی ما وراء النهر ایضا رأى الهجویری رجلا من أهل الملامة كان لا یأكل
إلا ما یعافه الناس ، کالکرات الذابل والقرع المر والجزر التالف . وكان

-
- (١) « كشف المحجوب » ص ٢٨ .
 - (٢) « السابق » ص ٥٥ ، ٣٠١ .
 - (٣) « السابق » ص ٢٨٧ .
 - (٤) « السابق » ص ٣٢٢ .
 - (٥) « السابق » ص ٤٦٧ .
 - (٦) « السابق » ص ٣٠١ - ٣٠٢ .
 - (٧) « السابق » ص ٢١٦ .
 - (٨) « السابق » ص ٢٠٥ .
 - (٩) « السابق » ص ٤٧٦ .
 - (١٠) « السابق » ص ٢١٦ .
 - (١١) « السابق » ص ٢٤٢ .
 - (١٢) « السابق » ص ٤٧٧ .

يصنع ملابسه من الخرق البالية التى يلقيها الناس فى الطريق ، فيجمعها ويغسلها ويصنع منها مرقعة (١) .

كذلك رأى فى مدينة بخارى الشيخ أحمد السمرقندى ، ولم يكن قد نام الليل لمدة أربعين عاما ، وكان ينام قليلا اثناء النهار (٢) .

رحلته الى التركستان :

وذهب الهجویری الى التركستان ، وصور لنا مشاهداته فى هذه الرحلة فقال انه رأى النار فى احدى المدن التى تقع على حدود البلاد الاسلامية ، وقد اندلعت فى جبل ، وكان النواشادر يفور من أحجاره ، وفى وسط تلك النار كان يوجد فأر حى فلما خرج من النار هلك (٣) .

رحلته الى الهند :

وفى نهاية المطاف رحل الهجویری الى بلاد الهند حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته فى مدينة « لاهور » ، وظل بهذه المدينة الى ان توفى ، ولا يزال قبره بها .

(١) « كشف المحجوب » ص ٥٦ .

(٢) « السابق » ص ٤٦٠ .

(٣) « السابق » ص ٥٣١ - ٥٣٢ .

الفصل السادس المرحلة الأخيرة من حياة الهجویری استقرار الهجویری فی لاهور وفاته فیما وقبره

تذكرنا من قبل أن الهجویری أمضى الفترة الأخير من حياته فی بلاد الهند حيث استقر به المقام فی مدينة لاهور . وظل بها الى أن توفي ، ولا يزال قبره هناك .

وقد أشارت بعض المصادر الى أن الهجویری ذهب الى الهند بناء على أمر صدر اليه من شيخه أبی الفضل الختلی (١) . وراينا فیما ورد فی كشف المحجوب عن الختلی أن الهجویری لازمه الى أن توفي فی قرية « بيت الجن » (٢) بسوريا . فاذا صح التاريخ الذى أورده صاحب خزينة الأصفیاء لوفاة الختلی ، وهو سنة ٤٥٣ هـ (٣) ، فان الهجویری يكون قد ذهب الى الهند بعد هذا التاريخ ، أى بعد سنة ٤٥٣ هـ .

ومما لا شك فيه أن هذا التاريخ المذكور يبعد عن الصواب ، ذلك أن الهجویری كان أسیراً فی لاهور أثناء الفتنة التى وقعت بها سنة ٤٣٥ هـ ، وقد أشار هو بنفسه الى أنه كان يؤلف أجزاء من كشف المحجوب خلال فترة الأسر (٤) ، وفى هذا ما يؤيد أنه رحل الى لاهور قبل سنة ٤٣٥ هـ ، لو يرجع فی نفس الوقت ما ذكرته بعض المصادر من أن الهجویری ذهب الى الهند سنة ٤٣١ هـ ، أثناء الاضطرابات التى وقعت فی غزنه فی أواخر عصر السلطان مسعود الغزنوی (٥) .

غير أن هناك اشارتين وردتا فی كشف المحجوب ، لهما دلالات معينة :
الأولى : أن الهجویری أشار فی موضع من الكتاب الى أنه اطلع على الرسالة التفسيرية واقتدى بنظامها فیما يتعلق بترتيب بعض الأشخاص

(١) « خزينة الاصفیاء » ج ٢ من ٢٢٢ .

(٢) « كشف المحجوب » من ٢٠٩ .

(٣) « خزينة الاصفیاء » ج ٢ من ٢٣١ .

(٤) « كشف المحجوب » من ١١٠ .

(٥) « تذكرة حضرت علی هجویری » من ٢٠ ، « The Life and Teachings » p. 23

في القسم الخاص بالتراجم (١) . ومن المعروف أن الرسالة الفت سنة ٤٣٧ هـ . فلا بد أنه اطلع عليها بعد هذا التاريخ .

والثانية : صرح الهجویری بأنه قام بزيارة قبر أبی سعید بن أبی الخیر فی « میهنه » ، وأقام على القبر ثلاثة أيام (٢) . ومن البديهي أن هذه الزيارة تمت بعد وفاة أبی سعید سنة ٤٤٠ هـ .

واستنادا الى ما تقدم نرى أنه من المحتمل أن يكون الهجویری قد ذهب الى بلاد الهند مرتين :

المرّة الأولى : ضمن جولاته في العالم الاسلامی ، فذهب الى بلاد الهند أيضا . وكان ذهابه اليها قبل سنة ٤٣٥ هـ ، وليس هناك ما يمنع من أنه ذهب في عام ٤٣١ هـ ، وكان لا يزال في الهند عندما وقعت فتنة لاهور سنة ٤٣٥ هـ ، وأسر بين الأسرى .

والمرّة الثانية : ذهب فيها الهجویری الى بلاد الهند بعد وفاة أبی سعید ابن أبی الخیر سنة ٤٤٠ هـ . وفي هذه المرّة استقر نهائيا في مدينة لاهور حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته .

ومن المحتمل أن يكون قد أمضى الفترة ما بين الرحلتين ، أو جزءا منها ، في غزنه وخراسان ، حيث استعاد كتبه ، واطلع على الرسالة القشيرية ، وقام بزيارة قبر أبی سعید بعد وفاته سنة ٤٤٠ هـ . ثم رحل الى الهند واستقر بها .

أما عن حياة الهجویری في الهند ، وعلى وجه التحديد في مدينة لاهور ، فيبدو أنها كانت حياة حافلة في النواحي الدينية عامة والصوفية خاصة ، فقد أم الهجویری لاهور بعد أن طوف طويلا في العالم الاسلامی ، والتقى بكثير من رجال الدين والأئمة المعروفين على عهده ، وتلمذ على عدد من شيوخ الصوفية المشهورين في النصف الأول من القرن الخامس الهجري . واطلع في الوقت نفسه على كثير من المؤلفات الدينية والصوفية ، واستطاع عن طريق هذا وذاك أن يبلغ درجة تؤهله للاقاء الدروس الدينية ، وهداية الناس وارشادهم . فلما آتس من نفسه القدرة على الاسهام في الدعوة الى الاسلام ، اتجه الى ذلك المجتمع الذي كان قد انضم حديثا الى العالم الاسلامی ، ليمارس نشاطه في نشر تعاليم الدين ، والدعوة الى الحياة الروحية الخالصة ، داخل حدود الدين الاسلامی .

(١) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .

(٢) « السابق » ص ٣٠١ .

وسواء كان انتقال الهجویری الى الهند تلبية لأمر شيخه « الختلی » ،
أو استجابة لرغبته الشخصية في نشر الدين الاسلامی في تلك البقاع ، فإنه
استطاع أن ينال ثقة الاهالی في لاهور فتعلقوا به واحاطوه بهالة من الاجلال
والتعظيم .

وعندما بلغ الهجویری لاهور : اختار لاقامته الجهة الغربية من المدينة ،
قرب معبد للهندوس على نهر راوی (١) ، حيث يوجد مزاره الآن ، وبنى
في تلك البقعة مسجداً ، وجمع حوله عدداً من الطلاب ، وأخذ يقوم بالتدريس
لهم . ثم تولى عن التعليم لأنه في نظره يبرز نوعاً من السمو والتعالی
على الآخرين (٢) .

وقد أسهم الهجویری في تحول عدد كبير من سكان تلك المنطقة الى
الاسلام ، وكان أولهم « رای راجو » (٣) نائب لاهور في عهد السلطان مودود ،
فأسلم على يديه واتخذ لنفسه اسم « الشيخ الهندي » (٤) .

وأقام الهجویری في مسجده خاتماًها (٥) ، والنف حوله فيها المريدون من
لاهور وجميع أنحاء البنجاب . ولم يكن تأثيره مقصوراً على المسلمين ، بل
كان يحضر مجلسه عدد كبير من غير المسلمين ، واسلموا على يديه (٦) .

ويقال انه عندما بنى الهجویری المسجد ، كان محرابه يميل قليلاً الى
الجنوب عن محاريب المساجد الأخرى ، فاعترض عليه العلماء والأئمة في
ذلك الوقت ، وصبت الهجویری ، وذات يوم جمعهم وأهمهم للصلاة في
المسجد ، ولما قضيت الصلاة قال للحاضرين : انظروا في أي اتجاه توجد
المكعبة ؟ فارتفعت عنهم الحجب ، وظهرت لهم المكعبة محاذية للمسجد (٧) .
وقد روت بعض المصادر هذه القصة على أنها كرامة من كرامات الهجویری .

ويبدو أن الهجویری لم ينقطع عن التأليف والتصنيف خلال الفترة التي
قضاها في لاهور ، وإذا صحت نسبة كتابي : « ثوابت الأخبار » و « كشف
الأسرار » إليه ، فإنه يكون قد ألفهما في هذه الفترة .

(١) « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٨٧ .

(٢) « The Life and Teachings » p. 24.

(٣) « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٨٨ .

(٤) « The Life and Teachings » p. 24.

(٥) « خزينة الاصفیاء » ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٦) « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٨٧ .

(٧) « سفينة الاولیاء » ص ١٦٤ ، « خزينة الاصفیاء » ج ٢ ص ٢٣٣ .

وقد ظل الهجویری یمارس نشاطه الروحي والديني في مدينة لاهور حتى أدركته الوفاة بها ، وقام مريدوه والمعتقدون فيه بدفنه بالقرب من مسجده (١) .

وكان یرافق الهجویری في رحلته الى لاهور اثنان من رفاقه وهما « أحمد ابن حماد السرخسی » (٢) الذي رافقه لمدة طويلة في ما وراء النهر ، و « أبو سعيد الهجویری » (٣) الذي كتب كشف المحجوب ردا على سؤاله . وقد بقى هذان الصديقان في صحبة الهجویری طيلة اقامته في مدينة لاهور ، وظلا بها بعد وفاته حتى وانماهما أجلهما في هذه المدينة ، ودفنا الى جواره . ولا يزال قبراهما داخل ضريح الهجویری (٤) .

تاریخ وفاته :

تاریخ وفاة الهجویری مختلف فيه (٥) . وهناك تواریخ ثلاثة لوفاته ، یرد ذكرها أكثر من غيرها في معظم الكتب التي تحدثت عن الهجویری وعن كتابه كشف المحجوب ، وهذه التواریخ هي :

سنة ٥٦٦ هـ ، سنة ٦٥٥ هـ ، الفترة ما بين سنتی ٦٥٥ ، ٦٦٩ هـ .

ومما یؤسف له ان « جامی » ، على الرغم من اعتماده الكبير في « نفحات الأنس » على كتاب كشف المحجوب ، وما یكنه لؤلؤه من الاعزاز والتقدير ، فانه عندما ترجم له أغفل تاریخ وفاته ، واكتفى بذكر مقتطفات قليلة من كشف المحجوب .

ولم یقطع « دارا شکوه » برأى في هذا الموضوع ، وانما أورد تواریخين لوفاة الهجویری فهو یقول : « وكانت وفاته في سنة ٥٦٦ هـ في قول ، وفي سنة ٦٦٤ هـ في قول آخر » (٦) .

أما صاحب « خزينة الأصفیاء » فقد زاد على هذين التواریخين تاریخا

(١) « ملال » جلد پنجم — شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ .

(٢) « كشف المحجوب » انظر ص ٧٦ .

(٣) « السابق » انظر : ص ٧ .

(٤) « The Life and Teachings » p. 26.

(٥) « لم یحاول » زوكوفسکی في المقدمة القيمة التي كتبها لكشف المحجوب عندما طبعه لأول مرة أن یبحث هذه المسألة واكتفى بأن قال : « من سوء الحظ أننا لا نملك مصدرا واحدا یقدم لنا معلومات عن حياة الهجویری بطريقة مفصلة ودقیقة ، بل أننا لا نعرف حتى تاریخ مولده ووفاته » انظر :

Zhukovsky's Introduction : Bulletin of Oriental Studies.

(٦) « سفينة الاولیاء » ص ١٦٥ .

آخر هو : سنة ٦٥ هـ (١) ، وذكر انه استقى هذا التاريخ من الأتوال الموثوقة لصاحبى « نفحات الانس » (٢) ، و « أخبار الأصفياء » . وأضاف أنه توجد قطعة من الشعر على بوابة ضريح الهجویری تحمل تاريخ وفاته ومجموع هذه القطعة يساوى ، فى حساب الجمل : ٦٥ (٣) . وورد ذكر هذا التاريخ أيضا فى كل من : « كشف الظنون » (٤) ، و « هدية العارفين » (٥) .

وقد تابع كتاب الفهارس الغربيون : « ايتة » و « ريو » و « بلوشيه » ، دارا شكوه فى ذكر التاريخين اللذين وردا فى « سفينة الاولياء » وهما : ٥٦ ، ٦٤ هـ ، ونقلوا هذين التاريخين ، اما عن « رياض الاولياء » (٦) ، واما عن سفينة الاولياء ، وزاد عليهما « ايتة » التاريخ : ٦٥ هـ ، نقلًا عن « مآثر الكرام » (٧) .

غير أن « ريو » يستبعد صحة التاريخين : ٥٦ ، ٦٤ هـ ، ويستند فى ذلك الى أن الهجویری كان معاصرا لأبى القاسم القشیرى المتوفى سنة ٦٥ هـ ، وأن اسم القشیرى يرد فى بعض مواضع من كشف المحجوب وقد اضيف اليه عبارة (رحمة الله) ، او (رحمة الله عليه) (٨) ، وبناء على هذه الملاحظة يقول « ريو » ان ايا من هذين التاريخين لا يتفق مع هذه الحقيقة ، ولذا فهو يرجح أن تكون وفاة الهجویری بعد سنة ٦٥ هـ (٩) ، اى بعد وفاة القشیرى .

وفى رأينا ان ملاحظة « ريو » هذه ليست على جانب كبير من الصواب ، ونستند فى ذلك الى الأمور التالية :

أولا : ليس من المستبعد أن تكون هذه الإضافات من فعل الناسخ ، وما يؤيد هذا أن اسم الهجویری نفسه ورد فى موضع من كشف المحجوب وقد اضيف اليه عبارة (رحمة الله) (١٠) .

(١) « ورد هذا التاريخ فى كتابى » : سبك شناسى ج ٢ ص ١٨٧ ، « تاريخ ادبيات ايران » ص ٢ ص ٨٩٢ .

(٢) « لم يرد فى ترجمة الهجویری فى كتاب نفحات الانس ذكر تاريخ وفاته (انظر : ص ٣١٦ - ٣١٧) . واذا صح ما ذكره صاحب خزينة الاصفياء فربما كان هذا التاريخ فى حاشية من حواشى النفحات وليس فى النص .

(٣) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٤) « كشف الظنون » ج ٢ عمود ١٤٩٤ .

(٥) « هدية العارفين » ج ١ عمود ٦٩١ .

(٦) Rieu : Catalogue of the Persian Manuscripts : Vol. I ,

(٧) Ethé : Catalogue of Persian Library : Vol. I .

(٨) « كشف المحجوب » انظر (٤٠ ، ٣٩) .

(٩) « كشف المحجوب » Vol. I .

(١٠) « كشف المحجوب » ص ٣٠٠ حاشية ٤٤ ، ص ٣١٦ .

ثانيا : اذا كانت عبارة (رحمه الله) اضيفت الى اسم القشيري بواسطة الهجویری ، فمعنى هذا ان كتاب « كشف المحجوب » قد تم تأليفه بعد وفاة القشيري سنة ٤٦٥ هـ ، وهذا مخالف للحقيقة ، فمما لا شك فيه ان كشف المحجوب الف قبل هذا التاريخ بفترة طويلة (١) .

ثالثا : ان القشيري كان حيا عند تأليف كشف المحجوب ، والدليل المادى على هذه الحقيقة موجود فى الكتاب نفسه ، فبالرجوع الى الباب الثانى عشر (باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين) نجد ان الهجویری ترجم للقشيري ضمن عشرة من شيوخ الصوفية ، ومن بين هؤلاء يوجد اثنان فقط من الواضح انهما كانا على قيد الحياة اثناء تأليف الكتاب ، وهما « أبو القاسم الجرجاني » و « القشيري » وتتضح هذه الحقيقة من العبارة التى ترجم بها الهجویری لهما ، فهو يستعمل فى ترجمتهما الرابطة (است) (٢) وذلك على خلاف الفعل الماضى (بود) (٣) الذى يستعمله فى التراجم الثمانى الأخرى مما يدل على ان أصحابها لم يكونوا على قيد الحياة ، وتواريخ وفاة هؤلاء معروفة ، وترجع كلها الى ما قبل تأليف كشف المحجوب . كما وردت بالكتاب عبارة صريحة تشير الى أن الجرجاني كان حيا عند تأليفه ، وترجمتها : « والشيخ أبو القاسم الجرجاني رضى الله عنه ، وهو اليوم القطب المدار عليه ، إبقاه الله » (٤) .

اما « نيكولسون » فيبدو أن ملاحظة « ريو » قد اثارت انتباهه ، فتقبل — فى مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب — فكرة وفاة الهجویری بعد سنة ٤٦٥ هـ ، وان كان قد استند الى دليل آخر غير الذى استند اليه ريو وهو : أنه من الواضح من كتاب كشف المحجوب ان أبا القاسم الجرجاني كان حيا عند تأليفه . ومن المعروف ان الجرجاني توفى سنة ٤٥٠ هـ ، ولكن نيكولسون وجد تاريخا آخر لوفاة الجرجاني فى كتاب « شذرات الذهب » وهو سنة ٤٩٦ هـ (٥) وبناء عليه رجح ان الهجویری توفى بعد عام ٤٦٩ هـ أو على الأقل فيما بين ٤٦٥ ، ٤٦٩ هـ (١) .

واذا كنا نتفق مع نيكولسون فى أن الجرجاني كان حيا عند تأليف كشف المحجوب ، الا أننا نختلف معه فى أنه توفى سنة ٤٦٩ هـ ، حقيقة أن هذا

(١) (ارجع الى تاريخ تأليف الكتاب فى الباب الثانى : الفصل الاول) .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٢١١ ، ٢٠٩ « است » = يكون ، كائن .

(٣) « السابق » ص ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢ « بود » = كان .

(٤) « السابق » ص ٢٥٩ .

(٥) « شذرات الذهب » ج ٢ ص ٧٠ .

(٦) « نيكولسون » (انظر : مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .

التاريخ ورد في شذرات الذهب ، ولكن من الواضح ان هناك خطأ ما ، فمن
الثابت أن الجرجاني توفي سنة ٤٥٠ هـ (١) .

وترد في بعض الكتب والمقالات اشارات تشير الى تواريخ متأخرة لوفاة
الهجویری ، منها ما يشير الى سنة ٤٧٠ هـ (٢) ، ومنها ما يشير الى أبعد
من ذلك فيجعل وفاته فيما بين ٤٨١ ، ٥٠٠ هـ (٣) .

على أنه يبدو أن أصبح هذه التواريخ واقربها الى الصواب : التاريخ
الذي ذكره صاحب خزينة الاصفياء وهو سنة ٤٦٥ هـ ، ذلك ان « مفتی
غلام سرور » مؤلف الخزينة ، مواطن لاهوري نشأ وتربی في البيئة التي
توفي بها الهجویری ، وقام بزيارة قبره عدة مرات ، وهو يصرح بأنه استقى
هذا التاريخ من نفحات الانس وأخبار الاصفياء ، وأن هناك قطعة من الشعر
مكتوبة على البوابة الداخلية لضريح الهجویری تشتمل على هذا التاريخ (٤) .

وقد توالى ذكر هذا التاريخ في ثلاثة من الكتب والمقالات الحديثة ، مضافا
اليه الشهر واليوم الذي توفي فيه الهجویری ، فجاء تاريخ وفاته على هذا
النحو :

التاسع من محرم سنة ٤٦٥ هـ (٥) .

التاسع عشر من صفر سنة ٤٦٥ هـ (٦) .

الثاني عشر من ربيع الاول سنة ٤٦٥ هـ (٧) .

واذا كنا نلاحظ اختلافا بين هذه التواريخ في الشهر واليوم ، الا انها
جميعا تتفق على سنة ٤٦٥ هـ .

وهناك ثلاث قطع من الشعر الفارسی تنسب الى : (خواجہ) معين
الدين جشتی (٦٣٣ هـ) ، ومولانا جامی (٨٩٨ هـ) ، والشاعر الباكستاني
محمد اقبال (١٩٣٨) ، وهذه القطع الثلاث مكتوبة على جدران مزار
الهجویری ، وتتضمن كل قطعة منها كلمة أو عبارة تشير الى تاريخ وفاة
الهجویری ومجموعها بحساب الجمل يساوي ٤٦٥ .

(١) « سيرة الاولياء » ص ٧٥ ، « طرائق الحقائق » ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٢) « شد الازار » : انظر : ص ١٨٠ حاشية ٣ .

(٣) The Life and Teachings : p. 24. نقل من :
«Oriental College Magazin, Lahore (Volume 36. p. 27-43)

(٤) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٥) « تذكرة حضرت علي هجویری » ص ٤٩ .

(٦) مجلة « هلال » شمارة سوم اردیبهشت ١٣٢٢ هـ ش .
The Life and Teachings : p. 24. (٧)

أما القطعة الأولى ، فهي مكتوبة على حائط الباب الى اليسار ، وتحمل اسم خواجه معين الدين ، وهي :

این روضه که بانیش شده فیض الست(۱)
مخدوم علی راست که باحق بیوست
در هستی نیست شد هستی یافت
زان سال وصالش افضل آمداز (هست) (۲)
سنة ۶۵ هـ خواجه معين الدين جشتی

وترجمتها :

۱ — هذه هي الروضة التي بنيت لفيض « الازل » ، المخدوم « على » الذي اتصل بالحق .

۲ — فني عن الوجود نادرك البقاء ، ولذا فالأفضل أن جاءت سنة وصاله من كلمة (هست) .

والقطعة الثانية للجامي (۳) : موجودة على بوابة داخلية في الطريق الى الضريح ، وهي :

خانقاه علی هجویری است
خاک جاروب از درش بردار
طوطیاکن به نیده حق بین
تاثروی واقف بر اسرار
چونکه سردار ملک معنی بود
سال وصلش برآید ز (سردار) (۴)
سنة ۶۵ هـ مولانا جامی

وترجمتها :

— انها خانقاه علی الهجویری ، فارغ عن بابها مكنسة الغبار .

(۱) كلمة « الست » تأتي كثيرا في الفارسية بمعنى : الازل ، وهي اشارة الى الآية الكريمة : « واذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريعتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم » سورة الاعراف الآية ۱۷۲ .

(۲) « هست » بمعنى : موجود ، و « هست » بحساب الجبل = هـ (۵) + م (۶۰) + ت (۴۰۰) = ۴۶۵ .

(۳) من المرجح ان هذه القطعة المنسوبة الى الجامي هي التي اشار اليها مؤلف خزينة الاصنياء . (انظر ج ۲ ص ۲۲۴) .

(۴) الكلمة « سردار » بمعنى « قائد » كانت مستعملة في العربية ، ويجوزها بحساب الجبل : م (۶۰) + ر (۲۰۰) + د (۴) + ا (۱) + ز (۲۰۰) = ۴۶۵

— أيها البيفاء ؟ انظر بعين مبصرة للحق ، لتقف على الاسرار .
 — ولما كان سردار ملك المعنى ، فان سنة وصله تستخرج من كلمة
 (سردار) .

والقطعة الثالثة : لحمد اقبال ، وتوجد على حائط البوابة الشرقية ،
 وهى :

سال بنائى حرم مومنان
 خواه ز جبريل ز هاتف مجو
 جثم (به مسجد اقصى تكن) (١)
 « الذى باركه » هم بكو
 سنة ١٦٥ هـ علامه اقبال (٢)

وترجمتها :

— سل جبريل عن تاريخ بناء حرم المؤمنين ، ولا تسل الهاتف عنه .
 — والى بيصرك الى المسجد الاقصى ، وقل ايضا : « الذى باركه » (٣) .
 وعلى الرغم من ان ضريح الهجویری ومسجده قد اعيد بناء بعض اجزائهما ،
 وادخلت عليهما تعديلات كثيرة ، وزيد فى مساحتهما مما يحتل معه ان تكون
 بعض هذه الاشعار قد اعيد كتابتها فى وقت متأخر ، الا انها تتفق فيما بينها
 على تاريخ واحد لوفاة الهجویری وهو سنة ١٦٥ هـ . وفى هذا ما يجعلنا نرجح
 هذا التاريخ على غيره من التواريخ الأخرى .

«قبر الهجویری»

لا يزال قبر الهجویری قائما فى مدينة لاهور ، داخل ضريحه ، فى المزار
 المعروف ببزار « دانا كنج بخش » ، ويوجد حاليا فى المنطقة القديمة من
 لاهور ، خارج بوابة « بهاتى » ، ويقع غربى القلعة (٤) .

(١) العبارة :	«به مسجد اقصى تكن» بحساب الجبل :
به :	ب (٢) + هـ (٥)
مسجد :	م (٤٠) + س (٦٠) + ج (٣) + د (٤)
اقصى :	أ (١) + ق (١٠٠) + ص (٩٠٠) + ی (١٠)
تكن :	ف (٨٠) + ك (٢٠) + ن (٥٠)
المجموع	١٥٠
١٦٥	

- (٢) « تفكرة حضرت على هجویری » انظر ص ٥٠ — ٥١
 (٣) اشارة الى الآية الكريمة : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام
 الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله » سورة « الاسراء » آية ١
 (٤) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ ، « تفكرة حضرت على هجویری » ص ٨٧ .

وصف المزار من الخارج :

يتكون المزار من الضريح والمسجد . ويقع المسجد في الجهة الغربية ، ويوازيه الضريح في الجهة الشرقية . وجدت ابنيتهما وزيد في مساحتهما عدة مرات . وقد وصفه صاحب تذكرة « حضرت علي هجویری » بقوله : « ان اول ما تقع عليه عين الناظر : مبنى عال يقع في الجهة الغربية منه مسجد فخم » (١) .

والضريح ، كما هو واضح في الصورة ، يتكون من سياج خارجي يتوسطه المقام حيث يوجد القبر ، وتعلوه قبة كبيرة . وتبدو داخل السياج بعض الحجرات ، كما يفتح على بعض الأبنية الداخلية الصغيرة . أما الفناء الخارجي ، فمتسع وتظهر فيه قبور بعض المريدين والمعتقدين في الهجویری (٢)

وقد دشن الهجویری عند وفاته بالقرب من المسجد الذي بناه في حياته . وكان القبر يتألف أول الأمر من الصفة وبعض المباني المحيطة بها ، والتي قام ببنائها السلطان ابراهيم الغزنوی (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) . وفي عهد السلطان اكبر اضيف اليه بعض الأبنية التي اصلحت او اعاد بناءها المهرجا « رنجيت سنغ » (٣) . ولم تكن هناك قبة فوق قبر الهجویری في البداية وفي سنة ١٢٧٨ هـ بنى « حاجي نور محمد سادو » سياجا حول الضريح تتوسطه قبة تعلو القبر (٤) وقام باصلاحها من بعده مولوی « فیروز الدین » وزین الجدران بالرخام وطلی القبة باللون الأخضر (٥) .

وكان « ميان غلام جيلاني » حنيد « مهرجهندو » قد شيد مسجدا الحقه بالضريح ، غير أن هذا المسجد هدم عند بناء المسجد الجديد المقام على أرض المسجد الذي كان قد شيده الهجویری في حياته ، بعد أن زيد في مساحته . وقد جدد بناء هذا المسجد مرتين (٦) . ويوجد في صحن المسجد الجديد لوح من الرخام طوله ثلاثة أقدام وعرضه تسع بوصات علامة على الموضع الذي كان يوجد فيه ضريح « مؤمن خان » نائب والي البنجاب في عهد محمد شاه امبراطور الهند . ولوح آخر يشير الى محراب مسجد الهجویری القديم (٧) .

(١) « تذكرة حضرت علي هجویری » ص ٥٠ .

(٢) « السابق » ص ٥٢ .

(٣) «The Life and Teachings» p. 26.

(٤) «The Life and Teachings». p. 27.

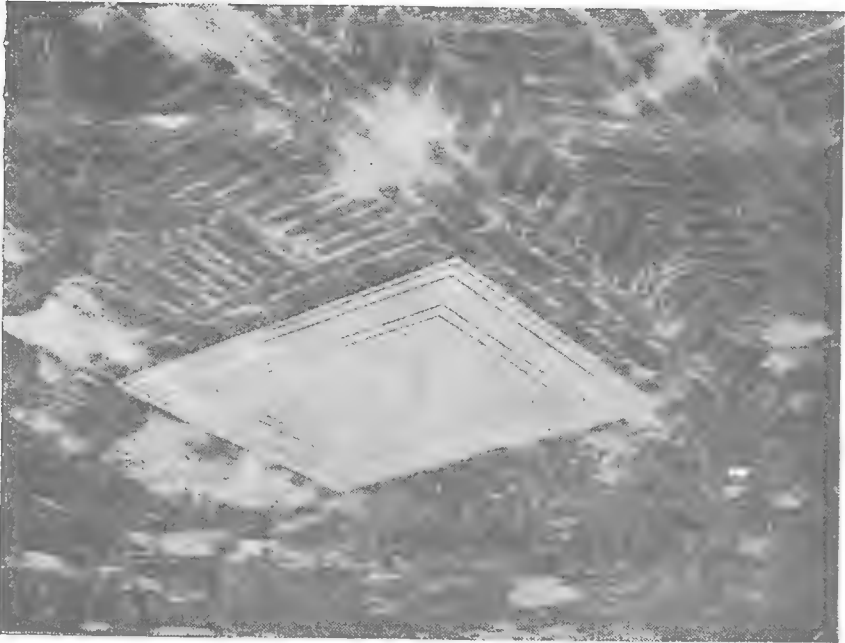
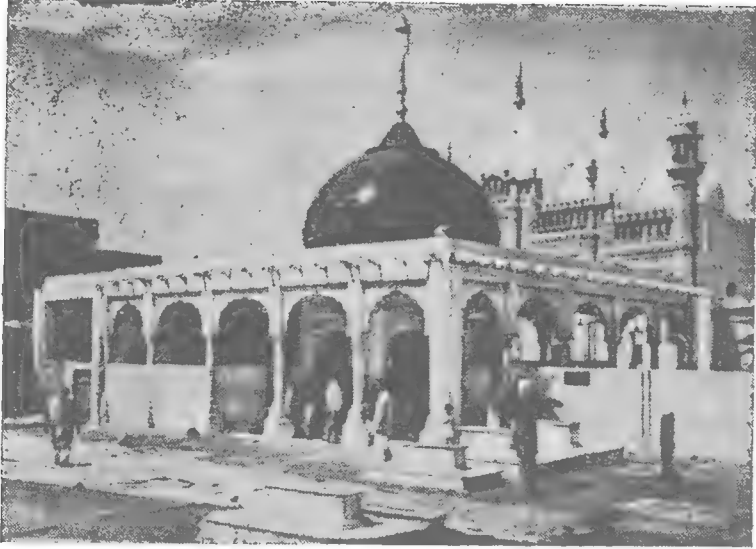
(٥) « تذكرة حضرت علي هجویری » ص ٥٢ .

(٦) « تذكرة حضرت علي هجویری » ص ٥٢ .

(٧) « خزانة الاسماء » ج ٢ ص ٢٢٢ .

(٨) « تذكرة حضرت علي هجویری » ص ٥١ .

مزار الهجویری



اللوح الرخامی فی المسجد الجدید : الذی یشیر الی
محراب المسجد القديم الذی بناه الهجویری فی حیاته .

وصف الضريح من الداخل :

يقع قبر الهجویری داخل المقام الذى يتوسط الضريح . وقد بنى القبر على صفة من الرخام الابيض ، بنى « ایواز خان » سیاجها — وایواز خان هو حارس أفيال المہراجا رنجیت سنغ — ويقع قبر الهجویری فى الوسط ويحيط به قبراً : الشيخ « أحمد السرخسی » والشيخ « أبو سعید الهجویری » (١) .

وتوجد عند رأس القبر — كما يبدو فى الصورة — لوحة رخامية كبيرة تسد أحد ابواب المقام نقش عليها آیات من القرآن الكريم ، واسم الهجویری والقباه وتاریخ وفاته وبيت من الشعر — (خواجہ) معین الدین الـ (جشتی) يشير فيه الى لقب داتا کنج بخش . ويبدو فى أسفل اللوحة اسم الشخص الذى أقامها على نفقته ، واسم الخطاط الذى نقشها .

وتفتح البوابة المواجهة للقبر على حجرة صغيرة ، وهى الحجرة التى اعتكف فيها خواجہ معین الدین وأمضى بها فترة الجله (٢) ، وعندها هم بالعودة ، وقف أمام القبر ، وقال البيت المنقوش على اللوحة . وهناك حجرة أخرى خارج حرم الضريح كان يقضى فيها الشيخ « فريد الدين كنج شكر » (٣) مدة الجله (٤) .

كما توجد داخل الضريح حجرة تسمى حجرة القرآن بها نسخ عديدة من القرآن الكريم من بينها نسخة بخط السعدى الشيرازى ، ونسخة تحمل اسم سلطان الإسلام عالمکیر المغولى (٥) . ومن أبرز النسخ المهداه : مصحف أهدته « موران » خلیة المہراجان « رنجیت سنغ » ، ونسخة أهداها الى الضريح « محمد خان » ونسخة ثالثة « لنواب ناصر » كما أهدى رنجیت سنغ نسخة نفیسة الى الضريح عقب حملته المظفرة على الأفغان . وتوجد نسخة مكتوبة بالمسک أهداها متعبد غير معروف (٦) .

«The Life and Teachings» p. 26.

(١)

(٢) « خزينة الاصفیاء » انظر ج ٢ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٣) « مسعود بن عز الدين محمود » ويعرف بفريد الدين كنج شكر . كان مريداً وخليفة لعلب الدين بختيار ، وأدرك صحبة خواجہ معین الدین الجشتی . توفى سنة ٦٦٤ هـ وقبره بين مولتان ولاهور (انظر : سفينة الاولیاء ص ٩٦) .

« خزينة الاصفیاء » ج ١ ص ٢٨٧ .

(٤) « خزينة الاصفیاء » ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٥) « تذكره على هجویری » ص ٥٢ .

«The Life and Teachings», p. 27.

(٦)

« قبر الهجویری »
وتبدو اللوحة الرخامية الى اليمين



« العبارات المكتوبة على اللوحة »

بسم الله الرحمن الرحيم

« الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

مركز تجليات

قدوة السالكين ، زبدة العارفين ، حجة الكاملين ،
سند الواصلين ، مظهر العلوم الخفية والجلية المشهور
مخدوم على الهجویری المعروف بحضرت داتا گنج بخش
لاهوری قدس الله روحه ولا زالت تجلياته وبركاته دائما
ابدا .

گنج بخش فیض عالم مظهر نور خدا

ناقصان رابع کامل کاملان را رهنما

سال وصال ۸۶۵ هـ

ما شاء الله

بناکنده (البانی)

جویدری دین محمد بن جویدری دین

کتبه عبد الحمید

غلام رسول

ومزار الهجویری من الأماكن المقدسة التي يعتز بها المسلمون في شبه القارة الهندية ، ويؤمه جمهور كبير من أبناء الهند وباكستان للزيارة والتبرك . وقد لا يعرف عامة الناس في تلك البلاد اسم « على بن عثمان الجلابي الهجویری » ، ولكن لا يوجد في شبه القارة من لا يعرف الاسم المحبوب « داتا كنج بخش » ، وعلى الرغم من مرور أكثر من تسعة قرون على وفاة صاحبه ، إلا أن هذه القرون والأعوام لم تقلل من تعلق الناس به وحبهم له ، واعتقادهم في ذلك الرجل العظيم الذي كان بسلوكه وأخلاقه وحبه لنشر الاسلام نموذجا للمسلم الحقيقي ، فقد أضاء منذ ذهابه الى الهند مشعل الاسلام ، وروج شرع الرسول في تلك البقاع المترامية الأرجاء ، وأحكم غرس بذور الدين الاسلامي في قلوب أهل تلك البلاد (١) .

وقد اثر مريدو الهجویری في لاهور في التاريخ الديني والاجتماعي والسياسي لشبه القارة تأثيرا عميقا ، فلم يكن من نتيجة حركة العلماء المسلمين الذين وفدوا على شبه القارة ، أن حملت معها ديناً يدعو الى التوحيد فحسب ، بل حملت معها ايضا الافكار الديمقراطية التي تنظم المجتمع الاسلامي ، الى الهنود الذين كانوا يعبدون آلهة متعددة ويخضعون لنظام الطبقات المهيمن .

وإذا كان مرور الأيام والأحداث ، والانقلابات السياسية والجغرافية قد استطاعت أن ينال من بناء الدولة التي اقامها السلطان محمود الغزنوي في بلاد الهند على الغزو والفتوحات ، فان بناء العشق والمحبة الذي شيده على الهجویری الغزنوي على أساس من الايمان العميق والحياة الروحية الخالصة قد ظل صامداً مع الأيام ، بل ان اسم الهجویری ليطفئ على اسم ذلك السلطان الذي طالما حطم معابد الأصنام ومعاقل الشرك والضلال .

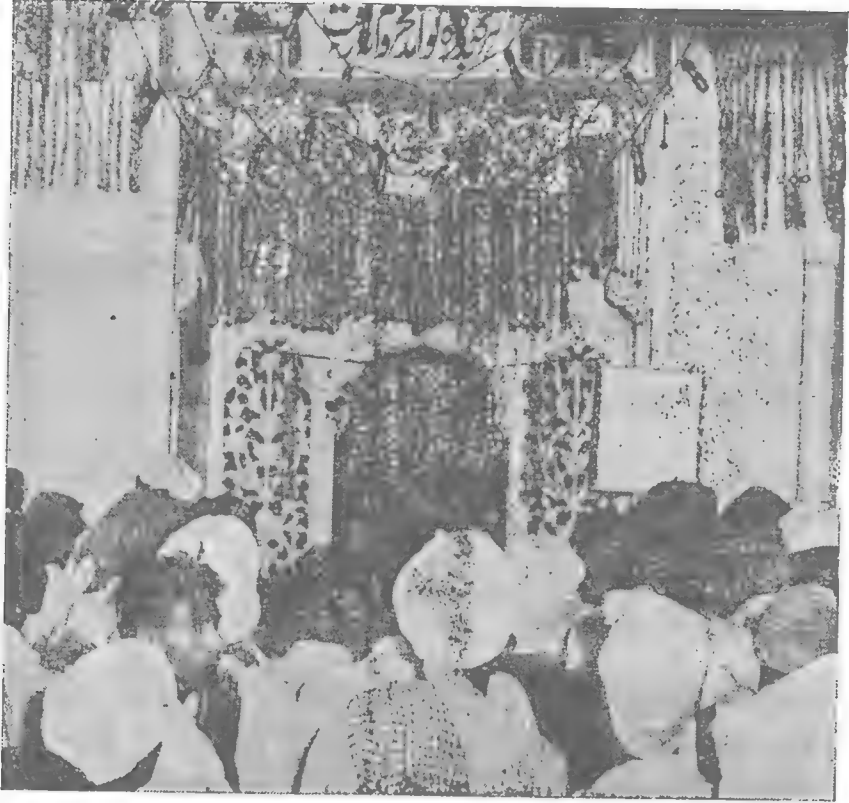
يقول الشاعر محمد اقبال :

سید « هجویر » مخدوم امم مرقد اوبیر « سنجر » را حرم
بندھای کوهسار آسان کسبخت در زمین هند تخم سجده ریخت
عهد فاروق از جمالش تازه شد حق زحرف او بلند آوازه شد
باسبان عزت ام کتاب از نکاهش خانه باطل خراب
خاک بنجاب ازدم او زنده گشت صبح ما از مہراو تابندہ گشت
عاشق و ہم قاصد طیار عشق از جبینش آشکار اسرار عشق (٢)

(١) « ملل » جلد پنجم شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ .

(٢) «The Life and Teachings» : p. 3.

« البوابة الرئيسية للمقام »



كتب في أعلى البوابة العبارة :
هر که يدروازه او آمد محروم نه رفت
وترجمتها : من جاء الى بابه لم يذهب محروما

وترجمته :

- سيد « هجویر » مخدوم الأمم ، برقمده للشيخ « سنجر » حرم .
- حطم سلاسل الجبال فى يسر ، وبذر فى أرض الهند بذور الصلاة .
- تجدد عهد الفاروق بجماله ، وعلا صوت الحق وذاع بكلامه .
- انه الحارس لعزة أم الكتاب ، وينظرته دار الباطل خراب .
- حيت أرض البنجاب بانفاسه ، واضاء صبحنا بشمسـه .
- هو العاشق ورسول العشق الطيار ، واسرار العشق تلوح من جبينه .

ولا يزال قبر الهجویری مطانا لمئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال ، وموضعا لعبادة الأولياء ، وخلوة ورع للنساک ، يتجهون اليه ليعتکفوا فيه فترة الأربعينية ، ولا تزال به الأماكن التى اختلى فيها قطب الهند « معین الدین حسن السنجرى الجشتى » والشيخ « فريد الدین کنج شکر » .

وقد اشتهر عن قبر الهجویری تحقيق حاجة كل ذى حاجة ان هو طاف بروضته المنورة أربعين ليلة جمعة ، او أربعين يوما على التوالى (١) .

ويحتفل اهل الباكستان حكومة وشعبا بمولد داتا کنج بخشى هجویری كل عام ، ويمتد الاحتفال بالعرس سبع ليال .

(١) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ ، « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٢٤ .



صورة لحتشد كبير من السيدات المعتقدات في داتاكنج بخش
وقد تعودن زيارة ضريحه في ايام الجمعة واصطحبن اولادهن
لينالوا بركة صاحب المزار ..

تفضل السيد الدكتور حسين مجيب المصرى باهدائي هذه المجموعة من الصور التي حصل
عليها بمساعدة صديقة الباكستاني السيد محمد حسن الاعظمي ، فلهما جزيل الشكر .

الفصل السابع

مؤلفاته

عرف الهجویری كرائد من الرواد الأوائل الذين ألفوا في التصوف ، عن طريق كتابه « كشف المحجوب » ، الذي يعد باكورة المؤلفات الصوفية في اللغة الفارسية ، واحدا من أمهات الكتب الشرقية المؤلفة في التصوف الاسلامی .

والدارس للتصوف الاسلامی يستطيع في يسر أن يلحس المكانة الكبيرة التي يحتلها « كشف المحجوب » ككتاب قيم يقوم على أساس علمی ومنطقی ، ومنهج سليم ، فهو مرجع له أهميته ، ولها توجد دراسة في التصوف الاسلامی قام بها المستشرقون ، تخلو من الافادة من هذا الكتاب ، والاشادة به ، فهو لا يقل أهمية وشهرة عن أمهات الكتب الصوفية العربية المعروفة ، ونعنى بها « اللمع » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة القشيرية » .

ومن المؤسف حقا أن تكون الافادة من هذا الكتاب ، في أغلب الأحيان ، عن طريق الترجمة الانجليزية ، التي قام بها المستشرق الانجليزي « نيكولسون » لهذا الكتاب .

وعلى الرغم من أن شهرة الهجویری ترجع الى كتاب كشف المحجوب ، الذي يتصل اسمه دائما باسم مؤلفه ، إلا أن الهجویری كان مؤلفا كثيرا ، طرق موضوع التصوف في عدد من الكتب قبل كشف المحجوب ، وهو في هذا الأخير يشير الى هذه الكتب ، ويحيل القارئ اليها عندما يتعرض لمسألة سبق أن تناولها بالتفصيل في واحد من هذه الكتب .

ومن خلال هذه الاشارات نتعرف على مؤلفات الهجویری السابقة على كشف المحجوب ، والتي لم يقدر لها أن تبقى وتصل الى أيدينا .

والهجویری كان شاعرا ونائرا ، بدأ نشاطه الأدبی في فترة مبكرة من حياته ، بل انه ذكر في كتابه « كشف الأسرار » أنه بدأ التأليف وهو

لا يزال في الثانية عشر من عمره (١) !!! وقد اجتمع له انتاج وفير ، فالكتب التي ورد ذكرها في كشف المحجوب تبلغ ثمانية ، واذا اضفنا اليها كشف المحجوب يكون انتاجه من النثر تسعة كتب ، علاوة على ديوان من الشعر .

وليس هذا فحسب ، فهناك كتابان آخران ينسبهما البعض الى الهجویری ، وان لم يرد ذكرهما في كشف المحجوب ..

وفيما يلي قائمة بأسماء مؤلفات الهجویری :

- ١ — الديوان .
- ٢ — منهاج الدين .
- ٣ — كتاب الفناء والبقاء .
- ٤ — كتاب في شرح كلام الحلاج .
- ٥ — البيان لاهل العيان .
- ٦ — بحر القلوب .
- ٧ — اسرار الخرق والملونات .
- ٨ — كتاب الايمان .
- ٩ — الرعاية بحقوق الله تعالى .
- ١٠ — كشف المحجوب .
- ١١ — ثوابت الأخبار .
- ١٢ — كشف الاسرار .

ولا نعرف بأي لغة كتبت هذه المؤلفات ، باستثناء كشف المحجوب ، وكشف الاسرار ، ذلك ان هذه المؤلفات فقد بعضها أثناء حياة الهجویری ، والبعض الآخر بعد وفاته . ولم يصل إلينا من هذه المجموعة سوى كشف المحجوب الذي يعد آخر مؤلفات الهجویری ..

يقول زوكوفسكى : « من العسير على المرء ان لا يشعر بالأسى لفقد أوليات كتابات الهجویری وبخاصة انه ، على الرغم من ذلك ، يحيل القارئ اليها دائما (٢) » .

ونعرف بهذه المؤلفات ، ونبدأ بالجزء الذي فقد في حياة المؤلف .

(١) نقلا عن : « تفكرة حضرت على هجویری » ص ٩١ .

(٢) «Bulletin of Oriental Studies» : Zhukovsky's Introduction, p. 487. (٢)

أشار الهجویری فی مقدمة كشف المحجوب الى ان اثنين من مؤلفاته
نقدا وشوها اثناء حياته ، وهما : « الديوان » وكتاب « منهاج الدين » .

أما الديوان : فقد روى الهجویری عن فقده قصة بسيطة مؤداها ان
شخصاً طلبه منه ، ولم يكن لديه سوى النسخة الاصل لذلك الديوان ،
فأعطاه له . وغير ذلك الرجل فيها وأسقط اسم الهجویری من أولها ،
وعرض الديوان على الناس على أنه من نظمه (١) .

وهذه القصة على بساطتها تثير تساؤلات عديدة تدور حول الامور
التالية :

١ — متى نظم الهجویری ذلك الديوان ، وبأى لغة نظمه ؟

٢ — اذا كانت للهجویری القدرة على النظم ، فلم لم يطرق هذا
السبيل مرة أخرى ؟

٣ — لماذا لم يستشهد الهجویری فی كشف المحجوب بشواهد من شعره
مع انه استشهد فی مواضع كثيرة من الكتاب بأشعار غيره ؟

بالنسبة للتساؤل الأول : يبدو ان الهجویری نظم الديوان فی بداية
شبابه ، وكانت انطباعاته فيه انطباعات شخصية لشاب حديث السن ،
ولم يكن قد اتجه بعد الى التصوف . ومما يرجح هذا ان الشخص الذى
استولى على الديوان استغل حداثة سن الهجویری فسلبه الجهد الذى
يذله فی نظم الديوان ونسبه الى نفسه فی اطمئنان ، لان الهجویری لم
يكن قد عرف كشاعر أو كاتب . أما اللغة التى نظم بها الديوان ، فمن
المرجح أنها كانت اللغة الفارسية ، اذ ان الهجویری على الرغم من ثقافته
العربية واجادته للغة العربية ، كتب باللغة الفارسية ، وان كانت اللغة
العربية تمثل عنصراً هاماً فی كتاباته . .

وبالنسبة للتساولين الثانى والثالث ، فمن المحتمل جداً ان الهجویری
كان ينظم الشعر ، وربما باللغتين الفارسية والعربية . وهناك مثل واحد
ورد فی كشف المحجوب لشعره العربى ، فقد استشهد ببيت واحد ونص
على انه قائله (٢) . . أما شعره الفارسى فهناك امثلة منه وردت فی كتاب

(١) « كشف المحجوب » ص ٢ .

(٢) « السابق » ص ٢١٣ .

« كشف الأسرار » ، وربما كان السبب في احجام الهجویری عن الاستشهاد بأمثلة من شعره يرجع الى أن الأشعار التي كانت متداولة في ذلك الوقت ، كانت في معظمها اشعارا غزلية يؤولونها تأويلا صوفيا ، والهجویری وان اباح سماع الشعر الا انه كان من المعارضين للتأويل ، وقد عاب على الذين يقضون أوقاتهم في سماع أوصاف المحبوب ومحاسنه، كالمعين والطره والخال وما شابه ذلك ، وتأويلها على أنها للحق جل جلاله (١) .

واما كتاب « منهاج الدين » : فهو المؤلف الثاني الذي فقد في حياة الهجویری . وقد وردت في كشف المحجوب اشارات تدل على أنه كان من أوائل الكتب التي ألفها ، وان موضوعه كان يرتبط بالتصوف . ويبدو ان منهاج الدين كان على هيئة تذكرة ، فقد ذكر الهجویری أنه تحدث فيه ، في شيء من التفصيل ، عن مناقب أهل الصفة وشرح احوالهم كل على حدة (٢) ، ولذلك فانه عندما تعرض لذكر هؤلاء في الجزء الخاص بتراجم الحياة من كشف المحجوب اکتفى بذكر أسمائهم ..

وبالإضافة الى أهل الصفة ، فقد تحدث الهجویری في الكتاب عن بعض الصوفية ، من بينهم الحلاج ، ذلك انه في الترجمة التي كتبها للحلاج في كشف المحجوب ، اشار الى أنه تعرض في منهاج الدين لبداية الحلاج ونهايته (٣) .

وقد حدث للهجویری مع منهاج الدين ما حدث له مع الديوان ، اذ ان مدع ريكك استولى على الكتاب ، ومحا اسم الهجویری من عنوانه ، وغرضه على الجمهور على أنه من تأليفه ، وأظهر للعوام أنه مؤلفه ، بينما كان الخواص يضحكون منه على هذا القول .

ويبدو أن ظاهرة الانتحال كانت متفشية في ذلك الوقت ، وعلى وجوه عدة ، فقد أشار « فرانتر روزنتال » الى ثلاثة أنواع من الانتحال :

النوع الأول : وكان يمارسه جماعة من المؤلفين الذين يسعون وراء الشهرة ، فيغفلون ذكر أسمائهم وينتحلون أسماء أدباء مشهورين يوقعون بها مؤلفاتهم (٤) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٥١٩ .

(٢) « السابق » انظر : ص ٩٦ .

(٣) « السابق » انظر : ص ١٩٢ .

(٤) « مناهج العلماء المسلمين » ص ١٢٦ .

والنوع الثانى : وهو أن كتباً بجملتها كانت تنتحل ، وذلك بوضع اسم المنتحل محل اسم المؤلف الحقيقى . وضرب لهذا النوع مثلاً بالهجويرى (١) .

والنوع الثالث من السرقات الأدبية : ما كان شائعاً عند المسلمين ، ويكاد ينحصر فى السرقات الشعرية ، بعكس كتب الاغريق التى كانت تتناول الأدب جملة (٢) .

وقد كان لهاتين الحادثتين اثرهما على الهجويرى ، وحاول أن يتلافى حدوث ذلك مستقبلاً فعمد الى ادخال اسمه فى مؤلفاته حتى ان اسمه يتكرر فى كشف المحجوب ثمان وعشرين مرة .

اما المجموعة الثانية من مؤلفات الهجويرى ، والتى يبدو أنها فقدت بعد وفاته فتشتمل على الكتب التالية :

١ — كتاب الفناء والبقاء :

ناقش الهجويرى ، فى الباب الخامس من كشف المحجوب ، اختلاف الصوفية فى الفقر والصفوة ، وتطرق من ذلك الى مناقشة الفناء والبقاء من حيث المعنى والعبارة ، وأشار الى ترهات أرباب اللسان الذين يعبدون العبارة ، وأوماً الى أنه فى مرحلة طيش الشباب ألف كتاباً فى « الفناء والبقاء » وكانت له فيه أقوال من هذا النوع (٣) .

٢ — كتاب « فى شرح كلام الحلاج » :

هذا الكتاب أيضاً من الكتب التى ألفها الهجويرى فى صدر شبابه ، فقد صرح بأنه كان فى شبابه مفتوناً بالحلاج ، وقرا كثيراً من كتبه . وقد دفعه اعجابه بالحلاج الى تأليف ذلك الكتاب فى شرح كلامه ، وأيد فيه بالدلائل والحجج علو أقوال الحلاج ، وصحة حاله (٤) .

٣ — كتاب « البيان لأهل العيان » :

ذكر الهجويرى أنه ألف هذا الكتاب فى بداية تصوفه ، ويبدو أنه تعرض فيه لشرح بعض الرموز الصوفية :

(١) « برنامج العلماء المسلمين » ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٢) « السابق » ص ١٢٩ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٦٧ .

(٤) « السابق » ص ١٩٢ .

٤ - كتاب « بحر القلوب » (١) :

يبدو أن الهجویری الف هذا الكتاب بعد كتاب البیان لاهل العیان وطرق
فيه نفس الموضوع فشرح الرموز والمصطلحات الصوفیة ، وان كان قد سلك
فی ذلك مسلكا اكثر تفصیلا واشباعا من كتاب البیان . .

٥ - « أسرار الخرق والملونات » :

اشار الهجویری فی الباب الرابع من كشف المحجوب ، وهو الباب الخاص
بلبس المرقعة ، الى انه الف فی هذا الموضوع كتابا مستقلا اسماه « اسرار
الخرق والملونات » وذكر انه يلزم لكل مرید نسخة منه (٢) .

٦ - كتاب « الايمان » :

من المسائل التي تناولها الهجویری فی كشف المحجوب ، موضوع
« الايمان » ، وقد افرد له قسما مستقلا اطلق عليه : « كشف الحجاب
الثالث فی الايمان » . وفي هذا القسم اشار الهجویری اشارة مقتضبة الى
مدلول « الايمان » فی الشریعة ، وعند المعتزلة والخوارج وغيرهم ، ثم
احال القارئ الى كتاب مستقل الفه فی هذا الموضوع (٣) واعتذر بأنه سيقصر
حديثه فی هذا الموضع على اثبات رأى الصوفیة فی الايمان (٤) .

٧ - « الرعاية بحقوق الله تعالى » :

خص الهجویری « التوحيد » بباب فی كشف المحجوب اطلق عليه « كشف
الحجاب الثانی فی التوحيد » ، وشرح للقراء عامة مبدأ التوحيد عند الموحدين ،
واشار الى آراء المخالفين من الثنوية والوثنيين وغيرهم ، ثم أحال القارئ
المتخصص فی هذا العلم ، الذي يهتم بدراسة هذه المسألة دراسة وافیة ،
الى كتاب من تأليفه أكثر تفصیلا ، اسمه : الرعاية بحقوق الله تعالى (٥) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٣٢٣ .

(٢) « السابق » ص ٦٣ .

(٣) « السابق » ص ٣٦٨ .

(٤) « السابق » ص ٣٧٤ .

(٥) « السابق » ص ٣٦٠ .

وغنى عن التعريف أن هناك كتابين يحملان هذا الاسم ، وهما :

كتاب « الرعاية بحقوق الله » لأحمد بن خضرويه (١) المتوفى سنة ٢٤٠ هـ (٢)
وكتاب « الرعاية لحقوق الله » للحارث بن أسد المحاسبى (٣) المتوفى سنة
٢٤٣ هـ (٤) .

وأما « كشف المحجوب » : فهو الكتاب الوحيد الذى بقى من مؤلفات
الهجویری ، وقد رله أن يصل الى أيدينا . ولما كان كشف المحجوب يمثل
الشق الثانى من هذه الدراسة فقد ألفردنا للتعريف به بابا مستقلا ، وهو
الباب الثانى .

وبالإضافة الى الكتب والمؤلفات التى تنسب الى الهجویری يوجد كتابان
لم يرد ذكرهما فى كشف المحجوب :

أولهما « ثواقب الأخبار » : وقد اشار اليه البغدادي اشارة عابرة عند
تأريخه لكشف المحجوب فذكر أن الهجویری ألف « ثواقب الأخبار » وكشف
حجب المحجوب لأرباب القلوب (٥) . ولا ندرى من أين استقى البغدادي
اسم هذا الكتاب ، إذ لم يرد ذكره فى أى من المراجع التى رجعنا إليها .

والثانى « كشف الأسرار » : وهو كتيب صغير يحمل اسم الهجویری ،
طبع فى السنوات الأخيرة فى مدينة لاهور .

وقد تيسر لنا الاطلاع على بعض الاشارات التى تشير الى هذا الكتاب .
وأولى هذه الاشارات وردت فى كتاب « الحضارة الاسلامية فى القرن
الرابع الهجرى » ، فقد نقل مؤلفه « آدم ميتز » رأيا للهجویری فى طبقة
الوعاظ ، وذكر اسم المرجع على أنه « كشف الأسرار » مخطوط بمكتبة
فينا تحت رقم ١٥٤ (٦) . وهذا يدل على أن الكتاب كان لا يزال مخطوطا
عندما اطلع عليه « ميتز »

ووردت الإشارة الثانية فى مقال فى مجلة « هلال » التى تصدر بالفارسية
فى « كراتشى » وقد نقل « غلام سرور » كاتب المقال نصا عن كشف الأسرار

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٢٩ .

(٢) « طبقات الصوفية » ص ١٠٣ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١٣٤ .

(٤) « طبقات الصوفية » ص ٥٦ .

(٥) « هدية المارئين » ج ١ عمود ٦٩١ .

(٦) « الحضارة الاسلامية » ميتز : ج ٢ ص ٨٢ .

يتعلق بلقب « كنج بخش » الذى يطلق على الهجویری ، وذكر ان هذا النص ورد على لسان الهجویری فى الكتاب (١) . ويبدو من هذه الاشارة ان كتاب كشف الاسرار يضم بعض المعلومات التى تشير الى حياة الهجویری الخاصة ، وهو العنصر الذى نفتقده تماما فى كشف المحجوب ..

اما الاشارة الثالثة ، فقد وردت فى كتيب عن الهجویری كتب باللغة « الارودية » ، واطلق عليه مؤلفه اسم « تذكرة حضرت على هجویری » . وقد نقل المؤلف عن كشف الاسرار نموذجين لشعر الهجویری (٢) .

على ان هناك صورة اوضح لكشف الاسرار نستطيع ان نتبين ملامحها من خلال كتيب كتبه بالانجليزية احد الاساتذة السابقين فى جامعة عليكرة الاسلامية ، واطلق عليه اسم :

The Life and Teachings of Hazrat Data Ganjbakhsh.

ونذكر فيه ان كشف الاسرار طبع اخرا فى لاهور ، ويبدو من حديثه عن الكتاب انه اطلع عليه ..

وقد اشار المؤلف الى اوجه الشبه بين كشف الاسرار وكشف المحجوب ، فذكر ان الاسس والتعاليم التى يتضمنها هذا الكتيب تسير فى خط واحد مع التعاليم الواردة فى كشف المحجوب ، كما ان الطريقة التى تنقل بها هذه التعاليم مشابهة لتلك التى جاءت فى كشف المحجوب . ويتشابه الكتابان ايضا فى ان اسم المؤلف استخدم مرات عديدة خلال الكتاب (٣) .

ويضم كشف الاسرار الى جوار الاسس والتعاليم الصوفية بعض المعلومات الاضافية التى تتعلق بتاريخ الحياة . ويبدو ان بالكتاب قسما على هيئة تذكرة ، تحدث فيه الهجویری عن بعض الاشخاص الذين قابلهم اثناء اقامته بالهند . وتأثر بهم (٤) .

وعلى الرغم من القرائن التى اوردها المؤلف وايد بها اوجه الشبه بين كشف الاسرار وكشف المحجوب ، الا انه يلتقى ظللا من الشك على نسبة كشف الاسرار الى الهجویری ، فهو يقول انه من المحتمل ان يكون هذا

(١) « حلال » اردبيشت ١٣٣٢ .

(٢) « تذكرة حضرت على هجویری » انظر ص ٩٢ ، ٩٤ .

(٣) The Life and Teachings : p.29.

(٤) The Life and Teachings : p.25.

الكتاب منتحلا ، كتبه بعض تلاميذ الهجویری الذين كانوا متعاطفين لنشر تعالیم استاذهم . غیر أنه یعود فیقول : وحتى لو صح أن الکتب لیس من تألیف الهجویری فإنه یعتبر ملخصا جيدا لتعالیمه (١) . وهكذا یتأرجح رأیه بین القبول والرفض .

والواقع أننا لا نستطیع أن نقطع أو نرجح ما اذا کان كشف الاسرار من تألیف الهجویری أم من تألیف تلامیذه ، اذ لم یتیسر لنا الاطلاع علیه حتی یمكننا أن نصدر حکما سلیم مستمدا من دراسة الکتب . ونرجو أن تتاح لنا هذه الفرصة یوما ما .

والحقیقة الوحیة الی یمكن أن نستخلصها مما سبق : انه اذا صحت نسبة كشف الاسرار الی الهجویری فإنه یكون قد ألفه بعد کتاب كشف المحجوب ، وخلال الفترة الآخرة من حیاته الی قضاها فی مدینة لاهور . وهو ما ینطبق ایضا علی « ثواقب الأخبار » اذا ثبت أن هناك کتابا بهذا الاسم ینسب الی الهجویری ..

وبعد هذا العرض الموجز للکتب والمؤلفات الی تنسب الی الهجویری — بالاضافة الی كشف المحجوب — والی ورد ذکر الجزء الاکبر منها فی هذا الآخر بما یدل علی أن الهجویری ألفها قبله ، هناك سؤال یطرح نفسه ، وهو :

هل ألف الهجویری هذه الکتب فعلا ؟ واذا کان قد ألفها ، فاین هی ؟ ولماذا لم تصل الینا ؟ ..

حقیقة أن هناك اثنین من بیننا ذکر الهجویری أنهما فقدوا أثناء حیاته ، وهما « الدیوان » وکتاب « منهاج الدین » ، ولكن کیف أختفت الکتب الآخرة الی أشار الیه الهجویری بما یدل علی أنها كانت موجودة فی حیاته ، ومتداولة فی الوقت نفسه ، فهو عند الاشارة الی بعضها یحیل القاریء الیه ، ویطلب منه أن یرجع الیه (٢) ، أو یصرح بأنه لابد له من الحصول علی نسخة منها (٣) ، کیف أختفت هذه الکتب جمیعها بعد وفاته ، ولم یبق منها

(١) The Life and Teachings : p.29.

(٢) « كشف المحجوب » ص ٢٦٠ .

(٣) « السابق » ص ٦٢ .

الا كشف المحجوب فكان الكتاب الوحيد الذى وصل الينا ؟ ولماذا تخلو كتب
الفهارس من ذكر أى منها ؟ .

والواقع اننا للأسف لا نجد اجابة لهذا السؤال ، وكل ما نستطيع أن
نقوله فى هذا الصدد انه اذا كان الهجويرى قد ألف هذه الكتب فعلا ، فهذا
لا يخرج عن أمرين : اما أن هذه الكتب قد ضاعت ضمن ما ضاع من التراث
الاسلامى ، واما أن تكون محفوظة فى خزانة أو مكتبة ، ولم يقدر لها بعد من
يعثر عليها ، ويعنى بنشرها أو دراستها .

الباب الثالث
التعريف بكتاب كشف المحجوب

الفصل الأول تعريف بالكتاب اسمه — موضوعه — تاريخ تأليفه

كتاب كشف المحجوب أقدم مؤلف في التصوف باللغة الفارسية ، وأول كتاب منظم في الأصول النظرية والعملية للتصوف (١) . ويعد من المؤلفات القيمة في التصوف الاسلامي ، الامر الذي جعل الجميع يتحدثون عنه وعن مؤلفه بكثير من التقدير ..

يقول الجامي في نفحات الانس :

« على بن عثمان بن ابي على الجلابي الغزنوي ، صاحب كتاب كشف المحجوب ، الذي يعتبر من الكتب القيمة المشهورة في هذا الفن » (٢) ..

ويقول دارا شكوه في سفينة الاولياء :

« كشف المحجوب ، كتاب مشهور ، ولا يستطيع أحد أن يعترض عليه ولم يؤلف كتاب في التصوف باللغة الفارسية كتابا قيبا مثله » (٣) .

ويقول بهار في سبك شناسي :

« كشف المحجوب : تأليف العالم العارف ابي الحسن على بن عثمان الغزنوي ، من الكتب القديمة القيمة » (٤) ..

وقد نوه بقيمة هذا الكتاب أيضا المستشرقون ممن عنوا بدراسة التصوف الاسلامي ، سواء منهم من بحث في هذا الموضوع ، أو من قصر جهوده على نشر كتب التصوف وترجمتها ..

(١) «Ethé : Cat», Vol. I

(٢) « نفحات الانس » من ٢١٦ .

(٣) « سفينة الاولياء » من ١٦٤ .

(٤) « سبك شناسي » ج ٢ من ١٨٧ .

« وكشف المحجوب » في الفارسية بمكانة « اللع » من العربية ، فكلاهما بعد اقوم المؤلفات الصوفية في لغته ، واكثرها قيمة واوفرها مادة في التصوف .

وقد اعتمد صاحب كشف المحجوب على الكتب العربية في التصوف ، السابقة عليه مثل : اللع وطبقات الصوفية والرسالة القشيرية . واثاد منه من جاء بعده من المؤلفين الفرس ، وكل من له دراية بالتصوف الاسلامى ، وصلة بالمراجع الفارسية مثل : تذكرة الاولياء ونفحات الانس وسفينة الاولياء وتاريخ تصوف در اسلام ، يستطيع ان يدرك الى اى مدى اثار مؤلفو هذه الكتب من كشف المحجوب ، والى اى حد كان اعتمادهم عليه سواء صرحوا بذلك او لم يصرحوا .

اسم الكتاب :

اطلق الهجویری على كتابه اسم « كشف المحجوب (١) » ، وشرح الهدف من هذه التسمية فقال :

« أين کتاب راکشف المحجوب نام کردم مراد آن بود که بتنام کتاب ناطق باشد برآنچه اندر کتابست مر کروهی راکه بصیرت بود جون نام کتاب بشنوند دانند که مراد از آن چه بوده است » .

وترجمته :

« أسمیت هذا الكتاب كشف المحجوب ، والغرض من ذلك انه طالما كان اسم الكتاب ناطقا على ما فيه ، فان اهل البصرة حين يسمعون اسم هذا الكتاب يعرفون ماذا كان الغرض منه » .

ويرى الهجویری أن اسم كشف المحجوب أنسب الأسماء لكتابه ، لأنه يعبر تعبیرا صادقا عما يحتويه الكتاب .

يقول :

« وجون این کتاب اندر بیان راه حق بود ، وكشف حجب بشریت جزاین نام ویرا اندر خور نبود » (٢) .

(١) « ما هو جدير بالذكر ان هناك كتابا يحمل اسم « كشف المحجوب » في المذهب الاسماعيلي ، كتبه بالفارسية : « ابو يعقوب السجزي » ، وكان معاصرا للهجویری (انظر : « سبك شناسی » ج ٢ ص ٥٢) .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٤ .

وترجمته :

« ولما كان هذا الكتاب في بيان طريق الحق ، وكشف حجب البشرية فإنه لا يناسبه غير هذا الاسم » .

وهناك خلاف حول اسم « كشف المحجوب » . وقد ذكر زوكوفسكى أن اسم الكتاب في النسخة الخطية الخاصة بمكتبة « فينا » ، وهى النسخة التى جعلها متنا لطبعته لكشف المحجوب ، وفى النسخ الأخرى التى اعتمد عليها فى تصحيح المتن ، هو : « كشف المحجوب » (١) .

وكذلك أثبت كتاب الفهارس : « ريو » (٢) و « ايتيه » (٣) و « بلوشيه » اسم الكتاب تحت اسم « كشف المحجوب » ، ولكن وردت فى كتاب كشف الظنون زيادة فى الاسم هى عبارة (لأرباب القلوب) ، فصار الاسم الكامل لكتاب « كشف المحجوب لأرباب القلوب » (٤) .

ويعتقد زوكوفسكى أن حاجى خليفة مؤلف كشف الظنون ربما التبس عليه الأمر ، بل انه يظن أن حاجى خليفة لم ير متن كتاب كشف المحجوب أصلا ، لأن من عادته عندما يؤرخ للكتب التى يثبتها فى كتابه ، والتى رآها رأى العين ، أن ينقل بداية النسخة ونهايتها ، ولكنه لم يفعل هذا مع كشف المحجوب ، ويبدو أنه نقل العنوان المذكور عن كتب أخرى (٥) .

وقد ذكر « محمد بارسا » فى كتابه « فصل الخطاب لوصول الأجباب » أن كشف المحجوب عنوان مختصر لكتاب الهجويرى ، وأن الاسم الكامل له هو : « كشف حجب المحجوب لأرباب القلوب » (٦) .

وكذلك أضاف يعقوب بن عثمان بن محمد الجرخى فى رسالته المسماة « رسالة ابدالية » عبارة (لأرباب القلوب) الى عنوان الكتاب . ويقول زوكوفسكى انه من المحتمل أن يكون مرجع حاجى خليفة أحد هذين الكتابين (٧) .

(١) « كشف المحجوب » انظر : مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ .

«Rieu» : Cat, Vol. I. (٢)

«Éthé» : Cat, Vol. I. (٣)

(٤) « كشف الظنون » ج ٢ صود ١٤٩٤ ، « نزل البغدادي الاسم على هذا النحو فى هدية العارفين » انظر ج ١ صود ٦٩١ .

(٥) « كشف المحجوب » : انظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ .

(٦) « السابق » : انظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ ، (ذكر محمد عباسى أن كلمة (سر) أضيفت الى عنوان كشف المحجوب فى فهرست المئتب فى أول كتاب « فصل الخطاب » فأصبح عنوان الكتاب : « كشف سر المحجوب لأرباب القلوب » : انظر حاشية ٣ ص ٥٢ من مقدمة زوكوفسكى) .

(٧) « كشف المحجوب » انظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ .

والواقع أننا نرجح مع زوكوفسكى أن الاسم الاصلى للكتاب هو « كشف المحجوب » فقط ، وذلك للأسباب الآتية :
أولا : أن هذا الاسم هو الذى ورد على لسان المؤلف فى النسخ التى أمكننا الاطلاع عليها .

ثانيا : أثبت كتاب الفهارس الكتاب تحت اسم « كشف المحجوب » وهو الاسم الذى ورد فى متون جميع المخطوطات التى اطلعوا عليها واثبتوها فى فهارسهم .

ثالثا : اعتمد زوكوفسكى فى طبعته لكتاب كشف المحجوب على خمس مخطوطات جعل احداها متنا ، ورجع الى الأربع الأخرى لتصحيح المتن ، وهو يؤكد أن هذا الاسم هو الذى ورد فى جميع النسخ التى اعتمد عليها ، ومن غير المحتمل أن تكون بقية الاسم — اذا صح أن هناك بقية — قد سقطت من هذه النسخ جميعها .

رابعا : جاء هذا الاسم دون زيادة فى « نفحات الانس » ، وقد اعتمد الجامى على كشف المحجوب اعتمادا كبيرا ، ونقل عنه نص عبارته فى كثير من الموضوعات والتراجم ، ومن المستبعد أن يكون مخطئا فى اسم الكتاب .

خامسا : أكبر الظن أن بعض الذين أضافوا الى اسم كشف المحجوب عبارة (لأرباب القلوب) قد تواردت فى أذهانهم بعض المعانى التى ردها الهجویری فى مقدمة الكتاب ، فهو يقول أن كتابه كشف للحجاب ، ويعرف الحجاب بأن هناك نوعين من الحجاب : أحدهما الحجاب « الرينى » الذى أشار اليه الله تعالى فى قوله : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (١) » وهذا الحجاب لا يرتفع أبدا ، والثانى : الحجاب « الفينى » ويجوز أن يرتفع فى بعض الأحيان . ثم يذكر أنه وضع كتابه ليصقل القلوب الأسيرة فى الحجاب الفينى والتى يكمن فيها نور الحق حتى أنها ببركة قراءته يرتفع عنها الحجاب ، وتجد الطريق الى الحقيقة (٢) ، ومن هنا أضافوا عبارة (لأرباب القلوب) الى اسم الكتاب ، ثم نقلها عنهم غيرهم .

موضوع الكتاب :

موضوع كتاب « كشف المحجوب » جاء اجابة على السؤال الذى وجهه الى الهجویری احد مواطنيه ، ويدعى « أبو سعيد الهجویری » ، وسأله فيه أن يبين له أصول الطريقة ومقامات الصوفية وأقوالهم ومعاملاتهم :

(١) سورة « المطففين » آية ١٤ .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٥ - ٦ .

يقول الهجویری :

« قال السائل وهو أبو سعيد الهجویری : بیان کن مرا اندر تحقیق طریقت تصوف وکیفیت مقامات ایشان ، و بیان مذاهب ومقالات ایشان . و اظهار کن مرا رموز و اشارات ایشان وجوئکی محبت خداوند عز وجل ، وکیفیت اظهار آن برد لها ، و سبب حجاب عقول از کته وماهیت آن ، و نفرت نفس از حقیقت آن ، و آرام روح باصفوت آن و آنچه بدین تعلق دارد از معاملات آن » (۱) .

وترجمته :

قال السائل وهو أبو سعيد الهجویری : بین لی علی التحقيق طريقة التصوف ، وکیفیه مقامات الصوفیه ومذاهبهم واقوالهم ، و اظهار لی رموزهم و اشاراتهم ، و کیف تكون محبتهم لله عز وجل ، وکیفیه اظهارها علی القلوب وما السبب فی حجاب العقول عن کونها وماهيتها ، و نفرة النفس من حقیقتها ، و سکينة الروح الی صفوتها ، وما يتعلق بهذا من المعاملات .

و قبل الاجابة علی هذا السؤال ، يرسم الهجویری صورة تامة لعلم التصوف فی آیاه فیقول ما معناه :

« اعلم ان هذا العلم قد اندرس فی الحقیقة فی زماننا هذا ، وبخاصة فی هذه الدیار حیث انشغل الخلق جمیعا بأهوائهم ، وأعرضوا عن طریق الرضا . وقد بدت لعلماء هذا العصر وأدعیاء هذا الوقت صورة لهذه الطریقة علی خلاف أصلها . فاستحضر همك لأمر قصرت عنه أیدی أهل هذا الزمان وأسرارهم باستثناء خواص حضره الحق ، وانقطع عنه مراد أهل الإرادة ، وانعزلت عن وجوه معرفة أهل المعرفة غیر خواص حضرة الحق » (۲) . ویمضی الهجویری فی هذا الی ان ینتقل الی موضوع الکتاب ، و یبدا بشرح المنهج الذی سیر علیه ، فیقول ما ترجمته :

« والآن : فلأبدا بالکتاب ، وأوضح مقصودک فی المقامات والحجب ، وأبسطها ببيان لطیف ؛ وأشرح عبارات أهل الصنائع ، والحق بذلك قدرا من أقوال الشیوخ ، وأمدّه بفرر الحکایات حتی یتحقق مرادک ، و یعلم من ینظر فی هذا العلم من علماء الظاهر و غیرهم ان لطریق التصوف أصلا قویا ، و فرعا مثمرا » (۳) .

(۱) « کشف المحجوب » ص ۷ .

(۲) « السابق » ص ۷ .

(۳) « السابق » ص ۱۰ .

ويتضح من العبارة السابقة ان الهجویری اخذ على نفسه أن يقدم للسائل منهاجاً كاملاً لعلم التصوف : أصوله وفروعه وآدابه ومعاملاته ، ليثبت لعلماء الظاهر وغيرهم ممن ينكرون هذا العلم ويتهمون الصوفية بالجهل أن لعلم التصوف أصولاً ثابتة تقوم على أسس علمية سليمة ، الى جانب استنادها الى الناحية الروحية .

وقد بدأ الهجویری كتابه باثبات فضيلة العلم ، ثم تكلم في الفقر والتصوف ولبس المرقعة ، والملازمة ، وتراجم الشيوخ ، والفرق الصوفية ، والعقائد والعبادات ، والآداب والرموز والمعاملات .

وموضوع الكتاب على هذه الصورة متكامل وواف بالفرض الذي الف من أجله ..

ويمكن أن نقسم الكتاب من الناحية الموضوعية الى الأقسام الآتية :

أولاً : أبواب تتناول الأصول الصوفية ، وهي :

باب الفقر .

باب التصوف .

باب اختلافهم في الفقر والصفوة .

ثانياً : أبواب تعالج المسائل الفرعية ، وهي :

باب لبس المرقعة .

باب بيان الملازمة .

ثالثاً : قسم خاص بتراجم الشيوخ .

رابعاً : قسم خاص بالفرق الصوفية .

خامساً : قسم خاص بالعقائد الدينية ، ويتحدث في :

معرفة الله تعالى — التوحيد — الإيمان .

سادساً : قسم خاص بالعبادات ويتكلم في :

الطهارة — الصلاة — الزكاة — الصوم — الحج .

سابعاً : أقسام تتحدث في : آداب الصوفية ورموزهم ورسومهم .

ولنا ملاحظة صغيرة فيما يختص بالتسلسل المنطقي لأبواب الكتاب وترابطها من الناحية الموضوعية ، فالدارس للكتاب يفقد عنصر الترابط بين بعض الأبواب من الناحية الموضوعية .

مثال ذلك : الأبواب من الثانى الى السادس ، والتي جاءت على هذا النحو :

- ٢ - باب الفقر ، ٣ - باب التصوف ، ٤ - باب لبس المرتعة
٥ - باب اختلافهم فى الفقر والصفوة ، ٦ - باب بيان الملامة .

فلو أن الوضع تغير بالنسبة للبابين الرابع والخامس وتقدم باب الاختلاف فى الفقر والصفوة لكان هناك ترابط تام بينه وبين البابين الثانى والثالث من الناحية الموضوعية .

وكذلك الحال بالنسبة للقسم الرابع والعشرين الخاص بالرموز والمصطلحات الصوفية ، فلو انه جاء بعد الباب الرابع عشر الخاص بالفرق الصوفية لكان بينهما تشاسق كبير من ناحية الموضوع ، اذ أن جزءا كبيرا من الرموز شرح خلال الحديث عن الفرق .

تاريخ تأليفه :

تاريخ تأليف كشف المحجوب غير معروف على وجه التحديد ، فالهجويرى لم يذكر فى الكتاب التاريخ الذى بدأ تأليفه فيه ، أو التاريخ الذى أنهى فيه هذا العمل . ومن الملاحظ أنه ابتعد دائما عن ذكر أى تاريخ مهما كانت أهميته ، وذلك على العكس مما فعله معاصره القشيرى ، فقد ذكر القشيرى اسمه فى مقدمة الرسالة ، ونص على التاريخ الذى ألفها فيه (١) .

وعلى الرغم من أن الهجويرى اطلع على الرسالة ، واقتفى اثر القشيرى فى بعض الأمور ونقل عنه كثيرا ، كما هو واضح من كشف المحجوب ، وما نلاحظه أيضا من التشابه الكبير بين مقدمتى الرسالة وكشف المحجوب ، فإنه يبدو أن هذه المسألة لم تستلفت نظره ، ولم يرها جديرة ببعض الاهتمام الذى أولاه لذكر اسمه ، فقد كان حريصا على اثباته فى مقدمة كشف المحجوب وكرر ذلك كثيرا فى ثناياه ، ولم يهتم بالإشارة الى تاريخ تأليفه .

والراى السائد الذى تردد بالنسبة لكتاب كشف المحجوب والفترة التى ألف فيها ، يتلخص فى ثلاث نقاط :

الأولى : أن الكتاب آخر مؤلفات الهجويرى .

(١) « الرسالة » أبو القاسم عبد الكريم بن «وازن القشيرى : تحقيق عبد الحليم محمود : القاهرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م (انظر مقدمة المؤلف ص ١٨) .

الثانية : أن الهجویری ألفه فی الفترة الاخيرة من حياته وخلال اقامته فی مدينة لاهور ..

الثالثة : ان الكتاب مؤلف حوالی منتصف القرن الخامس الهجرى ، او الربع الثالث من القرن الخامس الهجرى ، وربما فی الربع الاخير من القرن الخامس ..

وبالنسبة للنقطة الاولى ، وهى ان كشف المحجوب آخر مؤلفات الهجویری (١) ، فقد أصبحت هذه المسألة موضع شك بعد ان عرف ان هناك مؤلفات تنسب اليه ، لم يرد ذكرها فی كشف المحجوب ضمن مؤلفات الهجویری السابقة على كشف المحجوب ، مما يرجح انها آلت بعده (٢) .

وبالنسبة للنقطة الثانية ، فهناك امران :

الاول : ان الكتاب ألف فی الهند خلال الفترة التى قضاها الهجویری أسيراً فی مدينة لاهور . وقد أشار الهجویری نفسه الى هذا فی موضع من الكتاب ، واعتذر بأنه ليس لديه معلومات أكثر لأنه كان قد ترك كتبه فی غزنه (٣) ..

والثانى : ويدور حول الاجابة على هذا السؤال :

هل كتب الهجویری كتابه كله فی الهند خلال الفترة المشار اليها ، أم انه كتب جزءاً منه فقط ؟

وفى الاجابة على هذا السؤال يوجد رأيان :

اولهما : رأى من اعتمدوا فقط على اشارة الهجویری ، السابقة ، عاخذوها قضية مسلمة ، وقطعوا بأن الكتاب كله قد ألف فی الهند (٤) ..

وثانيهما : رأى من ترددوا فی قبول هذا الأمر ، ورجحوا أن مفصولاً من الكتاب فقط هى التى كتبت فی لاهور (٥) . وغسر بعضهم اشارته الى الكتب والمواد التى لم تكن فی متناول يده بأنها مجموعة الأحاديث المنقولة التى جمعها شيخه الختلى (٦) ..

(١) «Zhukovsky's Introduction» ، « تصوف » من ٢٢ ، « هلال » شمارة سوم ارديبهشت ١٣٢٢ .

(٢) (انظر : مؤلفات الهجویری) من ٧٩ .

(٣) « كشف المحجوب » من ١١٠ .

(٤) « هلال » شمارة سوم ارديبهشت ١٣٢٢ (مقال بقلم غلام سرور) ، « نيكولسون » مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب () .

(٥) « بزم شوق » نوفمبر ١٩٦٣ من ١٢ (مقال بقلم مطيع الامام) .

(٦) «Zhukovsky's Introduction»

والواقع أننا نميل الى الاتفاق مع أصحاب الرأي الثانى وذلك للأسباب الآتية :

١ — فيما يتعلق بتصريح الهجویری أنه كان يؤلف كتابه فى الهند فى الوقت الذى كانت فيه كتبه فى غزنه ، فمن الواضح أنه كان يشير الى مجموعة الروایات التى جمعها شیخه الختلى — والتى نص عليها فى هذا الموضع — اذ مما لا یرقى اليه شك أنه كان فى متناول يده وهو یكتب أجزاء كثيرة من كتابه مواد أخرى ، فهو یعدد بوضوح مراجعه ویسميها ، وكثيرا ما ینقل أمثالا وقصصا بحرفيتها ، ویورد استشهدات مقتطفة یصعب على الانسان أن یحفظها عن ظهر قلب . ونظرة فى الفصل الخامس(١) من هذا الباب كافیة لإثبات ذلك .

٢ — یتضح من المادة التى وردت فى كشف المحجوب أنه بالرغم من أن كثيرا من المعلومات التى ضمنها المؤلف كتابه قد أمكن له جمعها خلال فترة تجوله التى سبقت وقوعه فى الأسر ، الا أنه توجد معلومات أخرى ترجع الى ما بعد هذه الفترة ، مما یوضح أن بعض أجزاء من الكتاب كتبت بعدها ، مثال ذلك قصة زیارة الهجویری لقبر أبى سعید بن أبى الخیر المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (٢) .

٣ — هناك دلیل آخر ملموس مرتبط بالدلیل السابق ، وهو أنه اذا صح أن فترة الأسر المشار اليها كانت أثناء فتنة الراجات التى وقعت فى لاهور عام ٤٣٥ هـ ، وأن الهجویری كان یمارس فى هذه الفترة كتابة مؤلفه ، على نحو ما صرح به فى ترجمته لحبيب الراعى(٣) ، فقد ذكر فى ترجمته لمعروف الكرخى أنه اقتفى أثر « السلمى » و « القشیرى » فى اختیار الموضع الذى ترجم له فيه(٤) ، وفى هذا إشارة الى أنه اطلع على رسالة القشیرى قبل أن یكتب هذا الجزء . ومن المعروف أن الرسالة ألفت عام ٤٣٧ هـ ، فلا بد إذن أن الهجویری اطلع عليها بعد هذا التاريخ .

وخلاصة رأینا ، بالنسبة لهذه النقطة ، أنه يبدو أن الهجویری بدأ كتابة أجزاء من كتابه خلال فترة الأسر ، أى حوالى سنة ٤٣٥ هـ ، بعد أن تهايت له مادة مناسبة لأن یبدأ الكتابة . وبعد إطلاق سراحه رجع الى غزنه وخراسان ، حيث استعاد كتبه ومراجعته ، وجمع كمية أخرى من المعلومات

(١) « انظر : مظاهر التأثير والتأثر » .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٣٠١ .

(٣) « السابق » ص ١١٠ .

(٤) « السابق » ص ١٤١ .

ضمها الى ما لديه ، وبذلك اتاحت له الفرصة أن يكمل الكتاب . وربما أتم هذا العمل في غزنة أو خراسان ، وليس هناك ما يمنع أيضا من أن يكون قد أتمه في الهند عندما رجع اليها في المرة الثانية ليقيم نهائيا بمدينة لاهور ..

لها بالنسبة للنقطة الثالثة ، التي تتعلق بتاريخ تأليف الكتاب ، فهناك فترات ثلاث يشار اليها على أن الكتاب قد ألف في احداها :

الاولى : حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى (١) .

والثانية : النصف الثانى من القرن الخامس ، أو بعبارة أخرى : الربع الثالث من القرن الخامس الهجرى (٢) .

والثالثة : ما بين سنة ٤٨١ وسنة ٥٠٠ هـ (٣) .

وقد اعتد من رجحوا الفترة الاولى على ما هو واضح في ترجمة الهجویری لشيخه أبى القاسم الجرجاني المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، من أنه كان حيا عند تأليف كشف المحجوب ..

واستند من رجحوا الفترة الثانية الى أنه في الجزء الأخير من كشف المحجوب ، يضاف الى اسم أبى القاسم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هـ ، عبارة (رحمه الله) مما يدل على أن هذا الجزء كتب بعد وفاة القشيري (٤) .

أما الفترة الأخيرة فقد أثير اليها في مقال كتبه « يحيى حبيبي » وقويل بكثير من المعارضة ، وان وجد من يميل الى تصديقه (٥) .

ونناقش الآن احتمالات هذه الفترات أو التواريخ الثلاثة :

أولا : فيما يتعلق بالتاريخ الاول فان الفترة المذكورة ، اذا أخذت بمعناها الواسع ، لا تبعد عن الحقيقة . والدليل الذى نستند اليه هو نفس الدليل الذى اعتمد عليه من رجحوا هذه الفترة — من أن الكتاب ألف في حياة أبى القاسم الجرجاني — وقد تحدثنا سن ذلك بالتفصيل عند مناقشتنا لتاريخ وفاة الهجویری (٦) .

«Zhukovsky's Introduction»

(١)

(٢) « بزم شوق » نومبر ١٩٦٢ ص ١٦ (مغل بظم غلام سرور) .

(٣) Oriental College Magazine (Volume 36 pp. 27-43) by:

Mr. Yahya Hobibl.

Rieu Cat: Vol. I, Ethé Cat: Vol. I.

(٤)

«THE LIFE AND TECHINGS», p. 25.

(٥)

(٦) انظر : ص ٨٤

ثانيا : بالنسبة للتاريخ الثانى ، نفى رأينا أن الفترة المحددة تبعد عن الصواب . والدليل الذى نستند اليه في رفض تلك الفترة هو نفس الدليل الذى اعتمد عليه البعض في ترجيحها — وهو أن اسم القشيري يعقبه احيانا عبارة رحمه الله — وقد نسر ذلك أيضا عند مناقشتنا لتاريخ وفاة الهجویری (١) .

ثالثا : فيما يتعلق بالتاريخ الآخر — وهو الفترة ما بين ٤٨١ ، ٥٠٠ هـ — فربما كانت الفترة المحددة أبعد التواريخ الثلاثة عن الصواب بعد أن عرفنا أن الهجویری نفسه قد توفي حوالى سنة ٤٦٥ هـ .

أما عن الفترة التى نرجحها لتأليف الكتاب وتاريخ الانتهاء منه ، فقد بات واضحا أن الهجویری بدأ تأليف كتابه حوالى سنة ٤٣٥ هـ وهى السنة التى وقع فيها أسيرا فى مدينة لاهور ، — على نحو ما صرح به الهجویری نفسه فى الكتاب (٢) ، وما أثبتناه من أن فترة الأسر المشار اليها كانت أثناء فترة المراجعات التى وقعت فى لاهور سنة ٤٣٥ هـ (٣) .

أما عن تاريخ الانتهاء من تأليف الكتاب ، فيبدو أن الهجویری أنهى فيما بين سنتى ٤٤١ ، ٤٤٢ هـ . ونستند فى ذلك الى الأمور التالية :

١ — من المستبعد أن يكون الهجویری قد أنهى كتابه قبل سنة ٤٤٠ هـ ، وهى السنة التى توفي فيها أبو سعيد بن أبى الخير ، لأنه ذكر فى الكتاب أنه زار قبر أبى سعيد (٤) .

٢ — وردت فى كشف المحجوب اشارتان فى الباب الثالث عشر — وهو الباب الذى ذكر فيه الهجویری رجال الصوفية المتأخرين مرتبة على حسب بلدانهم وقال فى مقدمته انه سيذكر فى هذا الباب أسماء الذين كانوا احياء على عهده — وأولى هاتين الاشارتين أشير بها الى « خواجه على بن الحسين السيركانى » ، ونصها :

« أما ازاهل كرمان خواجه على بن الحسين السيركانى ، سياح وقت بود ، وأسفار نيكوداشت ، ويسررش حكيم مردى عزيز است » (٥) .

(١) انظر : ص ٨٢

(٢) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

(٣) انظر : ص ١٩

(٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠١

(٥) « السابق » ص ٢١٥ .

وترجمتها :

« أما من أهل كرمان : السيد على بن الحسين السيركاني ، وكان سياح الوقت ، وذا أسفار طيبة . وابنه حكيم رجل عزيز » .

وواضح من هذه الإشارة أن خواجه على لم يكن على قيد الحياة عند كتابتها ، فقد استعمل الهجویری في الحديث عنه الفعل الماضي (بود«ا») ، بينما استعمل في الحديث عن ابنه الرابطة (است) (ب) ، وهذا يبين أن خواجه على وأن كان حيا على عهد الهجویری ، إلا أنه كان قد توفي عند كتابة هذه النبذة ، بينما كان ابنه لا يزال على قيد الحياة . وتاريخ وفاة الأب محدد بعام ٤٤١ هـ (١) ، وتوفي الابن عام ٤٧٠ هـ (٢) . .

والإشارة الثانية أشير بها الى أبى جعفر « محمد بن الحسين الحرى » ، ونصها :

« أما ازاهل ما وراء النهر : خواجه امام مقبول خاص وعام ابوجعفر محمد بن الحسين الحرى ، مردى مستمع وكرفتارست ، وهمتى على دارد وروزكارى صافى ، وشفتى تمام بر طالبان دركاه حق » (٣) .

وترجمتها :

« أما من أهل ما وراء النهر : « خواجه » الإمام ، مقبول الخاص والعام ، أبو جعفر محمد بن الحسين الحرى ، وهو رجل مستمع ومغلوب ، ذو كمة عالية ووقت صاف ، وشفتة كاملة على جميع طلاب حضرة الحق » .

ويتضح من هذه الإشارة أن محمد بن الحسين الحرى كان على قيد الحياة عند كتابتها ، فالهجویری يستعمل في هذه النبذة الرابطة (است) والفعل المضارع (دارد) (ج) . وقد توفي محمد بن الحسين الحرى عام ٤٤٢ هـ (٤) . .

(١) ذكر « نفيسى » أن خواجه على بن حسن (حسين) الكرمانى السيركاني كان من شيوخ الصوفية في كرمان ، ومن مريدی الشيخ « هو » وتوفي سنة ٤٤١ هـ (انظر : شد الأزار ص ١٨١ حاشية ١) .

(٢) « هدية العارفين » ج ١ صود ٦٩٢ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٥ .

(٤) « الكامل » حوادث سنة ٤٤٢ ، « صفوة الصفوة » ج ٢ ص ٢٧٥ .

(ا) « بود » = كان . (ب) « است » = يكون ، كائن . (ج) « دارد » = يملك .

ويمكن أن نستخلص من هاتين الاشارتين انه من المرجح أن يكون
الهجویری قد أنهى كتابه فيما بین عامی ٤٤١ ، ٤٤٢ هـ ، أى بعد وفاة
خواجه على بن الحسین السیرکانی عام ٤٤١ هـ ، وقبیل وفاة محمد بن
الحسین الحرمی عام ٤٤٢ هـ .

وبناء على ما تقدم يكون الهجویری قد بدأ تأليف كتاب كشف المحجوب
حوالی عام ٤٣٥ هـ . وأتبه حوالی عام ٤٤٢ هـ . وهذه الفترة التي نرجحها
لا تتعارض مع ما ذكر من أن الهجویری كتب مؤلفه حوالی منتصف القرن
الخامس الهجری ، واثناء حياة أبی القاسم الجرجانی المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

* * *

الفصل الثاني أقسام الكتاب

(تقسيم آيته ، تقسيم من وجهة نظرنا ، التعريف بأقسام الكتاب وموضوعاتها)

١ - أقسام الكتاب من الناحية الشكلية :

تقسيم آيته : تعرض « آيته » في فهرسه لذكر خمس نسخ من كشف المحجوب ، أثبتها تحت أرقام : ١٧٧٣ ، ١٧٧٤ ، ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ ، وذكر أن الكتاب ينقسم طبقا لجميع النسخ الى أربعين بابا (١) بينما نسختا « غينا » ، و « بودلين » تتكون كل منهما من أربعة وستين بابا (٢) تتضمن عدة فصول . وغيا يلي قائمة بأقسام الكتاب كما أثبتها « آيته » طبقا للنسخة تحت رقم ١٧٧٣ :

- ١ - باب اثبات العلم .
- ٢ - باب الفقر .
- ٣ - باب التصوف .
- ٤ - باب لبس المرقعة .
- ٥ - باب اختلافهم في الفقر والتصوف .
- ٦ - باب في الملامة .
- ٧ - باب في ذكر أئمتهم من الصحابة .
- ٨ - باب في ذكر أئمتهم من أهل البيت .
- ٩ - باب في ذكر أئمتهم من أهل (أصحاب) الصفة .
- ١٠ - باب في ذكر أئمتهم من التابعين .

(١) ورد هذا أيضا في : « تاريخ ادبيات فارسي » هومان آيته : ترجمة رضا زاده شلق ،

طهران ١٢٢٧ - ١٩٥٨ م (انظر ص ٢٩٤) .

«Ethé» Cat. Vol. I. (٢)

- ١١ — باب في ذكر أئمتهم من أتباع التابعين .
١٢ — باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين .
١٣ — باب في ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان .

١٤ — باب في فرق فرقهم ومذاهبهم .
(ويقول أئمتهم : وفي نهاية هذه القائمة توجد أربعة كشوف) :

- كشف الحجاب الأول في معرفة الله .
- كشف الحجاب الثاني في التوحيد .
- كشف الحجاب الثالث في الإيمان .
- كشف الحجاب الرابع في الطهارة .
- ١٥ — باب التوبة وما يتعلق بها .
- كشف الحجاب الخامس في الصلاة .
- ١٦ — باب المحبة وما يتعلق بها .
- كشف الحجاب السادس في الزكاة .
- ١٧ — باب الجود والسخاء .
- كشف الحجاب السابع في الصيام .
- ١٨ — باب الجوع وما يتعلق به .
- كشف الحجاب الثامن في الحج .
- ١٩ — باب المجاهدة .
- كشف الحجاب التاسع في الصحبة وآدابها .
- ٢٠ — باب الصحبة وما يتعلق بها .
- ٢١ — باب آدابهم في الصحبة .
- ٢٢ — باب في آداب الصحبة في الإقامة .
- ٢٣ — باب في آدابهم في السفر .
- ٢٤ — باب في آدابهم في الأكل .
- ٢٥ — باب في آدابهم في المشي .
- ٢٦ — باب في نومهم في السفر والحضر .
- ٢٧ — باب في آدابهم في الكلام والسكوت .
- ٢٨ — باب في آدابهم في السؤال وتركه .

- ٢٩ — باب في آدابهم في التزويج والتجريد .
- ٣. — كشف الحجاب العاشر في بيان الفاظهم وحقائق معانيها .
- كشف الحجاب الحادي عشر في السماع .
- ٣١ — باب في السماع وما يتعلق به .
- ٣٢ — باب في سماع الشعر .
- ٣٣ — باب في سماع الأصوات والألحان .
- ٣٤ — باب في كلام السماع .
- ٣٥ — باب في اختلافهم في السماع .
- ٣٦ — باب في مراتبهم في حقيقة السماع .
- ٣٧ — باب في الوجد والوجود والتواجد ومراتبه .
- ٣٨ — باب في الرقص وما يتعلق به .
- ٣٩ — باب في الخرق .
- ٤. — باب في آداب السماع .

ونلاحظ على هذا التقسيم الذي أورده « آيته » أمرين :

الأول : يبدو أن الرقم (٤٠) الذي أشار به إلى عدد أبواب الكتاب قد حصل عليه بعد أن أحصى كلمة (باب) التي عنون بها المؤلف لمجموعة من الأمور والمسائل التي ذكرها أو ناقشها في كتابه ، كأن يقول مثلا : باب اثبات العلم ، باب الفقر ، باب الجوع وهكذا .

وهنا نلاحظ أن الرقم الصحيح هو (٣٩) لا (٤٠) .

والثاني : لم يعط « آيته » رقبا لأقسام الكتاب التي عنون لها المؤلف بكلمة (كشف الحجاب) باستثناء الحجاب العاشر الذي أعطاه رقم (٣٠) كما لو كان بابا من الأبواب التي ذكرها المؤلف ، وبذلك حصل على الرقم (٤٠) الذي ذكر أنه مجموع عدد الأبواب التي ينقسم إليها الكتاب طبقا لهذه النسخة .

تقسيم من وجهة نظرنا :

الواقع أننا إذا أردنا أن نحدد أقسام الكتاب تحديدا أكثر دقة وتناسقا نجد أن المؤلف قسم كتابه إلى مقدمة وخمسة وعشرين قسما يمكن تقسيمها إلى مجموعتين :

المجموعة الأولى : وتشمل أربعة عشر قسما اطلق على كل منها اسم
(باب) ، وبعض هذه الأبواب يشتمل على فصول .

المجموعة الثانية : وتشمل أحد عشر قسما اطلق على كل منها اسم
(كشف الحجاب) ، وبعض هذه الأقسام يشتمل على أبواب وفصول .

وفيا إلى قائمة بأقسام الكتاب كما نراها من وجهة نظرنا :

مقدمة المؤلف : وتشتمل على ثمانية فصول قصيرة .

أقسام الكتاب :

المجموعة الأولى :

- ١ — باب اثبات العلم : ويشتمل على أربعة فصول .
- ٢ — باب الفقر : ويشتمل على فصلين .
- ٣ — باب التصوف : ويشتمل على فصلين .
- ٤ — باب لبس المرقعة : ويشتمل على فصلين .
- ٥ — باب اختلافهم في الفقر والصفوة .
- ٦ — باب بيان الملاحة : ويشتمل على فصلين .
- ٧ — باب في ذكر اثمتهم من الصحابة والتابعين .
- ٨ — باب في ذكر اثمتهم من أهل البيت .
- ٩ — باب في ذكر أهل الصفة .
- ١٠ — باب في ذكر اثمتهم من التابعين والأنصار .
- ١١ — باب في ذكر اثمتهم من اتباع التابعين الى يومنا هذا . (اى الى عهد المؤلف) .
- ١٢ — باب في ذكر اثمتهم من المتأخرين .
- ١٣ — باب في ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان .
- ١٤ — باب في فرق فرقهم ومذاهبهم وآياتهم ومقاماتهم وحكاياتهم .

المجموعة الثانية :

- ١٥ — كشف الحجاب الاول في معرفة الله تعالى : ويشتمل على فصلين .
- ١٦ — كشف الحجاب الثانى في التوحيد : ويشتمل على فصل .

- ١٧ - كشف الحجاب الثالث في الايمان : ويشتمل على فصل .
- ١٨ - كشف الحجاب الرابع في الطهارة : ويشتمل على باب وفصلين .
- ١٩ - كشف الحجاب الخامس في الصلاة : ويشتمل على باب وأربعة فصول .
- ٢٠ - كشف الحجاب السادس في الزكاة : ويشتمل على فصل وباب .
- ٢١ - كشف الحجاب السابع في الصوم : ويشتمل على باب .
- ٢٢ - كشف الحجاب الثامن في الحج : ويشتمل على باب .
- ٢٣ - كشف الحجاب التاسع في الصحبة مع آدابها وأحكامها : ويشتمل على عشرة أبواب .
- ٢٤ - كشف الحجاب العاشر في بيان منطقهم وحدود الفاظهم وحقائق معانيهم .
- ٢٥ - كشف الحجاب الحادى عشر في السماع : ويشتمل على عشرة أبواب .

٢ - تعريف باقسام الكتاب وموضوعاتها :

ذكرنا أن المؤلف قسم كتابه الى مقدمة وخمسة وعشرين قسما ونعرف في اختصار بهذه الأقسام ونبين الموضوعات التى يشتمل عليها كل قسم منها :

مقدمة الكتاب (١)

قدم المؤلف لكتابه بمقدمة طويلة نوعا استغرقت حوالى عشر صفحات . استهلها باسم الله والحمد له ، والصلاة والسلام على رسوله ، وأثبت فيها اسمه واسم الكتاب ، ثم عقد ثمانية فصول قصيرة :

الفصل الاول : تحدث فيه عن السبب الذى من أجله أثبت اسمه فى بداية الكتاب .

الفصل الثانى : ذكر فيه أنه سلك طريق الاستخارة ، وبين فضائل ذلك .

الفصل الثالث : فى أنه محا عن قلبه الأغراض النفسية قبل أن يبدأ العمل .

(١) « كشف المحجوب » ص ١ - ١١ . (ملاحظة : هذا التقسيم وأرقام الصفحات وفقا للطبعة الحديثة لكشف المحجوب طهران ١٣٣٦ هـ . ش ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث) .

الفصل الرابع : في « النية » عملا بقول الرسول عليه السلام : « نية المؤمن خير من عمله » .

الفصل الخامس : شرح فيه الغرض من تسمية الكتاب باسم « كشف المحجوب » .

الفصل السادس : صرح فيه بأنه عرف مقصود السائل وأنه يجد في نفسه القدرة على إجابته على سؤاله إجابة منصلة .

الفصل السابع : في طلب التوفيق والعون من الله على اتمام مهمته .

الفصل الثامن : تحدث فيه عن أن هذا العالم موضع لأسرار الله وأن الجواهر والأعراض والطبائع أنها هي حجاب لتلك الأسرار ، وأن الإنسان محجوب بوجوده عن الأسرار الربانية ، وقد أصبح هذا الحجاب مزاجا له ، فلا جرم أن اكتفى بالجهل واشترى بالروح حجابه عن الحق لأنه يجهل جمال الكشف .

واستطرد من هذا إلى أن جميع المشايخ حثوا المريدين على تعلم العلم والداومة عليه نهى بذلك للباب الأول من الكتاب .

اقسام الكتاب

القسم الأول :

« باب اثبات العلم » (ص ١١ - ٢١) .

ويقع في حوالى احدى عشرة صفحة ، ويشتمل على أربعة نصول .

موضوعه :

(١) تحدث المؤلف في هذا الباب عن ضرورة العلم ، وذكر أن تعلم جميع

العلوم ليس فريضة على كل الناس ، إلا بالقدر الذى يتعلق بالشرعية ،

وأنه ينبغى أن يكون العلم مقرونا بالعمل .

ثم قسم العلم الى علمين :

علم الله تعالى ، وعلم الخلق .

(ب) الفصل الأول : علم الله .

(ج) الفصل الثانى : علم الخلق .

(د) الفصل الثالث : عن السفسطائيين الذين ينكرون العلم ، والملاحدة

من الصوفية الذين يقولون بترك العلم .

(هـ) الفصل الرابع : ذكر فيه طائفة من اقوال المشايخ في العلم .

القسم الثانى :

باب الفقر (ص ٢١ — ٣٤) .
ويتبع فى حوالى اثنتى عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين .

موضوعه :

(أ) الفقر من الناحية الروحية ، ويتحدث فيه عن درجة الفقر فى الطريق ، وحقيقته ورسمه .

(ب) الفصل الاول : فى اختلاف المشايخ فى الفقر والغنى وإيهما أفضل .

(ج) الفصل الثانى : فى اقوال شيوخ الصوفية فى الفقر وشرح رموزهم .

القسم الثالث :

باب التصوف (من ٣٤ — ٤٩) .
ويتبع فى حوالى خمس عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(أ) يتحدث فى هذا الباب عن لفظ (الصوفى) وهل هو مشتق من الصوف أم الصف أم الصفاء ؟ . . ويرفض هذه الاشتقاقات جميعها ويرجح انه اسم من أسماء الأعلام لهذه الطائفة . ويقسم أهل التصوف الى : « صوفى » و « متصوف » و « مستصوف » .

(ب) الفصل الاول : فى اقوال المشايخ فى تعريف الصوفى والتصوف .

(ج) الفصل الثانى : فيها تيل فى المعاملات .

القسم الرابع :

باب لبس المرقعة (ص ٤٩ — ٦٥) .
ويتبع فى حوالى ست عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(أ) المرقعة شعار للمتصوف ولكن بعض الادعياء يرتدونها طلبا للجاء ، وهم بذلك يسيئون الى الصوفية الحقيقيين لان الناس ينسبونهم اليهم ويظنونهم على شاكلتهم .

(ب) الفصل الاول : فى شرط المرقعات ، وحياسة المرقعة ، والشروط التى ينبغى توفرها فبين يلبس المريد المرقعة .

(ج) الفصل الثانى : فى ترك عادة لبس المرقعة ، والاصل فى تخريق الثياب .

القسم الخامس :

باب اختلافهم في الفقر والصفوة (٦٥ — ٦٨) .
ويقع في ثلاث صفحات .

موضوعه :

اختلاف علماء الصوفية في تفضيل الفقر والصفوة ، فالفقر عند جماعة أتم من الصفوة ، والصفوة عند جماعة أتم من الفقر . وهذا الخلاف خلاف في العبارات لأن الأولياء وصلوا الى حيث فنيت الدرجات والمقامات ، والعبارة تنقطع من هذا المعنى .

القسم السادس :

باب بيان الملامة (ص ٦٨ — ٧٨) .
ويقع في عشر صفحات ، ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(أ) الملامة واثرها في خلوص المحبة . وقد خص الحق أجباه بالملامة غيرة عليهم حتى لا تقع عين الغير على جمال حالهم ، وحتى لا يعجبوا هم بأنفسهم فيقوموا في أمة العجب والتكبر .

(ب) الفصل الأول : الملامة على ثلاثة أوجه :

ملامة استقامة السير .

ملامة القصد .

ملامة الترك .

(ج) الفصل الثاني : في تعريف أبي حمدة القصار للملامة .

القسم السابع :

بياب في ذكر ائمتهم من الصحابة والتابعين (ص ٧٨ — ٨٥) .

ويضم هذا الباب تراجم للخلفاء الأربعة :

١ — أبو بكر الصديق .

٢ — عمر بن الخطاب .

٣ — عثمان بن عفان .

٤ — علي بن أبي طالب .

القسم الثامن :

- باب في ذكر أئمتهم من أهل البيت (ص ٨٥ — ٩٧) .
- ويشتمل على خمس تراجم :
- ١ — الحسن بن علي .
- ٢ — الحسين بن علي .
- ٣ — علي بن الحسين بن علي زين العابدين .
- ٤ — أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين (الباقر) .
- ٥ — أبو محمد جعفر بن علي بن الحسين (الصادق) .

القسم التاسع :

- باب في ذكر أهل الصفة (ص ٩٧ — ٩٩) .
- عرف المؤلف في هذا الباب بأهل الصفة وذكر مجموعة من أسمائهم .

القسم العاشر :

- باب في ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار (ص ٩٩ — ١٠٧) .
- ترجم في هذا الباب لأربعة اشخاص هم :
- ١ — أويس القرني .
- ٢ — هرم بن حيان .
- ٣ — الحسن البصري .
- ٤ — سميد بن المسيب .

القسم الحادي عشر :

- باب في ذكر أئمتهم من أتباع التابعين (ص ١٠٧ — ٢٠٢) .
- ويشتمل على أربع وستين ترجمة للأشخاص التالية أسمائهم :
- ١ — حبيب العجمي .
- ٢ — مالك بن دينار .
- ٣ — أبو حليم حبيب بن سليم الراعي .
- ٤ — أبو حازم المدني .
- ٥ — محمد بن واسع .
- ٦ — أبو حنيفة النعمان بن ثابت الخزاز .
- ٧ — عبد الله بن المبارك المروزي .

- ٨ — أبو على الفضيل بن عياض .
- ٩ — أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصرى .
- ١٠ — أبو اسحاق ابراهيم بن ادهم بن منصور .
- ١١ — بشر بن الحارث الحافى .
- ١٢ — أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى .
- ١٣ — أبو عبد الله الحارث بن اسد المحاسبى .
- ١٤ — أبو سليمان داود بن نصير الطائى .
- ١٥ — أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى .
- ١٦ — أبو على شقيق بن ابراهيم الأزدي .
- ١٧ — أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني .
- ١٨ — أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى .
- ١٩ — أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم .
- ٢٠ — أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى .
- ٢١ — الامام أحمد بن حنبل .
- ٢٢ — أبو الحسن أحمد بن أبى الحوارى .
- ٢٣ — أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخى .
- ٢٤ — أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبى .
- ٢٥ — أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى .
- ٢٦ — أبو حفص عمر بن سالم النيسابورى الحداد .
- ٢٧ — أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمار القصار .
- ٢٨ — أبو سرى منصور بن عمار .
- ٢٩ — أبو عبد الله أحمد بن عاصم الانطاكى .
- ٣٠ — أبو محمد عبد الله أحمد بن خبيق الانطاكى .
- ٣١ — أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي .
- ٣٢ — أبو الحسن أحمد بن محمد النورى .
- ٣٣ — أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيرى .
- ٣٤ — أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء .
- ٣٥ — أبو محمد رويم بن أحمد .
- ٣٦ — أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازى .

- ٣٧ — أبو الحسن سمعون بن عبد الله الخواص .
- ٣٨ — أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى .
- ٣٩ — عمرو بن عثمان المكى .
- ٤٠ — أبو محمد سهل بن عبد الله التستري .
- ٤١ — أبو عبد الله محمد بن الفضل البلخى .
- ٤٢ — أبو عبد الله محمد بن على الترمذى .
- ٤٣ — أبو بكر محمد بن عمر الوراق (الترمذى) .
- ٤٤ — أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز .
- ٤٥ — أبو الحسن على بن محمد الاصفهاني .
- ٤٦ — أبو الحسن محمد بن اسماعيل (خير النساچ) .
- ٤٧ — أبو حمزة الخراساني .
- ٤٨ — أبو العباس أحمد بن مسروق .
- ٤٩ — أبو عبد الله محمد بن اسماعيل المغربي .
- ٥٠ — أبو على الحسن بن على الجوزجاني .
- ٥١ — أبو محمد أحمد بن الحسين الجريري .
- ٥٢ — أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل الأدمي .
- ٥٣ — أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج .
- ٥٤ — أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الخواص .
- ٥٥ — أبو حمزة البغدادي البزاز .
- ٥٦ — أبو بكر محمد بن موسى الواسطي .
- ٥٧ — أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي .
- ٥٨ — أبو محمد جعفر بن محمد بن نصير الخلدی .
- ٥٩ — أبو على محمد بن القاسم الرودباري .
- ٦٠ — أبو العباس القاسم بن القاسم بن مهدي السيارى .
- ٦١ — أبو عبد الله محمد بن خفيف .
- ٦٢ — أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي .
- ٦٣ — أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن محموية النصر ابادى .
- ٦٤ — أبو الحسن على بن ابراهيم الحميرى .

القسم الثاني عشر :

باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين (ص ٢٠٢ - ٢١٤) .
» يقول في مقدمة هذا الباب : بعض الذين ساذكرهم في هذا الباب
توفوا وبعضهم أحياء » .

- ثم يورد تراجم لعشرة من شيوخ الصوفية هم :
- ١ - أبو العباس أحمد بن محمد القصاب .
 - ٢ - أبو علي الحسن بن محمد العقاق .
 - ٣ - أبو الحسن علي بن أحمد الخرقاني .
 - ٤ - أبو عبد الله محمد بن علي الداستاني .
 - ٥ - أبو سعيد فضل الله بن محمد الميهني .
 - ٦ - أبو الفضل محمد بن الحسن الختلي .
 - ٧ - أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري .
 - ٨ - أبو العباس أحمد بن محمد الشقاني .
 - ٩ - أبو القاسم علي الجرجاني الطوسي .
 - ١٠ - أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان النوقاني .

* * *

القسم الثالث عشر :

باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين من أهل البلدان (ص ٢١٤ - ٢١٨) :
يذكر في هذا الباب أسماء الذين كانوا لا يزالون أحياء على عهده من زهاد
الصوفية ومشايخهم من أرباب المعاني ، ويورد أسماءهم مرتبة على حسب
البلدان :

- ١ - أهل الشام والعراق .
- ٢ - أهل فارس .
- ٣ - أهل قهستان وأذربايجان وطبرستان وقومس .
- ٤ - أهل كرمان .
- ٥ - أهل خراسان .
- ٦ - أهل ما وراء النهر .
- ٧ - أهل غزنين وسكانها .

* * *

القسم الرابع عشر :

باب في الفرق بين فرقهم ومذاهبهم وآياتهم ومقاماتهم وحكاياتهم

(ص ٢١٨ - ٣٤١)

تناول المؤلف في هذا الباب الفرق الصوفية ، وقسمها الى اثنتى عشرة فرقة ، وتحدث عن كل فرقة منها ونسبها الى مؤسسها ، وذكر الاسس الرئيسية في مذهبها ، وبين ان هذه الفرق تتفق فيما بينها في اصول الشرع وفروعه والتوحيد ، ولكنها تختلف في بعض الجزئيات : كالعلامات والمجاهدات والمشاهدات والرياضات ، وفي تفسير بعض المصطلحات حيث يبدو هذا الاختلاف واضحا .

وهذه الفرق هي :

١ - المحاسبية :

وتنسب الى ابي عبد الله الحارث بن اسد المحاسبى ، واساس مذهبهم يقوم على الرضا .

وقد تكلم المؤلف في الامور الآتية :

(١) الرضا وهل هو من المقامات أم الأحوال .

(ب) فصل : فيما قيل بشأن ذلك .

(ج) الفرق بين المقام والحال .

٢ - القصارية :

وتنسب الى ابي صالح حمدون بن أحمد بن عماره القصار ، واساس مذهبهم على الملامة .

تحدث المؤلف في ايجاز عن الملامة وأحوال القاريء الى الباب السادس من الكتاب حيث تناول هذه المسألة بالتفصيل .

٣ - الطيفورية :

وتنسب الى ابي يزيد طيفور بن عيسى البسطامى ، واساس مذهبهم يقوم على السكر .

وقد تكلم المؤلف عن السكر والصحو .

٤ - الجنيدية :

وتنسب الى ابي القاسم الجنيد بن محمد ، وأساس مذهبه يقوم على الصحو على عكس الطيفورية .

٥ - النورية :

وتنسب الى ابي الحسن احمد بن محمد النورى ، وأساس مذهبه يقوم على الايثار .

٦ - السهلية :

وتنسب الى سهل بن عبد الله التستري ، وأساس مذهبه يقوم على الرياضة والمجاهدة . وقد تناول المؤلف المسائل التالية :

(١) الكلام فى حقيقة النفس .

(ب) فصل : فى اقوال المشايخ فى النفس .

(ج) الكلام فى مجاهدة النفس .

(د) الكلام فى حقيقة الهوى .

٧ - الحكيمية :

وتنسب الى ابي عبد الله بن على الحكيم الترمذى ، وأساس مذهبه يقوم على الولاية . وتحديث المؤلف فى :

(١) اثبات الولاية .

(ب) فصل : فى الرد على المعتزلة والحشوية ممن ينكرون تخصيص الاولياء .

(ج) فصل : فى رموز المشايخ عن الولاية .

(د) الكلام فى اثبات الكرامات .

(هـ) الفرق بين المعجزات والكرامات .

(و) اظهار جنس المعجزة على يد من يدعى بالالوهية .

(ز) تفضيل الانبياء على الاولياء .

(ح) تفضيل الانبياء والاولياء على الملائكة .

٨ - الخرازية :

وتنسب الى ابي سعيد الخراز ، واساس مذهبه يقوم على الفناء والبقاء .

(١) الكلام في الفناء والبقاء .

(ب) فصل : في اقوال المشايخ ورموزهم فيما يتعلق بالفناء والبقاء .

٩ - الخفيفية :

وتنسب الى ابي عبد الله محمد بن خفيف ، واساس مذهبه يقوم على الغيبة والحضور

١٠ - السيارية :

وتنسب الى ابي العباس السيارى ، واساس مذهبه يقوم على الجمع والتفرقة .

١١ - الحلولية :

وهم طائفتان :

الاولى : تنسب الى ابي حلمان الدمشقى .

والثانية : تنسب الى فارس .

(١) الكلام في الروح .

(ب) فصل : في اقوال المشايخ في الروح .

القسم الخامس عشر :

كشف الحجاب الاول في معرفة الله تعالى (ص ٣٤١ - ٣٥٦) . .
ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(١) المعرفة نوعان : معرفة علمية ، ومعرفة حالية . وقد سمي العلماء والفقهاء صحة العلم بالله معرفة ، بينما سمي شيوخ الصوفية صحة الحال مع الله معرفة .

(ب) الفصل الأول : المعتزلة يعتقدون أنه يمكن معرفة الحق عن طريق العقل . ويعتقد آخرون أن الاستدلال وسيلة صحيحة لكسب المعرفة .
(ج) الفصل الثاني : في أقوال المشايخ في المعرفة .

المقسم السادس عشر :
كشف الحجاب الثاني في التوحيد (ص ٣٥٦ — ٣٦٨)
ويشتمل على فصل .

موضوعه :

(١) حقيقة التوحيد الحكم على وحدانية شيء بصحة العلم بواحدانيته .
ولما كان الله تعالى واحدا لا يقاسمه أحد في ذاته وصفاته ، ولا قسيم ولا شريك له في أفعاله ولما كان الموجودون يعرفونه على هذه الصفة ، فانهم يسمون هذا العلم توحيدا .

والتوحيد على ثلاثة أنواع :

توحيد الحق للحق

توحيد الحق للخلق

توحيد الخلق للحق

(ب) فصل في أقوال المشايخ في التوحيد .

المقسم السابع عشر :
كشف الحجاب الثالث في الإيمان (ص ٣٦٨ — ٣٧٤)
ويشتمل على فصل .

موضوعه :

(١) الإيمان من ناحية اللغة هو التصديق . وقد اختلف الناس في إثبات حكمه ، فالمعتزلة يقولون أن جميع الطاعات العلمية والعملية إيمان ، والإيمان عند غيرهم : المعرفة ، وعند المتكلمين من أهل السنة : التصديق المطلق . أما الصوفيون فينقسمون فيه إلى قسمين :

فريق يقول أن الإيمان قول وتصديق وعمل ،

وفريق يقول أنه قول وتصديق .

(ب) فصل : في حقيقة الإيمان .

القسم الثامن عشر :

كشف الحجاب الرابع في الطهارة (ص ٣٧٤ — ٣٨٦)

يشتمل على باب وفصلين .

موضوعه :

- (أ) الطهارة على نوعين : طهارة الظاهر ، وطهارة القلب .
وطهارة الظاهر تكون بالماء ، وطهارة الباطن تكون بالتوبة .
- (ب) باب التوبة وما يتعلق بها : يشترط للتوبة ثلاثة أمور :
الأسف على المخالفة ، ترك الزلة في الحال ، العزم على عدم العودة الى المعصية . والتائبون على ثلاث درجات : التائب ،
والمنيب ، والأواب .
- (ج) فصل : في الرجوع عن التوبة .
- (د) فصل : في أقوال المشايخ في التوبة .

القسم التاسع عشر :

كشف الحجاب الخامس في الصلاة (ص ٣٨٦ — ٤٠٤)

ويشتمل على باب وخمسة فصول .

موضوعه :

- (أ) الصلاة في عرف الفقهاء مجموعة من الأحكام الظاهرية ، ولكن الصوفية يربطون بين هذه الأحكام الظاهرية ومعانيها الباطنية .
- (ب) فصل في رأى الصوفية في الصلاة : فريق يعدون الصلاة وسيلة للحضور ، وفريق يعدونها وسيلة للغيبة . وطائفة من أرباب الأحوال يقولون انها تتم في مقام الجمع ، وفريق يقول انها تتم في مقام انتفرقة .
- ومما يتعلق بالصلاة : المحبة .
- (ج) باب المحبة :
- الفصل الاول : في انواع المحبة .
- الفصل الثانى : المحبة أساس التصوف .

- الفصل الثالث : رأى المشايخ فى العشق .
 الفصل الرابع : فى اقوال المشايخ فى حقيقة المحبة .

القسم العشرون :

كشف الحجاب السادس فى الزكاة (ص ٤٠٤ — ٤١٣) .

ويشتمل على فصل وباب :

موضوعه :

- (١) الزكاة فريضة واجبة على تمام النعمة ، ولكل شىء زكاة من جنسه :
 فالمال نعمة وله زكاة من جنسه ، والأشياء العينية نعمة ولها زكاة من
 جنسها ، والصحة نعمة كبيرة ، ولكل عضو من أعضاء البدن زكاة .
 (ب) فصل : فى رأى شيوخ الصوفية فيما يعطى الزكاة ومن يأخذها .
 (ج) باب الجود والسخاء .

القسم الحادى والعشرون :

كشف الحجاب السابع فى الصوم (ص ٤١٣ — ٤٢٢) .

ويشتمل على باب .

- (١) الصوم عبادة سرية بين المخلوق والخالق وجزاؤها لا نهاية له .
 وأقل درجة فى الصوم هى الجوع .
 (ب) باب الجوع .

القسم الثانى والعشرون :

كشف الحجاب الثامن فى الحج (ص ٤٢٢ — ٤٣٢) .

ويشتمل على باب .

موضوعه :

- (١) الحج فريضة على العبد فى حال الصحة والعقل والبلوغ والإسلام
 وحصول الاستطاعة .

وليس الغرض من الحج مشاهدة الكمية ، وإنما كشف المشاهدة ،
وعندما يكون العبد مكاشفاً فإن العالم كله يصبح حرماً له ، وعندما يكون
محجوباً يصبح الحرم بالنسبة له أظلم من أى مكان .

(ب) باب المشاهدة .

القسم الثالث والعشرون :

كشف الحجاب التاسع فى الصبغة وأدابها وأحكامها (ص ٤٣٢ — ٤٧٩)
ويشتمل على عشرة أبواب :

- ١ — باب الصبغة وما يتعلق بها .
- ٢ — باب آدابهم فى الصبغة ، ويشتمل على فصل .
- ٣ — باب آداب الإقامة فى الصبغة .
- ٤ — باب الصبغة فى السفر .
- ٥ — باب آدابهم فى الأكل .
- ٦ — باب آدابهم فى المشى .
- ٧ — باب آدابهم فى السفر والحضر .
- ٨ — باب آدابهم فى الكلام والسكوت .
- ٩ — باب آدابهم فى السؤال وتركه .
- ١٠ — باب آدابهم فى التزويج والتجريد .

القسم الرابع والعشرون :

كشف الحجاب العاشر فى بيان منطقهم وحدود الفاظهم وحقائق معانيهم
(ص ٥٠٨ — ٥٧٩)
موضوعه :

أهل كل فن ، ولأرباب كل معاملة عبارات يستعملونها بعضهم مع البعض
ولا يعرف معناها سواهم ، وللصوفية أيضاً الفاظ خاصة ، منها :

الحال والوقت ، والمقام والتمكين ، والمحاضرة والمكاشفة ، والتبض
والبسط ، والانس والهبة ، وانقهر والطفى ، والنفى والإثبات ،

والمسامرة والمحادثة ، وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، والعلم
والمعرفة ، والشرعية والحقيقة ، وغير ذلك .

القسم الخامس والعشرون :

كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع (ص ٥٠٨ — ٥٤٦)

ويشتمل على عشرة أبواب :

- ١ — باب سماع القرآن .
- ٢ — باب سماع الشعر .
- ٣ — باب سماع الاصوات والالحان .
- ٤ — باب احكام السماع .
- ٥ — باب اختلافهم فى السماع .
- ٦ — باب مراتبهم فى حقيقة السماع ، ويشتمل على فصل .
- ٧ — باب الوجد والتواجد .
- ٨ — باب الرقص .
- ٩ — باب الخرق .
- ١٠ — باب آداب السماع .

الفصل الثالث مصادر الكتاب

الروايات الشفوية ، الكتب والرسائل المدونة

اعتمد الهجویری فی کتابه علی مصادر متعددة ، واستقى مادته من منابع مختلفة ، منها الروايات الشفوية ، ومنها الكتب والرسائل المدونة . وقد بدأ من خلال كشف المحجوب أن الهجویری كان علی علم تام بأعمال أسلافه ، وهو یعدد مصادرہ ویذكرها بالاسم تارة ، ویكتفی بأن یشير إلى أسماء مؤلفيها تارة أخرى .

ویمكن أن نقسم مصادر كشف المحجوب إلى قسمین :

أولاً : الروايات الشفوية :

لا شك أن الروايات الشفوية كانت المصدر الأول الذي استمد منه الهجویری مادة كتابه ، وقد لاحظنا أنه كثيراً ما یردد فی الكتاب عبارات :

سمعت فلانا یقول كذا ... (١)

سألت فلانا عن كذا ، فقال (٢)

كنت عند فلان ، فقال واحد كذا ... (٣)

جرت لی مناظرة مع واحد ، فقال كذا ... (٤)

اتفق لی صحبة أحد الادعیاء ، فقال كذا ... (٥)

روی لی فلان عن فلان كذا ... (٦)

(١) « كشف المحجوب » انظر ص ٢٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ .

(٢) السابق « انظر ص ٥٥ .

(٣) السابق « انظر ص ٢١٣ .

(٤) « السابق » انظر ص ٨ ، ١١٥ .

(٥) « السابق » انظر ص ٧٥ .

(٦) « السابق » انظر ص ٢٠٥ .

وقد تكونت حصيلة الهجویری من هذه الروایات بالرحلات التي قام بها (١) ، فقد رحل كثيرا ، وزار أماكن متعددة من العالم الاسلامی ، وامكنه عن طريق هذه الرحلات الاتصال بكثير من كبار رجال الدين والائمة والصوفية في عصره ، والمثليين الصادقين والادعياء للمذاهب والفرق المختلفة ، وتجادل معهم في المسائل التي كان يهتم بها . وجاهد في الوقت نفسه لكي يستطلع آراءهم ويقف على مذاهبهم ، ويقدر مدى قربهم او بعدهم عن اهل السنة ، ومدى تمسكهم باحكام الشريعة او مجانفتهم لها ، وبذلك حصل على معلومات قيمة ومتنوعة استخدمها في حكاياته عن التي بهم ، وفي احكامه الصائقة على آرائهم ومذاهبهم ومختلف المسائل التي اوردها في كتابه او تعرض لمناقشتها .

ثانيا : الكتب والرسائل المدونة :

رجع الهجویری الى كثير من الكتب والرسائل التي كانت معروفة على عهده . ويمكن ان نقسم مصادره من هذا النوع الى ثلاث مجموعات .

المجموعة الاولى : الكتب التي رجع اليها وذكر اسماءها واسماء مؤلفيها ونقل عنها في كتابه ونص على ذلك صراحة ، وهي :

اولا : كتاب « اللمع » لابن نصر السراج الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨ هـ .

اشار الهجویری الى هذا الكتاب في باب آدابهم في الصحبة ، وذكر انه ينقل عنه ، واورد النص الذي نقله باللغة العربية (٢) .

غير ان اعتماد الهجویری على اللمع لم يكن مقصورا على هذا ، فقد اعتمد عليه كثيرا ونقل عنه في مواضع اخرى ، وان لم يصرح بهذا . والدارس لكتابي كشف المحجوب واللمع يمكنه في سهولة ويسر ان يضع يده على المواضع التي ينقل فيها الهجویری عن اللمع ، وقد اوردنا مثلا واحدا يبين هذه الحقيقة (٣) ، وان كان يوجد على غرارها الكثير .

ثانيا : كتاب المحبة : لميرو بن عثمان المكي المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .

(١) ارجع الى تفصيل رحلات الهجویری من

(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٤٤

(٣) انظر الفصل الخامس من هذا الباب : (مظاهر التأثير والتأثر : بين اللمع وكشف المحجوب) .

وذكر الهجویری هذا الكتاب فی باب المحبة ، ونقل عنه نصا ترجمه الى الفارسیة وصرح بأنه ینقل عنه (۱) .

ثالثا : كتب أبی عبد الرحمن السلمی المتوفی سنة ۴۱۲ هـ

اعتمد الهجویری على كتب ثلاثة من مؤلفات أبی عبد الرحمن السلمی ، وهی :

كتاب تاریخ اهل الصفة ، كتاب طبقات الصوفیة ، كتاب السماع .

أما « تاریخ اهل الصفة » فقد أشار الیه فی قوله ما ترجمته :

« وقد ألف الشیخ أبو عبد الرحمن السلمی رضی الله عنه — وكان نقال انطریقة وراوی اقوال المشایخ — کتابا منفردا فی تاریخ اهل الصفة ، وأورد فیہ مناقبهم وفضائلهم واسماءهم وكنیاتهم » (۲) .

وأما « طبقات الصوفیة » فقد ذكر الهجویری أنه هذا حذوه فی ترتیبه لتراجم الشیوخ (۳) .

وأما « كتاب السماع » فقد ورد ذكره فی باب السماع حیث یقول الهجویری ما ترجمته :

« وقد روى الصحابة رضوان الله علیهم مثل هذا ، وجمعه الشیخ أبو عبد الرحمن السلمی فی كتاب السماع ، وقطع باباحته » (۴) .

رابعا : كتاب « تاریخ المشایخ » ل محمد بن علی الترمذی المتوفی سنة ۲۸۵ هـ

أشار الهجویری الى هذا الكتاب فی باب لبس المرقعة ، وأورد منه خبرا عن الامام أبی حنیفة النعمان (۵) . ویبدو أن الهجویری اعتمد على هذا الكتاب فی ترجمته للأئمة والشیوخ الاوائل .

خامسا : « الرسالة » لأبى القاسم عبد الکریم بن هوازن القشیری المتوفی سنة ۴۶۵ هـ .

(۱) « كشف المحجوب » ص ۳۹۹ — ۴۰۰

(۲) « السابق » ص ۹۸ — ۹۹

(۳) « السابق » ص ۱۴۱

(۴) « السابق » ص ۵۲۳ — ۵۲۴

(۵) « السابق » ص ۵۰

أشار الهجویری الى الرسالة القشيرية إشارة غير مباشرة عند ترجمته
لمعروف الكرخي ، حيث يقول ما ترجمته :

« وكان من الواجب ذكره قبل هذا ، ولكنني ذكرته في هذا الموضع موانقة
لائنين من الشيوخ : أحدهما صاحب نقل ، والآخر صاحب تصرف : والأول
هو الشيخ المبارك أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله الذي كتبه على هذا
الترتيب ، والثاني الأستاذ أبو القاسم القشيري الذي ذكره في كتابه على
هذه الجملة » (١) .

وبالرغم من أن الهجویری لم يذكر اسم الكتابين ، إلا أنه من الواضح
من عباراته أنه يعنى طبقات الصوفية والرسالة القشيرية .

غير أن إفادة الهجویری من الرسالة القشيرية لم تكن مقصورة على
هذا ، فمن الثابت أنه ينقل عنها في أماكن كثيرة من كتابه . ومعظم
استشاداته من الأقوال والحكايات مأخوذة عن الرسالة دون زيادة ،
وإن كان في بعض الأحيان يضيف عبارة من عنده لتوضيح المعنى .

كما يتضمن كتاب كشف المحجوب ترجمة فارسية لبعض فصول من
الرسالة القشيرية (٢) .

سادسا : « حكايات عراقيان » (حكايات العراقيين) :

وهي مجموعة من الحكايات عن شيوخ الصوفية من تصنيف بعض
شيوخ العراق .

والهجویری ينقل عن هذه المجموعة ويذكرها مرة باسم « حكايات
عراقيان » (٣) ويكتفى مرة أخرى بأن يشير إليها باسم « حكايات » (٤) .

المجموعة الثانية :

وهي الكتب والرسائل التي ذكر الهجویری أسماءها وأسماء مؤلفيها ،
وصرح بأنه اطلع عليها وقراها ، ولا شك أنه أفاد منها ، وإن لم يشر الى
أنه ينقل عنها ، مثل :

(١) « كشف المحجوب » ص ١٤١

(٢) « انظر على سبيل المثال : باب المحبة في الرسالة : ج ٢ ص ٦١٠ وما بعدها ،
وطابق بينه وبين كشف المحجوب ص ٢٩٢ وما بعدها » .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٥٦ وغيرها .

(٤) « السابق » ص ٧١ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٧٤ وغيرها .

١ — تصانيف الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ :
وقد اشار الهجویری الى هذه التصانيف في ترجمته للحزج حيث يقول :
« وله تصانيف زاهرة ، ورموز وكلام مهذب في الأصول والفروع . وانا
على بن عثمان الجلابی رأيت له خمسين تصنيفا في بغداد ونواحيها ،
وبعضها في خوزستان وفارس وخراسان » (١) .

٢ — مؤلفات ابي جعفر بن الصباح الصيدلانی :
يقول الهجویری عنه ماترجمته :
« وكان من رؤساء المتصوفة ، وذا لسان طيب في التحقيق وميل عظيم
الى الحسين بن منصور . وقد قرأت بعض تصانيفه » (٢) .

٣ — رسائل السيارية :
وهی الرسائل المتبادلة بين اهل « نسا » واهل « مرو » من السيارية
اتباع ابي العباس السياری ، وقد اطلع الهجویری على بعض منها
في مدينة مرو (٣) .

المجموعة الثالثة :

كتب اشار اليها الهجویری ، وهي نوعان :
(١) الكتب التي ذكر اسماءها واسماء مؤلفيها ، مثل :
١ — مؤلفات الحكيم الترمذی ، وهي :
آداب المريدين ، ختم الولاية ، كتاب النهج ، كتاب نوادر
الأصول (٤) .

٢ — كتاب « مرآة الحكماء » لشاه بن شجاع الكرمانی (٥) .

٣ — كتاب « غلط الواجدین » لابی محمد رويم (٦) .

٤ — كتاب « تصحيح الارادة » للجنييد البغدادي (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ١٩٠ — ١٩١

(٢) « السابق » ص ٢١٤ — ٢١٥

(٣) « السابق » ص ٢٢٣

(٤) « السابق » ص ٤٩٣ ، ١٧٨

(٥) « السابق » ص ١٧٤

(٦) « السابق » ص ١٧٠

(٧) « السابق » ص ٤٣٩

- ٥ — كتاب « الرعاية بحقوق الله » لأحمد بن خضرويه (١) .
- ٦ — كتاب « المرقعة » لأبى معمر الأصفهاني (٢) .
- ٧ — كتاب « الرعاية » لأبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (٣) .
- ٨ — كتاب فى « إباحة السماع » لمؤلف مجهول (٤) .
- (ب) التصانيف والتآليف التى اكتفى بذكر أسماء مؤلفيها ومصنفيها ، وهى :

- ١ — تصانيف يحيى بن معاذ الرازى (٥) .
- ٢ — تآليف أبى بكر الوراق (٦) .
- ٣ — آثار سهل بن عبد الله (٧) .
- ٤ — تصانيف أحمد بن خضرويه (٨) .
- ٥ — تصانيف أبى سعيد الخراز (٩) .

وبالإضافة الى هذه المصادر ، فقد استند الهجویری الى كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأخبار الصحاح والأقوال المأثورة عن شيوخ الصوفية الأوائل .

وعلى الرغم من تعدد المصادر التى اعتمد عليها الهجویری ، رأيناه يشكو فى موضع من كشف المحجوب ، من الظروف غير المواتية التى كان عليه أن يعكف فيها على تآليف الكتاب ، فقد كان أسيراً فى بلاد الهند ، بينما كانت كتبه فى موطنه غزنة .

ويقول زوكوفسكى إنه فيما يختص بالكتب والمواد التى لم تكن فى متناول يد الهجویری ربما كان يعنى بذلك بعض المجموعات من الأحاديث المنتولة التى جمعها شيخه الختلى فى « الروايات » (١٠) ، اذ مما لا يرقى اليه أدنى

(١) « كشف المحجوب » ص ٤٣٩

(٢) « السابق » ص ٦٢

(٣) « السابق » ص ١٤٤

(٤) « السابق » ص ٥٢٤

(٥) « السابق » ص ١٥٣

(٦) « السابق » ص ٤٣٩ ، ١٧٩

(٧) « السابق » ص ٤٣٩

(٨) « السابق » ص ١٥١

(٩) « السابق » ص ٣١١

(١٠) « السابق » ص ١١٠

شك أنه كان في متناول يده مواد أخرى ، فهو يعدد بوضوح مراجعه ويسمّيها ، وكثيرا ما ينقل قصصا بنصّها ، ويورد استشهدات يصعب على الإنسان أن يحفظها عن ظهر قلب (١) .

على أننا نرى انهجويرى في بعض الأحيان يبدأ قولا منقولاً بالعربية ويكمّله بالفارسية (٢) أو يورد تفسيراً أو شرحاً ما بالفارسية في ثانياً تعبيرات عربية مبعثرة . وكذلك يسرد بعض أقوال الشيوخ بالفارسية (٣) على نحو يوحى بغياب أصولها العربية ، تلك الأصول التي كان يمكن أن يورد منها استشهدات مضبوطة .

* * *

-
- (١) انظر « اللع » ص ١٩٥ وقابل بينه وبين كشف المحجوب ص ٤٤٤) .
(٢) انظر : معراج بايزيد في اللع ص ٤٦٤ وفي كشف المحجوب ص ٣٠٦) .
(٣) انظر : الترجمة الفارسية لقول الحسين البصري في كشف المحجوب ص ٥٠ والاصل العربي في « التعرف » ص ٢٣ ، حكاية الرسالة المتبادلة بين يحيى بن معاذ وأبي يزيد في كشف المحجوب ص ٢٢٣ والاصل العربي في الرسالة ج ٢ ص ٦٢٠) .

الفصل الرابع مكانة الكتاب بين كتب التصوف

(كتب التصوف قبل كشف المحجوب ، والكتب المؤلفة بعده)

يحتل كتاب كشف المحجوب مكانة مرموقة في تاريخ التصوف الاسلامى ، فهو يمثل واسطة العقد بالنسبة لامهات الكتب العربية في التصوف ، والكتب الفارسية في هذا الموضوع ..

وكشف المحجوب يعتبر بلكورة المؤلفات الفارسية في التصوف ، ولم تسبقه كتب في موضوعه ، باستثناء الترجمة الفارسية لكتاب : « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، وهى الترجمة التى قام بها « المستبلى البخارى (٤٣٤ هـ) ، للأصل العربى لكتاب التعرف للكلاباذى « ٣٨٠ هـ » (١) ، وكل ما سبقه كان من الكتب العربية التى كانت ولا تزال تعتبر من أهم المراجع فى التصوف الاسلامى ، مثل « اللمع » و « التعرف » و « قوت القلوب » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة » ..

وواضح من كتاب كشف المحجوب ان مؤلفه اعتمد على عدد غير قليل من الكتب العربية : ومن أهمها « اللمع » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة » ، فقد رجع الى هذه الكتب واهتدى بمنهجها ، ونقل عنها كثيرا من مواد كتابه ، وصار هو أيضا مرجعا لمن جاء بعده ، ذلك ان مؤلفو الصوفية من الفرس الذين جاءوا بعد الهجویری افادوا من كشف المحجوب واعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا فى مؤلفاتهم ، مثل : « تذكرة لأولياء » و « نفحات الانس » و « سفينة الأولياء » و « طرائق الحقائق » و « تاريخ تصوف در اسلام » وغيرها .

ويجدر بنا قبل ان نقيم كتاب كشف المحجوب ، ان نعرف بالكتب التى سبقته وافاد منها ، والكتب التى الفت بعده وافادت بدورها منه ..

(١) « كشف المحجوب » انظر مقدمة المصحح ص ١٩

كتب التصوف قبل كشف المحجوب :

ذكرنا ان الكتب الصوفية التى سبقت كشف المحجوب كانت كلها باللغة العربية ، مثل : اللمع والتعرف وقوت القلوب وطبقات الصوفية والرسالة . وليس معنى هذا انه لم تكن هناك كتب اخرى ، فمن الواضح انه كانت هناك محاولات كثيرة سابقة على هذه الكتب ولكنها لم تصل الينا ، وهى اما ان تكون فى عداد ما ضاع من التراث الاسلامى ، واما ان تكون محفوظة فى خزانة أو مكتبة ولم يقدر لها بعد من ينشرها أو يتوفر على دراستها .

ويؤيد هذا القول ما نقراه فى الكتب التى تحت أيدينا من أسماء لكتب ورسائل ليس لنا من العلم بها الا معرفة اسمائها أو أسماء مؤلفيها . وان نظرة واحدة فى أبواب ثلاثة من كتاب « التعرف لمذهب أهل التصوف » للكلاباذى ، وهى الأبواب : الثانى والثالث والرابع (١) ، لدليل مادي على صحة هذا القول ، قد ذكر المؤلف فى هذه الأبواب أسماء من تعرضوا للتصوف وعلومه ، سواء عن طريق الكلمة المنطوقة أو المكتوبة . ويؤكد ذلك أيضا ما ورد فى كشف المحجوب من اشارات الى الكتب التى رجع اليها الهجویری أو قرأها ، والتى رآها رأى العين (٢) .

وقد كانت هناك مدرستان صوفيتان عبرتا عن التصوف ، وبينتا أسسه وقواعده وآدابه ومعاملاته :

أما المدرسة الأولى : فهى مدرسة أبى القاسم الجنيد (٢٠٧ هـ) ببغداد : وقد اعتمدت هذه المدرسة على الكلمة المنطوقة واتخذت من المساجد منابر لدعوتها ..

وأما المدرسة الثانية : فهى مدرسة أبى نصر السراج (٣٧٨ هـ) فى نيسابور : واعتمدت على الكلمة المكتوبة ؛ واتخذت من الكتب ميدانا لبيان دعوتها ، وشرح رسالتها ، ونشر علومها وأوقاتها . كما حفظت لنا أيضا تراث المدرسة الأولى .

ونعرف الآن ببعض الكتب العربية التى لها ارتباط وثيق بكشف المحجوب والتى تعد من أهم المراجع التى اعتمد عليها مؤلفه ،

(١) « التعرف لمذهب أهل التصوف » أبو بكر محمد الكلاباذى : القاهرة ١٢٨٠هـ / ١٩٦٠

(انظر : ص : ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢) .

(٢) انظر : الفصل الثالث من هذا الباب .

أولاً : « الملع » (١) :

مؤلف الملع هو : « أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي » المتوفى في رجب عام ٣٧٨هـ (٢) ، والملقب بطاويس الفقراء (٣) ، كان مريداً لأبي محمد المرتضى ، ورأى : « سري السقطي » و « سهل انستري » (٤) .

والسراج تجول في أنحاء العالم الاسلامي ، واجتمع بأعلام التصوف في عصره . ويروى عنه الهجويري انه لما بلغ بعدد ، كان ذلك في شهر رمضان ، فافردوا له خلوة في مسجد « الثونيزيه » ، واعطى رئاسة الدراويش ، فأمهم حتى يوم العيد ، وكان يختم القرآن في صلاة التراوح خمس مرات . وكان الخادم يضع في غرفته رغيفاً كل ليلة ، وفي يوم العيد — وكان رضى الله عنه قد رحل — نظر الخادم فوجد الثلاثين رغيفاً في مكانها (٥) .

و « الملع » يعد من اكبر المراجع وأوثقها وأغزرها مادة في التصوف ، وهو بمثابة الكتاب الام في اللغة العربية ، منه اقتبس جميع من أنفوا في التصوف ، واهتدوا بأبوابه ومنهجه ..

ومن افادوا من هذا الكتاب الهجويري ، فكتابه كشف المحجوب يشبه الى حد كبير كتاب الملع ، سواء في المنهج العام ، او المواد التي تناولها ، مما يوضح ان بعض تفاصيل كشف المحجوب مستمدة من الملع ..

وقد استهدف السراج في كتابه غاية قصد اليها ، وهى رسم المبادئ الصوفية التي تعبر عن روح القرآن وجوهر السنة ، وبيان الاخطار التي وقع فيها السالكون للطريق اما عن سوء نية او عن حسن قصد ..

يقول : « قد استخرت الله تعالى ، وجمعت ابواباً في معنى ما ذهب اليه اهل التصوف وتكلم مشايخهم المتقدمون ، في معاني علومهم وعمدة اصولهم واساس مذهبهم ، واخبارهم واشعارهم ومسائلهم واجوبتهم ومقاماتهم واحوالهم ، وما انفردوا به من الاشارات اللطيفة والعبارات الفصيحة ، والألفاظ المشككة الصحيحة على اصولهم ، وحقائق مواجيدهم وغصولهم » (٦)

(١) يسمى الجابى هذا الكتاب : « لمة » انظر : « نلحات الانس » ص ٢٨٣ .

(٢) « شذرات الذهب » ج ٣ ص ٩١ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١٧ ، « اسرار الفوحيد » ص ٢٧ ، فلكرة الاولياء ج ٢ ص ١٨٢ .

(٤) « نلحات الانس » ص ٢٨٣ .

(٥) « كشف المحجوب » ص ١٧ .

(٦) « الملع » ص ١٨ .

وقد قسم السراج كتابه الى قسمين :

القسم الاول : عدد من الابواب القصيرة تحدث فيها عن علم التصوف ومذهب الصوفية ومنزلتهم ، وطبقات اهل الحديث والفقهاء وما ترسموا به من انواع العلوم ، والكشف عن اسم الصوفية وصفتهم ، والتوحيد والموحد والعارف ، والفرق بين المؤمن والعارف ..

والقسم الثانى : مجموعة من الاقسام اطلق على كل قسم اسم « كتاب » ويشتمل كل كتاب منها على عدد من الابواب القصيرة . وهذه الكتب هي :

كتاب الاحوال والمقامات .

كتاب اهل الصفوة فى الفهم والاتباع لكتاب الله عز وجل .

كتاب الاسوة والافتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

كتاب المستنبطات .

كتاب الصحابة .

كتاب آداب المتصوفة .

كتاب المكاتبات والصدور والاشعار والدعوات والرسائل .

كتاب السماع .

كتاب الوجد .

كتاب اثبات الكرامات .

كتاب البيان عن المشكلات .

كتاب تفسير الشطحيات والكلمات التى ظاهرها مستبشع وباطنها صحيح مستقيم .

ومما لا شك فيه ان كتاب اللع كتاب قيم ، واف ، متكامل الموضوع ، سليم المنهج الا ان شخصية المؤلف تبدو فيه باهتة ، فهو يعتمد ، فى معالجته للمواد التى يقدمها ، على اقوال من سبقه من الشيوخ والزعماء الاوائل للصوفية . وقلما يدلى برأيه الخاص فى الموضوع الذى يتناوله ..

ويلاحظ على الكتاب ايضا انه تعبير عن التصوف من وجهة نظر اهل السنة ، فالسراج يحيل كل اصل من الاصول التى يتعرض لها فى كتابه الى القرآن والسنة ويدعمه بالآيات القرآنية والاحاديث ، ولذلك فان تحليله لمادة الموضوع يفتقر الى العنصر الفكرى ، والنظرة الفلسفية ..

ثانيا : « طبقات الصوفية » :

كتاب طبقات الصوفية يذكر على انه من مؤلفات اوائل القرن الخامس الهجرى ، ولكن يبدو انه مؤلف فى اواخر القرن الرابع الهجرى (١) . .

ومؤلف طبقات الصوفية هو : « محمد بن الحسين بن موسى بن خالد ابن سالم بن راوية بن سعد بن قبيصة بن سراقه » (٢) العربى الاصل ، المعروف بابى عبد الرحمن السلمى ، والمتوفى سنة ٤١٢ هـ (٢) .

وقد اشتهر ابو عبد الرحمن بنسبه الى السلميين ، وهم قبيلة والدته ، فهو حفيد لآبى عمرو بن نجيد السلمى (٣٦٦ هـ) .

وابو عبد الرحمن تتلمذ على عدد كبير من شيوخ الحديث والصوفية ، وعلى راسهم جده ابو عمرو بن نجيد ، والدراقطنى ، وابو نصر السراج الطوسى (٤) . وكان السلمى مريدا لآبى القاسم النرابادى وتسلم منه الخرقة (٥) . .

وعلى السلمى تتلمذ عدد كبير من الصوفية المعروفين ، من بينهم الصوفى الفارسى المعروف « ابو سعيد بن ابى الخير » الذى نال على يديه الخرقة الاولى (٦) . ومنهم ايضا ابو القاسم القشيرى صاحب الرسالة .

وللسلمى مؤلفات كثيرة فى الحديث والتفسير والتصوف ، ولكن الذى اشتهر به هو تأليفه فى التصوف ، وهو الكتاب الذى نتحدث عنه . .

والسلمى لم يكن اول من ألف فى الطبقات ، فقد سبقه الى ذلك غيره واعتمد هو على تأليفهم ، وان كانت الأصول التى اعتمد عليها قد ضاعت كلها ، ولم يصل الى ايدينا سوى كتابه (٧) : طبقات الصوفية .

(١) « جاء فى ترجمة أبى العباس القصاب فى نفحات الانس أنهم قالوا لآبى العباس ان السلمى ألف كتابا فى الطبقات . فسألهم : هل ذكر فيه اسمى ؟ فقالوا : لا فقال : لم يفعل شيئا (انظر : نفحات من ٢٦٦) وطبقا لاسرار التوحيد فان أبى العباس القصاب توفى حوالى سنة ٣٩٧ هـ (انظر : أسرار التوحيد ص ٣٦) وعلى هذا يكون الطبقات قد ألف فى اواخر القرن الرابع .

(٢) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة ص ١٦ .

(٣) « المنظم » ج ٨ ص ٦ .

(٤) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة ص ١٩ .

(٥) « نفحات الانس » ص ٣١١ .

(٦) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ٥٠ .

(٧) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة ص ٥٠ .

وكما أنفاد السلمي من كتب السابقين عليه ، فقد أنفاد من كتابه من الفوا بعده في الطبقات سواء منهم من كتب بالعربية (١) أو بالفارسية . ومن هؤلاء الهجویری ، فقد صرح في كشف المحجوب بأنه هذا حذو السلمي في ترتيبه للشيوخ الذين ترجم لهم (٢) .

وكتاب طبقات الصوفية هو الأصل لكتاب « نفحات الأنس » للجامي ، فقد ترجم الشيخ عبد الله الأنصاري الهروي (٤٨١ هـ) طبقات الصوفية الى الفارسية باللهجة الهروية القديمة ، وزاد عليه ما أملاه في مجالس الصحبة ومجامع الوعظ والتذكير ، وأقوالاً أخرى لبعض الشيوخ الذين لم يرد ذكرهم في الكتاب ، وبعض أنواقه ومواجيده التي جمعها وكتبها واحد من مريديه (٣) . ثم جاء « جامي » فنقل هذه الترجمة من اللهجة الهروية بعبارة بسيطة متعارف عليها بين أهل عصره ، وأضاف الى ذلك ذكر عبد الله الأنصاري ومعاصريه والمتأخرين عنه (٤) . وأطلق على هذه المجموعة اسم : « نفحات الأنس » .

ويشتمل كتاب طبقات الصوفية على تراجم لخمس طبقات من الشيوخ ، كل طبقة تتكون من عشرين فرداً .

و « طبقات الصوفية » ليس أول كتاب للسلمي في التراجم فقد ذكر أنه ترجم قبله للصحابة والتابعين واتباع التابعين ، في كتاب له اسمه كتاب : « الزهد » (٥) .

وكتاب طبقات الصوفية مطبوع في القاهرة ، فقد حققه ونشره « نورالدين شريبه » سنة ١٩٥٣ م ، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها ..

ثالثاً : « الرسالة » :

« الرسالة من مؤلفات القرن الخامس الهجري . ومؤلفها : « أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري » (٦) ، ولد في بلدة « أاستو » ، وكان

(١) أنفاد من الطبقات : « القشيري » في الرسالة ، « الاصطهاني » في الطبقة ، « البغدادي » في تاريخ بغداد ، « الشمراني » في لوائح الأتوار (انظر : مقدمة الطبقات ص ٥١) .

(٢) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .

(٣) « نفحات الأنس » ص ١ .

(٤) « السابق » ص ٢ .

(٥) « طبقات الصوفية » ص ٢ .

(٦) « في كشف المحجوب » عبد الكريم أبو القاسم انظر : ص ٢٠٩ .

سكانها من العرب الذين قدموا خراسان ، فهو عربى من قبيلة قشير بن كعب (١) . .

وكان القشيرى تلميذا لآبى على الدقاق (٤٠٥ هـ) فى نيسابور . وزوجا لابنته (٢) . وتلميذ أيضا على أبى عبد الرحمن السلمى «١٢هـ» ، وعاصر تلميذا من تلاميذ السلمى المشهورين هو « أبو سعيد بن أبى الخير » ، وقد التقى كل منهما بالآخر فى نيسابور ، وتلازما فترة طويلة ، وكان أبو سعيد يعقد مجلسا فى زاوية القشيرى مرة كل أسبوع (٣) .

وقد عاصر الهجويرى القشيرى وترجم له فى كشف المحجوب ووصفه بأنه كان رفيع القدر فى زمانه ، عظيم المنزلة ، وله تصانيف نفيسة محققة (٤) .

والقشيرى كان يجبع بين الشريعة والحقيقة ، فكان يعرف الأصول على مذهب الأشعرى ، والفروع على مذهب الأشاعفى ، وانتهى به الأمر الى أن صار امام نيسابور الشهيرة (٥) .

وتوفى القشيرى فى نيسابور سنة ٤٦٥ هـ ، ودفن بها الى جوار شيخه أبى على الدقاق .

وللقشيرى مؤلفات كثيرة الا أن أشهرها رسالته هذه المعروفة بالرسالة القشيرية ، والتي كتبها الى جماعة الصوفية ببلدان الاسلام سنة سبع وثلاثين وأربعمائة (٦) ، وبين فيها جانبين :

الأول : سيرة رجال الصوفية وبعض اقوالهم .

والثانى : مبادئ السلوك ومناهجه .

يقول :

« وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم

(١) « الرسالة » (انظر مقدمة الناشر ص ١٢) .

(٢) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ١٠٢ .

(٣) « السابق » ص ١٠٦ .

(٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .

(٥) « السابق » (انظر : مقدمة زوكونسكى) .

(٦) « الرسالة » ج ١ ص ١٨ .

ومعاملاتهم . وعقائدهم بقلوبهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم وكيفية
ترقيمهم من بدايتهم الى نهايتهم « (١) » .

وقد أفاد القشيري من كتابي « اللع » و « طبقات الصوفية » وجمع
في رسالته بين موضوعيهما ، وتعد الرسالة من المراجع العربية المهمة
في التصوف . وهي تعتبر قيمة جدا كمجموعة من الأمثلة والحكايات
والتعريفات ، ولكنها تتبع طريقة شكلية (٢) ، فالمؤلف لا يكاد يظهر رأيه
فيها الا في القليل النادر ، وتلك ظاهرة تنسجم بها مدرسة نيسابور التي
تنتمي اليها الكتب الثلاثة : اللع وطبقات الصوفية والرسالة .

والرسالة ترجمت الى الفارسية مرتين :

المرّة الاولى : ترجمها في زمن قريب من وفاة مؤلفها ، واحد من تلاميذه
يدعى : « خواجه امام ابو على بن احمد العثماني » ، وهي ترجمة سقيمة
اذا قورنت بالأصل ، وفيها كثير من الأخطاء ، كما أن المترجم حذف منها
أشياء كثيرة ..

وتوجد نسخة من هذه الترجمة في مكتبة : « أيا صوفية » تحت رقم
٢٠٧٧ ، ونسخة أخرى في المتحف البريطاني (٣) ..

والمرّة الثانية : نظرا للأخطاء المشار اليها في الترجمة الاولى ، فقد كانت
الحاجة تستدعي اصلاح هذه الترجمة ، وتم هذا العمل على يد « أبي الفتوح
عبد الرحمن بن محمد النيسابوري » بمدينة كرمان بعد عام ٥٥٠ هـ ..

وتوجد نسخة من هذه الترجمة المصححة في مكتبة : « لالا اسماعيل »
تحت رقم ١٢٠ (٤) ..

وقد طبعت الرسالة في القاهرة عدة مرات ، كان آخرها الطبعة المحققة
والمفهرسة التي قام بها « عبد الحليم محمود » و « محمود بن الشريف »

(١) « الرسالة » ص ٢٢ .

(٢) « نيكولسون » (انظر مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .

(٣) « تاريخ ادبيات » ص ٢ ص ٨٨٩ .

(٤) « جاء في مقدمة هذه النسخة أن القشيري كان يريد أن يعيد كتابة الرسالة بالفارسية
ولكنه لم يفعل ، وقام بهذا العمل تلميذه أبو على العثماني ، ولكن هذه الترجمة
سقيمة ولذا قام بإصلاحها أبو الفتوح النيسابوري طبعة لطلب شيخ الشيوخ أحمد
ابن إبراهيم بارما » .

(انظر : ص ٢ ص ٨٨٩) .

ونشرت في القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م وتقع في جزئين . وقد اعتمدنا على هذه الطبعة ..

كتب التصوف بعد كشف المحجوب :

بالنسبة للكتب الصوفية المؤلفة بعد كشف المحجوب ، سنقصر حديثنا على الكتب الفارسية القريبة الى عهده ، والكتب التي تأثرت به ونقلت عنه ، مثل اسرار التوحيد وتذكرة الأولياء ونفحات الانس .

ويجدر بنا في هذا الموضع ان نشير الى انه توجد عشرات المؤلفات الصوفية المنظومة بعد كشف المحجوب ، مثل منظومات : « السنائي » و « المعطار » و « جلال الدين الرومي » وغيرهم ، الا انه من العسير ان نقارن بين هذه المنظومات وبين كشف المحجوب لاختلاف وسيلتي التعبير ، من ناحية ، ولان للشعراء منهمجهم الخاص في تناول المسائل الصوفية .

ونعرف الآن بهذه الكتب .

اولا : كتاب « اسرار التوحيد » .

اسرار التوحيد هو اقرب الكتب الصوفية عهدا الى كشف المحجوب ، فهو من مؤلفات القرن السادس الهجري . ومؤلفه واحد من احفاد الشيخ ابي سعيد بن ابي الخير يدعى : محمد بن المنور بن ابي سعيد بن ابي طاهر ابن ابي سعيد بن ابي الخير (١) .

وتاريخ تأليف اسرار التوحيد مختلف فيه ، الا انه من المرجح انه مؤلف حوالي سنة ٥٧٤ هـ (٢) .

واسرار التوحيد مقسم الى ثلاثة ابواب :

الباب الاول: في بداية حياة الشيخ ابي سعيد ، ويشتمل على ذكر احواله في طفولته وشبابه ، والعلوم التي حصلها ، والرياضات التي قام بها ، وتفاصيل حياته حتى بلوغه سن الاربعين .

(١) « اسرار التوحيد » (انظر مقدمة ذبيح الله صفا) .

« ديوان ابو سعيد ابو الخير » .

(٢) « ديوان ابو سعيد ابو الخير » ص ١ ، « اسرار التوحيد » الترجمة العربية :

انظر : مقدمة المترجم ص ٥ - ٦ .

الباب الثاني : في اواسط حياة الشيخ ابي سعيد ، وهو على ثلاثة فصول :

الفصل الاول : في الحكايات المشهورة عن كرامات الشيخ .

الفصل الثاني : في الحكايات المتضمنة للفوائد ، وبعض ما نقله عن المشايخ من الحكايات والاقوال .

الفصل الثالث : في بعض فوائد انفاس الشيخ ، وبعض الرسائل والاشعار التي جرت على لسانه .

الباب الثالث : في انتهاء حياة الشيخ ، وهو على ثلاثة فصول :

الفصل الاول : في وصاياه عند وفاته .

الفصل الثاني : في وفاته وكيفيتها .

الفصل الثالث : في كراماته التي جرى بعضها على لسانه أثناء حياته وظهرت بعد وفاته ، وبعض ما أشار اليه وراه الناس بعد وفاته على سبيل الكرامة .

و « أسرار التوحيد » أول كتاب مفصل ألف في شرح حال واحد من شيوخ الصوفية الكبار ، فهو يعتبر أول مثل بالفارسية لمؤلف قائم بذاته،موضوعه حياة واحد من الصوفية . وقد أعطيت في الكتاب صورة لأبي سعيد وسط دائرة الصوفية وال دراويش الذين عاش معهم في تفاصيل واسعة ، ولذا يعد أسرار التوحيد من أوضح الكتب التي صورت لنا حياة الدراويش في القرن الخامس الهجري .

ويشتمل أسرار التوحيد على معلومات قيمة عن الرسوم والعادات والتقاليد الصوفية ، الى جانب كثير من المفاهيم الحقيقية لبغض مصطلحات تلك الفئة ، كما أنه يمدنا بوصف شامل لأنواع الرياضات والمجاهدات وآداب السلوك ومقاماته ، والشروط التي ينبغي توفرها في الشيخ والمريد (١) . وطريقة تأديب الشيخ لمريديه ، ونوع العلاقة بينهما ، ونظام الحياة في الخانقاهات (٢) .

(١) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية : انظر : ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٢) « السابق » انظر ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

وكتاب أسرار التوحيد طبع أكثر من مرة ، ومن بين طبعاته الطبعة التي نشرها ذبيح الله صفا في طهران عام ١٣٣٢ هـ . ش . ، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها .

وقد ترجمت أسرار التوحيد الى العربية ونشرت الترجمة في القاهرة عام ١٩٦٦ م .

ثانيا : « تذكرة الاولياء » :

مؤلف هذا الكتاب هو « أبو طالب » محمد بن أبى بكر ابراهيم الملقب بفريد الدين ، والمعروف بالعطار : من رجال القرن السادس الهجرى وأوائل القرن السابع ، والمتوفى سنة ٦٢٧ هـ .

والعطار واحد من ثلاثة من كبار الشعراء الصوفية في ايران وهم : السنائى والعطار وجلال الدين الرومى .

وكان العطار يشتغل بالطب ويملك صيدلية يطب فيها الناس ، ويعمل في الوقت نفسه في تأليف الكتب ونظم الأشعار . وله مؤلفات كثيرة ، ذكر بعضهم ان عددها مساو لعدد سور القرآن (١) ، وان كان المعروف منها يقرب من ثلاثين مؤلفا ، كلها منظومة باستثناء تذكرة الاولياء .

وتذكرة الاولياء ، كما يدل عليه اسمه : كتاب في تراجم الاولياء والصوفية وشيوخ الطريقة . ومعظم نسخه تشتمل على اثنتين وسبعين ترجمة (٢) ، وان كان هناك من يرفع هذا الرقم الى سبع وتسعين (٣) .

ويعتبر كتاب تذكرة الاولياء اقدم مؤلف في التراجم باللغة الفارسية ، فبالرغم من وجود عدد كبير من الكتب العربية المؤلفة في هذا الموضوع ، مثل : طبقات الصوفية ، وحلية الاولياء ، ومناقب الابرار ، وصفوة النصفوة ، الا انه لم تكن هناك مؤلفات من هذا النوع قبل تذكرة الاولياء ، باستثناء الجزء الخاص بالتراجم في كشف المحجوب ، والترجمة الفارسية لطبقات الصوفية .

(١) « تذكرة الاولياء » ج ١ (انظر مقدمة القزوينى ص ١) .

(٢) « السابق » (انظر مقدمة نيكولسون ص ٧) .

(٣) « مرید الدین و کتابه منطلق الفیر » احمد ناجى القبسى ص ٢٨٥ .

وقد اعتمد العطار في تذكرة الأولياء على كثير من الأصول العربية السابقة عليه ، وصرح هو نفسه بأنها تمثل الجزء الأكبر من المؤلف الذى عمله ، وان كان لا يذكر أسماء هذه الكتب فى المواضع التى ينقل فيها عنها .

وافاد العطار أيضا من كتابى كشف المحجوب وأسرار التوحيد ، فهو ينقل عنهما كثيرا دون أن يشير إليهما (١) .

وتذكرة الأولياء طبع فى الهند ، وطبعه المستشرق الانجليزى نيكولسون فى لندن سنة ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٥ م ، فى مجلدين ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها .

ثالثا : نفحات الأنس :

كتاب نفحات الانس مؤلف فى القرن التاسع الهجرى ، فقد ذكر مؤلفه انه اتمه سنة ٨٨٣هـ (٢) . ومؤلف هذا الكتاب هو : « نور الدين عبد الرحمن ابن نظام الدين احمد بن محمد الجشتي » : كان من الأدباء والشعراء والعلماء والصوفية ، وزعيما لطائفة النقشبندية ، فهو مريد الشيخ سعد الدين الكاشغرى تلميذ الشيخ بهاء الدين النقشبندى (٣) . وتنتهى سلسلة شيوخ الجامى الى «خواجه» عبيدالله أحرار من كبار شيوخ النقشبندية .

وللجامى انتاج ضخم من الشعر والنثر ، ومؤلفاته تبلغ أربعة وأربعين مؤلفا ، بعدد لفظ « جنام » (٤) . وقد ألف جامى باللغتين العربية والفارسية (٥) .

ويذكر نفحات الانس أهم مؤلفات الجامى ، بل أن دارا شكوه يعمده بمثابة العينين بالنسبة لهذه المؤلفات (٦) .

ونفحات الأنس : كما يبعو من مقدمة مؤلفه ، يعتمد أساسا على طبقات الصوفية للسلمى المؤلف باللغة العربية ، والذى نقله شيخ الاسلام عبدالله

(١) « سبك شناس » ج ٢ ص ٢٠٩ وما بعدها . (انظر المقارنة التى عقدها « بهار » بين تذكرة الأولياء وكل من أسرار التوحيد وكشف المحجوب) .

(٢) « نفحات الانس » ص ٦٣٦ .

(٣) « طرائق الحقائق » ج ٢ ص ١٥٨ .

(٤) « سبينة الأولياء » ص ٨٢ .

(٥) بلغ عدد مؤلفات الجامى الموجودة بدار الكتب المصرية ٥ كتابا ورسالة فارسية ، وسبع كتب عربية (انظر فهرست مؤلفات نور الدين عبد الرحمن الجامى : اعداد نصر الله الطرازى) .

(٦) « سبينة الأولياء » ص ٨٢ .

الأنصارى الى الفارسية باللهجة الهروية القديمة . وقد راودت الجامى فكرة نقل هذا الكتاب ، من اللهجة الهروية الى الفارسية البسيطة المتعارف عليها فى عصره ، عدة مرات ، الا ان بعض الموانع كانت تعوقه عن اتمام هذه الرغبة . وفى سنة ٨٨١ هـ طلب منه الأمير « عليشير » القيام بهذا العمل (١) ، فشرع فيه وانه سنة ٨٨٣ هـ (٢) .

ويشتمل نفحات الانس على مقدمة قصيرة للمؤلف ، وتسع مقولات فى الأصول الصوفية ، وتراجم لشيوخ الصوفية تتجاوز الستائة ترجمة..

ومع ما يحتله كتاب نفحات الانس من مكانة كبيرة بين كتب التصوف الفارسية ، الا ان مؤلفه اعتمد على مجهودات غيره . فبالاضافة الى ترجمة الأنصارى لطبقات الصوفية ، نقل الجامى عن كشف المحجوب واسرار التوحيد جزءا كبيرا من مادته، ويبدو ذلك جليا فى تراجم معاصرى الهجوبرى وأبى سعيد بن أبى الخير . وقد صرح الجامى نفسه فى مقدمة النفحات انه احيا فى كتابه معلومات السابقين ..

فهو يقول ماترجمته : « وانى آمل من مكارم اخلاق القراء عندما تطيب أوقاتهم بين الانفاس الطيبة لأولياء الله ، وفيض ارواحهم المقدسة ، أن لا ينسوا باعث هذه المجموعة ومؤلفها ، وان يدعوا له بالخير (٣) .

وكتاب « نفحات الانس » طبع فى الهند على الحجر عدة مرات ، وتم طبعه حديثا لأول مرة فى طهران عام ١٣٣٦ هـ ش . وهى الطبعة التى قام بها « مهدي توحيدى بور » وقد اعتمدنا على هذه الطبعة ..

(١) « نفحات الانس » ص ٤ .

(٢) « نفحات الانس » ص ٦٣٦ .

(٣) « السابق » ص ٥ .

الفصل الخامس

مظاهر التأثير والتأثر

اولا : بين اللمع وكشف المحجوب :

ذكرنا من قبل ان كشف المحجوب واللمع متشابهان في الخطة العامة ،
ما يدل على أن بعض تفاصيل الكتاب الأول مستمدة من الثاني .

ومن الغريب انه على الرغم من تصريح الهجويزى في موضع من كتابه
انه ينقل عن السراج ، وذكره لاسمه واسم كتابه ، واستشهاده برأيه ،
ينقله لنص عبارته (١) ، وايراده أيضا حكاية عن السراج في كشف المحجوب (٢)
الا انه أغفله تماما في الجزء الخاص بالتراجم ، فلا توجد للسراج ترجمة
ضمن تراجم الشيوخ التى اوردها الهجويزى في كتابه ، في الوقت الذى
أفرد فيه كل من « العطار » (٣) و « الجامى » (٤) مكانا للسراج في كتابيهما ،
وان كان ما ذكره عنه لا يتعدى تلك الاشارات الواردة في كشف المحجوب .

ويبدو من الدراسة الواسعة لكتابى اللمع وكشف المحجوب أن الهجويزى
اعتمد على اللمع اعتمادا واضحا ، ونقل عن السراج كثيرا من مواده ،
وان كان لا يصرح بأنه ينقل عنه .

ونضرب لذلك مثلا موضوع السماع ، فقد أفرد له كل منهما جزءا كبيرا من
كتابه ، واطلق السراج على هذا الجزء اسم : « كتاب السماع » (٥) ،
وسماه الهجويزى : « كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع » (٦) .

ويبدو من الجدول التالى التشابه الكبير فى المادة التى وردت فى الكتابين ،
مما يوضح أن الهجويزى نقل عن السراج .

(١) كشف المحجوب : انظر ص ٤٤٤ .

(٢) « السابق » انظر ص ٤١٧ .

(٣) « فتحة الاولياء » ج ٢ ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٤) « نلحات الانس » انظر ص ٢٨٣ .

(٥) « اللمع » انظر ص ٣٣٨ وما بعدها .

(٦) « كشف المحجوب » انظر ص ٥٠٨ وما بعدها .

أولاً — من حيث التقسيم :

قسم السراج « كتاب السماع » الى
الابواب التالية :

وقسم الهجویری « كشف الحجاب
الحادی عشر فی السماع » الى
الابواب التالية :

- | | |
|---|------------------------------------|
| ١ — باب فی حسن الصوت
والسماع وتفاوت المستمعین | ١ — باب سماع القرآن . |
| ٢ — باب فی السماع واختلاف
أقوالهم فی معناه . | ٢ — باب سماع الشعر . |
| ٣ — باب فی وصف سماع العامة | ٣ — باب سماع الأصوات
والألحان . |
| ٤ — باب فی وصف سماع الخاصة | ٤ — باب أحكام السماع . |
| ٥ — باب فی ذکر طبقات المستمعین | ٥ — باب اختلافهم فی السماع . |
| ٦ — باب فی ذکر من اختار سماع
التصائد والأبيات من الشعر | ٦ — باب مراتبهم فی حقيقة السماع |
| ٧ — باب فی وصف سماع المريدين
والمبتدئين . | ٧ — باب الوجد والتواجد . |
| ٨ — باب فی وصف المثاليين فی
السماع | ٨ — باب الرقص . |
| ٩ — باب فی وصف خواص
الخواص فی السماع . | ٩ — باب الخرق . |
| ١٠ — باب فی سماع الذكر والمواعظ
والحكمة . | ١٠ — باب آداب السماع . |
| ١١ — باب فیمن كره السماع والذي
كره الحضور فی المواضع التي
يقرعون فيها القرآن بالألحان
ويقولون التصائد ويتواجدون
وبرقصون . | |

ثانيا : من حيث الآراء والعبارات وأقوال المشايخ والقصص والاستشهادات :

١ - يبدو تأثر الهجویری بالسراج ونقله عنه فيما يلي :

« اللع »

ص ٣٥٢ : واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقول النبي صلى الله عليه وسلم لابن مسعود رضي الله عنه : اقرا ، فقال : أنا اقرا عليك أنزل ؟ قال : أنا احب أن اسمع من غيري .
وقوله عليه السلام : شيبتنى سورة هود وأخواتها .

ص ٣٥٣ : وان النبي صلى الله عليه وسلم مر على عصابة من أهل النصفة يستر بعضهم بعضا من البرى وقارىء يقرأ لهم .

« كشف المحجوب »

ص ٥٢٠ : قوله عليه السلام : « زينوا أصواتكم بالقرآن . »

ص ٥١٥ : وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن مسعود اقرا : فقال أنا اقرا عليك أنزل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا احب أن اسمع من غيري . . ونيز كفت بيفمبر عم شيبتنى سورة هود . روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : كنت فى عصابة فيها ضعفاء المهاجرين وان بعضهم يستر بعضا من العرى وقارىء يقرأ علينا ونحن نستمتع لقراءته ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قام علينا فلما رآه القارىء سكت . قال : فسلم ، وقال : ماذا كنتم تصنعون . الخ .

ص ٣٤٢ :

قال الشيخ رحمه الله : بلغنى انه سئل ذو النون ، رحمه الله ، عن السماع ، فقال : وارد حق يزعج القلوب الى الحق ، فمن أصغى اليه بحق تحقق ، ومن أصغى بنفسه تزندق .

ص ٥٢٧ :

ذو النون كويد رح : السماع وارد الحق ، مزعج القلوب الى الحق فمن أصغى اليه بحق تحقق ومن أصغى اليه بنفسه تزندق . سماع وارد حقست كى دلها بدو بر انكيزد وبر طلب وى حريص كند . هر كه آنرا بحق شنود بحق راه يابد ، وهر كه بنفسه شنود اندر زندقه افتد .

«اللمع»

وسئل الشبلى رحمه الله ، كما
بلغنى ، عن السماع فقال : السماع
ظاهره فتنة وباطنه عبرة ، فمن عرف
الاشارة حل له استماع العبرة والا
فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية .

ص ٣٤٣ :

وسمعت الحصرى ، رحمه الله ،
يقول فى بعض كلامه : ايش اعمل
بالسماع ؟ ينقطع اذا انقطع من يسمع
منه ، ينبغى أن يكون سماعك متصلا
غير منقطع .

ص ٣٤٠ :

ومن اللطيفة التى جعل الله فى
الأصوات الطيبة أن الطفل فى المهد
يبكى لوجود الم ، فيسمع الصوت
الطيب فيسكت وينام .

ص ٣٥٨ :

سمعت الدقى يقول : سمعت
الدراج يقول : كنت أنا وابن الفوطى
مارين على الدجلة بين البصرة والابله
وإذا بقصر حسن له منظر وعليه رجل
بين يديه جارية تغنى وتقول :

«كشف المحجوب»

ص ٥٢٨ :

وشبلى كويد رض : السماع
ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف
الاشارة حل له استماع العبرة
والا فقد استدعى الفتنة وتعرض
للبلية ، ظاهر سماع فتنة است
وباطنش عبرتست أنكه أهل
أشارتست مراورا سماع عبرت حلال
باشد والا آن ديكى طلب فتنة است
وتعلق ببلا .

ص ٥٢٩ :

وحصرى كويد رح : ايش اعمل
بالسماع ينقطع اذا انقطع من نسمع
منه . ينبغى أن يكون سماعك متصلا
غير منقطع . جكنم سماع راكى جون
قارى خاموش شود آن منقطع
شود . بايد كه سماع بسماع متصل
باشد بيوسته كه هرگز بريده نكردد .

ص ٥٢٣ :

واندر كودكان خرد اين حكم
ظاهريست كى جون بكريند اندر
كاهواره كسى نوائى بزند خاموش
شوند و مر آنرا بشنونند .

ص ٥٣٣ :

دقى روايت كند ازدرج كه
اوگفت : من با ابن الفوطى بر لب
دجله مرفتم ، ميان بصره وابله
بكوشكى فرا رسيديم ، نيك مردى بر
آن در نشست بود وكينزكى بدان
در نشست كه ويراى غنا كرد
وميگفت :

«اللمع»

كل يوم تتلون
غير هذا بك أجمل
في سبيل الله ود
كان منى لك يبذل

قال : واذا شاب تحت المنظر
بيده ركوة وعليه مرتعة يتسمع ،
فقال : يا جارية بالله وبحياة مولاك
الا أعدت على هذا البيت . قال :
فأقبلت الجارية عليه وهى تقول :
كل يوم تتلون
غير هذا بك أجمل

وكان الشاب يقول : هذا والله
تلونى مع الحق فى حالى ، قال فشبهق
شهقة وحمد ، فتأملناه فإذا هو ميت ،
قال : فقلنا : قد استقبلنا فمرض ،
نوتقنا ، فقال صاحب القصر
للجارية : أثبت حرة لوجه الله تعالى ،
قال ثم خرج أهل البصرة وصلوا
عليه ، فلما فرغوا من دفنه قام
صاحب القصر وقال : اليس تعرفونى ؟
انا فلان ابن فلان أشهدكم ان كل
شئ لى فى سبيل الله تعالى ، وكل
جوارى احرار ، وهذا القصر للسبيل ،
قال : ثم رمى بثيابه واتزر بازار ،
وارتدى بالآخر ، ومر على وجهه
والناس ينظرون اليه حتى غاب عن
أعينهم وهم ييكون ، فما رآه أحد بعد
ذلك ولا سمع له خبر .

ص ٣٥٨ :

قال الشيخ رحمه الله : سمعت أبا
عمرو وعبد الواحد بن علوان
بالرحبة ، رحبة مالك بن طوق ، قال :
كان شاب يصحب الجنيد رحمه الله
فكان اذا سمع شيئا من الذكر
يزعق ، فقال له الجنيد يوما : ان
فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبنى ،

«كشف المحجوب»

فى سبيل الله ود
كان منى لك يبذل
كل يوم تتلون
غير هذا بك أجمل

وجوانى را ديدم اندر زير ديوار
كوشك ايستاده بامرتمه وركوه ،
كفت : اى كنيزك بخداى تو برتوكه
اين بيت بازكوى كى از زندكانى من
يك نفس بيش نمائده است تا بارى
جان باستماع اين بيت برآيد .
كنيزك ديكر باره بازكفت ، آن
جوان نمره بزد ، جان ازوى
جدا شد ، خداوند كوشك مر
كنيزك را كفت كى تو آزادى و خود
فرود آمد وبجهاز وى مشغول شد ،
و همه اهل بصره بروى نماز كردند .
بس آن مرد بر باى خاست
وكفت : يا اهل بصره من كه فلان
بن فلانم همه املاك خود سبيل كردم
وممالك آزاد كردم . هم از آنجا
برفت وكسى خبر آن مرد نيافت .

ص ٥٣٢ :

معروفست كه جنيد را مريدى
بوده است كى اندر سماع اضطراب
بسيار كردى ، ودرويشان بدان
مشغول شدندى ، بيش شيخ رضى
شكايت كردند ، ويرا كفت : بعد ازين
اكر اندر سماع اضطراب كنى نيز من
باتو صحبت نكتم . ابو محمد جريرى

«اللمع»

قال : فربما كان الجنيد يتكلم رحمه الله في شيء من العلم ، فيتغير ، ويضبط عند ذلك نفسه حتى يقطر عن كل شعرة من بدنه قطرة من الماء . وحكى لى أبو عمرو أنه صاح يوما من الأيام صيحة فانشق وتلفت نفسه .

باب فيمن كره السماع ص ٣٧٢ :

فقد كره ذلك من جهات شتى .
* فقوم كرهوا ذلك لأخبار رويت عن بعض الأئمة المتقدمين والعلماء والتابعين أنهم كرهوا ذلك ، فكره من كره ذلك اقتداء بهم ومتابعة لهم ، اذ كانوا هم الأئمة في أحكام الدين والمقدمين في عصرهم على جماعة المسلمين .

* وقوم كرهوا ذلك للمريدين والقاصدين والتائبين لعظم ما فيه من الخطر ان استلذوا ذلك وتابعوا حظوظهم فتحل عند ذلك عقودهم وتنفسخ عزيمتهم ويركنوا الى شهواتهم ويتعرضوا للفتنة ويقعوا في البلية .

* وطائفة أخرى كرهت ذلك وزعمت أن الذي يتعرض لاستماع هذه الرباعيات لا يخلو من أحد وجهين : إما هم قوم متلهون من أهل

«كشف المحجوب»

كويد : در سماعی من اندروی نگاه میگردم لب برهم نهاده بود وخاموش می بود تا ازهر موئی از اندام می چشمه بکشد تاهوش از وی بشد ویک روز بیهوش بود . بس من ندانم تا وی اندر سماع درستتر بود یا حرمت بیر بر دلش قویتر .

«باب فی مراتبهم فی حقیقة السماع»
ص ٥٣٥ :

کروهی از مشایخ خواندن قرآن بالحن وشنیدن قصاید واثمار را جنانک حروف از حد آن تجاوز کرده است کراهیت داشته اند . و خود برهیز کرده و اندر آن غلو نمود ، وایشان چند گروهند ، وهریکی را اندر آن علتی دیکرست .

* کروهی از آن آنند که اندر تحریم آن روایات یافته اند و اندر آن متابعت سلف صالح شده ، و بدان تقلید کرده .

* ص ٥٣٧ :

و کروهی دیگرند که از خوف وخطر مریدان که اندر بلا و بطالت نیفتند ، ویدیشان تقلید نکنند ، واز سر توبه باسر معصیت بازنیایند ، و هوا اندر ایشان قوت نکیرد، و هوس مر عزیمت صلاح ایشان را فسخ نکند که معرض بلا و مایه فتنة است سماع بردو فرقت اند یکی لاهی و دیگر نه نشستند .

* کروهی دیگر گفتند که أهل سماع بردو فرقت اندیکی لاهی و دیگر الهی، لاهی درعین فتنه باشد وازان نترسد ، والهی بریاضات و مجاهدات

«اللمع»

الدعابة والفتنة أو هم قوم وصلوا الى الأحوال الشريفة وعانقوا المقامات الرضية وأهاتوا نفوسهم بالرياضات والمجاهدات وطرحوا الدنيا وراء ظهورهم وانقطعوا الى الله عز وجل في جميع معانيهم ، قالوا : ولسنا من هؤلاء ولا من هؤلاء فلا معنى لاشتغالنا بذلك وترك ذلك أولى بنا .

ص ۳۷۳ :

* وكوهت طائفة أخرى ذلك من جهة ان العامة لا تعرف مقاصد القوم فيما يسمعون فربما غلطوا في مقاصدهم وزلقوا ، فكروهوا ذلك شفقة على العامة وصيانة للخاصة وغيره على الوقت الذي اذا فات لا يدرك .

ص ۳۷۳ :

وطائفة أخرى كرهت ذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه انه قال : « من حسن المرء تركه مالا يعنيه » فقالوا : هذا مالا يعنينا ، لانا ما امرنا بذلك ، وليس هو من زاد القبر ، ولا مما يطلب به النجاة في الآخرة .

«كشف المحجوب»

وبانتطاع دل از مخلوقات واعراض سر از مکنونات فتنة از خود دور کرده باشد ، واز ان ايمن شده . چون ما نه ازین گروه باشيم نه ازان ترك آن مارا بهتر ومشغول شدن بجیزی که موافق ماست اولیتر .

ص ۵۳۸ :

وگروهی دیگر گفتند : چون عوام اندر سماع فتنة است واز شنیدن ما اعتقاد مردمان مشوش میشود واز درجت ما اندر ان محجوبند وپا می بزه کار شوند پس برعایه شفقت کنیم ، ومر خاص را نصیحت کنیم ، وبر وقت غیرت دست ازان بداریم .

ص ۵۳۸ :

وگروهی گفته اند که بیغیر عم گفت : « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه » . دست از چیزی بداریم که ازان کریز از انج بما لا يعنى مشغول شدن تضییع وقت باشد ، ووقت دوستان بادوستان عزیز باشد ، ضایع نباید کرد .

ثانيا - بين الرسالة وكشف المحجوب :

صرح الهجویری فی ترجمته لمعروف الكرخى بأنه اقتفى أثر السلمي والتشیری فی اثباته لترجمة معروف فی مكانها (١) . ولا شك أن هذه الإشارة تبين لنا أن الهجویری اطلع على الرسالة القشيرية ، واهتدى بترتيبها فی هذا الموضع .

وقد ترجم الهجویری للقشیری فی كتابه ضمن عشرة من شيوخ الصوفية المتأخرين المعروفين على عهده من بينهم أساتذته وشيوخه . ويبدو من هذه الترجمة مدى التقدير والاحترام الذى كان يكنه الهجویری للقشیری (٢) .

وعلى الرغم من أن الهجویری لم یصرح بأنه نقل بعض مواده عن الرسالة، الا أن المتخصص لكتابى كشف المحجوب والرسالة یلمس مدى ما افاده الهجویری من رسالة القشیری ، فهو فی بعض المواضع ینقل عنه عین عباراته ، وهوفی مواضع أخرى یهتدى بأمثله وینقل عنه قصصا بعینها استشهد القشیری بها فی موضعها . كما ینقل عنه أيضا كثيرا من أقوال الشيوخ ورموزهم بالنسبة للموضوع الذى یبحثه ، وان كان یزید على هذه الأقوال ، فی كثير من الأحيان ، شرحا من عنده ، أو یبدى رأیه فیها .

كذلك بدا تاثر الهجویری بالرسالة واضحا من المنهج العام للكتاب ، فقد ضمت الرسالة ، الى جانب الاصول الصوفية ، مجموعة كبيرة من تراجم شيوخ الصوفية جاءت على هيئة تذكرة داخل الكتاب ، وقد حذا الهجویری حذو القشیری فضمن كشف المحجوب سبعة أبواب فی تراجم الائمة من الصحابة والتابعین وأتباع التابعین وشيوخ الصوفية السابقین لعصره والمعاصرين له . ونورد هنا مثلا من أمثلة كثيرة یبین مدى افادة الهجویری من الرسالة :

(١) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

« باب التوحيد »

قال الله عز وجل : « والهكم اله واحد » .

أخبرنا الإمام أبو بكر بن الحسن ابن فورك ، قال : حدثنا أحمد بن محمود ... الخ ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينا رجل فيمن كان قبلكم لم يعمل خيرا قط الا التوحيد ، فقال لاهله : اذا مت فاحرقوني ، ثم اسحقوني ، ثم انصفي في البحر ونصفي في يوم ربح . ففعلوا .. فقال الله عز وجل للريح ادى ما اخذت ، فاذا هو بين يديه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال :

استحياء منك . فغفر له » .

التوحيد : هو الحكم بأن الله واحد ، والعلم بأن الشيء واحد ايضا توحيد .

ص ٥٨٢ : والتوحيد ثلاثة :

توحيد الحق للحق : وهو علمه بانه واحد وخبره عنه بانه واحد .

والثاني : توحيد الحق ، سبحانه ، للخلق : وهو حكمه ، سبحانه ، بأن العبد موحد ، وخلق توحيد العبد .

والثالث : توحيد الخلق للحق ، سبحانه ، وهو علم العبد بأن الله عز وجل ، واحد وحكمه واخباره عنه بانه واحد .

« كشف الحجاب الثاني في التوحيد »
قوله تعالى : « والهكم اله واحد »
وقوله تعالى : « قل هو الله أحد »
الخ ..

قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« بينا رجل فيمن قبلكم لم يعمل خيرا قط الا التوحيد فقال لاهله اذا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني نصفي في البر ونصفي في البحر في يوم رايح ففعلوا ، فقال الله عز وجل للريح اجمعي ما اخذت فاذا هو بين يديه فقال له ما حملك على ما صنعت فقال استحياء منك فغفر له » .

ص ٣٥٧ :

وحقيقت توحيد حكم كردن بود بربكائكي جيزي بصحت علم بيكائكي آن ، وجون حق تعالى يكيست بى تقسيم اندر ذات وصفات خود ، وبى دليل وشريك اندر افعال خود ، وموحدان ويرا بدين صفت دانند ، دانش ايشانرا بيكائكي توحيد خوانند . وتوحيد سه است يكي : توحيد حق مر حق را وآن علم او بود بيكائكي خود . ويكر : توحيد حق مر خلق را وآن حكم وى بود بتوحيد بنده وآمرينش توحيد اندر دل وى . وسديكر : توحيد خلق باشد مر حق را وآن علم ايشان بوحدانية خدای عز وجل .

وقد أورد القشيري مجموعة من أقوال الشيوخ في معنى التوحيد (١) فنقل الهجویری معظمها في فصل خصصه لرموز المشايخ في التوحيد ، واتبع كل قول بشرح من عنده .

ثالثا : بين طبقات الصوفية وكشف المحجوب :

اعتمد الهجویری في القسم الحادی عشر من كشف المحجوب على كتاب طبقات الصوفية وصرح هو نفسه بذلك عند ترجمته لمعروف الكرخي ، فذكر أنه ترجم له في الموضوع الذي أورد ذكره فيه ، موافقة لما فعله أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه (٢) .

والهجویری أورد في القسم الحادی عشر أربعاً وستين ترجمة (٣) ، منها : ثلاث تراجم للأئمة : « أبو حنيفة النعمان » و « محمد بن إدريس الشافعي » و « أحمد بن حنبل » .

وسبع تراجم لشيوخ من الصوفية هم : حبيب العجمي ، مالك بن دينار ، حبيب بن سليم الراعي ، أبو حازم المدني ، محمد بن واسع ، عبد الله ابن المبارك الروزي ، داود بن نصير الطائي . وهؤلاء لم يترجم لهم السلمي في طبقات الصوفية .

أما التراجم الأربع والخمسون فهي لشيوخ وردت لهم تراجم في كتاب طبقات الصوفية ، منهم :

- عشرون : من شيوخ الطبقة الأولى .
- ثمانية عشر : من شيوخ الطبقة الثانية .
- ثمانية : من شيوخ الطبقة الثالثة .
- شيخان : من شيوخ الطبقة الرابعة .
- سنة : من شيوخ الطبقة الخامسة (٤) .

وقد اعتمد الهجویری في تعريفه بهذه المجموعة من الشيوخ على بعض ما ورد عنهم في كتاب طبقات الصوفية ، فهو يضبط أسماءهم وكنياتهم كما

(١) قابل بين « الرسالة » ج ٢ ص ٥٨٢ — ٥٨٨ وكشف المحجوب ص ٣٦٠ — ٣٦٧ .

(٢) كشف المحجوب ص ١٤١ : الاصل الفارسي ، ص ١١٧ من الدراسة .

(٣) انظر : ص ١٣١

(٤) طابق بين نهرس أسماء شيوخ الطبقات الخمس في طبقات الصوفية وأسماء الشيوخ في الباب الحادی عشر من كشف المحجوب ص

جاءت في هذا الكتاب ، ويذكر في التعريف بهم نبذا مما ورد عنهم فيه .
ويضيف في تراجم بعض الشيوخ رواية أو حكاية تواترت عنهم ، وهو غالبا
ما ينقلها عن مجموعة الروايات التي جمعها شيخه ابو الفضل الخنلي ،
أو مجموعة الحكايات التي يشر اليها باسم : الحكايات أو حكايات
العراقيين . ثم يذكر قولا باللغة العربية من الأقوال التي وردت عن صاحب
الترجمة في كتاب طبقات الصوفية ، ويتبعه بترجمة فارسية ، وشرح
للمعنى الصوفي الذي ينطوى عليه .

كذلك يستخدم الهجویری كثيرا من الأقوال التي وردت عن الشيوخ
في طبقات الصوفية عند مناقشته للموضوعات التي يتعرض لها في كتبه ،
فهو يلحق بكل باب فصلا في أقوال الشيوخ ورموزهم في الموضوع الذي يتحدث
عنه . ومعظم هذه الأقوال مما أثر عن هؤلاء الشيوخ وورد ذكره في كتاب
طبقات الصوفية .

وفيما يلي مثل للتطابق بين كشف المحجوب وطبقات الصوفية (١) ،
اخترته عفوا .

(١) أثبت في حواشي الترجمة الأقوال التي ورد ذكرها في طبقات الصوفية .

طبقات الصوفية

ص ۹۱ :

ومنهم حاتم الأصم ، وهو حاتم ابن عنوان ويقال : حاتم بن يوسف . كنيته ابو عبد الرحمن .

وهو من قدماء مشايخ خراسان ، ومن اهل بلخ .

صحب شقيق بن ابراهيم . وكان استاذ احمد بن خضرويه .

ص ۹۶ :

قال حاتم : الشهوة ثلاثة :

شهوة في الاكل ، وشهوة في الكلام وشهوة في النظر . فاحفظ الاكل بالثقة ، واللسان بالصدق ، والنظر بالعبرة .

ص ۱۹۲ :

شاه الكرمانى : ومنهم شاه الكرمانى ، وهو شاه بن شجاع ، ابو الفوارس . كان من اولاد الملوك

صحب ابا تراب النخشبى . وكان من اجلة الفتیان وعلماء هذه الطريقة وله رسالات مشهورة والمثلثة التى سماها مرآة الحكماء .

سمعت ابا الحسن الفارسي يقول ... سمعت ... يقول : سمعت شاه بن شجاع يقول : « لاهل الفضل فضل ما لم يروه ، فاذا راوه فلا فضل لهم . ولاهل الولاية ولاية ما لم يروها ، فاذا راوها فلا ولاية لهم .

كشف المحجوب

ص ۱۴۲ :

ومنهم زين عباد وجمال اوتاد ابو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الاصم رض .

از محتشمان بلخ بود ، واز قدماء مشايخ خراسان .

مريد شقيق بود ، واستاد احمد خضرويه .

از وى مى آيد كه گفت : الشهوات ثلاث شهوة في الاكل وشهوة في الكلام وشهوة في النظر فاحفظ الاكل بالثقة واللسان بالصدق والنظر بالعبرة .

ص ۱۷۴ :

ومنهم شاه شيوخ ، وتغير از روزگار او منسوخ ابو الفوارس شاه ابن شجاع الكرمانى از ابناء ملوك بود .

صحب ابو تراب نخشبى يافته بود . ويرا رسالات مشهور اندر تصوف وكتابى كردست كه انرا مرآة الحكماء خوانند .

اورا كلام عاليست . از وى مى آيد كه گفت : « لاهل الفضل فضل ما لم يروه فاذا راوه فلا فضل لهم . ولاهل الولاية ولاية ما لم يروها ، فاذا راوها فلا ولاية لهم » .

رابعاً : بين كشف المحجوب وتذكرة الاولياء :

أقاد العطار على نطاق واسع من كتاب كشف المحجوب ، وهو كثيراً ما ينقل عنه عين عباراته ، أو يذكرها مع قليل من التصرف ينحصر في استبدال بعض الكلمات والأفعال القديمة بأخرى حديثة ، وإن كان لا يشير الى الكتاب أو مؤلفه في المواضع التي ينقل فيها عن كشف المحجوب ، باستثناء موضعين ذكر فيهما اسم الهجویری (١) .

ومما لا شك فيه أن العطار في تراجمه لشيخوخة الصوفية يسلك مسلك التفصيل ، حتى أن كثيراً من تراجمه تستغرق الواحدة منها عدداً غير قليل من الصفحات ، وهو يعتمد في هذا على ما ورد في كتب التراجم العربية ، إلا أنه يعتمد أيضاً على كتابي كشف المحجوب وأسرار التوحيد .

وبالرجوع الى الموازنة التي عقدها بهار (٢) بين تذكرة الاولياء وكشف المحجوب ، وما أورده أيضاً « محمد عباسی » في مقدمته لكتاب كشف المحجوب (٣) . يمكن الاطلاع على نموذجين لاعتماد العطار على كشف المحجوب ، وإن كان يوجد على غرارها نماذج كثيرة ، يستطيع الدارس للكتابين أن يلمسهما في يسر .

خامساً : بين كشف المحجوب ونفحات الانس :

ذكرنا من قبل أن نفحات الانس يقوم أساساً على الترجمة الفارسية لكتاب طبقات الصوفية التي قام بها الشيخ عبد الله الأنصاري ، وإن الجامي قدم لكتابه بمقدمة تشتمل على تسع مقولات في الأصول الصوفية .

وقد اعتمد الجامي في هذه المقولات على مجموعة من كتب التصوف المعروفة العربية والفارسية ، مثل الرسالة القشيرية ، وعوارف المعارف ، وكشف المحجوب ، والتفسير الكبير ، ودلائل النبوة ، وصرح بأنه ينقل عن هذه الكتب ، وأشار الى كل منها في الموضع الذي ينقل فيه .

وقد نقل الجامي عن كشف المحجوب مرتين :

الأولى : في القول في أصناف الولاية (٤) .

(١) « تذكرة الاولياء » انظر : ج ١ ص ٢٠٨ ، ج ٢ ص ٦٨

(٢) « سبك شناس » انظر : ج ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٩

(٣) « كشف المحجوب » انظر : مقدمة محمد عباسی : ص بیست ودو .

(٤) « نفحات الانس » انظر : ص ١٩

والثانية : في القول في اثبات كرامات الاولياء (١) .

كما اعتمد الجامى على كشف المحجوب في تراجم شيوخ الهجویری ومعاصریه وبعض السابقین علیه ، مثل ابی القاسم الجرجانی (٢) ، وابی العباس الشقانی (٣) ، وابی الفضل الخلی (٤) ، و « خواجه » مظفر الکرمانی (٥) ، وابی القاسم القشیری (٦) ، واحمد بن حماد السرخسی (٧) ، وغيرهم ، بل ان ما ورد في نفحات الانس عن بعض هؤلاء لايتعدى نبذا مما ورد عنهم في كشف المحجوب ، ويمكن التحقق من هذا بالرجوع الى تراجمهم في کتابي كشف المحجوب ونفحات الانس ، في الصفحات المشار اليها في الحاشية .

غير أن الجامی سلك مسلك العالم الامین ، فهو يصرح في كل مرة ينقل فيها عن كشف المحجوب بأنه ينقل عنه ، فيقول :

« صاحب كشف المحجوب كويد » .

ای : يقول صاحب كشف المحجوب :

وقد اناد أيضا من كشف المحجوب اثنان ممن كتبوا في التصوف في العصر الحديث ، واولهما كتب باللغة الفارسية ونقل عن النص الفارسي لكشف المحجوب ، والثاني كتب باللغة العربية واعتمد على الترجمة الانجليزية للكتاب .

أما الأول فهو : « قاسم غني » الذي اعتمد اعتمادا كبيرا في كتابه « تاريخ تصوف در اسلام » على كشف المحجوب ، فهو ينقل عنه بمعدل صفحة من كل عشر صفحات من كتابه ، بل انه فيما يختص بفرق الصوفية ، قدم ملخصا لما ذكره الهجویری في كشف المحجوب بخصوص هذه الفرق ، وصرح بأنه ينقل عنه .

-
- (١) « نفحات الانس » انظر : ص ٢٢
 - (٢) انظر « كشف المحجوب » ص ٢١١ ونفحات الانس ص ٣٠٧
 - (٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ ونفحات الانس ص ٢١٤
 - (٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ ونفحات الانس ص ٢١٥
 - (٥) « كشف المحجوب » ص ٢١٢ ونفحات الانس ص ٣٠٨
 - (٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ ونفحات الانس ص ٢١٢
 - (٧) « كشف المحجوب » ص ٢١٦ ونفحات الانس ص ٢١٧

يقول :

« هجویری کہ در اواسط قرن بنجم کتاب معروف کشف المحجوب را تألیف کرده باب مخصوص راجع بفرق صوفیة نوشته ، کہ ذیلا خلاصه آن برای مزید فایده نقل میشود(۱) . »

وترجمته :

« وقد كتب الهجویری انذی الف کتابه المعروف کشف المحجوب فی اواسط القرن الخامس ، بابا خاصا بالفرق الصوفیة ننقل فیما یلی خلاصه له من اجل مزید الفائدة » .

كما أفتاد قاسم غنی من کشف المحجوب فی الجزء الآخر من کتابه ، والذي جعله علی هیئة قاموس المصطلحات الصوفیة(۱) ، فهو فی هذا الجزء يعتمد علی تعریف الهجویری لهذه المصطلحات .

وأما الثانی فهو : « أبو الملا عینی » الذي اعتمد فی کتابه : « التصوف الثورة الروحیة فی الاسلام » علی ترجمة نیکولسون الانجلیزیة لکشف المحجوب ، ونقل عنها کثیرا .

(۱) « تاریخ تصوف در اسلام » ص ۴۲۸

(۲) « تاریخ تصوف در اسلام » أنظر : ص ۴۲۸ — ۴۰۹

الفصل السادس القيمة العلمية للكتاب

تعرضنا في الفصل الرابع للتعريف بمجموعة من كتب التصوف التي سبقت كشف المحجوب والكتب التي جاءت بعده . وبيننا في الفصل الخامس مظاهر التأثير والتأثر بينه وبين هذه الكتب . وسنحاول في هذا الفصل أن نقيم الكتاب في ضوء ما توفر لنا من المعلومات نتيجة لتلك الدراسة المقارنة التي عقدناها في الفصلين السابقين ..

بالتسبة للكتب السابقة على كشف المحجوب :

رأينا أن الكتاب لم يسبق بكتب مؤلفه في موضوعه باللغة الفارسية ، وكل ما تقدم عليج من مؤلفات صوفية كان مكتوبا باللغة العربية . ووجدنا على رأس هذه المؤلفات ثلاثة كتب كانت ولا تزال تعتبر من أهم الكتب المؤلفة في التصوف وهى : « اللمع » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة » ..

واذا أردنا أن نتعرف على قيمة كتاب كشف المحجوب ومنزلته بين هذه الكتب نراه يتميز عليها بميزات نلخصها فيما يلي :

❖ أولا : من حيث المنهج العام والطريقة التي عالج بها المؤلف مواده :

(أ) اقتصر الكتاب الأول ، أى اللمع ، على التعرض لبحث الأصول والعقائد الصوفية . ولكن المؤلف اعتمد في معالجته لهذه الأمور على إيراد أقوال الشيوخ المتقدمين في الموضوع الذى يبحثه ، ولم يصف الى ذلك خبراته الشخصية ودراساته ، ولم يكن يدلى بآرائه الشخصية الا فى القليل النادر ..

(ب) اختص الكتاب الثانى ، أى طبقات الصوفية ، بتراجم شيوخ الصوفية السابقين فذكر المؤلف فيه تواريخ حياة هؤلاء الشيوخ وما ورد عنهم من حكايات ، وما اثر عنهم من أقوال وأعمال ،

وما سمعه بنفسه ممن عاصروه . ودوره في هذا كله مقصور على جمع هذه المعلومات وعرضها ..

(ج) جمع الكتاب الثالث ، اى « الرسالة » بين منهجى الكتابين السابقين ، فعالج الأصول المتعلقة بالتصوف في قسم منه ، وتعرض في القسم الثانى لتراجم الشيوخ ، ولكن المؤلف سلك في معظم الاحيان مسلك الاجاز ، وكان يكتفى بذكر الحكايات والاقوال والتعريفات ، ولم يكن يشارك برأيه في كثير من الموضوعات او يناقش الآراء التى ينقلها عن غيره ..

ومن ناحية اخرى فان المادة التى وردت في الرسالة تعتمد الى حد كبير على ما ورد في كتابى اللمع وطبقات الصوفية مما يوضح لنا مدى افادة مؤلفها من سابقه ..

واذا اتينا بعد ذلك الى كشف المحجوب ، نجد انه من حيث المنهج العلم ، يجمع بين الأصول الصوفية وتراجم الشيوخ ، فقد حذا فيه الهجویری حذو معاصره القشیری ، الا انه زاد على ذلك بانه سلك مسلك المعلم فتناول كل شئ بالايضاح والتفسير ، فحتى الجزء الخاص بالتراجم يشارك فيه الهجویری برأيه في المسائل التى تعرض عندما يترجم لأولئك الشيوخ .

وعلى الرغم من ان الهجویری استقى مادة كتابه من الكتب السابقة عليه ، ونقل كثيرا من الموضوعات التى ناقشها عن اللمع والرسالة ، الا انه لم يقف قط موقف الرواية ، فقد بدت شخصيته واضحة في كتابه نتيجة للمنهج العلمى السليم الذى اختطه لنفسه ، والذى التزمه في الكتاب من اوله الى آخره ، فهو عندما يتعرض لمادة من المواد يدرس عموما الآراء السائدة بالنسبة للموضوع الذى يبحثه ، ويفند هذه الآراء اذا اقتضى الامر ، ثم يدلى برأيه الخاص الذى توصل اليه من خلال خبرته العلمية وتجاريه الشخصية ، فهو في هذا معلم اكثر منه مؤرخ او راوية . وكان من نتيجة هذا المسلك ان رأينا كثيرا من المشكل الصوفية والموضوعات الجدلية قد اوضحت اقرب فهما نتيجة للايضاحات التى اضفاها الهجویری عليها ، وانتهى توصل اليها عن طريق تجربته الخاصة ..

ومن هنا نرى ان كشف المحجوب يعد اكثر اهمية من رسالة القشیری التى ترجع اهميتها الى انها مجموعة قيمة من الامثلة والحكايات والاقوال والتعريفات ، كما انه يتفوق على اللمع والطبقات للسبب الذى اشرنا اليه ..

❖ ثانيا : من حيث الميزات التى انفرد بها كشف المحجوب :

انفرد كشف المحجوب بميزة ضخمة لم يسبقه اليها كتاب آخر ، وهذه الميزة تتمثل فى القسم الرابع عشر منه ، وهو الباب انخاص بفرق الصوفية ، والتى قسمها مؤلفه الى اثنتى عشرة فرقة ، نسب كلا منها الى مؤسسها ، وشرح المذهب الخاص بها .

يقول نيكولسون :

« ان أبرز باب فى كشف المحجوب ، هو الباب الرابع عشر الذى يتعلق بالماذاهب التى تتبعها مختلف الفرق الصوفية ، والتى عددها المؤلف باثنتى عشرة مدرسة صوفية . وبقدر ما اعلم ، فانه أول كاتب فعل ذلك(١) » .

والواقع ان الهجویری أول من قسم الصوفية الى هذه الفرق او المدارس ، فلم يرد فى أى من كتب التصوف السابقة على كشف المحجوب مثل اللمع والتعرف وقوت القلوب وطبقات الصوفية والرسالة ، اشارة الى هذا التقسيم ، والفرقة الوحيدة التى ذكرت كفرقة متميزة لها تعاليم خاصة تزيد على ما للصوفية عامة هى فرقة « الملامتية » التى ألف عنها أبو عبد الرحمن السلمی رسالته المسماة بهذا الاسم(٢) . وقد أطلق الهجویری على هذه الفرقة اسم : « القصارية » نسبة الى أبى حهدون القصار الزعيم الأول للملامتية .

والهجویری فى الباب الذى خصصه فى كتابه للفرق الصوفية ، ينظر الى المجال الصوفى العام ويحاول ان يتبين المعالم البارزة فيه ، ويركز هذه المعالم حول كبار الشيوخ الذين كان لهم اتباع وتعاليم روحية اصطبغ بها تصوفهم ، وخلفت أثرها فى مجرى التصوف العام ، لذلك انفرد كل واحد من هؤلاء الشيوخ بكلمة خاصة عالج فيها اخص ما يمتاز به تصوفه وتصوف فرقته ، تاركا مختلف التفاصيل التى يشترك فيها مع غيره .

كما انه يعرج أحيانا على المسائل التى هى موضع خلاف بين صوفى وآخر ليعرضها عرضا موضوعيا مفصلا ، ويورد اقوال الصوفية الآخرين فيها ، ويسجل رأيه الخاص فى أغلب الأحيان .

(١) انظر « مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب » .

(٢) حقق أبو الملا عفيفى هذه الرسالة ونشرها فى كتابه : « الملامتية والصوفية وأمل الفتوة » القاهرة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .

وقد وضع الهجویری بهذا الباب تاریخ المذاهب الصوفیة واتجاهاتها منذ ظهور التصوف حتى عصره . وأخذ عنه كل من جاء بعده وكتب عن الفرق والمدارس الصوفیة .

وبالنسبة لكتب التصوف الفارسیة التي جاءت بعد كشف المحجوب :

فقد تعرضنا فی هذا البحث لثلاثة من هذه الكتب ، تأثرت أكثر من غيرها بكشف المحجوب ، وهی : « أسرار التوحید » و « تذكرة الاولیاء » و « نفحات الانس » .

أما الكتاب الاول ، ای أسرار التوحید ، فقد اختص بشرح حال شیخ من شیوخ الصوفیة ولا شك انه من هذه الناحیة يعد نموذجا رائعا من حیث تصویره لحیة ذلك الشیخ . وهو وان مرس في سیاقه كثيرا من الأصول الصوفیة ، والمسائل التي تتعلق بالتصوف ، الا أن هدفه الاساسی هو تسجیل حیاة الشیخ ابی سعید بن ابی الخیر ، ولیس وضع نظام كامل للصوفیة يقوم على اساس علمی وترتیب منطقی على نحو ما ورد فی كشف المحجوب .

وأما الكتابان الآخران ، ای « تذكرة الاولیاء » و « نفحات الانس » ، فهما لا یخرجان عن كونهما کتابین من كتب التذاكر التي تهتم فی الدرجة الاولى بسیر الشخصیات التي تتحدث عنها ، وان كان هذا لا يمنع من انها مفیدة من حیث المعلومات التي تمدها من خلال تصویرها للحیة الروحية لشخصیاتها ، والطریقة التي كانوا یسلکونها فی سیرهم وسلوکهم ، وتنقل لنا ما أثر عنهم من اقوال وتعريفات صوفیة مهمة .

وإذا كان الجامی قد تعرض فی مقدمة « نفحات الانس » لبعض الأصول الصوفیة ، الا انه نقل كل أصل منها عن كتاب بعینه ، وفكر اسم كل كتاب فی الموضع الذي ينقل عنه فیه ، فمدوره فی هذا مقصور على النقل . ومن بین الكتب التي نقل عنها نجد اسم كتاب كشف المحجوب (١) .

ونستخلص من ذلك كله أن كشف المحجوب یتمیز على الكتب التي سبقته ، والتي جاءت بعده بان مؤلفه صاحب منهج خاص فی دراسة التصوف ، فهو لا یكتفی بکثیره بروایة اقوال المتصوفة ، أو الترجمة لحياتهم ، أو ایراد الأصول الصوفیة دون نقاش فیما یدور حولها من آراء ، وانما یتناول هذه المسائل بالجدل والنقاش حینا ، وبالإيضاح والتفسیر أحيانا ، وتبدو شخصيته واضحة فی كل ما يتعرض له .

(١) « نفحات الانس » انظر ص ١٩ - ٢٠ .

الفصل السابع

مخطوطات الكتاب، طبعاته

الترجمة الانجليزية

مخطوطات « كشف المحجوب » :

توجد مخطوطات كشف المحجوب في مكتبات متفرقة في جميع انحاء العالم ومن بينها عدة مكتبات اوربية . وان من يرجع الى فهارس «ايتة» (١) و « ريو » (٢) و « بلوشيه » (٣) يجد وصفا لبعض هذه المخطوطات التي تنتمي من حيث كتابتها الى تواريخ مختلفة .

وقد اعتقد « زوكونسكى » عند طبعه كتاب كشف المحجوب ، لأول مرة ، على خمس نسخ خطية اشار اليها في مقدمة هذه الطبعة ، وهى :

١ — مخطوطة «فينيا» التابعة للمكتبة الملكية فى فينا ، والمحفوطة تحت رقم ٣٣٤ من مجموعة هامر ، وترجع هذه النسخة الى القرن التاسع الهجرى .

٢ — مخطوطة « طشقند » المحفوطة فى المكتبة العمومية فى طشقند ويرجع تاريخ كتابتها الى سنة ١٠٤٦ هـ .

٣ — مخطوطة « سمرقند » ويبدو انها لا تحمل تاريخا .

٤ — مخطوطة « بطرسبرج » التابعة لجامعة سن ، وتحمل تاريخ ١٠١١ هـ .

٥ — مخطوطة « مؤسسة اللغات الشرقية » بوزارة الخارجية (٤) .

كما اشار « ايتة » فى فهرسه للمخطوطات الفارسية الذى اعدده للمكتبة

(١) «Ethé» : Gat Vol. I.

(٢) «Rieu» : Gat Vol. I.

(٣) «Blechet» : Catalogue des Manuscrits Persians, Vol. 2.

(٤) « كشف المحجوب » انظر : مقدمة زوكونسكى ص ٦٢ .

الهندية اثنى خمس مخطوطات قدم وصفا شاملا لها وقيدها تحت ارقام :
١٧٧٣ ، ١٧٧٤ ، ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ ..

وتوجد نسخة خطية لكشف المحجوب محفوظة في دار الكتب المصرية
ورد ذكرها في فهرس المخطوطات الفارسية تحت رقم ١٧٩٣ (٤) تصوف
فارسي طلعت (وهى نسخة بدون تاريخ وتقع في ٣٨٥ ورقة مكتوبة بقلم
فارسي عادى ، وضم اليها فهرس بخط مخالف (١) .

طباعات كشف المحجوب :

طبع كتاب « كشف المحجوب » عدة مرات نذكر منها :

(١) الطبعة الاولى : طبعة « زوكوفسكى » :

وهى الطبعة التى قام بها المستشرق الروسى « زوكوفسكى »
فحقق وصحح النص الفارسى لكشف المحجوب ، وكتب له مقدمة
قيمة ، وضم اليه فهرس وافية ، غير ان الاجل لم يمهله ، فطبع
الكتاب بعد وفاته ونشر في «ليننجراد» عام ١٩٢٦م — ١٣٤٤هـ (٢)
في مائتى وخمسين نسخة فقط (٣) .

(ب) طباعات لاهور :

طبع كشف المحجوب ثلاث مرات على الحجر فى « لاهور »

الاولى : الطبعة التى اعتمد عليها « نيكولسون » فى ترجمته
للكتاب وطبعت فى لاهور عام ١٩٠٣ م (٤)

الثانية : طبعة « احمد عليشاه » بروفسر اسلامية كالج ،
لاهور ، ١٩٣٣ م — ١٣٤٢ هـ ، وتقع فى ٣٢٩ صفحة .

(١) خلط المفهرس فى النسخة رقم ١٧٩٢ بين كتابى « كشف المحجوب » للهجویری فی
التصوف و « كشف المحجوب » لابی یعقوب السجزی فی المذهب الاسماعیلى فأضاف
الكتابین الى الهجویری . وقد بدأ الخطا واضحا عندما نقل العبارة الاولى من
الكتاب فهو يقول : « واوله » اكاه بائى كه عقاید علم در حجاب است » فهذه العبارة
بداية كتاب السجزی لا الهجویری . انظر : فهرس المخطوطات الفارسية .
دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٦٧ ج ٢ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢) فهرست کتابهای جایی فارسی ج ١ عمود ١٢٦٥ .

(٣) « كشف المحجوب » انظر : مكتبة محمد عباسى ص ٢١ .

(٤) Bulletin of the School of Oriental Studies : London, 1929, p. 475.

الثالثة : طبعة بتصحيح « محمد حسين فاضل ديوبندى » لاهور ١٩٣١ م وتقع في ٣٢٨ صفحة .

(ج) طبعة « سمرقند » عام ١٣٣٠ هـ .

(د) طبعات ايران :

الاولى : في طهران ١٣٢٧ هـ ش (١) .

الثانية : طبعة « مؤسسة مطبوعات أمير كبير » المأخوذة عن طبعة زوكوفسكى . تهران ١٣٣٦ هـ ش .

الثالثة : طبعة به تصحيح على قويم ، تهران ١٣٣٧ هـ ش (٢) .

الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب :

في الوقت الذي كان فيه « زوكوفسكى » يعمل في اعداد نص دقيق لكشف المحجوب تمهيدا لطبعه كان المستشرق الانجليزى « نيكولسون » يعمل في ترجمة الكتاب نفسه .

وقد اعتمد نيكولسون في ترجمته على طبعة لاهور ١٩٠٣ م (٣) ، وذكر ان هذه الطبعة غير دقيقة ، وخاصة في هجاء الاسماء ، ولكن النص فيها يتفق الى حد كبير مع مخطوطتين في المكتبة الهندية . كما رجع ايضا الى المخطوط الموجود في المتحف البريطانى .

ويقول نيكولسون ان النسخة الاوربية تعتبر كاملة تقريبا ، ولم يحذف منها شئ هام ، وان كان لم يتردد في الاختصار كلما سنحت له الفرصة لذلك (٤) .

وقد قدم نيكولسون لترجمته بمقدمة طيبة في ثمان صفحات ، ونشرت الترجمة في لندن سنة ١٩١١ م ضمن سلسلة جب التذكارية .

(١) فهرست كتابهاى جابى ناريسى « ج ١ عمود ١٢٦٥ .

(٢) فهرست كتابهاى جابى ناريسى « خاتمايشار تهران ١٣٤٢ ش ، ج ٢ عمود ٢٦٢٢

(٣) Bulletin of the School of Oriental Studies, London 1929, p. 475.

(٤) «E.I.W. GIBB MEMORIAL» A Translation of : «The Hashaf Al-Mah-jub» : Reynold A. Nicholson, London 1911, (Preface p. XXIV).

كذلك قام نيكولسون بنشر ترجمة انجليزية للمقدمة الروسية التي كتبها
زوكوفسكى لطبعته لكشف المحجوب ، وقام بترجمتها عن الروسية ،
« سيدنى جيروld » ، ونشرت هذه الترجمة في دوريات معهد اللغات
الشرقية في لندن عام ١٩٢٩ م تحت عنوان : « الصوفية الفارسية » (١) .

القسم الثاني
ترجمة كتاب كشف المحجوب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب يسر وتمم

« الحمد لله الذى كشف لأولياته بواطن ملكوته ، وقشع لأصفيائه سراير جبروته ، وأراق دم المحبين به سيف جلاله ، وأذاق سر المشتاقين روح وصاله ، هو المحيى لموات القلوب بأنوار ادراكه ، والمنقش لها براحة روح المعرفة بنشر أسبائه . والصلاة على رسوله محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه من بعده (١) » .

قال الشيخ أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى ثم الهجویری رضی الله عنه :

سلكت طريق الاستخارة ، ومحوت من قلبى الأغراض التى كانت ترجع الى النفس ، وقمت بحكم ما دعوتنى اليه — أسعدك الله — وعزمت تمام العزم على اتمام مرادك من هذا الكتاب ، وأسويت هذا الكتاب « كشف المحجوب » . وقد علم مقصودك ، واستقام الكلام فى غرضك فى هذا الكتاب وانى اطلب من الله تعالى العون والتوفيق فى اتمام هذا الكتاب ، وأبرأ من حولى وقوتى فى القول والعمل ، وبالله التوفيق .

فصل : قد كان مرادى من اثبات اسمى فى بداية الكتاب شيئين : أولهما نصيب الخاصة ، والثانى نصيب العامة .

أما ما هو نصيب العامة : فهو أن جهلة هذا العلم عندما يرون كتابا جديدا لا يكون اسم مصنفه مثبتا فى أماكن عدة منه ، فانهم ينسبونه الى أنفسهم ، وبذلك لا يتحقق مقصود المصنف ، لأن المراد من الجمع والتأليف والتصنيف ليس الا احياء اسم المصنف بذلك الكتاب ، فيدعو له القراء والمتعلمون بالخير .

وقد وقعت لى هذه الحادثة مرتين :

الأولى : أن رجلا طلب ديوان شعري وأخذه ، ولم يكن يوجد منه سوى

(١) هذا الجزء من مقدمة المؤلف باللغة العربية . ويلاحظ أن ما يرد بعد هذا بين علامات التنصيص انما هو فى الاصل الفارسي باللغة العربية .

النسخة الاصل . فغيرها جملة ، واسقط اسمى من اولها ، واضاع —
تاب الله عليه — تعبى .

والثانية : انى عملت كتابا فى طريقة التصوف اسمه « منهاج الدين » ،
فبحا اسمى من عنوانه مدع ركيك لايزن قوله ، واظهر للعوام انه عمله ،
ولو ان الخواص كانوا يضحكون منه على هذا القول . ولم يبارك الله له
فى ذلك ، ومدا اسمه من ديوان طلاب حضرته .

واما ما هو نصيب الخاصة : فهو انهم عندما يرون كتابا ، ويعرفون ان
مؤلفه كان عالما بذلك العلم او الفن ، ومحققا ، فانهم يرفعون حقه على نحو
افضل ، ويكونون اكثر جدا فى قراءته ودراسته ، فيتأتى بذلك مراد القارىء
وصاحب الكتاب بصورة افضل ، والله اعلم بالصواب .

فصل : واما ما قلته من انى سلكت طريق الاستخارة ، فالمراد منه حفظ
آداب الله عز وجل ، فقد امر سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم
والتابعين بهذا ، وقال : « فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان
الرجيم (١) » . والاستعاذة والاستخارة والاستعانة كلها بمعنى الطلب ،
وتسليم الامور لله سبحانه وتعالى ، والنجاة من الافات المختلفة . وقد روى
اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ورضى الله عنهم ، ان النبى كان
يعلمهم الاستخارة كما كان يعلمهم القرآن . فحينما يعلم العبد ان خيرية
الامور ليست منوطة بكسبة وتدبيره ، لان الله تعالى اعلم بصلاح العباد ،
وما يصيب العبد من خير او شر مقدر ، فإى وجه غير التسليم للقضاء وطلب
المعون منه ، يدفع عن العبد تأثير النفس وتاثيرها فى كل احواله ، ويمن
عليه بخيره وصلاحه .

وعلى هذا : ينبغى على العبد ان يستخير فى بداية جميع الاعمال ، عسى
الله تعالى ان يحفظه من الخطر والخلل والامة ، وبالله التوفيق .

فصل : واما ما قلته من انى محوت من قلبى الاهواء التى ترجع الى
النفس ، فالمراد منه ان كل عمل يدخل فيه الغرض النفسانى تزول منه
البركة ، وينحرف القلب عن الطريق المستقيم الى محل الاعوجاج والانشغال
وهذا لا يخرج عن امرين : اما ان يتحقق غرضه ، واما لا يتحقق ، فاذا
تحقق غرضه يكون فى ذلك هلاكه ، وليس لباب الجحيم مفتاح غير حصول
هوى النفس . واذا لم يتحقق غرضه ، فالأغلب ان يكون قد محاه من قلبه
لان فى ذلك نجاته ، ومفتاح باب الجنة ليس سوى منع النفس عن اغراضها ،

(١) سورة النحل ، آية ٩٨

كما قال الله تعالى : « ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى (١) » .
والأغراض النفسية في الأمور هي ان العبد في العمل الذي يعمله يكون
على غير رضا الله تعالى ، ولا يطلب نجاة النفس من العقوبة .

وفي الجملة : ان رعونات النفس لا حد لها ، ومراميها في ذلك خفية .
وسوف يرد في الكتاب باب في هذا المعنى في موضعه ان شاء الله تعالى .

**فصل : وأما ما قلته من انى قيمت بحق ما دعوتنى اليه ، وعزمت تمام
العزم على اتمام مرادك من هذا الكتاب ، فقد كان المراد من هذا القول
انك رايتنى اهلا للسؤال وسألتنى واقعتك ، وطلبت هذا الكتاب ، وكان
مرادك منه الفائدة ، فوجب على لا محالة أداء حق سؤالك . ولما لم
أصل الى اتمام حق سؤالك في حينه ، وكان يلزم لى تمام العزم والنية ،
لاكون في حال ابتداء الكتاب وعقد النية على اتمامه قد أدبت حكم السؤال
وجوابه . وحين يكون قصد العبد في ابتداء عمله مقرونا بالنية ، فانه ان
يظهر منه خلل في ذلك العمل يكن معذورا فيه . ومن ذلك ان النبى صلى
الله عليه وسلم قال : « نية المؤمن خير من عمله » (٢) . والنية في ابتداء
العمل خير من ابتداء العمل بلانية .**

والنية في الأمور سلطان عظيم وبرهان صادق ، لان العبد بالنية يتحول
من حكم الى آخر بدون أن يبدو على ظاهره اثر لهذا التحول ، كما لو ان
شخصا جاع مدة دون أن ينوى الصيام فهو لا يثاب على ذلك ، وحين ينوى
بقلبه الصيام يصير من المقربين ، بدون أن يبدو على ظاهره اثر . ومثل
المسافر الذى يرد مدينة ويبقى مدة ، فانه لا يصير مقيما مالم ينو الإقامة ،
واذا نوى صار مقيما . وأمثال هذا كثير ، فالنية عند بدء العمل تكون قايما
بحقه والله أعلم .

**فصل : وأما ما قلته من انى اسميت هذا الكتاب « كشف المحجوب » ،
فان الغرض منه انه طالما كان اسم الكتاب ناطقا على ما فيه ، فان أهل
البصيرة حين يسمعون اسم هذا الكتاب يعرفون ماذا كان المراد منه .**

واعلم ان أهل العالم كلهم محجوبون عن لطيفة التحقيق الالهية باستثناء
أولياء الله تعالى وجل ، واعزاء حضرته . ولما كان هذا الكتاب في بيان طريق
الخلق ، وشرح الأقوال ، وكشف حجب البشرية ، فانه لا يناسبه غير هذا
الاسم .

(١) سورة « النازعات » آية ٤٠ ، ٤١

(٢) رواه البيهقي في شعب الايمان عن انس (مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى :
طبع القاهرة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م ، ج ٢ ص ٢٣١) .

والكشف في الحقيقة هو هلاك للمحجوب، كما أن الحجاب هلاك المكاشف،
لأنه لا طاقة للقريب بالبعد ، ولا للبعيد بالقرب ، كالحيوان الذي يتولد من
الخل فهو يموت في كل ما عداه ، وما يتولد من سواء يهلك في الخل .

وسلوك طريق المعاني صعب جدا إلا لمن خلق من أجله . والنبي صلى
الله عليه وسلم قال : « كل ميسر لما خلق له (١) » . وقد خلق الله عز وجل
كلأ لميل ، وجعل طريقه سهلا عليه .

أما الحجاب فحجابان : حجاب رينى — نعوذ بالله منه — وهو لا ينكشف
أبدا . وحجاب غينى ، وهذا سرعان ما ينكشف .

ولتوضيح ذلك : أن عبدا قد تكون ذاته حجابا للحق فيستوى لديه الحق
والباطل ، وعبدا تكون صفته حجابا للحق ، وطبعه وسره يطلبان الحق
دائما ، ويفران من الباطل .

فالحجاب الذاتى ، وهو الرينى ، لا ينكشف أبدا . ومعنى الرين والختم
والطبع واحد ، كما قال الله تعالى : كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا
يكسبون (٢) . وقد أظهر حكم ذلك فقال : « ان الذين كفروا سواء عليهم
أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (٣) » ، ثم بين علته — فقال — « ختم الله
على قلوبهم وعلى سمعهم (٤) » . وقال أيضا : « طبع الله على قلوبهم (٥) » .

وحجاب الصفة ، وهو الغينى ، يجوز أن ينكشف وقتا دون وقت ، فتبدل
الذات غريب وعجيب في الحكم ، وغير ممكن في الغين . أما تبديل الصفة
فمجانز .

ولشيرخ هذه الطريقة في معنى الرين والغين اشارات لطيفة ، كتقول
الجنيد (٦) رحمه الله : « الرين من جملة الوطنيات ، والغين من جملة
الخطرات » . والوطن باقى ، والخطر طارىء .

(١) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى في السنن عن أبى حنيد السامدى : « اجبلوا
في طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٧)
ورواه أحمد في مسنده والطبرانى في الكبير عن أبى الدرداء : « كل امرئ مهيا لما
خلق له » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٥٢) .

(٢) سورة « المطففين » آية ١٤

(٣) سورة « البقرة » آية ٦

(٤) سورة « البقرة » آية ٧

(٥) سورة « النحل » آية ١٠٨

(٦) أبو القاسم الخزاز : أصله من نهاوند ، ومولده ومنشأه بالعراق . كان فقيها تنقه
على أبى ثور ، وكان يفتى في حلقته . صاحب السرى السقطى والحاتر المحاسبى
وغيرهم . وهو من أئمة المتصوفة وسادتهم ، ومن العلماء ، وكانوا على عهد يلقبونه =

مثال ذلك : انه لا يمكن عمل مرآة من اى حجر ، ولو اجتمع كثير من الصقالين . وعندما تصدأ المرآة فإنها تصفو بالمصقلة ، لأن الظلام اُصلى في الحجر ، والضياء اُصلى في المرآة . والاصل باق ، ولا بقاء لتلك الصفة العارية .

وقد عملت هذا الكتاب ليكون صقلا للقلوب الأسيرة في حجاب الغين ويمكن فيها جوهر ونور الحق ، فينكشف عنها الحجاب ببركة قراءة هذا الكتاب ، وتجد الطريق الى حقيقة المعنى . أما أولئك الذين عجن وجودهم من انكار الحق وارتكاب الباطل ، فانهم لا يجدون الطريق قط الى شواهد الحق ، ولا يكون لهم من هذا الكتاب فائدة .

فصل : وأما ما قلته من انه قد علم مقصودك ، واستقام الكلام في غرضك في هذا الكتاب ، فان المراد من هذا القول انه مالم يعلم مقصود السائل للمسئول فإنه لا يتحقق مراد السائل ، لأن السؤال يكون عن اشكال ، واذا لم يحل الاشكال بالجواب ، فإنه لا يفيد . ولا يمكن حل الاشكال الا بالعلم بالاشكال .

وأما قولى ان الكلام استقام في غرضك ، فيعنى أن للسؤال على الجملة جواب على الجملة ، حين يكون السائل عليما بجملة وأخوات سؤاله . ثم ان للمبتدئ حاجة الى التفصيل ، وتحديد الأقسام وبيانها ، وبخاصة ان غرضك — أسعدك الله — كان أن اضع كتابا مفصلا في الإجابة عن سؤالك ، وبالله التوفيق .

فصل : وأما ما قلته من انى اطلب التوفيق والعون من الله تعالى : فان الغرض منه انه ليس للعبد ناصر غير الله ، لأنه هو الذى ينصره على الخيرات ، ويزيده توفيقا .

وحقيقة التوفيق هى موافقة تأييد الله لفعل العبد في أعمال الصواب . والكتاب والسنة ناطقان على وجود صحة التوفيق ، والامة مجتمعة على

« طاووس العلماء » . توفي سنة سبع وتسعين ومائتين . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر من هذا الكتاب ، طبقات الصوفية ص ١٥٥ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ١٠٥ ، وفيات الاميان ج ١ ص ١١٧ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٥ ، نفحات الانس ص ٨٠ ، خزينة الاضياء ج ١ ص ٨١) .

ذلك ، باستثناء طائفة من المعتزلة (١) والتقديرية (٢) الذين يقولون ان لفظ التوفيق خال من كل المعاني .

وقد قال غريق من مشايخ الصوفية ان التوفيق هو القدرة على الطاعة عند الاستعمال . فحين يكون العبد مطيعا لله ، يكون له من الله المزيد أيضا ، وتكون قوته أكثر مما كانت عليه من قبل ، وفي جملة الحالات من بعد — ذلك ان ما يكون من سكون العبد وحركته جملة هو فعل الله تعالى وخلقه — فيسمون تلك القوة التي يطيع بها العبد بالتوفيق . وليس هذا الكتاب موضعاً لشرح هذه المسألة ، لأن المراد منه شيء آخر .

(١) « المعتزلة » يسمون : أهل العدل والتوحيد (الملل والنحل على هامش الفصل : ج ١ ص ٥٤) . ويذهب كثيرون الى أن اسم المعتزلة يرجع تاريخه الى انفصال وأصل بن عطاء (م : ١٨١ هـ) عن حلقة الحسن البصري (م : ١١٠ هـ) بعد اختلافهما في مرتكب الكبيرة : هل يبقى مؤمناً ، أم يصير كافراً ؟ وذهب وأصل الى أن مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر ، منزله بين المنزلتين . فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه ، وجلس اليه عمرو بن عبدي (م : ١٤٤ هـ) فقبل لهما ولاتباعهما معتزلون (وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٤٧ ، ج ٢ ص ١٧٠) كان أكثر كلام المعتزلة في القدر ولذلك كانوا يسمون في بادئ الامر بالتقديرية .

والمعتزلة كانوا فرقا مختلفة : عاش بعضهم في البصرة وبعضهم في بغداد . وكان الغالب عليهم حب المناظرة والاختلاف ، فنجد كل شيخ منهم يعارض سائر الشيوخ ويناقضهم حتى لنجد بين المتأخرين منهم الشيخ أبا هاشم الجبائي (م : ٣٢١ هـ) يعارض أبا عبد الله الشيخ أبا علي الجبائي (م : ٣٠٣ هـ) ويختلف معه في مسائل كثيرة . غير أن المعتزلة بالرغم من كثرة ما بينهم من خلاف يتفقون بوجه عام على أصول خمسة من اعتقدها كان معتزليا ، وهي : التول بالتوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر (مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٠ - ١٩١) .

على أن أسوا ما تورط به المعتزلة : التول بخلق القرآن ، في أيام الخليفة المتعصم (م : ٢٢٧ هـ) والخليفة الواثق (م : ٢٢٢ هـ) وتكليم بخصومهم ، فأذاقوا الناس العذاب إذا هم لم يقولوا بذلك ، وأقالوا المحاكم يعرض فيها على العلواء والقضاء القول بخلق القرآن فمن لم يقل مذهب وأمين ، حتى أن المؤرخين يسمون هذه الفترة بحنة خلق القرآن . ثم جاء الخليفة المتوكل (م : ٢٤٧ هـ) فأبطل هذا القول (تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٨) وفي القرن الثالث الهجري كان أهل السنة ينظرون الى المعتزلة نظرة كراهية واحتقار . وفي أواخر هذا القرن خرج عليهم الأشعري (م : ٣٢٤ هـ) بعد أن كان منهم ، وحاول التوفيق بين مذهب أهل السنة والعقل ، وانتشر مذهبه في العراق في أواخر القرن الرابع الهجري (وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٢٧) .

والهجويزي كصوفي من أهل السنة وقف موقفاً مشدداً من المعتزلة وتصدى لاتوائهم وعارض آراءهم ووصلهم في كتابه بالخروج على الدين ، بل ان الامر بلغ به إلى درجة أن كفرهم وأخرجهم من دائرة الموحدين .

(٢) « التقديرية » : هم الذين يبحثون في مسألة الاختيار والقدرة الإنسانية . وقد اختلفوا فيهم ، فالشهرستاني لقب المعتزلة بالتقديرية وقال ان هذا اللفظ يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى . (الملل والنحل على هامش الفصل ج ١ ص ٥٤) . وقال آخرون انهم كانوا يقولون بأن الله يخلق الخير وأن الشيطان يخلق الشر (ابن قتيبة : مختلف الحديث . طبع القاهرة ١٣٢٦ هـ ص ٥) . وقد حاول القاضي عبد الجبار (م : ٤١٥ هـ) أكبر شيوخ المعتزلة في « الرى » في عصره أن يثبت ان اسم التقديرية لا ينبغي أن يطلق على المعتزلة ، بل على الثعلبيين بالقدر خيره وشره من الله (ظهر الاسلام ج ٤ ص ٤٣ ، ٤٤) .

والآن : اعود بمشيئة الله عز وجل الى مقصودك . وقبل ان ابدأ الكلام
أذكر أولاً أصل سؤالك ، ومن هنا بدأ الكتاب ، وبالله التوفيق .

صورة السؤال :

قال السائل ، وهو أبو سعيد الهجویری (١) : بين لى على التحقيق
طريقة التصوف ، وكيفية مقامات الصوفية ومذاهبهم وأقوالهم ، واطهر
لى رموزهم واشاراتهم ، وكيف تكون محبتهم لله عز وجل ، وكيفية اظهارها
على القلوب ، وما السبب فى حجاب العقول عن كنهها وما هيتها ، ونفرة
النفس من حقيقتها ، وسكينة الروح الى صفوتها . وما يتعلق بهذا من
المعاملات .

قال المسئول وهو على بن عثمان الجلابى ، رحمه الله (٢) :

اعلم ان هذا العلم قد اندرس فى الحقيقة فى زماننا هذا ، وبخاصة فى
هذه الديار ، حيث انشغل الخلق بأهوائهم ، وأعرضوا عن طريق الرضا .
وقد بدت لعلماء هذا العصر وأدعياء هذا الوقت صورة لهذه الطريقة على
خلاف أصلها . فاستحضر همك لأمر قصرت عنه أيدي أهل هذا الزمان
واسرارهم ، باستثناء خواص حضرة الحق ، وانقطع عنه مراد كل أهل
الإرادة ، وانعزلت عن وجوده معرفة أهل المعرفة غير خواص حضرة الحق ،
واكتفى خاصة الخلق وعامتهم منه بالعبرة ، واشتروا حجابهم بأرواحهم
وقلوبهم ، وانقلب الأمر من التحقيق الى التقليد ، وأخفى التحقيق وجهه
عن أحوالهم ، ورضى العوام بذلك قائلين اننا نعرف الحق ، وفرح الخواص
بأن يحسوا التمنى فى قلوبهم ، والهواجس فى نفوسهم ، والميل الى الدار
الآخرة فى صدورهم . وهم ، لانشغالهم ، يقولون ان هذا شوق الرؤية ،
وحرقة المحبة . وعجز الأدعياء بدعواهم عن كل المعانى ، وكف المريدون
عن المجاهدة ، وسبوا ظنهم المعلوم مشاهدة . وقد عملت قبل هذا كتباً
فى هذا المعنى ضاعت كلها . وقد اقتبس الأدعياء الكاذبون بعض أقوال منها
لصيد الخلق ، وغسلوا البعض الآخر ولم يبقوا عليه ، لان لصاحب الطبع
راس مال من الحسد وانكار نعمة الله . وغريق آخر لم يفصلوها ولكن لم
يقرواها . وغريق قراوها ولم يدركوا معناها ، واكتفوا بعباراتها ليكتبوها
ويحفظوها ويقولوا اننا نتكلم فى علم التصوف والمعرفة ، وهم له منكرون .
والسبب فى هذا كله ان هذه المعانى كبريت احمر ، وهو شيء عزيز ، وحين

(١) سبق الإشارة اليه . فى القسم الاول .

(٢) عبارة « رحمه الله » اضافة من الناسخ .

يوجد يكون كيمياء (١) . ووزن دائق منه يحيل كثيرا من النحاس والتصدير ذهباً أحمر .

وفي الجملة : كل يطلب الدواء الذي يوافق علته ، ولا يلزمه غيره . كما يقول واحد من الكبار :

(شعر عربي)

فكل من في مؤاده وجع يطلب شيئا يوافق الوجعا

فمن يكون دواء علته أحقر الأشياء لا يلزمه الدر والمرجان ليخلطوهما بالبلسان (٢) ودواء المسك . وهذا المعنى أعز من أن يكون لكل نصيب منه .

وقد فعل جهال هذا العلم عين هذا من قبل بكتب المشايخ ، حين وقعت تلك الخزائن المملوءة بالأسرار الإلهية في أيديهم ، فلم يعرفوا معناها ، والقوا بها إلى أيدي صناع القلائس الجهلة ، وأعطوها للمجلدين الأذناس ، فصيروها بطانة للقلائس ، وجلدا لدواوين شعر أبي نواس (٣) ، وهزل الجاحظ (٤) . وحين يحط بازي الملك على جدار بيت عجوز فانهم يقصون ريشه وجناحه لا محالة .

(١) « كيمياء » : الكيمياء في اصطلاح القدماء المادة التي تضاف إلى المعادن الخسيسة كالنحاس والرماس لتحيلها ذهباً ، وتسمى أحيانا « الأكبر » ، وتطلق أيضا على علم تحويل هذه المعادن إلى ذهب .

(٢) نوع من الزيت يستخرج من نبات يعرف بالبلسم ، ورد ذكره في كتاب « الإنبية من حقائق الأدوية » لموفق بن علي الهروي . وهو كتاب فارسي من مؤلفات القرن الرابع الهجري (انظر : سبك شناسي ج ٢ ص ٢٤) .

(٣) أبو علي الحسن بن هانئ المعروف بابي نواس الحكي . الشاعر المعروف . كان جده مولى الجراح بن عبد الله الحكي وإلى خراسان ، ونسبته إليه . قيل أن الخصيب صاحب ديوان الخراج بمصر سأله عن نسبه ، فقال : أغنانى أدبى من نسبي فأمسك عنه . من الطبقة الأولى من المولدين ، وشعره عشرة أنواع ، وهو مجيد في العشرة . كان المأمون يقول : لو وصفت الدنيا نفسها لما وصفت بمثل قول أبي نواس :

ألا كل حي هالك وابن هالك وقو نسب في الهالكين هريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عذو في ثياب صديق

توفي أبو نواس سنة خمس وقيل ست وقيل ثمان وتسعين ومائة ببغداد ، ودفن في مقابر الشونيزي . قيل له أبو نواس لثوابتين كانتا تنومان على عاتقيه (وفيات الأعيان ج ١ ص ١٣٥ - ١٣٦) .

(٤) أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى اللبثى المعروف بالجاحظ البصري : العالم المشهور صاحب التصانيف في كل فن ، له مقالة في أصول الدين ، واليه تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة . كان تلميذاً لأبي إسحاق بن سيار البلخي المعروف « بالنظام » المتكلم المشهور . من أحسن تصانيفه وأتمها : كتاب « الحيوان » وكتاب « البيان والتبيين » . توفي سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة (وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٨٨) .

وقد أوجدنا الله عز وجل في زمان أسمى أهله إلهوى شريعة ، وطلب الجاه والرياسة والتكبر عزا وعلما ، ورياء الخلق خشية ، واخفاء الحفيظة في القلوب حلما ، والمجادلة مناظرة ، والمحاربة والسفاهة عظمة ، والنفاق زهدا ، والتمنى ارادة ، وهذيان الطبع معرفة ، وحركات القلب وحديث النفس محبة ، والاحاد فقرا ، والوجود صفوة ، والزندقة فناء ، وترك شريعة النبى صلى الله عليه وسلم طريقة ، واسموا آفة أهل الزمان معاملة ، حتى احتجب أرباب المعانى بينهم ، على حين صارت الغلبة لهم ، كما حدث في الفترة الأولى لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع آل مروان . وما اجب ما قاله سلطان أهل الحقائق وبرهان التحقيق والحقائق أبو بكر الواسطى (١) رحمه الله : « ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الاسلام ولا اخلاق الجاهلية ولا احكام ذوى المروءة (٢) » .

ويقول الشبلبى (٣) وفقا لهذا :

(شعر عربى)

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب

فصل : أعلم — قواك الله — انى وجدت هذا العالم محلا لمبغض الأسرار الالهية ، والمكونات موضعا لودائعه ، والمثبتات مكانا للطائفة في حق أحبائه .

= وكان الجاحظ لسان المعتزلة في عصره ، رد على المشبهة وتكلم في ايجاز القرآن وألف في الاحتجاج للنبوة ونصرة الرسالة ، وفي الطبائع . وتكلم في الخلود في الآخرة .

من أقواله أن أعمال العباد تنسب الى العباد مجازا وانما هي أعمال الطبيعة تظهر بيهيم ، إلا الإرادة فانها فعل الانسان (ظهر الاسلام ج ٤ ص ١١) . وللجاحظ كتاب « نظم القرآن » (الفهرست ص ٥٧) .

(١) اسمه : محمد بن موسى . من قديما اصحاء الجنيد وأبى الحسين النورى . أصله من بقرانه ، ويعرف بابن الفرغاني . كان عالما بالأصول وعلوم الظاهر . خرج من العراق وهو شاب ومشايخه في الاحياء ، فتكلم بخراسان بأبيورد وبنو ، وأكثر كلامه بمرور ، ومات بها بعد العشرين وثلثمائة . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٣٠٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٠ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٧٩ ، تفكرة الأولياء ج ٢ ص ٢٦٥ ، نفحات الانس ص ١٧٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٩) .

(٢) ورد هذا القول ينصه في طبقات الصوفية (انظر : ص ٣٠٣) .

(٣) أبو بكر الشبلبى : اسمه « دلف » ويقال : ابن جحدر . خراسانى الأصل ، بغدادى المولد والمنشأ . تاب في مجلس خير النجاج ، وصاحب الجنيد ، وصار أواحد عصره حالا وعلما . كان عالما فقيها على مذهب مالك . مات سنة أربع وثلثين وثلثمائة . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٣٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٨ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٨٢ ، تفكرة الأولياء ج ٢ ص ١٦٠ ، نفحات الانس ص ١٨٠ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٨٦) .

والجواهر والأعراض والعناصر والأجرام والأشباح كلها حجاب تلك الأسرار وأثبت كل من هذه في محل التوحيد شرك ، فإله تعالى قد جعل هذا العالم في محل الحجاب ، حتى اطمانت الطبائع كل منها في عالمه بأمره ، واحتجبت بوجودها عن توحيد الحق، وانشغلت الأرواح في العالم بمزاحها ، وابتعدت بالمقارنة عن محل الخلاص ، حتى صعب على العقول فهم الأسرار الربانية . واحتجبت لطائف القرب عن الأرواح ، حتى احتجب الإنسان بوجوده في مظلة الغفلة ، وصار معيوباً بحجابه في محل الخصوصية ، كقول الله تعالى : « والعصر ان الإنسان لئى خسر (١) » وقال أيضاً « انه كان ظلوما جهولا (٢) » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « خلق الله الخلق في ظلمة ثم التى عليه نورا (٣) » .

وقد وقع هذا الحجاب مزاجاً له (للإنسان) في العالم ، لتعلق الطبائع به ، ولتصرف العقل فيه ، حتى صار مكتفياً بجهله ، واشترى بروحه حجاباً عن الحق ، لأنه غافل عن جمال الكشف . وأعرض عن تحقيق السريرة الربانية ، واستقر في محل الدواب ، وجفل من محل نجاته . ولم يشم رائحة التوحيد ، ولم ير جمال الأحدية ، ولم يذوق ذوق التوحيد ، وعجز بالتقليد عن تحقيق المشاهدة ، ورجع بحرص الدنيا عن إرادة الله ، وقهر النفس الناطقة (٤) بالنفس الحيوانية (٥) المجردة من الحياة الربانية . وأقر حركاته وطباعه جملة في نصيب الحيوانية ، ولا يعرف غير الأكل والنوم ومتابعة الشهوات . وقد أمر الله عز وجل أعباءه بالأعراض عن هذا كله ، وقال : « نرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون (٦) » . لأن سلطان طبيعهم أخفى عليهم سر الحق ، وحل بهم الخزلان والحرمان مكان العناية والتوفيق ، وأصبحوا جميعاً متابعين للنفس الأمارة — وهى الحجاب الأعظم ومنبع السوء والنشر — كما قال الله تعالى : « ان النفس لامارة بالسوء (٧) » .

والآن : فلأبدأ بالكتاب ، وأوضح مقصودك في المقامات والحجب ،

(١) سورة « العصر » آية ١ ، ٢

(٢) سورة « الأحزاب » آية ٧٢

(٣) لم أجد له سنداً .

(٤) النفس الناطقة : هى الجوهر المجرد عن المادة في ذاتها ، مقارنة لها في أعمالها . (تعريفات الجرجاني ص ١٤٢) .

(٥) النفس الحيوانية : هو كمال أول لجسم طبيعى الى من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة . (المصدر السابق) .

(٦) سورة « الحجر » آية ٢

(٧) سورة « يوسف » آية ٥٣

وأبسطها ببيان لطيف ، وأشرط عبارات أهل الصنائع ، والحق بذلك قدرا من أقوال المشايخ ، وأمدّه بغرر الحكايات ، ليتحقق مرادك ، ويعلم من ينظر في هذا العلم من علماء الظاهر وغيرهم : أن لطريق التصوف أصلا قويا وفرعا مثمرا .

وقد حث جميع المشايخ من أهل العلم كل المريدین على تعلم العلم ، والمداومة عليه ، حتى صاروا حريصين عليه ، ولم يتابعوا اللهو والهزل أبدا ، ولم يسلكو طريق اللغو ، بعد أن صنف كثير من مشايخ الصوفية وعلمائهم في هذه المعانى ، وأظهروا بالعبارات اللطيفة براهين من الخواطر الربانية ، وبالله العون والتوفيق ، وحسبنا الله ونعم الرقيق .

الباب الأول باب إثبات العلم

قوله تعالى في وصف العلماء : « انما يخشى الله من عباده العلماء (١) »
وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم (٢) » . وقال ايضا : « اطلبوا العلم ولو بالصين (٣) » .

واعلم ان العلم كثير ، والعمر قصير . وليس تعلم كل العلوم ، مثل علم النجوم والطب وعلم الحساب والصناعات البديعية وما يشبه هذا ، فريضة على الناس ، الا بالقدر الذي يتعلق بالشرعية من كل من هذه العلوم ، فالنجوم لمعرفة الوقت في الليل ، والطب للاحتناء ، والحساب للفرائض ومدة الحيض ، وما يشبه هذا ، ففرائض العلم بقدر ما يصح به العمل .

وقد ذم الله عز وجل اولئك الذين يتعلمون العلوم غير النافعة في قوله تعالى : « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم (٤) » . والرسول عليه السلام استعاذ وقال : « أعوذ بك من علم لا ينفع (٥) » .

واعلم انه يمكن عمل الكثير من علم قليل . وينبغي ان يكون العلم هتقرونا بالعمل كما قال عليه السلام : « المتعبد بلا فقه كالحمار في الطاحونة (٦) » .

(١) سورة « طاهر » آية ٢٨

(٢) رواه البيهقي في شعب الايمان وابن عبد البر في العلم عن انس بن مالك : « اطلبوا العلم ولو بالصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » (شرح المناوى للجابع الصغير ج ١ ص ٧٢) .

(٤) سورة « البقرة » آية ١٠٢

(٥) رواه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه عن انس : اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع وعمل لا يرتفع ودهاء لا يسبح (شرح المناوى للجابع الصغير ج ١ ص ٧٢) .
وقد عرف الغزالي العلم الذى لا ينفع بقله العلم المضموم ، وان كان العلم لا يظم لعينه وانما يظم في حق العباد لاحد هذه الاسباب الثلاثة :
١ - ان يكون العلم مؤذيا لضرر ما لصاحبه او غيره .

٢ - ان يكون مضرا بصاحبه في غالب الامر كعلم النجوم .

٣ - الخوض في علم لا يستفيد الخائف فيه فائدة علم - (احياء علوم الدين :

انظر ج ١ ص ٢٦) .

(٦) رواه أحمد في مسنده عن وائلة (شرح الجابع الصغير ج ٢ ص ٣٢٥) .

فسيبه المتعبدين بلا فقه بحمار الطاحونة ، لانه مهما يدور يظل في مكانه
ولا يقطع أى طريق .

ورأيت طائفة من العوام فضلت العلم على العمل ، وطائفة أخرى فضلت
العمل على العلم ، وكلاهما باطل ، لأن العمل بلا علم لا يكون عملا ،
فالعمل يصير عملا حين يكون موصولا بالعلم ، ليكون العبد بذلك متجها
لثواب الحق (١) . مثال ذلك : الصلاة ، فانه ما لم يكن العلم أولا بآركان
الطهارة ، ومعرفة الماء والتبلة وكيفية النية وآركان الصلاة ، فالصلاة
لا تكون صلاة . ومادام العمل يصير عملا بعين العلم ، فكيف يقول جاهل
يفضله عنه ؟

وأولئك الذين فضلوا العلم على العمل ، على باطل ايضا ، لان العلم
بلا عمل لا يكون علما ، فالتعلم والحفظ والاستيعاب كلها عمل ، لان العبد
مثاب بذلك . ولو لم يكن علم العالم بفعله وكسبه ، لما كان له بذلك أى
ثواب .

وهذا كلام طائفتين (٢) ، احدهما : أولئك الذين ينسبون جاه الخلق
الى العلم ولا طاقة لهم بمعاملته ، ولم يصلوا الى تحقيق العلم ، فيفضلون
العمل عن العلم لأنهم لا يعرفون علما ولا عملا ، حتى ليقول جاهل : لا يلزم
القال ويلزم الحال (٣) ، ويقول آخر : يزعم العلم ولا يلزم العمل .

(١) يتفق رأى الهجویری فی ضرورة ارتباط العلم بالعمل وإثابة العبد بها مع رأى أبی
طالب المکی حيث يقول : اعلم ان من عمل بعلم او نطق به فاصاب الحقيقة عند الله
تمالی فله اجران : اجر التوفیق ، واجر العمل . وهذا مقام العارفين . (قوت
القلوب : انتظر ج ١ ص ٢٨٠) .

(٢) اورد المؤلف قول الطائفة الاولى فقط .

(٣) يقسم الصوفية العلوم تقسيمات مختلفة ، منها تقسيمهم العلم الى ظاهر وباطن ،
وتقسيمهم العلوم الى علوم الدنيا وعلوم الآخرة ، وتقسيمهم العلم الى علم القال
وعلم الحال .

أما علم القال فيطلقونه على بعض العلوم الدينية كالفقه وعلم الكلام والجدل ،
وأما علم الحال فهو علم التصوف الذى يتعلق بالمقامات والأحوال : كالخبرة ،
واليقين ، والمعرفة وغيرها . وهم ينظرون الى العلوم من النوع الاول على أنها
من الأمور الكسبية التى يكتسبها الإنسان بالتعلم . أما العلوم من النوع الثانى
فهى من الأمور النوقية والمواهب الالهية التى يمنحها الله للمقربين من الصوفية
ويختصهم بها . يقول الجنيد :

علم التصوف ليس يـمـرـه	الا اخو نطنئة بالحق معروف
وليس يـمـرـه من ليس يشـهـده	وكيف يشهد شوه الشمس مكتوف
(قوت القلوب : انتظر ج ١ ص ٢٢٤) .	

ويرد عن ابراهيم بن ادهم^(١) رحمه الله انه قال : رايت حجرا ملقى في الطريق ، وقد كتب عليه : اترنى واقرا . قال : فادرتة ، ورايت انه قد كتب عليه : « انت لا تعمل بما تعلم ، فكيف تطلب ما لاتعلم ؟ » .

أى : اعمل بما تعلم حتى تعلم ايضا ببركات ذلك ما لم تعلم .

ويقول أنس بن مالك^(٢) رضى الله عنه : « همة العلماء الدراية ، وهمة السفهاء الرواية » ، لأن أخوات الجهل منتقية عن العلماء ، فمن يطلب بالمعلم جاه الدنيا وعزها لا يكون عالما ، لأن طلب الإجاه والعز من أخوات الجهل . ولا درجة قط في المرتبة مثل العلم ، لأنه حين لا يكون لا يعلم — العبد — أى لطيفة لله تعالى ، وحين يوجد يكون لائقا لجميع المقامات والشواهد والمراتب .

فصل : اعلم ان العلم علمان : احدهما علم الله تعالى ، والآخر علم الخلق . وعلم العبد يتلشى في جنب علم الله تعالى ، لأن علمه صنفته وقائم به^(٣) ، ولا نهاية لأوصافه . وعلمنا صفتنا وقائم بنا ، وأوصافنا منتهية ، لقوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا^(٤) » .

وفى الأنجلة : العلم من صفات المدح ، وحده الاحاطة بالمعلوم وتبين المعلوم ، وأفضل حدوده هو أن « العلم صفة يصير الحى بها عالما » . والله عز وجل قال : « والله محيط بالكافرين^(٥) » . وقال ايضا : « والله بكل شئ عليم^(٦) » .

وعلم الله : هو علم يعلم به جملة الموجودات والمعدومات ، ولا مشاركة للخلق معه ، وهو غير متجزئ وغير منفصل عنه . والدليل على علمه

(١) أبو اسحاق ابراهيم بن ادهم : من أهل بلخ . كان من أبناء الملوك بهتف به هاتف ايقظه من غفته . صاحب سفيان الثوري والفضيل بن مياض يمكة . ودخل انشام فكان يعمل فيه ويأكل من عمل يده . مات بالشام سنة احدى أو اثنتين وستين ومائه (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٧ ، الرسالة ج ١ ص ٥١ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٥٥ ، تفكرة الاولياء ج ١ ص ٨٥ ، نحات الانس ص ٤١ ، خزينة الاصفاء ج ١ ص ٢٣٦) .

(٢) أنس بن مالك بن النضر بن شمس بن زيد بن حرام ، الاتصارى البخارى . خدم النبى صلى الله عليه وسلم عشرين سنة ، وشهد بدرا . مات سنة تسعين أو بعدها . وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة (خلاصة تذهيب الكمال ص ٢٥) .

(٣) يعارض الهجويزى هنا رأى المعتزلة الذى يقول بأن الله تعالى قديم والقدم أخصى وصف ذاته . ونبهوا الصفات القدسية أصلا فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حى بذاته لا يعلم وقدره وحياة هي صفات قديمة ومعان قائمة به (المل والنحل على حاشى الفصل : انظر ج ١ ص ٥٥) .

(٤) سورة « الاسراء » آية ٨٥ .

(٥) سورة « البقرة » آية ١٦ .

(٦) سورة « البقرة » آية ٢٨٢ .

ترتيب فعله ، لأن الفعل المحكم يقتضى علم الفاعل ، فعله لاحق بالأسرار ومحيط بالظواهر .

وينبغى للطالب أن يعمل الأعمال في مشاهدته ، بحيث يعلم أن — الله — بصير به وبأنعماله .

ترد حكاية ، انه كان بالبصرة (١) رئيس ذهب الى حديقة له ، فوتمعت عينه على جمال امرأة فلاح ، فأرسل الرجل لشغل ، وقال للمرأة : غلقت الأبواب . قالت : غلقت كل الأبواب الا بابا لا أستطيع اعلاقه ! قال : اى باب ذاك ؟ قالت : الباب الذى بيننا وبين الله جل جلاله ! فندم الرجل واستغفر .

حكاية : قال حاتم الأصم (٢) رضى الله عنه : اخترت أربعة من العلوم فنجوت من كل العالم . قيل : ما هى ؟ قال :

أولها : انى عرفت أن لله تعالى حقا لا يستطيع غيرى أن يؤديه ، فانشغلت بآدائه .

وثانيهما : انى عرفت أن لى رزقا مقسوما لا يزيد بحرصى ، فاسترحت من طلب الزيادة .

وثالثها : انى عرفت أن لى طالبا — أى الموت — لا أستطيع الفرار منه فتهيات له .

ورابعها : انى عرفت أن لى الها جل جلاله مطلع على فنجلت منه ، وامتنعت عما لا يليق عمله ، لأنه حين يكون العبد عالما بأن الله تعالى ناظر اليه ، لا يعمل عملا يخجل منه يوم القيامة .

فصل : أما علم العبد ، فينبى أن يكون فى أمور الله تعالى ومعرفته . وعلم الوقت وما يفيد بموجبه ظاهرا وباطنا فريضة على العبد ، وهو على قسمين :

(١) « البصرة » : اختطها متبة بن غزوان المازنى عامل عمر بن الخطاب . وكانت مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها فى وقت انتفاها فى ولاية عمر بن الخطاب فى سنة سبع عشرة (البلدان ص ٨٥) .

(٢) حاتم بن عنوان الأصم : ويقال حاتم بن يوسف . كنيته أبو عبد الرحمن . من قضاة مشايخ خراسان ، من أهل بلخ . صاحب شقيق بن إبراهيم ، وكان أستاذ أحمد بن خضروية . مات سنة سبع وثلاثين ومائتين (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصونية ص ٩١ ، الرسالة ج ١ ص ٨٩ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٦٤ ، تفكرة الاولياء ج ١ ص ٢٤٤ ، نلحات الانس ص ٦٤ ، خزينة الاسماء ج ٢ ص ١٣٩) .

أحدهما : الأصول ، والآخر : الفروع . وكل واحد منهما له ظاهر وباطن
فظاهر الأصول : قول الشهادة ، وباطن الأصول : تحقيق المعرفة .
وظاهر الفروع : ممارسة المعاملة ، وباطن الفروع : تصحيح النية .
وقيام كل هذين بدون الآخر محال ، فظاهر الحقيقة بلا باطن :
نفاق ، وباطن الحقيقة بلا ظاهر : زندقة . وظاهر الشريعة بلا باطن :
نفس ، وباطن الشريعة بلا ظاهر : هوس .

وللعلم الحقيقة أركان ثلاثة :

الأول : العلم بذات الله عز وجل ووحدانيته ، ونفى التشبيه عن ذاته
المنزهة جل جلاله .

والثاني : العلم بصفات الله وأحكامها .

والثالث : العلم بأفعال (الله) وحكمته .

وللعلم الشريعة أركان ثلاثة :

الأول : الكتاب .

والثاني : السنة .

والثالث إجماع الأمة .

والدليل على العلم يكون باثبات ذات الله تعالى وصفاته المنزهة وأفعاله،
لقوله تعالى : « فاعلم انه لا اله الا الله (١) » . وقال أيضا : « فاعلموا
أن الله مولاكم (٢) » . وقال أيضا : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل (٣) » .
وقال أيضا : « أفلا ينظرون الى الأبل كيف خلقت (٤) » . ومثل هذه
الآيات كثيرة ، وهي كلها دلائل على النظر في أفعال الله تعالى وتقدس ،
ليعرف بتلك الأفعال الفاعل بصفاته .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من علم أن الله تعالى ربه وأنى
نبيه حرم الله تعالى لحمه ودمه على النار (٥) » .

أما العلم بذات الله تعالى فهو : أن يعلم العاقل والبالغ أن الله تعالى

(١) سورة « محمد » آية ١٩

(٢) سورة « الأنفال » آية ٤٠

(٣) سورة « الفرقان » آية ٥٥

(٤) سورة « الفاشية » آية ١٧

(٥) رواه البراز عن عمران : « من علم أن الله ربه وأنى نبيه موثقا من طبه حرمه الله
على النار » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٠٦) .

موجود في قدم ذاته ، ولا حد ولا حدود له . وانه ليس في مكان أو جهة ، وليست ذاته موجب آفة ، ولا شبيه له من خلقه، ولا صاحبة له ولا ولد . وكل ما يتصور في الوهم ويتأس في العقل فهو جل جلاله خالقه ، وما لکه ، وربہ ، لقوله تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (١) » .

واما العلم بصفات الله فهو : أن تعلم بأن صفاته تعالى موجودة به ، فهي ليست هو ، ولا جزءا منه ، هي قائمة به ، وهو قائم بذاته ، ودائم : مثل العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والبقاء ، لقوله تعالى : « انه عليم بذات الصدور (٢) » . وقال أيضا : « والله على كل شيء قدير » (٣) . وقال أيضا : « هو الحى لا اله الا هو » (٤) . وقال أيضا : « وهو السميع البصير » (٥) . وقال أيضا : « فعالم لما يريد » (٦) . وقال أيضا : « قوله الحق » (٧) .

واما العلم بانفعال الله فهو : أن تعلم أنه تعالى وتقدس خالق الخلق وخالق انفعالهم ، وان العالم لم يكن موجودا وصار موجودا بفعله ، وهو مقدر الخير والشر ، وخالق النفع والضرر ، لقوله تعالى : « خالق كل شيء » (٨) .

والدليل على اثبات احكام الشريعة هو : أن تعلم أنه قد جاءنا رسل من الله تعالى بمعجزات ناقضة للعادة ، وان رسولنا محمدا المصطفى صلى الله عليه وسلم حق ، وله معجزات كثيرة . وان ما اخبرنا به من غيب وعيان كله حق .

والركن الاول من الشريعة : الكتاب ، لقوله تعالى : « منه آيات محكمات » (٩) .

والثاني : السنة ، لقوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » (١٠) .

-
- (١) سورة « الشورى » آية ١١ .
 - (٢) سورة « الشورى » آية ٢٤ .
 - (٣) سورة « البقرة » آية ٢٨٤ .
 - (٤) سورة « فاطر » آية ٦٥ .
 - (٥) سورة « الشورى » آية ١١ .
 - (٦) سورة « هود » آية ١٠٧ .
 - (٧) سورة « الانعام » آية ٧٣ .
 - (٨) سورة « الرعد » آية ١٦ .
 - (٩) سورة « آل عمران » آية ٧ .
 - (١٠) سورة « الحشر » آية ٧ .

والثالث : اجماع الامة ، لقوله عليه السلام : « لا تجتمع امتى على الضلالة ، عليكم بالسواد الاعظم » (١) .

وفى الجملة : ان احكام الحقيقة كثيرة ، واذا اراد احد ان يجمعها كلها لا يستطيع ، لانه لا نهاية للطائف الحق تعالى .

فصل : اعلم انه توجد جماعة من الملحدة — لعنهم الله — يسمونهم السوفسطائية (٢) ، يذهبون الى انه لا يصح العلم بأى شيء ، وأن العلم ذاته غير موجود .

ونقول لهم : هذا العلم الذى تعرفون انه لا يصح به العلم بأى شيء : صحيح ام لا ؟ فاذا قالوا : نعم ، فقد اثبتوا العلم ، واذا قالوا : لا ، فالشيء الذى لا يصح ، تكون معارضته محالا . والكلام مع قائل ذلك لا يكون من العقل .

وهناك فريق من الملحدة (٣) الذين ينتمون الى هذه الطريقة يقولون ان علمنا لا يصح بشيء ، فترك العلم اثم لنا من اثباته . وهذا من حقيقتهم وضلالتهم وجهلهم ، لان ترك العلم لا يخرج عن اثنتين : اما ان يكون بعلم ، او بجهل . والعلم لا ينفى العلم ، ولا يكون ضده . وترك العلم بالعلم محال . ويبقى هنا الجهل ، فاذا صح ان نفى العلم يكون جهلا ، وان تركه يكون بالجهل ، والجاهل مذموم ، والجهل قرين الكبر ، فان — قولهم هذا — يكون باطلا ، اذ لا تعلق للحق بالجهل . وهذا مخالف لجميع المشايخ .

ولما سمع الناس هذا القول وعملوا به ، قالوا : ان مذهب جملة اهل التصوف هو هذا ، ومسلكتهم هكذا ، حتى تشوش اعتقادهم ، وعجزوا عن تمييز الحق من الباطل . وقد سلمنا الأمور كلها لله تعالى ليظنوا فى ضلالهم ،

(١) رواه ابن ماجه عن انس : « ان امتى لن تجتمع على ضلالة فاذا رايتم اختلافا فليكنم بالسواد الاعظم » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٥١) .

(٢) « السوفسطائية » : فذكرهم ابن حزم على أنهم مبطلو الحقائق . انظر « الفصل » ج ١ ص ٨ . وفى « التعريفات » و « اقرب الموارد » : السفسطة والسفسطة — بفتح وكسر السين — (يونانية) قياس مركب من الوهميات ، والفرض من افحام

الخصم واسكاته ج سفسطات . السفسطى من يأتى بالسفسطة . السوفسطائية : فرقة ينكرون الحسيات والبيهييات وغيرها . (انظر تعريفات الجرجاني ص ٦٨) .

(٣) « الملحدة » : حيثما ذكر الهجویری اسم الملحدة فانه يقصد به الصوفية الادعياء الذين أحدثوا فى التصوف امورا تتناقى مع ما يراه المحققون من الصوفية : من ذلك قولهم بالتخلل من الشرائع وسقوط التكاليف من عبادات وطاعات ممن بلغوا مرتبة الولاية ، وغير ذلك مما يتناقى مع الدين والشرع ، ويشير اليه الهجویری فى موضعه .

فان يتمكن الدين منهم ، فانهم يتصوفون تصوفا خيرا من هذا ، ولا يتجنبون حكم الرعاية ، ولا ينظرون الى احياء الله عز وجل بهذه النظرة ، ويحتاطون في احوالهم افضل من هذا .

واذا تعلق قوم من الملاحدة بهؤلاء الاحرار ليخلصوا انفسهم من الآفات بجمالهم ، وليعيشوا في ظل عزهم ، فلماذا يقيسون الكل عليهم ، ويختارون في معاملتهم المكابرة العيانية ، ويدوسون قدرهم — في هذا الباب — باقدامهم ؟

وقد جرت لى مناظرة مع دعى منتسب الى العلم ، اسمى تاج الرعونة عز العلم ، ومتابعة الهوى سنة الرسول عليه السلام ، وموافقة الشيطان سيرة الائمة ، وقال في مناظرته : ان الملاحدة اثنتا عشر طائفة ، واحدة منها بين المتصوفة . فقلت له : اذا كان بين المتصوفة طائفة واحدة من هؤلاء ، فان الاحدى عشرة الأخرى بينكم ! وهم يستطيعون أن يحموا انفسهم من طائفة ، افضل مما تستطيعون انتم حماية انفسكم من الاحدى عشرة .

وكان هذا كله نتيجة لفتور الزمن ، والآفات التى ظهرت . وقد حفظ الله تعالى اوليائه دائما بين قوم ، وجعل اولئك القوم مهجورين بين الخلق من اجلهم . ونا اجل ما قال شيخ المشايخ وشمس المريدين « على بن بندار الصيرفى » (١) رحمه الله عليه : « فساد القلوب على حسب فساد الزمان واهله » (٢) .

والآن : اورد فصلا فى تناولهم ليكون تنبيها لمن للحق فى امره عناية صادقة من منكرى هذه الطائفة ، وبالله التوفيق .

فصل : يقول محمد بن الفضل البلخى (٣) رحمه الله : « العلوم ثلاثة : علم من الله ، وعلم مع الله ، وعلم بالله » (٤) ،

(١) أبو الحسن على بن بندار الصيرفى : كان من اجله شيخوخة نيسابور . صاحب كثير من الشيوخ ، وكتب الحديث الكثير ورواه . مات سنة تسع وخمسين وثلاثمائة . (انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٥٠١ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٩٩ ، نفعات الانس ص ١١٥) .

(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٥٠٢) .
(٣) أبو عبد الله محمد بن الفضل بن العباس . مرید احمد بن خضروية . كان من اجله مشايخ خراسان . اصله من بلخ وأخرج منها بسبب المذهب فنزل سمرقند ومات بها سنة تسع عشرة وثلاثمائة . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢١٢ ، الرسالة ج ١ ص ١١٨ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٧٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٨٧ ، نفعات الانس ص ١١٦) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية مع شرح آخر (انظر : ص ٢١٥) .

فالعلم بالله : هو علم المعرفة الذى عرفه به جميع اوليائه . ولو لم يكن تعريفه وتعرفه لما عرفوه ، لأن كل أسباب الاكتساب المطلق منقطعة عن الحق تعالى . ولا يصير علم العبد علة لمعرفة الحق ، لأن علة معرفته تعالى وتقدس انما هى أيضا هدايته واعلامه .

والعلم من الله : هو علم الشريعة ، وهو أمر وتكليف منه لنا .

والعلم مع الله : هو علم مقامات طريق الحق ، وبيان درجات الاولياء . فالمعرفة اذن لا تصح بدون قبول الشريعة ، وممارسة الشريعة لا تستقيم بغير اظهار المقامات .

ويقول أبو على الثقفى (١) رحمه الله : « العلم حياة القلب من الجهل ، ونور العين من الظلمة » (٢) .

أى أن العلم حياة القلب من موت الجهل ، ونور لعين اليقين من ظلمة الكفر . وكل من يجهل علم المعرفة قلبه ميت بالجهل ، وكل من يجهل علم الشريعة قلبه مريض بالجهل ، فقلوب الكفار ميتة لأنها جاهلة بالله تعالى ، وقلوب أهل الغفلة عليلة لأنها جاهلة بأوامره .

ويقول أبو بكر الموراق الترمذى (٣) رحمه الله : « من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد ترندق ، ومن اكتفى بالفقه دون الورع تفسق » (٤) .

والمراد بهذا القول أن تجريد التوحيد بلا معاملة ومجاهدة يكون جبرا ، والموحد يكون جبرى القول وقدرى الفعل ، ليصح مسلكه بين الجبر والقدر .

(١) اسمه محمد عبد الوهاب . لقي أبا حفص الحداد وحيدونا القصار ، كان ابائا في أكثر علوم الشرع ، مقدما في كل فن منه . عطل أكثر علومه واشتغل بعلم الصوفية وتكلم فيه أحسن الكلام . مات سنة ثمان ومئتين وثلثمائة . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٣٦١ ، الرسالة ج ١ ص ٥٣ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٨٥ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨١ ، تلخيص الاتساع ص ٢٠٣ ، خزينة الاسماء ج ٢ ص ١٩٢) .

(٢) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر : ص ٣٦٤) .

(٣) هو محمد بن عمر الحكيم . أصله من ترمذ وأقام ببغداد . لقي أحمد بن خضرويه وصاحبه . وصاحب محمد بن سعد بن إبراهيم الزاهد ، ومحمد بن عمر بن خثعم البليخى ، له الكتب المشهورة في أنواع الرياضات والمعاملات والآداب . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٢١ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٨ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٧٣ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٠٢ ، تلخيص الاتساع ص ١٢٣) .

(٤) ورد في طبقات الصوفية على هذا النحو : « من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه ترندق ، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام تبعد ، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والكلام تفسق ، ومن تلفن في هذه الأمور كلها تخلص » . (انظر طبقات الصوفية ص ٢٢٤) .

وهذا حقيقة ما قاله ذلك الشيخ — رحمة الله عليه : « التوحيد دون الجبر وفوق القدر » ، فكل من يكتفى من التوحيد بالعبارة دون المعاملة يصير زنديقا . أما الفقه فيشترط له الاحتياط والتقوى ، وكل من ينشغل بالرخص والتأويلات والتعلق بالشبهات ويحوم حول المجتهدين بلا مذهب ، للترخص ، سرعان ما يقع في الفسق . وهذا كله يتأتى من الغفلة .

وحسنا قال شيخ المشايخ بن معاذ الرازي (١) رحمه الله : « اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس : العلماء الغافلين ، والفقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين » (٢) .

أما العلماء الغافلون ، فهم أولئك الذين جعلوا الدنيا قبلة قلوبهم ، واختاروا السهولة من الشرع ، واتخذوا عبادة السلاطين وصيروا بلاطهم مطافهم ، وجعلوا جاه الخلق محرابهم ، وانخدعوا بغرور مهارتهم ، وشغلوا قلوبهم برقة كلامهم ، واطلقوا لسان طعنهم في الأئمة والأساتذة ، وانشغلوا بقهر علماء الدين بكلام مزيد عليه ، وإذا وضعوا الكونين في كفة ميزانهم لا يظهران ، ومن ثم صيروا الحقد والحسد مذهباً . وجملة القول : أن هذا كله لا يكون علماً ، لأن العلم صفة تنقضى بها كل أنواع الجهل عن الموصوف .

وأما الفقراء المداهنون ، فهم أولئك الذين حين يكون فعل شخص موافقاً لهواههم ، وأن يكن باطلاً ، فانهم يمدحونه به ، وحين يعمل عملاً على خلاف هواهم ، وأن يكن حقاً ، فانهم يذمونه به . وهم بمعاملتهم يطعمون في الجاه من الخلق ، ويدهنونهم على الباطل .

وأما المتصوف الجاهل ، فهو الذي لم يصحب شيخاً ، ولم يتلق الأدب من كبير ، ولم يثق عرك الزمان له ، ويرتدى الأزرق بلا بصيرة ، ويلقى بنفسه بين (الصوفية) ، ويسطك في الخزي طريق الانبساط في صبتهم ، وقد حملة حمته على أن يظن الجميع بمثله ، ومن ثم يشكل عليه طريق الحق والباطل .

وكان المراد من هذه الطوائف الثلاث التي ذكرها ذلك الموفق ، وأمر المريد

(١) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ . تكلم في علم الرجاء . وله كلام في المعرفة . خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ، ثم رجع إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين . وروى الحديث (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ١٠٧ ، الرسالة ج ١ ص ٩١ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٦٤ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٩٨ ، نغمات الانس ص ٥٦ ، خزينة الاسماء ج ١ ص ١١٠)
(٢) ورد في طبقات الصوفية مع تحريف في كلمة « الفقراء » حيث وردت « الفقراء » (انظر : ص ١١٢) .

بالاعراض عن صحبتهم هو انهم كانوا كاذبين في دعواهم ، وناقصين في سلوكهم .

يقول أبو يزيد البسطامي (١) رحمه الله : « عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته » (٢) .

وفي الجملة : ان السير على النار ايسر على الطبع من السير على موافقة العلم ، وعبور الصراط الف مرة يكون اسهل على قلب الجاهل من تعلم مسألة واحدة من العلم ، وضرب خيمة في الجحيم احب الى الفاسق من العمل بمسألة من العلم ، فليكن لزاما عليك تعلم العلم ، وطلب الكمال فيه .

وكمال علم العبد يكون جهلا الى جنب علم الله عز اسمه . ويجب ان تعلم كثيرا حتى تعلم أنك لا تعلم (٣) . ومعنى هذا ان العبد لا يستطيع ان يعلم الا علم العبودية ، والعبودية حجاب اعظم عن الالهية .

ويقول واحد في هذا المعنى :

(شعر عربى)

العجز عن درك الادراك ادراك والوقف في طرق الاخيار اشراك

فمن لا يتعلم ويصر على الجهل يكون مشركا ، ومن يتعلم ويظهر له معنى في كمال علمه ، ويزول غرور علمه ويعلم انه لا عاقبة لعلمه سوى العجز في طلب العلم — لانه لا تأثير للتسميات في حق المعانى — فعجزه هذا عن ادراك العلم ، ادراك للعلم ، والله اعلم .

(١) أبو يزيد طبرور بن عيسى بن سروشان . كان جده سروشان مجوسيا فاسلم . فارى الاصل من أهل بسطام ، ومن أوائل القائلين بالفناء والمروجين لوحدة الوجود ، ومذهبه يقوم على السكر . مات سنة احدى وستين ومائتين ، وتبرأ أربع وستين ومائتين . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٦٧ ، الرسالة ج ١ ص ٨٠ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٤٠ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٦١ ، تذكر الاولياء ج ١ ص ١٢٤ ، نحات الانس ص ٥٦ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٥١٩) .

(٢) ورد هذا القول بنصه في طبقات الصوفية ، وزيد عليه : « ولولا اختلاف العلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة الا في تجريد التوحيد » . (انظر : ص ٧٠) .

(٣) في هذا المعنى يقول الشاعر الفارسى أبو شكور البلخى من شعراء العصر السامانى مباهيا بسمه عليه ومزريا بتمسور علم البشر :

تا بدانجا رسيد دانش من كه بدانم هس كه نادانم

والمعنى :

لقد بلغ على ان اعلم انى جاهل .

ويمزى مثل هذا القول الى حكماء اليونان ، وكان يردده سقراط .

الباب الثالث باب الفقر

اعلم ان للفقر ، في طريق الله عز وجل ، مرتبة عظمى . وللفقراء خطر كبير ، كما قال الله تعالى : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » (١) . وقال أيضا : « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء » (٢) . وقال أيضا : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا » (٣) .

واختار الرسول صلى الله عليه وسلم الفقر ، وقال : « اللهم أحيني مسكينا ، وأمتني مسكينا ، واحشرني في زمرة المساكين » (٤) . وقال أيضا : يقول الله تعالى في يوم القيامة : « أدنوا مني أحبائي . فيقول الملائكة : من أحبائك ؟ فيقول فقراء المسلمين » .

ومثل هذه الآيات والروايات كثير ، إلى حد أنها لشهرتها لا يحتاج لإثباتها لصحة الدلائل .

وكان الفقراء والمهاجرون في وقت النبي عليه السلام هم أولئك الذين أقاموا في مسجده في حكم أداء العبودية ، وصحبة النبي عليه السلام ، وأعرضوا عن الأشغال كلية ، وقالوا بترك المعارضة ، واعتمدوا على الله تعالى في رزقهم ، وتوكلوا عليه ، حتى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بصحبتهم والقيام بحقتهم ، قال عز وجل : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » (٥) . وقال أيضا : « ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » (٦) إلى حد أن

-
- (١) سورة « البقرة » آية ٢٧٣ .
 - (٢) سورة « النحل » آية ٧٥ .
 - (٣) سورة « السجدة » آية ١٦ .
 - (٤) رواه الحاكم في المستدرک عن أبي سعيد (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٠٣) .
 - (٥) سورة « الأنعام » آية ٥٢ .
 - (٦) سورة « الكهف » آية ٢٨ .

كان الرسول عليه السلام حينما يرى واحدا منهم يقول : بأبى وأمى أولئك الذين عاتبنى الله تعالى من أجلهم .

فإن الله تعالى قد أعطى للفقير مرتبة ودرجة عظمى ، وخص الفقراء بها ، حتى قالوا بترك الأسباب الظاهرة والباطنة ، ورجعوا الى المسبب كلية ، وصار فقرهم فخرا لهم ، الى حد أنهم بكوا لذواله ، وفرحوا لقدمه ، واعتنقوه ، واحتقروا كل شيء عدا أخواته (١) .

أما الفقر فله حقيقة ورسم (٢) : ورسمه الإفلاس الإضطرارى ، وحقيقته الإقبال الاختيارى فمن رأى الرسم ركن الى الاسم ، فلما لم يدرك المراد جفل عن الحقيقة . ومن أدرك الحقيقة أعرض عن الموجودات ، وأسرع الى فناء الكل فى رؤية الكل ببقاء الكل : « من لم يعرف سوى رسمه ، لم يسمع سوى اسمه » .

فالفقر هو الذى لا يملك شيئا قط ، وليس له خلل فى شيء ، وهو لا يصير غنيا بوجود الأسباب ، ولا محتاجا الى سبب بعدها ، فوجود الأسباب وعدمها لدى فقره سواء وأن يكن فى العدم أكثر سعادة ، فحائز أيضا ، لأن المشايخ قالوا : كلما يكون الفقير مضيق يدا يكون الحال أكثر فتحا عليه . فوجود المعلوم شؤم للفقير ، الى حد أنه لا يجعل أى شيء فى قيده الا ويكون هو أيضا فى القيد بذلك القدر . فحياة أحباب الحق مع الحق تكون بالالطاف الخفية ، والأسرار البهية ، لا بآلات الدنيا المغدرة ، والدار الفجارة ، فالمتاع مناع عن طريق الرضا .

ويرد أنه اتفق لفقير لقاء ملك ، فقال الملك : سلنى حاجة . قال الفقير : أنا لا أسأل عبدا لمعبودى حاجة ! قال الملك : كيف ؟ قل : لى عبدان كلاهما سيد لك : أحدهما الحرص ، والآخر طول الأمل .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الفقر عز لاهله » ، فالشيء الذى يكون عزا للأهل ، يكون ذلا لغير الأهل . وعزه هو أن الفقير يكون محفوظ

(١) قيل أن رجلا أتى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها منه ، وقال له : تريد أن تحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لا أفعل . (الرسالة ج ٢ ص ٥٢٨) .

(٢) يشير بالرسم الى الفقر المادى ، وبالحقيقة الى الفقر المعنوى . والفقر المادى هو التخلّى من الأسباب ، والفقر المعنوى هو الابتعاد الى الله . والفقر الحقيقى هو الذى يفتقر فى وجوده الى الله ، وهو لا يصبح غنيا بوجود الأسباب ، ولا يصير محتاجا بانعدامها . لأن من طبيعة المخلوق الابتعاد الى الخالق سواء ملك شيئا أو لم يملك ، وكل من يدرك هذه الحقيقة يسرع بالتخلّى عن جميع الأسباب ، وينتجه الى مسبب الأسباب ، الفنى الحقيقى ، ليبقى له الفنى به .

الجوارح من الزلل ، ومحفوظ الحال من الخلل ، فلا المعصية والزلل تجرى على جسده ، ولا الخلل والآفة على حاله ، لأن ظاهره مستغرق في النعم الظاهرة ، وباطنه منبع للنعم الباطنة . وطالما كانت نفسه روحانية وقلبه رباتيا فليس للخلق اليه حوالة ، ولا لآدم اليه نسبة ، حتى يكون مقبرا من حوالة الخلق ونسبة آدم . وهو لا يصير غنيا بملك هذا العالم في الدنيا ، او بملك ذلك العالم في الأخرى . والكونان في كفة ميزان فقره لا يزانان جناح بعوضة ، وكلا العالمين لا يتسعان لنفس واحد من انفسه .

فصل : وقد اختلف شيوخ الصوفية رحمهم الله في الفقر والغنى ، وإيهما افضل في صفات الخلق ، لأن الله تعالى غنى على الحقيقة ، وله الكمال جل جلاله في جميع أوصافه .

ويحيى بن معاذ الرازي ، وأحمد بن أبي الحواري (١) ، والحاتر المحاسبى (٢) ، وأبو العباس بن عطاء (٣) ، ورويم (٤) ، وأبو الحسن بن شمعون (٥) ، ومن المتأخرين شيخ المشايخ أبو سعيد فضل الله بن محمد

(١) أحمد بن أبي الحواري : من أهل دمشق . كان له أخ يقال له محمد بن أبي الحواري يجرى مجراه في الزهد والورع ، وابنه عبد الله بن أحمد من الزهاد ، وأبوه أبو الجواري كان من العارفين الورعين ، فبنيهم بيت الورع والزهد . توفي سنة ثلاثين ومائتين . (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ٩٨ ، الرسالة ج ١ ص ٩٥ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٨٦ ، نفعات الانس ص ٦٥) .

(٢) كنيته : أبو عبد الله ، كان من علماء مشايخ القوم ، عالما بطولم الظاهر وعلوم المعاملات والإشارات ، عديم النظر في زمانه علما وورعا ومعاملة وحالا . بصرى الأصل ، مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين . قال عنه الغزالي : المحاسبى خير الأمة في علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وأفات الأعمال . (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ٥٦ ، الرسالة ج ١ ص ٧٢ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٦ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٢٥ ، نفعات الانس ص ٥١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٤٢) .

(٣) اسمه : سهل بن محمد . من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم . له لسان في فهم القرآن يختص به . كان من أقران الجنيد ، صاحب إبراهيم المارستاني . مات سنة تسع وثلاثمائة (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٦٥ ، الرسالة ص ١٢٥ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٦٧ ، نفعات الانس ص ١٤١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٥) .

(٤) روم بن أحمد بن يزيد . كنيته : أبو محمد . من أهل بغداد . كان مقربا وتقيها على مذهب داود . مات سنة ثلاث وثلاثمائة . (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ١٨٠ ، الرسالة ج ١ ص ١١٦ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٧٠ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٦٤ ، نفعات الانس ص ٩٤ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢١١) .

(٥) ورد اسمه في نفعات الانس : « أبو الحسين بن سمعون » . ترجم له الجامي فذكر أن اسمه محمد بن أحمد بن اسماعيل بن سمعون ، كان يلقب بالناطق بالحكمة . من مشايخ بغداد . توفي سنة ست أو سبع وثلاثمائة (انظر ترجمته في نفعات الانس ص ٢٢٣ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢١١) .

اليهني(١) ، رحمة الله عليهم أجمعين ، على أن الغنى أفضل من الفقر ، ويستدلون بأن الغنى صفة للحق تعالى ولا يجوز عليه الفقر ، فالصفة التي تكون مشتركة — في المحبة — بين العبد والله تعالى ، أتم من الصفة التي لا تجوز عليه تعالى وتقدس .

ونقول : ان هذه المشاركة في الاسم لا في المعنى ، لانه يلزم الماطلة للمشاركة في المعنى ، ولما كانت صفاته قديمة وصفات الخلق محدثة ، فهذا الدليل يكون باطلا .

وأنا على بن عثمان الجلابي — وفقني الله بالخير — أقول : ان الغنى اسم لائق بالحق ، ولا يستحق الخلق هذا الاسم . والفقر اسم لائق بالخلق ، ولا يجوز على الحق . ومن يسمونه غنيا على المجاز لا يكون كالغنى على الحقيقة .

والدليل الأوضح هو : أن غنانا يكون بوجود الأسباب ، ونكون نحن مسببين في حال قبول الأسباب ، وهو مسبب الأسباب ، وليس لغناه سبب ، فالمشاركة في هذه الصفة باطلة .

وأیضا : لما كانت المشاركة في المعنى لا تجوز لأمد معه ، فهي أيضا لا تجوز في الصفة ، وبما أنها لا تجوز في الصفة ، فهي لا تجوز في الاسم . وتبقى بعد ذلك : التسمية ، والتسمية علامة بين الخلق ، ولها حد .

فالغنى لله تعالى هو انه لا حاجة له بأى أحد أو شيء ، ويفعل ما يريد ، وليس لمراده دافع ، ولا لقدرته مانع ، وهو قادر على قلب الأعيان ، وخلق الضدين ، وكان ولا يزال دائما بهذه الصفة .

وغنى الخلق : منال معيشة ، أو وجود مسرة ، أو نجاة من آفة ، أو راحة بمشاهدة ، وهذا كله محدث ومتغير ، وأصل الطلب والحسرة ، وموضع العجز والتذلل .

أذن : فهذا الاسم للعبد مجاز(٢) ، وللحق تعالى حقيقة ، لقوله تعالى :

(١) سبق ذكره في القسم الأول ، ترجمته في الباب الثاني عشر ، ففكرة الأولياء ، ج ٢ ص ٣٢٢ ، تفحات الآس ص ٣٠٠ ، رياض العارفين ص ٤٨ ، خزينة الأصفاء ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) يتفق الإمام الغزالي مع الهجویری في رفض اسم الغنى للآدميين ويسميه : المستغنى ، ليبقى الغنى اسما إن له الغنى المطلق من كل شيء ، ويقول ان المستغنى ان سمي غنيا ، لم يكن هذا الغنى مطلقا عليه الا مجازا . (أحياء علوم الدين ج ٤ : انظر ص ١٦٥) .

« يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله » (١) . وقال ايضا : « والله الغنى وانتم الفقراء » (٢) .

وتقول طائفة من العوام ايضا : اننا نفضل الغنى على الفقر لان الله تعالى خلقه سعيدا في الدارين ، ومن عليه بالغنى . وهذه الطائفة تريد هنا بالغنى كثرة المتاع ، وادراك الغايات ، ومتابعة الشهوات . ويدللون على هذا بأن الله أمر بالشكر على الغنى ، والصبر في الفقر ، فالصبر يكون في البلاء ، والشكر يكون في النعماء ، والنعماء في الحقيقة أفضل من البلاء .

ونحن نقول : ان (الله) أمر بالشكر على النعمة ، وجعل الشكر علة لزيادة النعمة . وأمر بالصبر على الفقر ، وصبر العلة لزيادة القرية ، لقوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » (٣) . وقال ايضا : « ان الله مع الصابرين » (٤) ، فكل من يشكر في نعمة أصلها الغفلة ، نزيده غفلة على غفلة ، وكل من يصبر في فقر أصله البلية ، نزيده قرية على قرية .

أما الغنى الذي يفضلُه المشايخ على الفقر ، فليس مرادهم ما يسميه العوام بالغنى ، لأن هذا الغنى ادراك للنعم ، وذاك ادراك للمنع ، فادراك الوصل شيء ، وادراك الغفلة شيء آخر .

ويقول الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير رحمه الله : « الفقر هو الغنى بالله » ، والمراد بهذا : الكشف الأبدي بمشاهدة الحق (٥) .

ونقول : ان المكاشف ممكن الحجاب ، فاذا حجب (الله) صاحب المشاهدة عن المشاهدة ، فهو : اما أن يحتاج اليها ، أو لا يحتاج . فاذا قال : لا يحتاج ، يكون هذا محالا ، واذا قال : يحتاج ، نقول : اذا جاء الاحتياج سقط الغنى .

وأیضا : الغنى بالله قائم الصفة وثابت المراد ، وباقامة المراد وثبات أوصاف الأكسية لا يصح الغنى ، لأن عين هذا نفسه غير قابل للغنى ، لأن وجود البشرية عين الحاجة ، وعلامة الحدث عين الاحتياج ، فالباقى الصفة

(١) سورة « فاطر » آية ١٥ .

(٢) سورة « محمد » آية ٢٨ .

(٣) سورة « ابراهيم » آية ٧ .

(٤) سورة « البقرة » آية ١٥٣ .

(٥) في هذا إشارة الى ما حدث بين أبي سعيد بن أبي الخير وأبي مسلم الفارس عندما دخل على أبي سعيد فوجده جالسا على سرير وقد ارتدى عباءة مصرية فاخرة ، فقال أبو مسلم في نفسه : هذا الرجل يدعى الكفر ؟ نادرك أبو سعيد ما يجول بخاطرهم وقال له : « يا أبا مسلم ، في أي ديوان وجدت من كان قلبه ثانيا في مشاهدة الحق بقع عليه اسم الفقير ؟ » انظر ترجمة أبي سعيد في الباب الثاني عشر .

هو الغنى ، والفانى الصفة لا يليق لآى اسم . فالغنى بالله : فاعل ، ومن اغناه الله ، مفعول ، والفاعل يقوم بنفسه ، والمفعول يقوم بالفاعل ، والقيام بالنفس صفة البشرية ، والقيام بالحق محو الصفة .

وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — هكذا اقول : لما صح ان الغنى على الحقيقة لا يصح على بقاء الصفة ، لان بقاء الصفة — بالأدلة المذكورة — محل انعلة وموجب الآفة ، وبما ان فناء الصفة نفسه لا يكون غنى ، لان كل مالا يبقى بنفسه لا يسمى ، وبما انه يلزم للغنى فناء الصفة ، فاذا فنيت الصفة سقط محل الاسم ، فانه لا يقع على هذا الشخص اسم الفقر ولا اسم الغنى .

وايضا : يفضل كل المشايخ وكثير من العوام الفقر على الغنى ، لان الكتاب والسنة ناطقان بفضلله ، وكثرة من الامة مجتمعة على ذلك .

وقد وجدت في الحكايات (١) انه ذات يوم ، كان يجرى للجنيذ وابن عطاء — رحمة الله عليهما — حديث في هذه المسألة ، فقدم ابن عطاء الدليل على ان الاغنياء افضل ، لانهم يحاسبون في القيامة ، واسماع الحساب يكون كلام الله بلا واسطة في محل العتاب ، والعتاب يكون من الحبيب للحبيب . فقال الجنيذ : اذا كانوا يحاسبون الاغنياء ، فانهم يعتذرون للفقراء ، والعذر افضل من عتاب الحساب ، وهنا لطيفة عجيبة !

ونقول انه في تحقيق المحبة يكون العذر غربة ، والعتاب مخالفة ، والاحبة في محل يبدو فيه هذان آفة في احوالهم ، لان العذر يكون عن موجب تقصير صدر من الحبيب في حق الحبيب ، وعندما يطلب منه الحبيب حقه يعتذر اليه . والعتاب يكون على موجب تقصير جرى من الحبيب في امر الحبيب ، وعندئذ يعاتبه الحبيب على ذلك التقصير . وكلاهما محال .

وفي الجملة : الفقراء مطالبون بالصبر ، والاغنياء بالشكر . وفي تحقيق المحبة لا الحبيب يطلب شيئا من الحبيب ، ولا الحبيب يضيع امر الحبيب .

اذن : « ظلم من سمي ابن آدم اميرا وقد سماه ربه فقيرا » ، فمن اسماه الحق فقيرا فهو فقير ، وان يكن اميرا ، وهلك من يخال انه غير اسير ، وان يكن مكانه التخت والسرير ، لان الاغنياء اصحاب صدقة ، والفقراء اصحاب صدق ، ولا يكون الصدق ابدا كالصدقة . ففقر سلبان

(١) مجموعة من الحكايات من تصنيف بعض شيوخ العراق . والمجوىرى ينقل منها ، ويذكرها مرة باسم : الحكايات ، ومرة باسم : حكايات العراقيين .

في الحقيقة مثل غنى سليمان ، لأن (الله) قال لأيوب في شدة صبره :
« نعم العبد » (١) ، وقال لسليمان في استقامة ملكه : « نعم العبد » (٢) ،
فلما حصل رضا الرحمن جعل فقر سليمان مثل غنى سليمان .

وسمعت الأستاذ أبا القاسم القشيري (٣) رضى الله عنه يقول : تكلم
كل من الناس في الفقر والغنى ، واختار لنفسه شيئا ، وأنا أختار ما يختاره
لى الحق ، ويجعلنى فيه ، فإذا جعلنى غنيا لا أكون غافلا ولا تاركا ، وإذا
جعلنى فقيرا لا أكون حريصا ولا معرضا .

فالغنى نعمة ، والاعراض فيه آفة . والفقر نعمة ، والحرص فيه آفة .
والمعانى كلها طيبة ، والمذاهب فيها مختلفة .

والفقر فراغ القلب من الغير ، والغنى انشغال القلب بالغير ، وعندما
يتأتى الفراغ ، فلا الفقر أولى من الغنى ، ولا الغنى أولى من الفقر .

والغنى كثرة المتاع ، والفقر قلة المتاع ، والمتاع كله لله ، فإذا قال الطالب
بترك الملكية ، زالت المشاركة من البينية ، وفرغ من كلا الاسمين .

فصل : ولكل من مشايخ الطريقة رمز في هذا المعنى ، وأورد بقدر الامكان
أقوالهم في هذا الكتاب ، ان شاء الله عز وجل .

يقول واحد من المتأخرين : « ليس الفقير من خلا من ازاد ، انما الفقير
من خلا من المراد » .

أى ان يعطيه الله تعالى مالا ، فإذا كان مراده حفظ المال ، يكون غنيا ،
وإذا كان مراده ترك المال ، يكون غنيا أيضا ، لأن كلا الأمرين تصرف في ملك
الغير ، والفقر ترك التصرف .

ويقول يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله : « علامة الفقر خوف زوال
الفقر (٤) » .

أى ان علامة صحة الفقر ، ان العبد في كمال الولاية ، وقيام المشاهدة

(١) سورة « ص » آية ٤٤ .

(٢) سورة « ص » آية ٣٠ .

(٣) سبق ذكره في القسم الأول (انظر : ص ٦٤ ، انظر ترجمته في الباب الثانى
عشر ، ونبات الاعيان ج ١ ص ٢٩٦ ، نفعات الاتس ص ٢١٢ ، خزينة الاسبغاء
ج ٢ ص ٢٢٥) .

(٤) ورد في الرسالة : « قيل لحى بن معاذ : ما الفقر ؟ قال : خوف الفقر » (انظر :
ج ٢ ص ٥٤٠) .

وفناء الصفة ، يخشى الزوال والقطيعة ، ثم يصل به كمال الحال الى حد انه لا يخشى القطيعة .

ويقول رويم رحمه الله : « من : » ، يحفظ سره ، وصيانة نفسه ، وأداء فرائضه (١) .

أى ان سره يكون محفوظا من الاغراض ، وجسده مصونا من الآفات ، وتكون أحكام الفرائض جارية عليه ، بحيث ان ما يجرى على الأسرار لا يشغل الأظهار ، وما يجرى على الأظهار لا يشغل الأسرار ، ولا تمنعه غلبة ذلك عليه من انفاذ الأمر .

وهذا علامة زوال البشرية ، لأن كل العبد يصير موافقا للحق ، وهذا أيضا يصير بالحق .

ويقول بشر الحافي (٢) رضى الله عنه : « أفضل المقامات : اعتقاد الصبر على الفقر (٣) » .

وهذا الصبر والاعتقاد من جملة مقامات العبد ، وانفقر فناء مقامات العبد . فاعتقاد الصبر على الفقر علامة رؤية آفات الأعمال ، وسمة فناء الأوصاف .

أما معنى ظاهر هذا القول ، فهو تفضيل الفقر على الغنى ، والاعتقاد بعدم الاعراض أبدا عن الفقر .

ويقول الشبلى رحمه الله : « الفقير لا يستغنى بشيء دون الله (٤) » ، لأنه لا يكون له مراد غيره .

وظاهر اللفظ هو أنك لا تدرك الغنى الا به ، فاذا أدركته صرت غنيا ، ووجودك دونه ، ولن تدرك الغنى الا بترك دونه ، واذا وجدت أنت ، صرت حجابا للغنى ، واذا زلت من الطريق ، كيف تكون غنيا ؟ .

(١) ورد في الرسالة : « نعت الفقير ثلاثة اشياء : حفظ سره ، وأداء فرائضه ، وصيانة فقره » (انظر : ج ٢ ص ٥٤٠) .

(٢) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن مطاء بن هلال بن ماهان . كنيته : أبو نصر . أصله من مرو وسكن بغداد . من الطبقة الاولى من الصوفية . مات سنة سبع وعشرين ومائتين . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢٢٨ ، طبقات الصوفية ص ٢٩ ، الرسالة ج ١ ص ٦٨ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٩٠ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ١٠٦ ، نفحات الانس ص ٤٨ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٢٧) .

(٣) ورد بنصه في الرسالة (انظر ج ٢ ص ٥٤١) .

(٤) ورد في الرسالة : « سئل الشبلى من حقيقة الفقر فقال : الا يستغنى العبد بشيء دون الحق » (انظر : ج ٢ ص ٥٤٥) .

وهذا المعنى — فى الحقيقة — غامض جدا ، ولطيف عند أهل المعنى .
وحقيقة معنى أن « الفقير لا يستغنى عنه » : أن الفقير هو من
لا يكون له غنى أبدا .

وهو نفس المعنى الذى ذكره ذلك الشيخ (١) حيث قال : هبنا أبدى ،
فلا همتنا تدرك المقصود أبدا ، ولا كليتنا تصير عدما فى الدنيا والآخرة ،
لأنه يلزم لأدراك الشيء ، المجانسة ، ولا مجانس للحق . ويلزم للأعراض
من حديثه الغفلة ، والفقير ليس غافلا .

اذن : قد وقع بلاء دائم ، وعرض طريق مشكل ، وذلك هو محبة من لا سبيل
لأحد الى رؤيته ، وبوصاله ليس من جنس مقدور الخلق .

والفناء لا يجرى عليه التبديل ، والبقاء لا يجوز عليه التغيير ، فلا الغائى
يصير باتيا حتى يكون الوصل ، ولا الباقى يصير فائيا حتى يكون القرب .
وأمر أحبائه من أوله الى آخره هو أنهم صاغوا عبارات مزخرفة لتسلى
قلوبهم ، وبينوا المقامات والمنازل والطريق ، لراحة أرواحهم ، فعباراتهم
منهم واليه ، ومقاماتهم من جنسهم لجنسهم ، والحق تعالى منزّه عن
أوصاف الخلق وأحوالهم .

ويقول أبو الحسن النورى (٢) رحمه الله : « نعت الفقير ، السكون عند
العدم ، والبذل عند الوجود (٣) » .

فمن مراده لقبة حين يعجز عن مراده يسكن قلبه ، وحين تظهر اللقمة
يمطّيحها لمن يراه أوى منه .

وفى هذا القول معنيان : فسكونه فى حال العدم : رضا ، وبذله فى حال
الوجود : محبة ، لأن الراضى يكون قابلا للخلعة ، وفى الخلعة علامة القرب .
والمحب تارك للخلعة ، لأن فى الخلعة علامة الفراق ، فسكونه فى العدم

(١) ورد فى الهامش أن المقصود بذلك الشيخ : « خواجه » فبهد الله الانتصارى .
(٢) اسمه : أحمد بن محمد . خراسانى الأصل ، بغدادى المنشأ والمولد . يعرف بابن
البغوى . كان من أقران الجنيد . صاحب سرىا السقطى ، ورأى أحمد بن أبى
الحوارى . توفى سنة خمس وتسعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى
عشر ، طبقات الصوفية ص ١٦٤ ، الرسالة ج ١ ص ١١٢ ، طبقات الشمرانى
ج ١ ص ٦٩ ، تفكرة الأولياء ج ٢ ص ٤٦ ، نحات الاتس ص ٧٨ ، خزينة
الأصنياء ج ٢ ص ١٦٩) .

(٣) ورد فى « التعريف » : نعت الفقير : السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند
الوجود (أنظر : ص ٩٦) ، وورد فى « الرسالة » : نعت الفقير : السكون عند
العدم ، والإيثار عند الوجود (أنظر : ج ٢ ص ٥٤٥) .

انتظار للوجود ، فاذا وجد كان غيره ، وهو لا يستريح مع الغير ، فيقول بتركه .

وهذا هو معنى قول شيخ المشايخ أبى القاسم الجنيد بن محمد : « الفقر : خلو القلب عن الاشكال » ، فحين يخلو القلب عن الانشغال بالشكل والشكل موجود ، فما الوجه سوى طرحه ؟ .

ويقول الشبلى رحمه الله : « الفقر بحر البلاء ، وبلاؤه كل عز (١) » .

والعز نصيب الغير ، والمبتلى فى عين البلاء . واى خبر للمبتلى عن العز الى ان ينظر من البلاء الى المبتلى ، وعندئذ يصير بلاؤه كله عزا ، وعزه كله وقتا ، ووقته كله محبة ، ومحبه كلها مشاهدة ، حتى ان دماغ الطالب يصبح — بسبب غلبة الخيال — محلا للرؤية ، فيصير مبصرا بلا عين ، وسامعا بلا اذن .

وما اعز العبد الذى يتحمل عبء بلاء الحبيب ، لان البلاء عز على الحقيقة والنعماء ذل . والعز هو ان يكون — الفقير — حاضرا بالحق ، واذل ان يكون غائبا عنه .

وبلاء الفقر علامة الحضور ، وراحة الغنى علامة الغيبة ، فالحاضر بالحق عزيز ، والغائب عن الحق ذليل ، لان الامر الذى يكون بلاؤه المشاهدة ، ورؤيته الانس يكون التعلق به ، باى صفة ، غنيمة .

ويقول الجنيد رحمه الله : « يا معشر الفقراء : انكم انما تعرفون بالله ، وتكرمون لله ، فانظروا كيف تكونون مع الله اذا خلوتكم به » .

اى انه حين يسيبك الخلق فقراء فانهم يوفونكم حقكم ، فكيف تؤدون انتم حق طريقة الفقر ؟ واذا دعاكم الخلق باسم آخر على خلاف دعواكم ، فلا تروا ذلك منهم ، لانكم ايضا لا تنصفون دعواكم ، لانه لا اسوا ممن يعرف الخلق انه للحق ولا يكون له ، ولا اسعد ممن يعرف الخلق انه للحق وهو له ، والاعز (من ذلك) من لا يعرف الخلق انه للحق وهو له .

ومثل من يعرف الخلق انه للحق ولا يكون له ، كمثل من يدعى الطب ويعالج المرضى ، وحين يمرض يلزمه طبيب آخر .

ومثل من يعرف الخلق انه للحق وهو له ، كمثل من يدعى الطب ويعالج المرضى ، وحين يمرض يعرف دواء نفسه وينعله .

(١) ورد فى اللبح (انظر ص ٢٩٢) .

ومثل من لا يعرف الخلق أنه للحق وهو لاحق ، كمثل من يكون طبيبا ولا علم للخلق به ، وهو فارغ من الانشغال بالخلق ، ويحفظ نفسه جيدا بالأغذية الموافقة ، والأشربة الطيبة ، والمفرحات (١) الملائمة ، والأهوية المعتدلة حتى لا يمرض ، وتكون أعين الخلق كلهم مغمضة عن أحواله .

ويقول بعض المتأخرين : « الفقر عدم بلا وجود » . والعبارة منقطعة عن هذا القول ، لأن المعدم لا يكون شيئا ، ولا يمكن التعبير إلا عن شيء . والصورة هنا أن الفقر ليس بشيء ، ولا تكون عبارات كل أولياء الله تعالى واجماعهم على أصل يكون في عين ذاته ثانيا ومعدوما .

ولا يربحون هنا ، من هذه العبارات عدم العين ، بل عدم الآفة من العين . وكل أوصاف الأدمى آفة ، وعندما تنتفى الآفة ، يكون ذلك فناء الصفة . وفناء الصفة يرفع من أمامهم آلة الوصول وعدم الوصول ، فيظهر لهم عدم السلوك بالعين نفيا للمين ، ويهلكون في ذلك .

ورأيت جماعة من المتكلمين لم يفقهوا صورة هذا المعنى ، وكانوا يضحكون منه ويقولون : ان هذا الكلام غير معقول . ورأيت جماعة من المدعين كانوا قد اعتقدوا شيئا غير معقول — ولم يكن أصل الطريقة معلوما لهم — وكانوا يقولون : الفقر عدم بلا وجود . وكان كلا الفريقين على خطأ : أنكر أحدهما الحق جهلا ، وجعل الآخر الجهل حالا ، وظهر به .

والمراد بالعدم والفناء في عبارات هذه الطائفة — أى الصوفية — فناء الآلة المذمومة والصفة المردولة في طلب الصفة المحبودة ، لا عدم المعنى بوجود آلة الطلب .

وفي الجملة : الفقير في كل معاني الفقر عارية ، وفي كل الأسباب أصل غريب ، ولكنه طريق الأسرار الربانية ، لتكون أموره من كسبه ، ويكون للفعل نسبة له ، وللمعاني إضافة إليه . وإذا تخلصت أموره من قيد

(١) مفرحات ج مفرح : اسم دواء كان يطلق عليه (مفرح ياتوت) لعلاج القلب .

يقول الحافظ الشيرازي :

علاج ضعف دل ما يلب حوالت كن كه اين مفرح ياتوت در خزانه تست

والمعنى :

أعطى علاج ضعف طوبنا على شفتيك ، لأن هذا (مفرح ياتوت) في خزانك .
وفي هذا البيت إشارة لطيفة إلى ما بين اسم الدواء (مفرح ياتوت) ولون الشفتين المشبهتين بالياتوت ، من المشاركة .

فزيلات حافظ شيرازي : تحقيق الغزويني وقاسم غنى ص ٢٥ .

كسبه ، تنقطع عنه نسبة الفعل ، وعندئذ يكون هو طريق الشيء الذى يمر عليه ، لا سالك ذلك الطريق ، فهو لا يجلب لنفسه شيئا ، ولا يدفع عن نفسه شيئا ، وما يدل عليه كله للغير .

ورأيت فريقا من المدعين أرباب اللسان ، كان يبدو نفى ظنهم عن ادراك تلك الطريقة نفيا للوجود ، وهذا نفسه عزيز جدا . ورأيت أن نفى مرادهم عن حقيقة الفقر كان يبدو نفيا للصفة فى عين الفقر . ورأيت أنهم كانوا يسبون نفى الحق والحقيقة ، فقرا وصفوة . ورأيت أن اثبات هواهم كان يبدو نفيا للكل . وقد تخلف كل منهم فى درجة من حجب الفقر ، لأنه ظن هذا الحديث علامة كمال الولاية للرجل ، ورائحة هذا الحديث غاية الغايات ، والتولى لعين هذا محل الكمال .

اذن : فلا مناص لطالب هذه الطريقة من سلوك طريقهم ، وطى مقاماتهم ، ومعرفة عباراتهم ، حتى لا يكون عاميا فى محل الخصوصية ، لأن عوام الأصول عن الأصول معرضون ، وعوام الفروع عن الفروع عاجزون ، وكيف ينسب للأصول من تعد عن الفروع ؟ انه عندما يعجز عن الأصول لا تبقى له نسبة لى مكان . وقد قلت هذا كله لتسلك طريق هذه المعانى ، وتنشغل برعاية حق هذا .

والآن أورد طرفا من أصول هذه الطائفة فى باب التصوف ، ثم أجيء بأسمى الرجال ، ثم أبين احكام الحقائق والمعارف والشرائع ، ثم آتى باختلاف المذاهب ومشايخ المتصوفة ، ثم اشرح بقدر الامكان آدابهم ورموزهم ومقاماتهم ، لينكشف لك وللقرأ حقيقة هذا ، وبالله التوفيق .

الباب الثالث باب التصوف

قال الله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » (١) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من سمع صوت أهل التصوف فلا يؤمن على دعائهم كتب عند الله من الغافلين (٢) » .

وقد تكلم الناس في تحقيق هذا الاسم كثيرا ، ألفوا كتباً في ذلك . وقالت جماعة أن الصوفي يسمى بالصوفي لأنه يلبس ثياب الصوف ، وقالت جماعة أنهم سمو صوفية لأنهم في الصف الأول ، وقالت طائفة أنهم سمو كذلك لأنهم يتولون أهل الصفة ، وقال آخرون أن هذا الاسم مشتق من الصفاء . ولكن هذا الاسم — على مقتضى اللغة — بعيد عن هذه المعاني (٣) .

والصفاء في الجملة محمود ، وضده الكدر . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ذهب صفو الدنيا وبقي كدرها (٤) » .

واسم لطائف الأثنياء : صفوها ، واسم أوضارها : كدرها ، فلما هذب أهل هذا الأمر أخلاقهم ومعاملاتهم ، وتبرأوا من آفات الطبيعة ، فانهم سمو صوفية ، وهو اسم لهذه الطائفة من أسماء الأعلام ، لأن خطر أهله أجل من أن يمكن إخفاء معاملتهم حتى يلزم لاسمهم اشتقاق .

وقد حجب الله عز وجل — في عصرنا هذا — أكثر الخلق عن هذه الطريقة وأهلها ، وأخفى لطائفها عن قلوبهم ، حتى ليظن جماعة أن هذه الرياضة

(١) سورة « الفرقان » آية ٦٣ .

(٢) لم أجد له سنداً .

(٣) يقول الكلاباذي أن معاني هذه الأسماء كلها في أساس النجوم ، وإن كانت الانسياط متغيرة ، لأنها أن أخفت من الصفاء والصفوة كانت صفوية ، وإن أضيفت إلى الصف والصفة ، كانت صفية وصفية . ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء في لفظ الصفية والصفية من تناول الألسن ، وإن جعل مأخذه من الصوف : استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللفظ (التمرغ : أنظر ص ٢٤ ، ٢٥) .

(٤) ورد في الرسالة عن أبي جحيفة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متغير اللون فقال : « ذهب صفو الدنيا وبقي الكدر ، فاموت اليوم تحفة لكل مسلم » (الرسالة : أنظر ج ٢ ص ٥٥٠) .

هى مجرد صلاح الظاهر دون مشاهدة الباطن ، وتظن جماعة اخرى ان هذا الأمر حيلة ورسم بلا حقيقة وأصل ، الى حد أنهم ارتكبوا المنكر أمام أهل الهزل وعلماء الظاهر ، وفرحوا باخفاء الأمر ، حتى تلاحم العوام ومحووا عن قلوبهم طلب صفاء الباطن ، ووضعوا مذهب السلف والصحابة على الرف .

(شعر عربى)

ان الصفاء صفة الصديق ان أردت صوفيا على التحقيق

لأن للصفاء أصلا وفرعا ، وأصله : انقطاع القلب عن الأغيار ، وفرعه : خلو اليد من الدنيا الفادرة . وهاتان صفتا الصديق الأكبر أبى بكر عبد الله ابن أبى تحافة رضى الله عنه ، لأنه كان امام أهل هذه الطريقة ، فكان من انقطاع قلبه عن الأغيار ، ان كل الصحابة انكسرت قلوبهم برحلة الأنبي عليه السلام الى الحضرة الأعلى والمكان المصفى ، وسل عبر رضى الله عنه سيفه قائلا : كل من يقول ان محمدا قد مات انقطع رأسه . فخرج الصديق الأكبر وصاح قائلا : ألا من عبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن عبد رب محمد فانه حى لا يموت ، ثم قرأ قول الله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات او قتل انقلبتم على أعقابكم » (١) .

ذلك ان من يتعلق بفان يفنى ويصير كل تبعه هباء ، ومن يطلق روحه انى حضرة الباقي فانه حين تغنى النفس ، يبقى قائما بالبقاء .

فمن نظر الى محمد بعين الادية ، فانه حين رحل محمد عن الدنيا ، ذهب من قلبه تعظيم العبودية ورحل معه ، ومن نظر اليه بعين الحقيقة استوى لديه ذهابه ووجوده ، لأنه فى حال البقاء رأى بقاءه بالحق ، وفى حال الفناء رأى فناءه بالحق — فأعرض عن المحول واقتبل على المجول — فعظمه بمقدار اكرام الحق له ، ولم يربط سويداء قلبه بأحد ، ولم يفتح سواد عينه على الخلق ، فقد قيل : « من نظر الى الخلق هلك ، ومن رجع الى الحق ملك » ، لأن النظر الى الخلق علامة الهلك ، والرجوع الى الحق علامة الملك .

أما خلو يده من الدنيا الفادرة ، فهو أنه أعطى كل ما كان يملك من مال ومنال ومآل ، وارتدى الكليم ، وجاء الى النبى عليه السلام فقال له النبى

عليه السلام : « ما خلفت لميالك ؟ فقال الله ورسوله (١) » فلما تحرر قلبه من التعلق بصفو الدنيا ، أخلى يده من كدرها .

وهذا كله صفة الصوفي الصادق ، وانكار هذا كله انكار للحق ، ومكابرة في العيان .

وقد قلت ان الصفاء ضد الكدر ، والكدر من صفات البشر . والصوفي حقا من اجتاز الكدر ، كما حدث في حال الاستغراق في مشاهدة يوسف عليه السلام ولطف جماله ، فقلبت البشرية على نساء مصر ، وارتدت الغلبة الى العكس ، فلما وصلت غايتها بلغت نهايتها ، ولما بلغت نهايتها تجاوزتها ، ونظرن بفناء بشريتهن مقتلن : « ما هذا بشر » (٢) فأشرن اليه ، وعبرن عن حالهن . وكان من ذلك ان قال مشايخ هذه الطريقة رحمهم الله : « ليس الصفاء من صفات البشر ، لان البشر مدر لا يخلو من كدر » .

فمثال الصفاء لا يكون بالأفعال ، وزوال البشرية لا يكون عن طريق المجاهدة ، ولا نسبة لصفة الصفاء بالأفعال والأحوال ، ولا تعلق لاسمه بالأسماء والألقاب « فالصفاء صفة الاحباب ، وهم شموس بلا سحاب » ، وكل من يفنى عن صفته ويبقى بصفة الحبيب ، فهو الحبيب . وأحوالهم لدى أرباب المعاني عيان كالشمس ، كما سئل حبيب الله محمد المصطفى صلوات الله عليه عن حال حارثة (٣) ، فقال : « عبد نور الله قلبه بالايمان (٤) » .

كما قيل : « ضياء الشمس والقمر اذا اشتركا ، انموذج من صفاء الحب والتوحيد اذا اشتبكا » .

وأى شأن لنور القمر والشمس حيثما يكون نور محبة الجبار وتوحيده حتى يضاف هذا الى ذاك ... ؟ . أما في الدنيا ، فليس هناك أظهر من هذين ، لأن العين ترى السماء بنور الشمس والقمر ، والقلب يرى العرش بنور التوحيد والمحبة ، ويطلع على العقبى في الدنيا .

وكل مشايخ الطريقة — رحمهم الله — مجمعون على أنه حين يتخلص العبد من قيد المقامات ، ويخلو من كدر الأحوال ، وينفصل عن جميع الأوصاف

(١) رواه الترمذي عن عمر : « ما تركت لأمك يا أبا بكر » وقال عنه : حسن وصحيح .

(٢) سورة « يوسف » آية ٢١

(٣) « حارثة بن سرافة » : أحد شهداء بدر من الأتباع . (السيرة الطيبة ج ٢ ص ١٨٠) .

(٤) رواه الحارث بن مالك : « من أراد أن ينظر الى عبد نور الله تعالى الايمان في قلبه فليُنظر الى حارثة » .

— أى أنه لا يتقيد بصفة من صفاته الحميدة ، ولا يراها ويعجب بها —
يفيب حاله عن ادراك العقول ، ويتنزه وقته عن تصرف الظنون ، فلا يكون
لحضوره ذهاب ، ولا لوجوده أسباب ، « لأن الصفاء حضور بلا ذهاب
ووجود بلا أسباب » ، ويكون حاضرا بلا غيبة ، وواجدا بلا سبب وعلة —
لأن من تتأتى عليه الغيبة لا يكن حاضرا ، ومن يصير السبب علة وجده
لا يكون واجدا — وحين يصل الى هذه الدرجة يصير فانيا في الدنيا
والعقبى ، وربانيا في جوشن الانسانية ، ويستوى لديه الذهب والمدر ،
ويسهل عليه ما يصعب على الخلق من حفظ احكام التكليف ، كحال حارثة
عندما جاء الرسول عليه السلام فسأله : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال :
أصبحت مؤمنا حقا ! فقال عليه السلام : انظر ما تقول يا حارثة ، ان لكل
حق حقيقة ، فما حقيقة ايمانك ؟ فقال : عزلت نفسى عن الدنيا فاستوى
عندى حجرها وذهبها ، وفضتها ومدرها ، فأسهرت ليلى ، واضطأت نهارى ،
حتى صرت كأنى أنظر الى عرش ربه بارزا ، وكأنى أنظر الى اهل الجنة
يتزاوون فيها ، وكأنى أنظر الى اهل النار يتصارعون فيها » (١) . وفى
رواية : « يتغامزون فيها » . الحديث . فقال — الرسول — « عرفت
فالزم . قالها ثلاثا » .

و « الصوفى » أسم يطلقونه على كاملى الولاية ومحققى الاولياء ، ويقول
أحد المشايخ رحمهم الله : « من صافاه الحب فهو صاف ، ومن صافاه
الحبيب فهو صوفى » .

واشتقاق هذا الاسم لا يصح على مقتضى اللغة من أى معنى ، لأن هذا
الاسم أعظم من أن يكون له جنس أيشق منه ، وهم يشتقون الشيء من شيء
مجانس له ، وكل ما هو كائن ضد الصفاء ، ولا يشتق الشيء من ضده .
وهذا المعنى اظهر من الشمس عند أهله ، ولا يحتاج الى العبارة ، « لأن
الصوفى ممنوع عن العبارة والاشارة » . وحين يكون الصوفى ممنوعا عن
كل العبارات فإن العالم كلهم معبرون عنه ، عرفوا أو لم يعرفوا ، وأى خطر
يكون للاسم فى حال حصول المعنى ؟

(١) ورد فى اللبح قول السراج : أما ترى ان النبى صلى الله عليه وسلم حيث سأل
حارثة فقال : « لكل حق حقيقة فما حقيقة ايمانك ؟ فقال : عزلت نفسى عن الدنيا
فأسهرت ليلى واضطأت نهارى ، وكأنى أنظر الى عرش ربه بارزا ، وكأنى أنظر
الى اهل الجنة كيف يتزاوون ، وإلى اهل النار فى النار كيف يتعادون . فقال
له النبى صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم » (اللبح : انظر ص ٢٠) .
وورد فى التعريف : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن ينظر الى
عبد نور الله قلبه فلينظر الى حارثة » (التعريف : انظر ص ٢٢) .

وهم يسمون أهل الكمال منهم بالصوفي ، ويسمون المتعلقين بهم وطلابهم بالتصوف . والتصوف تفعل وتكلف ، والصفاء هو الفرع الأصلي ، والفرق بينهما ظاهر من حكم اللغة والمعنى ، « فالصفاء ولاية لها آية ، والتصوف حكاية للصفاء بلا شكاية » . والصفاء معنى متلألئ ، وظاهر التصوف حكاية عن ذلك المعنى . وأهله في هذه الدرجة على ثلاثة أقسام ، الأول : الصوفي ، والثاني : المتصوف ، والثالث : المستصوف .

فالصوفي : هو الفاني عن نفسه ، والباقي بالحق ، قد تحرر من قبضة الطبايع ، واتصل بحقيقة الحقائق (١) .

والمتصوف ، هو من يطلب هذه الدرجة بالمجاهدة ، ويموم نفسه في الطاب على معاملاتهم .

والمستصوف ، هو من تشبه بهم من أجل المنال والجاه وحظ الدنيا ، وهو غافل عن هذين ، وعن كل معنى ، الى حد أن قيل : « المستصوف عند الصوفية كالذباب ، وعند غيرهم كالذئب » .

فالصوفي هو صاحب الوصول ، والمتصوف هو صاحب الأصول ، والمستصوف هو صاحب الفضول .

فمن كان نصيبه الوصول يكون بادراكه المقصود ، وبلوغه المراد ، بلا مراد من المراد ، وبلا مقصود من المقصود .

ومن كان نصيبه الأصل صار على احوال الطريقة متمكنا ، وفي لطائفها ساكنا ومستحكما .

ومن كان نصيبه الفضول تخلف عن الكل ، وقعد على عتبة الرسم ، وحجب بالرسم عن المعنى ، وعجز بالحجاب عن وصل الواصل .

وللمشايع في هذا الأمر رموز كثيرة ، الى حد أنه لا يمكن احصاؤها كلها ، غير اني اذكر طرفا منها في هذا الكتاب ، لتتم الفائدة ان شاء الله عز وجل .

فصل : يقول ذو النون المصري (٢) رحمه الله : « الصوفي اذا نطق أبان

(١) أي ان الصوفي الحقيقي هو من تخلص عن صفاته البشرية ، وتجرد من ملائنه الدنيوية ، فلما فني عن ذلك : تهيأ له الاتصال بالحقيقة الإلهية ، ووجد البقاء بالله .
(٢) أبو الفيض : ثوبان بن ابراهيم ، وذو النون : لقب . نوبى الأصل ، من شيوخ الصوفية من الطبقة الاولى . كان أوحد وقته علما وحالا وورعا وأدبا ، توفي سنة خمس وأربعين ومائتين . (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ١٥ ، الرسالة ج ١ ص ٥٤ ، طبقات الشعرائي ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ١٤٤ ، نحات الانس ص ٣٢ ، خزينة الاصفاء ج ٢ ص ١٤٣) .

نطقه عن الحقائق ، وان سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق (١) .
 أى أن قوله كله يكون على أصل صحيح ، وفعله كله تجريدا صرفا .
 فحين يتكلم يكون قوله كله حقا ، وحين يصمت يكون فعله كله فترا .
 ويقول الجنيد رحمه الله : « التصوف نعت اقيم العبد فيه . قيل : نعت
 للعبد ؟ أم نعت للحق ؟ فقال : نعت الحق حقيقة ، ونعت العبد رسما (٢) » .
 أى أن حقيقة (التصوف) تقتضى فناء صفة العبد ، وفناء صفة العبد
 يكون ببقاء صفة الحق ، وهذا نعت الحق . ورسمه يقتضى دوام مجاهدة
 العبد ، والمجاهدة صفة العبد .

وإذا أجريته على معنى آخر ، فهو : أنه لا يصح للعبد أى نعت في حقيقة
 التوحيد ، لأن نعوت الخلق غير دائمة لهم ، وليس نعت العبد سوى
 الرسم ، لأن نعته غير باق ، وهو ملك وفعل الحق ، فهو في الحقيقة للحق .
 ومعنى هذا هو أن الله عز وجل أمر العبد بالصيام ، وسمى العبد
 صائما بصيامه ، وهذا الصوم يكون للعبد من وجه الرسم ، ولله من وجه
 الحقيقة ، كما قال الله تعالى : « الصوم لى وأنا أجزى به (٣) » .
 ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « التصوف ترك كل حظ
 النفس (٤) » .

وهذا يكون على نوعين : أحدهما رسم ، والآخر حقيقة . بمعنى أنه إذا
 كان تاركا للحظ ، فإن تركه الحظ يكون حظا أيضا ، وهذا هو الرسم .
 وإذا كان الحظ تاركا له ، فهذا هو فناء الحظ . وهذا يتعلق بحقيقة
 المشاهدة ، فترك الحظ فعل للعبد ، وفناء الحظ فعل لله جل جلاله . وفعل
 العبد رسم ومجاز ، وفعل الحق حقيقة .

وبهذا القول وضع قول الجنيد — رحمه الله — السابق لهذا القول .
 ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « الصوفية هم الذين صفت
 أرواحهم فصاروا في الصف الأول بين يدي الحق » .

أى أن الصوفية هم أولئك الذين تحررت أرواحهم من كدورة البشرية ،
 وصفوا من الآفات النفسية ، وخلصوا من الهوى ، حتى استقروا في الصف
 الأول والدرجة الأعلى مع الحق ، ونفروا من الغير .

(١) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ١٩) .

(٢) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ١٥٨) .

(٣) حديث قدسى رواه الشيخان والترمذى ومالك عن أبى هريرة (الموطأ ص ١٣٢) .

(٤) ورد بنصه في التعرف (انظر ص ٢٥) ، طبقات الصوفية (انظر ص ١٦٦) .

ويقول أيضا رحمه الله : « الصوفي : الذى لا يملك ولا يملك » . وهذا عبارة عن عين الفناء ، ففانى الصفة لا يكون مالكا ولا مملوكا ، لأن صحة الملك تصح على الموجودات .

والمراد من هذا القول أن الصوفي لا يملك أى شئ من متاع الدنيا وزينة العقبى ، وهو نفسه لا يكون تحت حكم أو ملك نفسه ، وهو يقطع سلطان ارادته عن الغير ، ليقطع الغير عنه طمع العبودية . وهذا قول لطيف لمن يقولون بالفناء الكلى . وسنورد موضع الخطأ فى أقوالهم فى هذا الكتاب ، ليصير معلوما لك أن شاء الله عز وجل .

ويقول ابن الجلاء (١) رحمه الله : « التصوف حقيقة لا رسم له » .

وما هو رسم من المعاملات نصيب الخلق ، والحقيقة خاصة بالحق ، لأن التصوف هو الاعراض عن الخلق ، فلا يكون له رسم لا محالة .

ويقول أبو عمرو الدمشقى (٢) رحمه الله : التصوف رؤية الكون بعين النقص ، بل غرض الطرف عن الكون (٣) .

يقول : التصوف هو أن لا تنظر الى الكون الا بعين النقص ، وهذا هو دليل بقاء الصفة . وأن تغض الطرف عن الكون ، وهذا هو دليل فناء الصفة ، لأن النظر من الكون ، وحين لا يبقى الكون لا يبقى النظر أيضا . وغض الطرف عن الكون هو بقاء البصيرة الالهية ، أى أن من لا يصير مبصرا بنفسه يصير مبصرا بالحق ، لأن كون الطالب يكون طالبا أيضا ، وأمره منه اليه ، ولا مخرج له عن نفسه ، فواحد يرى نفسه ولكن يراها ناقصة ، وواحد يغض الطرف عن نفسه ولا يراها . ومن يراها ، وان يراها ناقصة ، فرؤيته حجاب ، ومن لا يراها فانه لا يحجب بعدم الرؤية (٤) . وهذا أصل قوى فى طريق الصوفية وأرباب المعانى ، ولكن ليس هنا مكان شرح هذا .

(١) أبو عبد الله بن الجلاء : اسمه أحمد بن يحيى . أصله من بغداد وأقام بالرملة ودمشق . كان من أجلة مشايخ الشام . صاحب أبا تراب النخشبى وذا النون المصرى وأباه يحيى الجلاء . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٧٦ ، الرسالة ج ١ ص ١١٤ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٧٠ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٦٣ ، نلحات الانس ص ١١٠) .

(٢) من مشايخ الشام . كان عالما بعلوم الحقائق . صاحب أبا عبد الله بن الجلاء وأصحاب ذى النون المصرى . له كتاب فى الرد على من قال بقدوم الأرواح . مات سنة مشرين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٧٧ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٨٠ ، نلحات الانس ص ١٥٦) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية ونلحات الانس هكذا : « التصوف رؤية الكون بعين النقص ، بل غرض الطرف عن كل ناقص ليشاهد من هو منزه من كل نقص » (أنظر طبقات الصوفية ص ٢٧٨ ، نلحات الانس ص ١٥٦) .

(٤) خلاصة هذا القول : أن يغض السالك طرفه عن الكون حتى لا تكون رؤيته للكون حجابا له من الحق .

ويقول أبو بكر الشبلى رحمه الله : « التصوف شرك لانه صيانة القلب
عن رؤية الغير ، ولا غير » .

أى ان رؤية الغير شرك فى اثبات التوحيد . وحين لا يكون للغير قيمة
فى القلب ، تكون صيانتة عن ذكر الغير محال .

ويقول الحصرى(١) رحمه الله : « التصوف صفاء السر من كدورة
المخالفة » .

ومعنى هذا أنه يحفظ السر عن مخالفة الحق ، لأن المحبة هى الموافقة ،
والموافقة ضد المخالفة . وليس للحبيب فى العالم كله سوى الحفاظ على
امر المحبوب . وحين يكون المراد واحدا ، فمن أين تكون المخالفة ؟

ويقول محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب(٢) رضى الله عنه:
« التصوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف(٣) » .

وحسن الخلق نوعان : أحدهما مع الخلق ، والآخر مع الحق . وحسن
الخلق مع الحق هو الرضا بقضائه ، وحسن الخلق مع الخلق هو حمل
ثقل صحبتهم لأجل الحق . وكل من هذين يعود على الطالب ، وللحق صفة
الاستغناء عن رضاء الطالب وسخطه ، وهاتان الصفتان متعلقتان بنظر
وحدانيته .

ويقول المرتضى(٤) رحمه الله : « الصوفى لا يسبق هيمته خطوته البتة »

(١) أبو الحسن على بن ابراهيم الحصرى : بصرى الأصل . سكن بغداد . كان شيخ
العراق فى وقته ، له لسان فى التوحيد يختص به ، ومقام فى التجريد مسلم له .
صاحب أبى بكر الشبلى وغيره . مات ببغداد سنة احدى وسبعين وثلاثمائة (انظر
ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٤٨٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٨٣ ،
طبقات الشمرانى ج ١ ص ٩٨ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨٩ ، نفحات الانس
ص ٢٣١) .

(٢) أبو جعفر محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب .
قيل أنه سقى بالباقر لانه بقر العلم ، أى شقته معروف أصله وعرف خفيه . الإمام
الخامس من الأئمة الاثنى عشر . كان عالما سيدا كبيرا ، يحب أبى بكر الصديق
رضى الله عنه ويقول : من لم يقل له الصديق فلا صدق الله له قولا فى الدنيا
والآخرة . تولى سنة ثلاث عشرة وقيل سبع عشرة ومائة ، ودفن بالبقيع فى القبر
الذى فيه أبوه وعم أبيه الحسن بن على رضى الله عنه . أوصى بأن يكن فى
قبضه الذى كان يصلى فيه . (انظر ترجمته فى الباب الثامن ، تاريخ اليعقوبى
ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الاميان ج ١ ص ٤٥٠ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٢٥ ،
تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٣٩ ، خزينة الامنياء ج ١ ص ٣٥) .

(٣) ورد هذا القول فى الرسالة منسوباً الى الكتانى (انظر ج ٢ ص ٥٥٤) .

(٤) أبو محمد عبد الله بن محمد المرتضى النيسابورى . صاحب أبى حنص الحداد ، ولتى
الجنيد وصحبه . أقام ببغداد حتى صار أحد مشايخ العراق . كان يقيم فى مسجد
الشونيزية . مات سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية =

أى أن يكون كله حاضرا ، فيكون الجسد حيث يكون القلب ، ويكون القلب حيث يكون الجسد . ويكون القول حيث تكون القدم ، والقدم حيث يكون القول . هذه علامة الحضور بلا غيبة ، على خلاف ما يقال من أنه يكون غائبا عن نفسه وحاضرا بالحق ، فنقول : لا ، بل هو حاضر بالحق وحاضر بنفسه .

وهذه العبارة من جمع الجمع ، لأنه ما لم تكن الرؤية بالنفس لا تكون الغيبة عن النفس ، فإذا انعدمت الرؤية يكون الحضور بلا غيبة . وهذا عين قول الشبلى رحمه الله : « الصوفى لا يرى في الدارين مع الله غير الله » . وفي الجملة : أن وجود العبد هو الغير ، وحين لا يرى الغير لا يرى نفسه ، ويفرغ من نفسه كلية في حال نفيه وإثباته .

ويتول الجنيد رحمه الله : « التصوف مبنى على ثمان خصال : السخاء والرضا والصبر والاشارة والغربة ولبس الصوف والسياسة والفقر » .

قال : بناء التصوف على ثمان خصال ، اقتداء بثمانية أنبياء عليهم السلام ، فيقتدى في السخاء بإبراهيم ، لأنه باع به أن ضحى بولده . وفي الرضا بإسحاق لأنه رضى بأمر الله ، فقال بترك روحه العزيزة . وفي الصبر بأيوب لأنه صبر في بلائه بالدود . وفي الاشارة بذكريا لأن الله تعالى قال : « اذ نادى ربه نداء خفيا (١) » وفي الغربة بيحيى ، لأنه كان غريبا في وطنه وغريبا عن أهله بين أهله . وفي السياسة بعميسى لأنه كان في سياحته من التجرد بحيث لم يكن يملك الا وعاء ومشطا ، وحين رأى شخصا يشرب بحفنتيهلقى الوعاء ، وعندما رآه يخلل شعره بأصابعه رمى المشط . وفي لبس الصوف بهوسى لأن ملابسه كلها كانت صوفا . وفي الفقر بمحمد عليه السلام لأن الله عز وجل بعث اليه بمفاتيح كنوز الأرض وقال له : لا تشق على نفسك ، وهبىء لنفسك من هذه الكنوز متاعا وأسبابا ، فقال : لا أريد ، يا الهى : اشبعنى يوما وأجعلنى يومين (٢) .

= ص ٢٤٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٥٠ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٨٤ ،
تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٨٥ ، نحات الانس ص ٢٠٦ ، خزينة الاصفاء ج ٢
ص ١٩٣ .

(١) سورة « مريم » آية ٣ .

(٢) اشارة الى ما روى من الرسول عليه السلام انه قال : « عرض على الدنيا نأيتها » رواه ابن أبى الدنيا وأحمد والطبراني عن أبى بويهبة .
وما ورد منه عليه السلام انه قال : « خير بين أن أكون نبيا ملكا أو أكون نبيا عبدا ، فأشار الى جبريل عليه السلام أن تواضع ، فقلت : بل أكون نبيا عبدا : اشبع يوما وأجوع يوما » رواه الطبراني عن ابن عباس ، وابن حبان عن أبى هريرة .

وهذه الأصول في المعاملة : طيبة جدا .

ويقول الحصري رحمه الله : « الصوفي لا يوجد بعد عدمه ، ولا يعدم بعد وجوده (١) » .

أي أن ما يجده لا يفقده أبدا ، وما يفقده لا يجده أبدا . وبمعنى آخر : لا يكون لوجوده عدم ، ولا لعدمه وجد . فاما اثبات بلا نفى ، أو نفى بلا اثبات .

والمراد من كل هذه العبارات هو أنه : أما أن تسقط حال البشرية عن شخص وتقوته الشواهد الجسمانية وتنقطع نسبته عن الكل ، وأما أن تظهر البشرية في شخص وتجتمع تفاريقه في عين ذاته فيجد قيامه من نفسه بنفسه .

ولم يكن من الممكن ظهور هذا إلا في نبين عليهما السلام : أحدهما موسى — صلوات الله عليه — الذي لم يكن في وجوده عدم فقال : « رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري (٢) » ، والآخر رسولنا — صلى الله عليه وسلم — الذي لم يكن في عدمه وجود حتى قيل : « ألم نشرح لك صدرك (٣) » ، فواحد أراد الحلية وطلب الزينة ، والثاني زين ولم تكن له رغبة .

ويقول على بن بندار الصيرفي النيسابوري رحمه الله : « التصوف اسقاط الرؤية للحق ظاهرا وباطنا » .

لأنك إذا نظرت الى الظاهر تجد علامة التوفيق على الظاهر ، فإذا أمنت النظر فإن معاملة الظاهر لا تزن جناح بعوضة في جنب توفيق الحق تعالى ، فتقول بترك رؤية الظاهر . وإذا نظرت الى الباطن تجد علامة التأييد على الباطن ، فإذا دقت النظر فإن معاملة الباطن لا تزن ذرة في جنب تأييد الحق تعالى ، فتقول بترك الباطن ، وترى الكل للحق ، ولا ترى لنفسك شيئا .

ويقول محمد بن أحمد المقرئ (٤) رحمه الله : « التصوف استقامة

(١) ورد هذا القول في الرسالة وعقب عليه التشيخي بقوله : وهذا يه اشكال . ومعنى قوله : لا يوجد بعد عدمه : أي إذا فئت آثاته لا تعود تلك الآثات . وقوله : لا يعدم بعد وجوده ، معنى : إذا اشتغل بالحق لم يسقط بسقوط الخلق ، فالحادثات لا تؤثر فيه (انظر الرسالة ج ٢ ص ٥٥٦) .

(٢) سورة « طه » آية ٢٥ ، ٢٦

(٣) سورة « الشرح » آية ١

(٤) أبو عبد الله : محمد بن أحمد المقرئ . صاحب يوسف بن الحسين الرازي وعبد الله الخراز ومظفر القرمسيني ورويبا والجريدي وابن مطاء . كان أفنى المشايخ وأسماهم خلقا وأعلامهم همة وأتبعهم ديناً وورعاً . مات سنة ست وستين وثلثمائة . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٥٠٩ ، طبقات الشعرا في ج ١ ص ٩٩ ، نجمات الاتس ص ٢٦٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٠٢) .

الأحوال مع الحق (١) » . أى إن الأحوال لا تحول سر الصوفى عن الاستقامة فى الحال ، ولا تلقى به فى الاعوجاج ، لأن من يكون قلبه صيدا لمحول الأحوال ، فإن الأحوال لا تنحرف به عن درجة الاستقامة ، ولا تمنعه عن الحق تعالى .

فصل فيما قيل فى المعاملات :

يقول أبو حفص الحداد النيسابورى (٢) رحمه الله : « التصوف كله آداب : لكل وقت أدب ، ولكل مقام أدب ، ولكل حال أدب ، فمن لمزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب ، فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن القبول (٣) » .

وقريب من هذا المعنى ما قاله أبو الحسن النورى رحمه الله : « ليس التصوف رسوما ولا علوما ولكنه أخلاق (٤) » .

أى أنه لو كان رسوما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علوما لأمكن الوصول إليه بالتعلم ، ولكنه أخلاق ، فما لم تطلب حكمه من نفسك ، وما لم تصحح معاملته مع نفسك ، وتنصفه من نفسك ، لا يحصل . -

والفرق بين الرسوم والأخلاق هو أن الرسوم فعل يكون بالتكلف والأسباب ، وحين يكون ظاهرها على خلاف باطنها تكون فعلا خاليا من المعنى . والأخلاق فعل محمود بلا تكلف وأسباب ، وظاهره موافق لباطنه ، وخال من الدعوى .

ويقول المرتضى رحمه الله : « التصوف : حسن الخلق » . وهذا على ثلاثة أنواع :

أولها مع الحق : بأداء أوامره بلا رياء .

والثانى مع الخلق : بحفظ حرمة الكبار ، والشفقة على الصغار ، وأنصاف الأقران ، والاعراض عن الكل ، وعدم طلب الانصاف .

(١) ورد فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٥١١) .
(٢) اسمه عمرو بن مسلم . من أهل قرية يقال لها كورباذ على باب نيسابور . صاحب مبيد الله بن مهدى الأبيوردى وعليها النصارى ، ورائق أحمد بن خضروية البلخى . توفى سنة ثمان وستين ومائتين . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٥٥ ، الرسالة ج ١ ص ٩٦ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٢٢ ، نحات الاتس ص ٥٧ ، خزينة الاصغاء ج ١ ص ١٥٥) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية وهنا تحريف لطيف (انظر : ص ١١٩) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية وهنا تحريف لطيف (انظر : ص ١٦٧) .

والثالث مع النفس : بعدم متابعة الهوى والشيطان .

وكل من يقوم نفسه في هذه المعاني الثلاثة يكون من ذوى الخلق الحسن .
وهذا الذى ذكرته متفق مع قول عائشة الصديقة (١) رضى الله عنها ،
حين قيل لها : أخبرينا عن خلق النبى عليه السلام ، فقالت : اقرأ من
القرآن قول الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن
الجاهلين (٢) » .

ويقول المرتعش رحمه الله أيضا : « هذا مذهب كله جد فلا تخططوه
بشيء من الهزل » .

أى أن مذهب التصوف كله جد فلا تخططوه بالهزل ، ولا تتعلقوا بمعاملات
المرسمين ، وفروا من المقلدين ، ذلك أن العوام لما نظروا الى أهل هذا
الزمان وراوا مترسمى الصوفية ، وشاهدوا رقصهم وغناءهم وذهابهم الى
أبواب السلاطين ، واختصاصهم من أجل اللقمة والخرقة ، أساءوا الاعتقاد
فى الجميع ، وقالوا أن أصل الطريقة هو هذا ، وقد سار المتقدمون أيضا
على هذا ، ولم يعلموا أنه زمان الفترة وعهد البلاء . وحين يحمل الحرم
السلطان على الجور ، والطمع العالم على الفسق ، والرياء الزاهد على
النفاق ، فإنه لا محالة أيضا من أن يحمل الهوى الصوفى على الرقص
والغناء .

واعلم أن أهل الطرق يفسدون ، ولكن أصول الطرق لا تفسد . واعلم
أنه إذا أخفى فريق من أهل الهزل هزله فى جد الأحرار ، فإن جدهم لا يصير
هزلا .

ويقول أبو على القرمسينى (٣) رحمه الله : « التصوف : الأخلاق
الراضية (٤) » .

والفعل المرضي هو أن يكون العبد راضيا عن الحق فى كل الأحوال ليكون
راضيا بالرضا .

(١) عائشة ابنة أبى بكر الصديق ، رضى الله عنها ، تزوجها النبى عليه السلام بكرا
ولم يتزوج بكرا غيرها ، وكان تزويجه بها بكعة وهى بنت ست سنين ،
ودخل بها بالدينة وهى بنت تسع سنين ، وتبض وهى بنت ثمانى عشرة
سنة ، وتكنى أم عبد الله . توفيت سنة ثمان وخمسين وقد قاربت السبعين ،
ودفنت بالبقيع . (المعارف ص ٥٩) .

(٢) سورة « الأعراف » آية ١٩٩
(٣) مظهر القرمسينى : من أشياخ الجبل . صاحب مبد الله الخراز وغيره (انظر ترجمته
فى الرسالة ص ١٥٩ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٩٠) .

(٤) ورد هذا القول فى حواشى الرسالة : « التصوف الاخلاق المرضية (انظر الرسالة
ج ١ ص ١٥٩) .

ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « التصوف هو الحرية ،
والفتوة ، وترك التكلف ، والسخاء » .

فالحرية : أن يتحرر العبد من قيد الهوى ، والفتوة : أن يتجرد من رؤية
الفتوة ، وترك التكلف : أن لا يجتهد في المتعلقات والنصيب ، والسخاء :
أن يترك الدنيا لأهل الدنيا .

ويقول أبو الحسن البوشنجى (١) رحمه الله : « التصوف اليوم اسم
بلا حقيقة ، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم (٢) » .

يعنى : أن هذا الاسم لم يكن موجودا وقت الصحابة والسلف ، وكان
المعنى موجودا في كل منهم . والآن يوجد الاسم ولا يوجد المعنى .

أى أن المعاملة كانت معروفة ، والدعوى مجهولة ، والآن صارت الدعوى
معروفة ، والمعاملة مجهولة .

الآن : قد أوردت هذا القدر من تعريفات المشايخ وأقوالهم رحمهم الله
في هذا الكتاب في باب التصوف هذا ، لينفتح عليك — أسعدك الله —
طريقه ، وتقول للمنكرين : ما مرادكم من انكار التصوف ؟ فإن كانوا ينكرون
الاسم المجرد فلا ضير ، لأن المعانى تكون في حق التسميات غريبة ، وإن
كانوا ينكرون عين هذه المعانى ، يكونوا قد أنكروا كل شريعة النبى عليه
السلام وخصاله المحمودة .

وأنا أوصيك أن تراعى حق هذا وتنصفه لتكف الدعوى ، وأن تحسن
الاعتقاد بأهل هذه الطريقة .

وبالله التوفيق ، وعليه التوكل والتصديق .

(١) اسمه على بن أحمد بن سهل . كان من فتيان خراسان ، لقي أبا عثمان وابن عطاء
والجيري وأبا عمرو الدمشقي . كان من أعلم مشايخ وقته بعلوم التوحيد ، وعلوم
المعاملات وأحسنهم طريقة في الفتوة والتجريد . مات سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة
(أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٥٨) ، الرسالة ج ١ ص ١٧٢ ، طبقات
الشعراني ج ١ ص ٩٦ ، تنكرة الأولياء ج ٢ ص ٨٩ ، نفحات الانس ص ٢٢٥) .
(٢) ورد هذا القول بنصه في طبقات الصوفية (أنظر : ص ٥٩) .

الباب الرابع باب في لبس المرقعة

اعلم أن لبس المرقعة شعار المتصوف . ولبس المرقعات سنة ، ومن هنا قال الرسول عليه السلام : « عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الايمان في قلوبكم (١) » .

ويقول ايضا واحد من الصحابة رضى الله عنهم : كان النبی صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف ويركب الحمار (٢) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم ايضا لعائشة رضى الله عنها : « لا تضيعى الثوب حتى ترقعيه (٣) » وقال : عليكم بلباس الصوف لتدركوا حلاوة الايمان .

وروى عن عمر رضى الله عنه انه كانت له مرقعة عليها ثلاثون رقعة (٤) . ويرد عنه انه قال ايضا : خير الثياب اقلها مؤنة .

ويرد عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه انه كان له قميص لا يصل كماه الى أصابعه ، وكان اذا وجد لديه قميص اطول من هذا يقص طرف كميته .

وأمر الله عز وجل الرسول صلى الله عليه وسلم بتقصير الثياب في قوله تعالى : « وثيابك فطهر (٥) » . أى : تقصر .

ويقول الحسن البصرى (٦) رحمه الله : رأيت سبعين بدرية يلبسون

(١) رواه الحاكم في المستدرک عن ابی امامة (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٠٧) .

(٢) من قول أبی موسى الأشعري : كان النبی صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف ويركب الحمار ويأتى مدعاة الضمير .

(٣) ورد في تلبیس ابليس : « لا تغطي الثوب حتى ترقعيه » .

(٤) روى عن أبی عثمان النهدي انه قال : رأيت على عمر قميصا فيه اثنتا عشرة رقعة وهو يخلط (اللبس ص ١٧٢) .

(٥) سورة « المدثر » آية {

(٦) أبو سعید الحسن البصرى . كان والده من أصل ميسان فسي . شيخ زهاد البصرة ، وبعده المتصوفة منهم . مبع الحياة الروحية بعبقة الزهد والخوف ، وغلب عليه الخوف كان النار لم تخلق الا له وحده . توفي سنة عشر ومائة (انظر ترجمته في الباب العاشر ، المعارف ص ١٩٤ ، وفيات الايمان ج ١ ص ١٢٨ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٢٣ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٤ ، خزينة الاسماء ج ١ ص ٢٢٢) .

جميعا ثيابا من الصوف (١) .

والصديق الأكبر رضى الله عنه لبس ثوب الصوف في حل التجريد .

ويتول الحسن البصرى رحمه الله . رأيت سلمان (٢) وقد لبس كليما
ذا رقع كثيرة .

وبروى أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضوان الله عليهما ،
وهزم بن حيان (٣) رضى الله عنه راوا أويسا القرنى (٤) وكان يلبس ثوبا من
الصوف عليه رقع كثيرة .

وكان الحسن البصرى ومالك بن دينار (٥) وسفيان الثورى (٦) ، رحمة
الله عليهم ، أصحاب مرقعات صوفية .

(١) ورد في التعريف : قال الحسن البصرى : لقد أدركت سبعين يدريا ما كان لباسهم
إلا الصوف . (انظر : ص ٢٢) .

(٢) سلمان الفارسي : كان يكتي أبا عبد الله ، ويقول قوم انه من اهل اصبهان ويقول
قوم انه من فارس . لم يشهد يدرا ولا احدا لأنه كان في أوقاتها عبدا . وأول
غزاة غزاها ، الخندق سنة خمس من الهجرة . عبر عبرا طويلا ومات في أول
خلافة عثمان وفي بعض الروايات انه مات في خلافة عمر رضى الله عنه بالمداخن .
وقيل مات سنة ست وثلاثين . (انظر ترجمته في المعارف ص ١١٧ ، طبقات
الشعراني ج ١ ص ١٩ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٥١٥) .

(٣) « هرم بن حيان » : هو من عبد القيس وكان من خيار الناس ، وولى الولايات
زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان على عبد القيس يتوج يوم قتل شهوك
زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . (المعارف ص ١٩٢ ، انظر ترجمته في
الباب العاشر) .

(٤) « أوييس بن عامر » : ويقال ابن حمزو القرنى . من سادات التابعين ، وبعده
البخارى من الضعفاء . كان يلزم المسجد مع جماعة من اصحابه . قال بعضهم
انه مات بالحيرة ، وقال آخرون : بل مات مع على بن أبى طالب مقاتلا بين يديه
في صفين . كان يلتقط الكسر من المزابل فيفلسها ويأكل بعضها ويتصدق ببعضها .
قال له هرم بن حيان أوصنى فقال : توسد الموت اذا نبت ، واجعله نصب مينيك
اذا قبت . (انظر ترجمته في الباب العاشر ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٢١ ،
تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١١٨) .

(٥) أبويحيى مالك بن دينار البصرى : من موالى بنى سابة بن لؤى القرشى . كان عالما
زاهدا كثير الورع لا يكلل الا من كسبه . وكان يكتب المصاحف بالاجر . توفي
سنة احدى وثلاثين ومائة بالبصرة . كان يقول : لولا اخشى ان تكون بدعة لامرت
انى اذا مت أن أغل فأنزع الى ربى مغلولا كذا يدفع العيد الايق الى مولاه .
(انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٤٠ ، طبقات
الشعراني ج ١ ص ٢٩ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٤٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢
ص ١٢٢) .

(٦) أبو عبد الله سفيان بن سميد بن مسروق بن عذنان الثورى الكوفى . كان اماما في
علم الحديث وغيره من العلوم ، وأجمع الناس على امامته وورعه وزهده .
وكانوا يسمونه أمير المؤمنين في الحديث . توفي بالبصرة سنة احدى وستين ومائة .
توموا ثيابه التى عليه حتى النمل غلبت درهمها وأربعة دنانير (انظر ترجمته في
المعارف ص ٢١٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢١٠ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٢٨ ،
تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٨٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٢٥) .

ويروى عن الامام الاعظم أبى حنيفة (١) — وهذا مكتوب في كتاب تاريخ المشايخ الذى ألفه محمد بن على الترمذى (٢) — انه كان أولا يلبس الصوف ويتصدق العزلة الى ان رأى الرسول عليه السلام في النوم يقول له : ينبغي لك أن تكون بين الخلق لأنك سبب احياء مننتى . وعندئذ كف عن العزلة . ولم يكن يلبس أبدا ثوبا غالبا ، وأمر داود الطائى (٣) رحمه الله بلبس الصوف ، وكان من الصوفية المحققين .

وجاء ابراهيم بن أدهم أبى حنيفة رحمه الله وعليه مرتعة من الصوف فنظر اليه أصحاب — أبى حنيفة — بعين الاحتقار ، فقال أبو حنيفة : جاء سيدنا ابراهيم بن أدهم ؟ فقال له أصحابه : لا يجرى الهزل على لسان امام المسلمين ، فبم وجد هذه السيادة ؟ قال : بالداومة على الخدمة ، فقد انشغل بخدمة الله ، وانشغلنا بخدمة أنفسنا حتى صار سيدنا .

واذا كان مراد بعض أهل هذا الزمان من لبس المرتعات والخرق طلب الجاه والجمال بين الخلق ، أو انهم بقلوبهم غير موافقين لطواهرهم ، فمن الجائز أن يكون في الجيش مبارز واحد ، والمحققون في كل الطوائف قليل ، ولكن الجميع ينسبون اليهم حينما يشبهونهم في شيء من الأحكام ، لقوله

(١) النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه : الامام الفقيه الكوفى مولى تيم الله بن ثعلبة . كان جده زوطى من أهل كابل وكان رقيقا امتق ، وان نفى ذلك أحد أحناد أبى حنيفة ، كان عالما زاهدا عابدا ورعا تقيا كثر الخشوع دائم التضرع الى الله تعالى . وكان حجة في الفقه شهد له الشافعى فقال : من أراد أن يتبحر في الفقه فهو مبال على أبى حنيفة . دعى لتولى القضاء مرتين ولكنه رفض . توفى ببغداد سنة خمسين ومائة ودفن في مقبرة الخيزران . تنسب اليه عدة مؤلفات في الفقه أشهرها « الفقه الأكبر » (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢١٦ ، وميات الاعيان ج ٢ ص ١٦٢ ، الفهرست ص ٢٨٤ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٤٢ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٠٢ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٤١ ، كشف الظنون ج ٢ عمود ١٢٨٧) .

(٢) أبو عبد الله محمد بن على الترمذى المتوفى سنة ٢٨٥ هـ : متكلم سنى من أهل خراسان ، ومحدث وفقيه كوفى . لى أبى تراب النخشبى وصحب يحيى الجلاء وأحمد بن خضرويه . له تصانيف كثيرة وكرامات مشهورة . كان أسنذا لأبى على الجوزجاني وأبى بكر الوراق (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢١٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٧ ، وميات الاعيان ج ١ ص ٤٥٧ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٩١ ، نفعات الآس ص ١١٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٥٠٢) .

(٣) داود بن نصير : أبو سليمان الطائى الكوفى الزاهد . يقال ورث عشرين دينارا ناكلها في عشرين سنة . قيل عن سبب زهده أنه كان يجالس أبى حنيفة فقال له يوما : يا أبى سليمان ، أما الاداة فقد أحكمتها . فقال داود : أى شيء بقى ؟ قال : العمل بها . مات سنة خمس وستين ومائة (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢٢٤ ، الرسالة ج ١ ص ٧٤ ، وميات الاعيان ج ١ ص ١٧٧ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢١٩ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٢٨) .

عليه السلام : « من تشبه يقوم فهو منهم (١) » أى : كل من يتولى قوماً يفعل ذلك بعمل أو باعتماد ، ولكن فريقاً نظراً إلى رسم الصوفية وظاهر معاملاتهم ، ونظر فريق إلى سرهم وصفاء باطنهم . وفى الجملة ، كل من يقصد صحبة المتصوفية لا يخرج عن أربعة معان :

فريق يطلعه صفاء باطنه وجلاء ظاهره ولطف طبعه واعتدال مزاجه على صحة أسرارهم ، فيرون قرب المحققين — من الصوفية — ورغبة كبرائهم ، وتتمكن منهم الرغبة فى هذه الدرجة ، فيتعلقون بهم عن بصيرة . وتكون بداية حال — هؤلاء — على كشف الأحوال ، والتجرد عن الهوى ، والاعراض عن النفس .

وفريق — ثان — يطلعه صلاح جسده وعفة قلبه وسكون وسلامة صدره على أظهارهم (٢) ، فيرون ممارستهم للشرعية وحفظهم لأداب الإسلام وحسن معاملاتهم فيقتصدون صحبتهم ، ويختارون ممارسة الصلاح . وتكون بداية حال هؤلاء على المجاهدة وحسن المعاملة .

وفريق — ثالث — تهديه مروءة إنسانيته وظرف مجالسته وحسن سيرته ، فيرون حياتهم الظاهرة مزدانة بالظرف والمروءة : من الحرمة مع الكبار ، والفتوة مع الصغار ، وحسن المعاشرة مع الأقران ، فيقتصدون صحبتهم مستريحين من طلب الزيادة ، وراضين بالقناعة ، ويسهلون على أنفسهم طريق الجهد والمشقة فى طلب الدنيا ، ويجعلون أنفسهم بالفراغ من المشاغل من جملة الأخير .

وفريق — رابع — يقوده إلى أعمالهم كسل طبعه ورعوته نفسه وطلبه الرياسة بلا آلة ، وإرادته التصدر بلا فضل ، ويحثه عن التخصيص بلا علم ، ويظن أنه ليس هناك من أموره غير هذا الأمر الظاهر ، فيقتصد صحبتهم . وهم (٣) يلائنونه بالخلق والكرم ويعيشون معه بحكم المسامحة ، لأنه ليس فى قلوبهم (٤) شئ من حديث الحق ، ولا على أجسادهم شئ من المجاهدة فى طلب الطريقة ، ويريدون أن يرمى الخلق حرمتهم كالمحققين ، ويجلوهم كما يجلون خواص الله عز وجل ، ويبغون من صحبتهم لهم والتعلق بهم أن يخفوا آفتهم فى صلاحهم ، ويلبسون ثيابهم وهى بدون المعاملة تصرخ بكذبهم ، كقوله تعالى : « كمثل الحمار يحمل أسفارا بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله (٥) » .

(١) رواه ابن رسلان من ابن عمر ، والطبرانى فى الاوسط (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٨٦) .

(٢) أظهارهم = ظواهرهم : جمع « ظاهر » .

(٣) « هم » أى الصوفية المحققون .

(٤) قلوبهم : أى قلوب أفراد الفريق الرابع .

(٥) سورة « الجمعة » آية ٥ .

وهذا الفريق هم الاغلب في هذه الأيام . فليكن لزاما عليك اذن ان لا تقصد ما ليس لك ، لانك لو قلت الف سنة بقبول الطريقة لا يكون ذلك كان تقبلك الطريقة لحظة واحدة ، لان هذا الامر لا يكون بالخرقة ، بل بالحرقة . وحين يكون الرجل عارفا بالطريقة يستوى لديه القباء والعباء ، وحين يكون غريبا عنها تكون مرقعته رقعة الادبار ومنشور الشقاء يوم النشرور ، كما قيل لذلك الشيخ الكبير : « لم لا تلبس المرقعة ؟ قال : من النفاق ان تلبس لباس الفتیان ولا تدخل في حمل ائقال الفتوة » . فاذا كنت تلبس هذا اللباس ليعرف الله أنك من خواصه فهو يعرفك بغير لباس ، واذا كنت تلبسه لتظهر للخلق أنك لله ، فان تكن كذلك فهو رياء ، وان لم تكن فهو نفاق . وهذا طريق صعب ملىء بالخطر ، واهل الحق أجل من ان يعرفوا بالثياب ، « فالصفاء من الله انعام واکرام ، والصوف من لباس الانعام » ! فالحلية حيلة ، وفريق يجعلون الحيلة قربة ، فهم يعملون ما عليهم ، ويحلون ظاهرهم ، وأملهم ان يكونوا منهم .

وقد أمر مشايخ هذه الطريقة المريدين بان يتحلوا بالمرقمات ويتزينوا بها ، وفعلوا هم أيضا ذلك ، لتكون لهم علامة بين الخلق ، ويكون الخلق رقباء عليهم ، فاذا خطوا خطوة على خلاف ، يطلقون فيهم لسان الملامة ، واذا ارادوا اتیان المعصية في تلك الثياب ، فانهم لا يستطيعون خجلا من الخلق .

وفي الجملة : المرقعة زينة لأولياء الله عز وجل ، يعز بها العوام ويذل بها الخواص . وعز العوام هو انهم حين يرتدون بها يحترمهم الخلق ، وذل الخواص هو انهم حين يرتدون ينظر اليهم الخلق بعين العوام ويلومونهم بذلك ، فهي « لباس النعم للعوام ، وجوشن البلاء للخواص » ، لأن أكثر العوام يكونون فيها مضطرين حين تقصر أيديهم عن عمل آخر ، ولا تكون لهم آلة أخرى لطلب الجاه ، فيطلبون بها الرياسة ، ويجعلونها سببا لجمع النعم . ثم ان الخواص يقولون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز ، فتكون لهؤلاء بلاء ، ولأولئك نعماء : « المرقعة تميص الوفاء لأهل الصفاء ، وسربال السرور لأهل الغرور » ، فيتجرد أهل الصفاء بلبسها من الكونين ، وينقطعوا بها عن المألوفات ، ويحجب بها أهل الغرور عن الحق ، وينقطعوا بها عن الصلاح .

وجملة القول : المرقعة سمة الصلاح وسبب الفلاح للجميع . والمراد من كل هذا هو انها تكون الصلاح لواحد والعطاء لآخر ، والغطاء لواحد والوطاء لآخر . وأرجو ان يفلحوا جميعا بحسن صحبتهم ومحبتهم لبعضهم البعض ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أحب قوما فهو

معهم (١) . « ولكن ينبغي ان تطلب لباطنك التحقيق ، وأن تعرض عن الرسوم ، لأن كل من يكتفى بظواهر الأشياء لا يصل الى التحقيق أبدا .

واعلم ان وجود الآدمية حجاب الربوبية ، ولا يفنى الحجاب الا بدور الأحوال والتربية في المقامات . والصفاء اسم ذلك الفناء ، واختيار اللباس لفانى الصفة محال ، وتزيين النفس بالتكلف غير ممكن . وإذا ظهر فناء الصفة وزالت آفة الطبيعة من الوجود ، فسواء لديه أن يسمى بالصوفي أو باسم آخر .

فصل : أما شرط المرقعات فهو ان يعملها — الصوفي — من أجل الخفة والفراغ ، وحيثما يتمزق شيء من الأصل يوضع فوقه رقعة .

وللمشايع ، رحمهم الله ورضى الله عنهم ، في هذا قولان : ففريق يقول أنه لا يشترط مراعاة نظام لحياكة الرقعة ، فتسحب الابرة حيثما تخرج رأسها ، ولا يتكلف في هذا .

وفريق آخر يقولون انه يشترط لحياكة الرقعة الترتيب والاستقامة ورعاية التضريب والتكلف في الاستقامة ، لأنها معاملة الفقراء ، وصحة المعاملة دليل صحة الأصل .

وأنا على بن عثمان الجلابي — وفقني الله — سألت شيخ المشايخ أبا القاسم الجرجاني (٢) في طوس (٣) : ما أقل ما ينبغي للفقير حتى يكون جديرا باسم الفقر ؟ قال : ينبغي له ثلاث ، ولا أقل منها :

أولا : يجب أن يعرف كيف يخطط الرقعة خياطة مستقيمة .

ثانيا : يجب أن يعرف كيف يسمع الكلام سماعا مستقيما .

ثالثا : يجب أن يعرف كيف يضرب الأرض بقدم مستقيمة .

وعندما رجعنا — أنا وفريقي الدراويش الذين كانوا حاضرين معي حين قال هذا — الى الدويرة ، أخذ كل منهم يتصرف في هذا ، وظهر لفريق من

(١) روى الطبراني في الكبير : « من أحب ثوبا حشره الله في زمرة من » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٧٢) .

(٢) من شيوخ الهجویری : انظر ترجمته في الباب الثاني عشر .

(٣) « طوس » من مدن خراسان . وهي من نيسابور على مرحلتين ، وبها قبر الرشيد أمير المؤمنين ، وبها توفى الرضا على بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام (البلدان : ص ٤٤) ، وقد خرج من طوس من أئمة أهل العلم والفقه ما لا يحصى ، وحسبك بأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي وأبي الفتوح أخيه (معالم البلدان ج ٣ ص ٥٤٠) .

الجهلة في هذا شره، وقالوا ان الفقر هو عين هذا ، وكان اكثرهم يتسابقون في تجويد حياكة الرقعة ، والدبيب على الأرض باقدامهم ، ويظن كل منهم في نفسه أنه يعرف سماع الكلام ، في الطريقة . ويحكم أن قلبى كان يميل الى هذا السيد ، لم اثنا أن يضع كلامه هذا عبثا ، فقلت : تعالوا ليقول كل منا شيئا في هذا القول . فقال كل منهم ما تراءى له ، فلما وصلت النوبة الى قلت : الرقعة المستقيمة هي أن تخاط للفقر لا للزينة ، لأنها اذا خيطت بالفقر كانت مستقيمة ولو لم تكن كذلك . وسماع الكلام مستقيما هو أن يسمع بالحال لا بالمنية ، ويتصرف فيه بالجد لا بالهزل ، وإن يفهم بالروح لا بالعقل . والقدم المستقيمة هي التي توضع على الأرض بلوجد لا باللهو والرسم .

ونقل البعض هذا الكلام للشيخ فقال : أصاب على خيره الله .

والمراد من لبس الرقعة لهذه الطائفة هو مؤنة الدنيا ، وصدق الفقر لله تعالى . وقد ورد في الآثار الصحيحة أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يلبس رقعة حين رفع الى السماء . وقال أحد المشايخ : رأيت في النوم ، بتلك الرقعة من الصوف ، وكان يتلألا من كل رقعة نور ، فقلت : ايها المسيح ، ما تلك الأنوار على الثوب ؟ قال : انها أنوار اضطرارى ، لقد خطت كل رقعة منها لضرورة ، فصر الله عز وجل كل اذى اصابنى به نورا .

وايضا : رأيت في ما وراء النهر ، شيخا من اهل الملامة لم يكن يأكل او يلبس شيئا للادى فيه نصيب ، فكان يأكل الاشياء التي يرميها الناس كالكرات العفن والقرع المر والجزر الفاسد وامثال ذلك ، ويتخذ ملابسه من الخرق التي يلتقطها من الطريق ويطهرها ويصنع منها رقعة (١) .

وسمعت انه كان بمرور الروذ (٢) شيخ من المتأخرين من ارباب المعانى قوى الحال طيب السيرة ، كانت العقرب تلد دون كلفة في سجادته وقلنسوته ، لكثرة ما عليهما من الرقع غير المتكلفة .

وقد لبس شيخى (٣) رضى الله عنه ثوبا واحدا لمدة ستة وخمسين عاما ، كان يضع عليه رقعا بلا تكلف .

(١) ورد مثل هذا عن اويس القرنى انه كان يلتقط الرقاع من المزابل لبفسلها في الفرات ثم يخطها فيلبسها (تلبس ايليس ص ١٨٦) .

(٢) « مرو الروذ » : من مدن كورة مرو ، وبين مرو وبينها خمس مراحل : ومرو الروذ افتتحها الاحنف بن قيس في خلافة عثمان سنة احدى وثلاثين (البلدان : ص ٥٦)

(٣) أبو الفضل محمد بن الحسن الخطى : من شيوخ الهجويزى : انظر ص ٥٨ ، ترجمته في الباب الثانى عشر .

ووجدت في حكايات العراقيين أنه كان هنا لك اثنان من الدراويش : أحدهما صاحب مشاهدة ، والآخر صاحب مجاهدة ، لم يلبس أولهما طيلة حياته إلا الخرق التي يمزقها الدراويش في السماع ، ولم يلبس الآخر إلا الخرق التي يمزقونها في حال الاستغفار من ذنب ، حتى صارت زينة ظاهرهما موافقة لسيرة باطنهما . وهذا من رعاية الحال .

وكان الشيخ محمد بن خفيف (١) رضى الله عنه يرتدى لمدة عشرين عاما ثوبا من الصوف الغليظ ويعتكف كل عام أربع اربعينيات (٢) ، وكان يؤلف في كل منها كتابا في غوامض علوم الحقائق . وكان يعاصره شيخ من المحققين من علماء الطريقة ، يقيم بالقرب من نارس (٣) ، يدعى محمد بن زكريا ، لم يرتد المرقعة قط ، فسئل الشيخ محمد بن خفيف : ما شرط المرقعة ؟ وليسها مسلم لن ؟ فأجاب : شرط المرقعة هو ما يفعله محمد بن زكريا في قميصه الأبيض ، ولبسها مسلم له .

فصل : وأما ترك عادة هذه الطائفة فلا يكون شرطا في طريقتهم . وقلة ارتدائهم ثياب الصوف الآن ، له معنيان ، أحدهما : أن الأصواف تشعث ، والانعام انتقلت في الغارات من مكان الى مكان ، والثاني : أن طائفة من أصحاب البدع اتخذوا رداء الصوف شعارا لهم ، ومخالفة شعار أهل البدع سنة ، ولو كان مخالفة للسنة .

أما التكاليف في حياكة الرقعة فيجيزونه ، لأن جاههم قد عظم بين الخلق وكل من الخلق تشبه بهم ولبس المرقعة ، ويدت منهم أفعال ذميمة . ولما تأذوا من صحبة الأضداد ، اتخذوا زينة لا يعرف أحد غيرهم حياكتها ، وجعلوها علامة لمعرفة بعضهم البعض ، واتخذوها شعارا ، حتى ليقال أن درويشا دخل على أحد الشيوخ ، وكان قد جعل خطوط الرقعة التي خاطها على ثوبه مستعرضة ، فهجره الشيخ . وكان معنى هذا أن أصل الصفاء هو رقة الطبع ولطافة المزاج ، ولا يحسن الاعوجاج في الطبع البتة . وكما أن الشعر غير المستقيم لا يحسن في الطبع ، فكذلك الفعل غير المستقيم لا يقبله الطبع .

(١) أبو عبد الله محمد بن خفيف . كان شيخ المشايخ في وقته . صاحب رويبا والجبري وأبا العباس بن مطاء . كان عالما بعلوم الظاهر وعلوم الحقائق . مات سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ٦٢) ، الرسالة ج ١ ص ١٢٤ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٩٦ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١٢٤ ، تلحات الانس ص ٢٢٥ ، خزينة الاصلاء ج ٢ ص ٤) .
(٢) انظر الابواب من السابغ والعشرين الى التاسع والعشرين من حوارات المعارف ، في خاصية الاربعينية وذكر الفتوح وكيفية الدخول فيها .
(٣) نارس : ولاية واسعة واقليم نسيح ، وأول حدودها من جهة العراق ارجان . ونارس اسم البلد وليس اسم الرجل ، وقصبتها شيراز . فنحت في عهد مير بن الخطاب رضى الله عنه (معجم البلدان ج ٢ ص ٨٢٥ - ٨٤٨) .

وطائفة أخرى لا يتكفون في وجود اللباس وعده ، فاذا رزقهم الله عباءة لبسوها ، واذا رزقهم ثياب لبسوه ، واذا تركهم عراة بقوا كذلك . وأنا على بن عثمان الجلابي — وفقني الله — قد ارتضيت هذا الطريق ، وفعلت هكذا في أسفاري .

وورد في الحكايات أنه حين جاء أحمد بن خضرويه (١) لزيارة أبي يزيد كان يرتدي ثياب ، وحين جاء شاه بن شجاع (٢) لزيارة أبي حفص (٣) كان يلبس الثياب . ولم يكن هذا لباسهما المعهود ، فقد كانا في بعض الاوقات يرتديان المرقع ، ويلبسان ثوبا من الصوف في البعض الآخر ، أو البياض حسبما اتفق .

ونفس الادمي معتادة ، ولها بالعادة الفة . والنفس اذا اعتادت شيئا صار طبيعة ، واذا ما صار طبيعة صار حجابا ، ولذا قال النبي عليه السلام : « خير الصيام صوم أخى داود (٤) » عليه السلام ، قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : كان يصوم يوما ويفطر يوما حتى لا يصير الصوم عادة للنفس ، ويحجب بذلك .

وكان في هذا المعنى أحب الأحباء أبو حامد الدوستانى (٥) المروزي رحمه الله ، فقد كان يريدوه يلبسونه ثوبا ، ثم تكون لشخص اليه حاجة ، ثم كان يأتي من كانت له به حاجة فيتمس فراغه ، فاذا ما خلا ، نزع عنه ذلك الثوب . ولم يكن يقول لللبسه : لم تلبسنى ؟ ولا لنزعها : لم تخلعه عنى ؟ .

(١) كثرته : أبو حامد . من كبار مشايخ خراسان . صاحب إبا تراب النخشبى وحاتبه الأصم . كان كبيرا في الفتوة ، قال عنه أبو حفص الحداد : ما رایت أحدا أكبر همة ولا أصدق حالا من أحمد بن خضرويه . توفي سنة أربعين ومائتين (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٠٣ ، الرسالة ج ١ ص ٩٢ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٥٦ ، ففكرة الاولياء ج ١ ص ٢٨٨ ، نفحات الانس ص ٥٤) .

(٢) كثرته : أبو الفوارس . كان من أبناء الملوك . صاحب إبا تراب النخشبى وإبا عبد الله الزراع البمرى . له رسائل مشهورة ، والمظنة التى سماها : مرآة الحكماء . مات قبل الظلمات (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٩٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٥ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٣١٢ ، نفحات الانس ص ٨٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٥٨) .

(٣) أبو حمص الحداد النيسابورى : سبق الاشارة اليه .

(٤) رواه الشيخان عن ابن عمر : « أحب الصيام الى الله صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وأحب الصلاة الى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سحسه » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٦) .

(٥) أشهر اليه في أسرار التوحيد (انظر ص ٢٧٢) .

ويوجد الآن في غزنين (١) — حرسها الله — شيخ يلتقب بالمريد ، رضى الله عنه ، لا اختيار له ولا تمييز في لباسه . والحديث في ذلك صحيح .

أما معنى أن أكثر ثيابهم زرقاء ، فمنه : أنهم وضعوا أصل طريقتهم على السفر والسياحة ، ولا يبقى الثوب الأبيض في السفر على حاله ، ويصعب غسله ، ويطلع فيه كل شخص .

ثم إن لبس الأزرق شعار أصحاب الوفاة والمصائب ، وهو لأناس رداء الحزن . والدنيا دار المحنة ، وخربة المصيبة ، ومغارة الغم ، وآفة المبطلين بالفراق ، وحصن البلاء ، فلما رأى المريدون أنهم لم يبلغوا مقصودهم في الدنيا ، لبسوا الأزرق ، وجلسوا في ماتم الوصال .

ومنهم طائفة أخرى لم يروا في المعاملات غير التقصير ، وفي القلب غير الخراب ، وفي الوقت غير الفوت ، فلبسوا الأزرق .

فواحد لبسه على موت عزيز ، والآخر على فوت مقصود ، لأن « الفوت أشد من الموت » .

سأل واحد من مدعى العلم درويشاً : لم لبست هذا الأزرق ؟ قال : لقد بقى عن النبي عليه السلام ثلاثة أشياء ، أولها : الفقر ، والثاني : العلم ، والثالث : السيف .

خلف السلاطين بالسيف ولم يستعملوه في موضعه .

واختار العلماء العلم واكتفوا بالتعلم فقط .

واختار الفقراء الفقر وجعلوا منه آلة للفنى . فلبست الأزرق على مصيبة هذه الفئات الثلاث .

ويرد عن المرتضى رحمه الله أنه كان يمر في محلة ببغداد (٢) وأحس بالظما ، فقصد بابا وطلب الماء . فخرجت إليه فتاة بجرة ماء ، فلما شرب صار قلبه صيدا للساقية . فظل في مكانه حتى جاء رب الدار فقال له : أيها السيد ، كان قلبى متعطشا جدا لشربة ماء فسقونى شربة من دارك وسلبوا قلبى ، قال الرجل : تلك ابنتى ، وقد زوجتك إياها . فدخل

(١) « غزنين » أو « غزنه » موطن الهجویری : ارجع الى ما ورد عنها في القسم الاول ص ٣٩ .

(٢) « بغداد » : وسط العراق والمدينة العظمى التى ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء . انتقل اليها من جميع البلدان الدانية والغاصية وآخرها جميع أهل الأمان على أوطانهم . يجرى في حافتها النهران الأعظمان دجلة والفرات . بناها أبو جعفر المنصور فاخترها في ربيع الاول سنة احدى وأربعين ومائة (البلدان ص ٢ — ٢٢) .

المرتضى البيت تحقيقا لمراده ، وعقد عليها . وكان صاحب البيت هذا من اثرياء بغداد ، فأرسله الى الحمام ، والبسه ثيابه ، وخلع عنه المرتعة . ولما أقبل الليل وقف المرتضى للصلاة ، وقرا الأوراد ، وأخذ الى الخلوة ، فصاح في أثناء ذلك : هتوا مرتعتي . فسأله : ماذا أصابك ؟ قال : نوديت في سرى : لقد خلعتنا عن ظاهرك ثوب الصلاح والمرتعة بنظرة نظرتها مخالفة لنا ، فإذا نظرت أخرى نزعنا عن باطنك لباس المعرفة .

فالثوب الذى يكون السبب في ارتدائه التقرب الى الله والموافقة لأوليائه تكون المداومة عليه مباركة ، فإذا كنت تستطيع أن تقي بحقه ، فبها ، والا فإنه ينبغي عليك أن تصون دينك . ولا تجوز الخيانة في ثياب الأولياء . ولأن تكون مسلما على التحقيق بلا دعوى ، خير من أن تكون وليا على الكذب .

أما لبس المرتعة ، فيستقيم لطائفتين : أولاهما ، المنقطعون عن الدنيا ، والآخرى ، المشتاقون الى حضرة المولى .

وقد جرت السنة في عادات المشايخ رضى الله عنهم ، على أنه عندما يتصل بهم مريد يحكم التبرك ، فانهم يؤدّبونه خلال سنوات ثلاث على معان ثلاثة ، فإذا أدى حقها ، فبها والا قالوا ان الطريقة لا تقبله ، فسنة منها لخدمة الخلق ، وسنة ثانية لخدمة الحق ، وسنة ثالثة لمراعاة قلبه .

وهو يستطيع خدمة الخلق عندما يضع نفسه في درجة الخدم ، وكل الخلق في درجة المخدمين : أى يخدم الجميع بلا تمييز ، ويراهم خيرا منه ، ويعرف أن خدمتهم واجب عليه ، ولا يرى لنفسه بتلك الخدمة فضلا على الآخرين ، لأن ذلك خسران عظيم ، وعيب ظاهر ، وغبن فاحش ، وداء من الأدواء في هذا الزمان (١) لا دواء له .

وهو يستطيع أن يخدم الحق جلّ جلاله حين يقطع حظوظه من الدنيا والعقبى كلية ، ويعبد الحق سبحانه وتعالى عبادة مطلقة من أجله هو ، لأن العبد ما دام يعبد الحق من أجل كفارة الذنوب وإدراك الدرجات فإنه لا يعبد لذاته ، فما بالك بأسباب الدنيا .

وهو يستطيع مراعاة قلبه حين يجمع همهته ويرفع عن قلبه الهموم المختلفة ، ويحفظه — في حضرة الانس — من مواطن الغفلة .

فإذا توفرت هذه الشروط الثلاثة في المريد ، يسلم له بلبس المرتعة على وجه التحقيق لا التقليد .

(١) زمان المؤلف .

أما من يخلع على المريد المرقعة ، فيجب أن يكون مستقيم الحال ، قد اجتاز جميع عقبات الطريق ، وذاق طعم الأحوال ، وادرك مشارب الأعمال ، وشاهد قهر الجلال ولطف الجمال . ويجب أيضا أن يكون مشرفا على حال مريده ، يعرف الام ينتهى : أهو من الراجعين ، أو الواقفين ، أو الواصلين ، فإذا عرف أنه سوف يرتد يوما عن الطريقة ، يقول له ذلك حتى لا يبدأ ، وإذا توقف ، يأمره بالمعاملة ، وإذا تحقق من أنه سيصل ، يتمهده بالرعاية .

ومشايخ هذه الطريقة هم أطباء القلوب ، وحين يكون الطبيب جاهلا بعلة مريضه فإنه يهلكه بطبه ، لأنه لا يعرف تطبيبه ، ويجهل مواطن دائه ، فيجمل غذاءه وشرابه مخالفا لعلته ، لقوله عليه السلام : « الشيخ في قومه كالنبي في أمته (١) » ، فالأنبياء عليهم السلام دعوا الخلق على بصيرة ، وجعلوا كل فرد في درجته . ويجب للشيخ أيضا أن يدعو على بصيرة ، وأن يعطى لكل غذاءه ، حتى يتحقق المراد من الدعوة . فإذا ألفس شيخ بلغ الكمال في ولايته لله ، مريدا المرقعة بعد هذه السنوات الثلاث من التربية في الرياضة ، فهذا جائز .

وشرط لبس المرقعة لبس الكفن ، لأنهم يقطعون الأمل من لذة الدنيا ، ويظهرون قلوبهم من راحتها ، ويقفون عمرهم كله على خدمة الحق جل جلاله ، ويبرأون تماما من الهوى ، ومن ثم يعز الشيخ المريد باللباسه الخلعة ، وهو يقوم بحققها ويجتهد تماما في أداء هذا الحق ، ويحزم على نفسه رغباتها .

أما الاشارات في المرقعة ، فقد قيل فيها الكثير ، وقد عمل الشيخ أبو معمر الاصفهاني كتابا فيها . وعوام المتصوفة يغالون في هذا الأمر كثيرا ، وليس مرادنا من هذا الكتاب نقل أقوالهم ، بل كشف المغلق من مراد هذه الطريقة .

وخير الاشارات في المرقعة القول بأن يكون قلبها من الصبر ، وكماها من الخوف والرجاء ، وابطائها من القبض والبسط ، ووسطها من مخالفة النفس ، وجيبها من صحة اليقين ، وسجائها من الاخلاص .

وخير من هذا ، القول بأن يكون القلب من فناء المؤانسة ، والكمكان من الحفظ والمعصية ، والإبطان من الفقر والصفوة ، والوسط من الإقامة في

(١) رواه ابن النجار عن أبي رافع : « الشيخ في أهله كالنبي في أمته » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٧٠) .

المشاهدة والجيب من الأمن في الحضرة ، والسجاف من القرار في محل
الوصل . وإذا هيأت لباطنك مرقعة كهذه ، فيجب أن تعمل لظاهاك
واحدة أيضا .

ولى كتاب مستقل ، مؤلف في هذا الموضوع ، اسمه : « أسرار الخرق
والملونات » ويلزم للمريد نسخة منه .

أما إذا لبس (المريد) المرقعة ، فإنه إذا مزقها في غلبة الحال وقهر
سلطان الوقت فهذا مسلم له ، ويكون له العذر . وإذا مزقها في حال الاختيار
والتمييز ، فالأكثر في شرط هذه الطريقة أن لا يسلم له بالاحتفاظ بها ،
أما إذا ما لبسها فإنه يكون كأحد أصحاب المرقعات في هذا الزمان ، قد
اكفى بالظاهر دون الباطن .

والحقيقة في تخريق الثياب هي أنهم حين ينتقلون من مقام الى مقام آخر ،
يخلعون الثوب في الحل ، يشكروا على وجدان هذا المقام ، ويعدون ثوبا
آخر لباسا لمقام آخر .

والمرقعة لباس جامع لكل مقامات الطريقة والفقر والصفوة . والخروج
من هذا الثوب والتبرؤ منه تبرؤ من الكل ، وان يكن هذا المكان ليس
موضعا لذكر هذه المسألة ، إذ أنها تلزم لباب الخرق والملونات وكشف
حجاب السماع ، وقد اشرت إليها هنا بهذا المقدار حتى لا تخفى هذه
اللطيفة ، وسأفصل هذا الحكم في مكانه ان شاء الله عز وجل .

وقيل أيضا : انه يجب لمن يقوم باللباس المرقعة من السلطان في الطريقة
ما يجعله اذا نظر الى غريب بعين الشفقة يصير قريبا ، وإذا ما لبس
عاصيا المرقعة يصير من أولياء الله .

وفي وقت من الأوقات كنت أسير برفقة شيخى في آذربيجان (١) ، فرأيت
بضعة أفراد من أصحاب المرقعات واقفين على بيدر قمح ، وقد مدوا أذيال
مرقعاتهم ليضع الفلاح فيها القمح ، فالتفت الشيخ إليهم وقرا : « أولئك
الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (٢) »
قلت : أيها الشيخ ، بأى خزى ابتلوا بهذا البلاء ، وفضحوا على الملأ ؟
قال : لان شيوخهم كانوا يحرصون على جمع المريدين ، وهم يحرصون على

(١) « آذربيجان » : من ربيع المشرق : أول مدنها أربيل على أربع مراحل من زنجان .
وأهل مدن آذربيجان أخلاط من المعجم الآتية والجاودانية القدم أصحاب مدينة
البذ التي كان فيها بابك ثم نزلتها العرب لما نحت . وافتتحت آذربيجان سنة اثنتين
وعشرين افتتحها المغيرة بن شعبة في خلافة عثمان (البلدان ص ٢٨) .
(٢) سورة « البقرة » آية ١٦

جمع اسباب الدنيا ، وليس حرص بأولى من حرص ، والدعوة بلا أمر
تربية للهوى .

ويرد عن الجنيد رحمه الله أنه رأى بياب الطاق(١) مسيحيا جميلا جدا ،
فقال : اللهم سخر لى هذا لأنه مخلوق طيب جدا ، فلما مرت برهة ، أقبل
المسيحي وقال له : أيها الشيخ ، أعرض على الشهادة ، فعرضها عليه ،
واسلم ، وصار واحدا من أولياء الله .

وسئل الشيخ أبو على الأسود المروزي(٢) رحمه الله : اللباس المرقعة
مسلم لن ؟ قال : للمشرف على ملك الله تعالى فلا يجرى شيء يومئذ في
الدنيا من الأحكام والأحوال الا ويطلع الله عليه .

وبعد ، فالمرقعة سمة الصالحين ، وعلامة الطيبين ، ولباس الفقراء
والمتصوفين . وقد جرى الحديث قبل هذا عن حقيقة الفقر والصفوة .
وإذا جعل شخص لباس الأولياء أداة لجمع أسباب الدنيا ، وسترا لآفته ،
فانه لا يضر الأولياء كثيرا . وبالله التوفيق .

(١) « باب الطاق » : محبة كبيرة يشدها بالحب الشرقي . (مصنف البلدان ج ١ ص ٤٤٥)
(٢) « أبو على سياه » (الأسود) : من كبار مشايخ مرو ، كان معاصرا لأبي العباس
القصاب وأبي الحسن الخرقاني وأبي سعيد بن أبي الخير . صاحب أبا على الدقاق ،
وتوفى بهرو سنة أربع وعشرين وأربعمائة . (أنظر ترجمته في تفحات الانس
ص ٢٩٠) .

الباب الخامس باب الاختلاف في الفقر والصفوة

أما علماء هذه الطريقة فمختلفون في تفضيل الفقر والصفوة ، فالفقر عند جماعة أتم من الصفوة ، وعند جماعة الصفوة أتم من الفقر .

فمن يقدمون الفقر على الصفوة يقولون أن الفقر فناء الكل ، وانقطاع الأسرار ، والصفوة مقام من المقامات ، فإذا حصل الفناء ، تنعدم كل المقامات .

وهذه المسألة تعود الى الفقر والغنى ، وقد جرى الحديث فيها قبل هذا .

ومن يقدمون الصفوة على الفقر يقولون أن الفقر شيء موجود قابل للاسم ، والصفوة صفاء من جميع الموجودات ، والصفاء عين الفناء ، والفقر عين الغنى ، فالفقر من أسماء المقامات ، والصفوة من أسماء الكمال .

وقد طال الحديث في هذا الأمر في هذه الأيام ، وكل منهم يمبرر بعبارة عجيبة ، ويتقول على الآخر أتوالا غريبة ، والخلاف قائم في تفضيل وتقديم وتأخير الفقر والصفوة .

ومن المتفق عليه أن العبارة المجردة ليست الفقر أو الصفوة . وقد صاغوا من العبارة مذهباً ، وأخلوا الطبع من ادراك المعنى ، وتخلوا عن حديث الحق . وهم يسمون نفى الهوى نفياً للعين ، ويرون اثبات المراد اثباتاً للعين ، فالموجود والمقصود والنفى والاثبت كله هم ، بقيام أنفسهم وهواهم ، والطريقة منزهة عن ترهات المدعين .

وفي الجملة : أن الأولياء يصلون الى المحل الذي لا يبقى فيه محل ، وتغنى الدرجات والمقامات ، والعبارة تنقطع عن هذا المعنى ، فلا يبقى شرب ولا ذوق ، ولا قمع ولا قهر ، ولا صحو ولا محو ، ومن ثم يطلبون

اسما بالضرورة ليطلقوه على هذا المعنى الذى لا يدخل تحت اسم ولا صفة ، وعندئذ يطلق عليه كل شخص الاسم الذى يكون أكثر تعظيما فى نظره . ولا يجوز التقديم والتأخير فى ذلك الأصل فيقول واحد ان ذاك مقدم ، أو هذا مقدم ، لأن التقديم والتأخير يكون فى الأسماء . وقد بدأ لفريق أن اسم الفقر أكثر تقدما ، فصار فى قلوبهم أعظم ، لأنه يتعلق بالترك والتواضع . وبدأ لفريق أن اسم الصفة مقدم ، فصار أكثر عظما فى قلوبهم ، لأنه اقرب الى ارتفاع الكدر وفناء الآفات . وكان مرادهم من هاتين التسميتين الاعلام والدلالة على ذلك المعنى الذى تنقطع عنه العبارة ، وكانوا يتحدثون عنه فيما بينهم بالإشارة ، فكشفوا وجوده لأنفسهم باتهام الاعلام . ولا خلاف بينهم سواء عبروا عنه بالفقر أو بالصفة .

ثم ان اهل العبارة وأرباب اللسان الذين كانوا يجهلون حقيقة هذا المعنى ، تكلموا فى مجرد العبارة ، وتقدموا واحدا وآخرى الثانى ، وكلاهما عبارة ، ومنارت تلك الجماعة لتحقيق المعانى ، وتخلق هؤلاء فى ظلمة العبارة .

وفى الجملة ، ان هذا المعنى اذا حصل لفرد وجعل منه قبلة قلبه ، فسواء لديه ان سموه فقيرا أو صوفيا ، فكلاهما اسم اضطرارى لذلك المعنى الذى لا يدخل تحت اسم .

ويرجع هذا الخلاف الى زمن أبى الحسن بن شمعون رحمه الله ، فقد كان حينما يكون فى كشف يتعلق بالبقاء يقدم الفقر على الصفة ، وحينما يكون أيضا فى كشف يتعلق بالفناء يقدم الصفة على الفقر ، فقال له أرباب المعانى فى ذلك الوقت : لم تقول هذا ؟ قال للطبع مشرب تام فى الفناء والانقلاب ، ومثله أيضا فى البقاء والعلو ، فحينما أكون فى محل يتعلق بالفناء أقدم الصفة على الفقر ، وحين أكون فى محل يتعلق بالبقاء أقدم الفقر على الصفة ، لأن الفقر اسم الفناء ، والصفة اسم البقاء ، لأننى عن نفسى رؤية البقاء فى البقاء ، ورؤية الفناء فى الفناء ، حتى يفنى طبعى عن الفناء والبقاء .

وهذا كلام طيب من حيث العبارة ، ولكن الفناء يكون للفناء وليس للبقاء . وكل باقى يفنى عن نفسه فهو فان ، وكل فان يبقى بنفسه فهو باقى . والفناء اسم محال فيه المبالغة ليقول شخص أن الفناء يفنى ، لأن المبالغة فى نفى اثر وجود ذلك المعنى ، يمكن أن تكون فى الفناء ، وطالما بقى اثر ، فانه لا يكون فناء بعد ، فاذا حصل الفناء ، فان فناء الفناء لا يكون شيئا سوى الاغراب فى عبارة بلا معنى .

وهذه ترهات أرباب اللسان في وقت عبادة العبارة . ولنا من هذا النوع كلام في كتاب « الفناء والبقاء » ، وقد عملته في أيام هوس الصبا وحدة الأحوال ، ولكنى أورد أحكامه في هذا الكتاب على سبيل الحيلة ، ان شاء الله عز وجل .

هذا هو الفرق بين الفقر والصفوة من حيث المعنى ، أما من حيث المعاملة فهي من قبيل التجرد عن الدنيا ، وإخلاء اليد منها . وترجع حقيقة هذا الى الفقر والمسكنة .

وقد قالت جماعة من المشايخ رحمهم الله : ان الفقير افضل من المسكين ، لأن الله عز وجل قال : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله (١) » . فالمسكين صاحب معلوم ، والفقير تارك للمعلوم ، والفقر عز ، والمسكنة ذل ، وصاحب المعلوم ذليل في الطريقة ، فقد قال النبي عليه السلام : « تمس عبد الدرهم وتمس عبد الدينار وتمس عبد الخبيصة والقطيفة (٢) » وتارك المعلوم عزيز ، لأن اعتماد صاحب المعلوم على المعلوم ، واعتماد تارك المعلوم على الله تعالى . وإذا اتفق لصاحب المعلوم شغل فانه يسير الى المعلوم ، وإذا اتفق لتارك المعلوم شغل فانه يسير الى الله تعالى .

وقالت جماعة أخرى : ان المسكين افضل (من الفقير) لأن النبي عليه السلام قال : « اللهم احينى مسكينا ، وامتنى مسكينا ، واحشرنى في زمرة المساكين (٣) » . وحين ذكر عليه السلام الفقر قال : « كاد الفقر أن يكون كفرا (٤) » . والفقير هو من يتعلق بسبب ، والمسكين هو المنقطع عن الأسباب .

وفي الشريعة — عند طائفة من الفقهاء — أن الفقير صاحب بلغة ، والمسكين مجرد ، وعند طائفة أخرى ، المسكين صاحب بلغة ، والفقير مجرد . ومن هنا يسمى اهل المقامات المسكين صوفيا .

وهذا الاختلاف يرجع الى اختلاف الفقهاء ، رضى الله عنهم ، فالذين يقولون منهم أن الفقير مجرد والمسكين صاحب بلغة ، الفقر عندهم افضل من الصفوة ، والذين يقولون ان المسكين مجرد والفقير صاحب بلغة ، الصفوة عندهم افضل من الفقر .

هذه هي احكام اختلافهم في الفقر والصفوة على سبيل الاختصار ، والله اعلم بالصواب .

(١) سورة « البقرة » آية ٢٧٢

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة : « تمس عبد الدينار ، تمس عبد الدرهم » .

(٣) مكرر : سبق الإشارة اليه .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس : « كاد الفقر أن يكون كفرا » ، وكاد الحسد أن

يكون سبق القدر « (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٨) .

الباب السادس باب بيان الملامة

سلكت طائفة من مشايخ الطريقة طريق الملامة (١) ، وللملامة في خلوص المحبة تأثير عظيم ، ومثرب تام ، وقد اختص أهل الحق من بين العالم جميعا بملامة الخلق ، وبخاصة علماء هذه الأمة ، زاد الله من أمثالهم .
والرسول عليه السلام الذي كان قدوة ، وإماما لأهل الحقائق ، وقدوة للمحبين ، كان — قبل أن يظهر عليه برهان الحق ويتصل به الوحي —

« أهل الملامة » أو « الملامية » : فرقة من فرق الصوفية ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بمدينة نيسابور بخراسان . ويطلق الهجويري على هذه الفرقة اسم : « القصارية » أو « الحمونية » نسبة إلى حدود القصار المتوفى سنة ٢٧١ هـ ، وقد وصله السلسي بأنه شيخ أهل الملامة بنيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامة (طبقات الصوفية ص ١٢٣) . وأساس مذهب الملامية يقوم على الملامة .

و « الملامة » هي : لوم الملامى نفسه ، ولوم الناس له . والمراد بلوم النفس : أن الملامى لا يرى لنفسه خطئا على الإطلاق ، ولا يطمئن إليها ، لأنه يعتقد أن النفس شر محض ، وأنها لا يصدر عنها إلا ما يوافق طبيعتها من رياء ورموعة .
والمراد بلوم الناس : أن الملامى يرى أن معاصيته مع الله سر بينه وبين ربه لا يصح أن يطلع عليه غيره ، فهو حريص على كتمان ذلك السر ، غيور على محبوبه أن يطلع الخلق على صلتبه ، بل أن الملامية خوفا من أن تنكشف أخوالهم وأسرارهم التي يضمنون بها على الخلق ، وخشية أن يتسرب الغرور إلى نفوسهم إذا ما ظهروا للناس بها يوجب محجهم ، يتمددون فعل ما يجلب عليهم سخط الخلق وازدراءهم ، ويجعلهم يطلعون عليهم السنتهم بالذم واللوم . يقول أبو حصن الحداد : « أهل الملامة قوم قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ، ومراعاة أسرارهم ، فلا يأنفون على جبيع ما أظهروا من أنواع القرب والمبادات ، وأظهروا للخلق قبايح ما هم فيه وكتبوا عنهم محاسنهم ، فلا يأنفون الخلق على ظواهرهم ، ولا يأنفون أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم (الملامية والصوفية ص ٨٩) .
واللامية لم يؤلفوا كتباً ، وكل ما اثر منهم إنما هو أقوال لها طابع خاص ، جميعها السلسي في رسالته التي سماها باسمهم . وتعتبر هذه الرسالة أول ما ألف عن الملامية ، وثلا ذلك ما ورد عنهم في كشف المحجوب وعوارف المعارف والفتوحات المسكية .

وقد تعرض الملامية لنقد ابن الجوزي بوصفهم بأنهم استقوا جاهلهم عند الله (تلبس إبليس ص ٣٦٣) بينما أشاد بهم السلسي (أنظر الملامية ص ٨٧) ووضعهم ابن عربى في أعلى درجات السالكين : (أنظر الفتوحات ج ٢ ص ٤٦) .
ووقف منهم السهروردى موقفا وسطا ، فهو يصف الملامى بالاخلاص والمصدق ، ولكنه يضع الصوفى في مرتبة أعلى ويصله بأنه المخلص الخالص (انظر عوارف المعارف ص ٥٤) .

طيب الاسم وعظيما ، وعندما البس خلعة المحبة ، أطلق الخلق فيه لسان الملامة ، فقالت طائفة انه تكاهن ، وقالت أخرى انه شاعر ، وقال فريق انه كاذب ، وقال آخر انه مجنون ، وأمثال هذا .

وقد ذكر الله عز وجل صفة المؤمن فقال : « ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (١) » .

وقد جرت سنة اله العالم جل جلاله على ان كل من يكون له علاقة به ، يجعل العالم كله يلومه ، ويحفظ سره عن الانشغال بلومهم . وهذه غير الحق الذى يحفظ أعباءه من ملاحظة الغير حتى لا تقع على جمالهم عين ، ويحميهم من رؤيتهم لأنفسهم حتى لا يروا جمال انفسهم ويعجبوا بها ، ويقعوا فى آفة العجب والكبرياء ، فسلط عليهم الخلق ليظلموا فيهم السنتهم ، ويمكن منهم النفس اللوامة لتلومهم على كل ما يفعلون ، فاذا فعلوا الشر لامتهم به ، واذا فعلوا الخير رمتهم بالتقصير . وهذا أصل قوى فى طريق الله عز وجل ، لأنه لا يوجد فى هذا الطريق آفة او حجاب اصعب من ان يصير الانسان معجبا بنفسه .

وينشأ أصل العجب من شيئين : أحدهما طلب الجاه لدى الخلق ومدهم ، وذلك : ان فعل العبد يرتضيه الخلق ، فيمدح نفسه ، ويرى نفسه كفاء ، فيعجب بذلك . والآخر ، ان ينال فعل شخص رضاء شخص آخر فيثني عليه ، ويعجب بذلك .

وقد سد الله تعالى بفضل هذا الطريق على أعبائه حتى ان معاملاتهم وان تكن طيبة ، لا يرتضيها الخلق ، لأنهم لا يرونهم رؤية حقيقية ، ومجاهداتهم وان تكن كثيرة ، فانهم لا يرونها بحولهم وقوتهم ، ولا يعجبون بأنفسهم ، حتى حفظوا من العجب بأنفسهم . فمن يرضى عنه الحق لا يرضى عنه الخلق ، ومن يصطفى نفسه لا يصطفيه الحق .

مثال ذلك ابليس ، فقد ارتضاه الخلق ، ولم ترض عنه الملائكة ، وأعجب هو بنفسه . ولما لم يكن مرضيا عنه من الحق ، فقد جر عليه اعجاب الخلق اللعنة .

وآدم صلوات الله عليه ، لم ترض عنه الملائكة وقالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء (٢) » . وهو لم يعجب بنفسه وقال :

(١) سورة « المائدة » آية ٥٤

(٢) سورة « البقرة » آية ٣٠

« ربنا ظلمنا أنفسنا(١) » . ولما كان مرضيا عنه من الحق قال فيه :
« فنسى ولم نجد له عزما(٢) » ، فعدم رضاء الخلق عنه ، وعدم اعجابه
بنفسه ، جلبا له الرحمة ، ليعلم أهل العالم أن المقبول لدينا(٣) مهجور
من الخلق ، والمقبول لدى الخلق مهجور منا . فلا جرم أن تكون ملامة
الخلق غذاء لأحاباب الحق ، لأن فيها آثار القبول ومشرب أوليائه ، لأنها
علامة القرب ، وكما يفرح كل الخلق بقبول الخلق ، يفرحون هم برد
الخلق لهم .

وجاء في أخبار السيد المختار عليه السلام ، وعن جبريل عليه السلام
عن الله عز وجل أنه قال : « أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري إلا
أوليائي » .

**فصل : أما الملامة فعلى ثلاثة أوجه : الأول : استقامة السير ، والثاني :
القصد ، والثالث : الترك .**

فملامة استقامة السير : هي أن يؤدي فرد عمله جيدا ، ويحافظ على
الدين ، ويرعى المعاملة ، فيلومه الخلق في ذلك . ويكون هذا مذهب
الخلق فيه ، وهو فارغ منهم .

وملامة القصد : هي أن يحصل لفرد جاه كبير بين الخلق ، ويصير
مرموقا بينهم ، ويميل قلبه الى الجاه ، ويتعلق طبعه بهم ، ويريد أن يفرغ
قلبه منهم وينشغل بالحق ، فيتكلف طريق الملامة — حتى في الشيء الذي
ليس فيه ضرر في الشرع — لينفر الخلق منه ، ويكون هذا طريقه مع
الخلق ، وهم فارغون منه .

وملامة الترك : هي أن يكون الكفر والضلال الطبيعي متمكنا من
شخص حتى يقول بترك الشريعة واتباعها ، ويقول أن ما يفعله ملامة .
ويكون هذا طريقه فيها .

أما من يكون طريقه الاستقامة ، وعدم مزاوله النفاق ، والكف عن
الرياء ، فلا خوف عليه من ملامة الخلق ، ويكون في كل الأحوال على
مسلكه ، ويستوى لديه أي اسم يسمونه به .

(١) سورة « الاعراف » آية ٢٣

(٢) سورة « طه » آية ١١٥

(٣) أي لدى الحق .

وجدت في الحكايات أن الشيخ أبا طاهر الحرى ، كان يركب يوما حمارا ، وقد أمسك واحد من مريديه بعنان الحمار ، وكان يسير في السوق ، فصاح رجل يقول : هذا الشيخ زنديق . فلما سمع المريد بذلك القول أراد — بدافع من غيرة ارادته لشيخه — أن يرمي الرجل ، وثار جميع أهل السوق أيضا . فقال الشيخ للمريد : اذا لزمت الصمت علمتك شيئا ، لتخلص من هذه المحن ، فصمت المريد . ولما رجعا الى الخانقاه قال للمريد : احضر ذلك الصندوق . فلما احضره ، اخرج منه لفافات من الرسائل ووضعها امامه وقال له : انظر ، لقد ارسل كل شخص الى رسالة وخطبني فيها كل بلقب ، فواحد لقبني بالشيخ الامام ، وآخر لقبني بالشيخ الذكى ، وواحد لقبني بالشيخ الزاهد ، وآخر لقبني بشيخ الحرمين ، وامثال هذا ، وهى كلها القاب وليست اسماء ، ولست شيئا من هذا كله . وقد قال كل منهم كلاما حسب اعتقاده ، ولقبني بلقب ، فان كان ذلك المسكين قد قال كلاما على حسب اعتقاده ، ولقبني بلقب ، فلماذا اثرت كل هذا العداء ؟ .

واما من كان طريقته القصد في الملامة ، وترك الجاه والرياسة ، والكف عن الانشغال بالخلق ، فانه يكون كما روى عن امير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ، من انه كان قادما يوما من بستان نخل — في حال خلانته — وقد حمل على راسه حزمة حطب ، وكان له اربعمائة غلام ، فقيل له : يا امير المؤمنين ، ما هذا ؟ قال : « اريد أن أجرب نفسى » ، هذا حتى لا يمنعه جاهه بين الخلق عن أى عمل . وهذه الحكاية صريحة على اثبات الملامة ، وتوجد حكاية في هذا المعنى عن الامام أبى حنيفة ، تجدها حيث يرد ذكره في هذا الكتاب .

ويروى ايضا عن أبى يزيد أنه كان قادما من الحجاز (١) ، فنودى في المدينة أن أبى يزيد قد جاء . فخرج الناس جميعا لاستقباله وادخلوه المدينة باكرام ، ولما انشغل بجاملتهم ، تخلف عن الحق وتشتت ، فلما دخل السوق ، اخرج من كبه رغيفا واخذ في اكله — وكان هذا في شهر رمضان — فرجع الناس جميعا عنه وتركوه وحده . وكان بصحبته مريد ، فقال له : ألم تر كيف أنى تركت مسألة واحدة من الشريعة فردنى الخلق جميعا ؟

(١) « الحجاز » : جبل مستد حل بين الفجر ، غور تهاه ونجد . وقيل سى الحجاز حجازا لانه فصل بين الفجر والشام وبين البادية . وقال الاعمى في كتاب جزيرة العرب : الحجاز اثنتا عشرة دارا (وذكر على رأسها المدينة وخيبر) . (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥) .

وانا على بن عثمان الجلابي — وفقنى الله — أقول : لقد كان يلزم للملامة في ذلك الزمان فعل مستنكر ، والظهور بشيء مخالف للعادة .
والآن اذا أراد رجل أن يلام ، قل له : أد ركعتين طويلتين ، أو : زاول دينك كاملا ، فان الخلق جميعا يسهونه بالمرأى والكاذب .

واما من كان طريقه الترك ، ويختار ما يخالف الشريعة ويقول اننى اسلك طريق الملامة ، فتلك ضلالة واضحة ، وآفة ظاهرة ، وجنون صادق — على نحو ما يوجد عليه كثيرون في هذه الأيام ، ومقصودهم من رد الخلق لقبول الخلق — لانه يجب أن يكون الشخص أولا مقبولا من الخلق حتى يطلب ردهم ، ويظهر بفعل يردونه به ، اذ ان تكلف الرد لقبول لم يحصل ، يكون حيلة .

واتفق لى ذات مرة أن اصحب أحد هؤلاء الادعياء المبطلين ، فظهر يوما بمعاملة باطلة ، وجعل الملامة عذرا لها . فقال له رجل : هذا ليس بشيء ! فرايته يزمر ، فقلت : يا هذا ، اذا كنت تسلك طريق المعاملة وانت صادق في هذا ، فانكار هذا الرجل لفعلك تأكيد لمذهبك ، وما دام هو يوافقك في طريقك ، فلم الخصومة والغضب ؟ وتصدت هذه اقرب الى الدعوى منها الى الملامة ، وكل من يدعو الخلق يجب أن يدعوهم بأمر له برهان من الحق ، وبرهانه حفظ السنة . ولما كنت أرى منك ترك القرينة ظاهرا وانت تدعو الخلق ، فان هذا الأمر يخرج عن دائرة الاسلام .

فصل : أعلم أن مذهب الملامة في هذه الطريقة ، نشره شيخ زمانه أبو حمدون القصار (١) ، وله في حقيقة الملامة لطائف كثيرة . ويرد عنه ، رحمة الله عليه ، أنه قال : « الملامة ترك السلامة » . واذا تعبد شخص ترك سلامته ، واحاط نفسه بالبلايا ، وتبرا من المألوفات والراحتات جميعا — أملا في كشف الجلال وطلب المال — حتى يئأس من الخلق برد الخلق ، ويقطع طبع الفتنة منهم ، فانه كلما كان اكثر انقطاعا عنهم ، كان اكثر اتصالا بالحق . فكل ما يقبل عليه كل خلق العالم — وهو السلامة — يعرض عنه أهل الملامة ، لتكون همومهم مخالفة للهموم ، وهمتهم مخالفة

(١) كنيته : أبو صالح . واسمه : حمدون بن أحمد بن عمارة القصار . صاحب سلم ابن الحسين الباروسى ، وأبا تراب النخشبى ، وعليها النصراবাদى . كان عالما نقيها يذهب بمذهب الثورى . مات سنة احدى وسبعين ومائتين ودفن ببنسايور . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٢٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٢ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٢ ، نحات الانس ص ٦٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٠) .

للهم ، ويكونوا وجدانيين في أوصافهم ، كما روى أحمد بن فائق (١) عن الحسين بن منصور (٢) أنه سئل : من الصوفي ؟ فقال : وجداني الذات (٣) .

ويرد عن أبي حمدة أنه سئل عن الملامة فقال : إن طريقها صعب ومغلق على الخلق ، ولكني أقول عنها شيئا ، فهي «رجاء المرجئة» (٤) ، وخوف القدريّة (٥) . وتحت هذا المعنى رمز .

اعلم أن هذا الطبع لا يكون أشد نفورا من حضرة الله تعالى بشيء إلا بالقدر الذي يكون كائنا لجاه الخلق ، كان يقول عنه شخص أنه رجل طيب ويمدحه ، فيهبه روحه وقلبه ، ويتخلف به عن الله تعالى . فالخائف يجتهد دائما في أن يكون بعيدا عن موضع الخطر ، وفي هذا الاجتهاد يكون للطالب خطران : أولهما ، الخوف من خجاب الخلق ، والآخر ، منع الفعل الذي أدانته الخلق به ، فيطيلون عليه لسان الملامة ، فلا هو يركن إلى جاههم ، ولا هو يتقار على أن يجعلهم مذنبين بملامته . فينبغي للملامتي أولا ، أن يقطع الخصومة الدنيوية والأخروية عن الخلق بما يقولونه ، وإن يعمل لنجاة قلبه عملا لا هو بالكبيرة ولا بالصغيرة في الشرع ، ليرده الخلق ، حتى يكون خوفه في المعاملة كخوف القدريّة ، ورجاؤه في معاملة اللائمين كرجاء المرجئة .

ولا يوجد في حقيقة المحبة شيء أطيب من الملامة ، إذ ليس للملامة الحبيب أثر على قلب الحبيب ، ولا مرور للحبيب إلا على حى الحبيب ، وليس للغير خطر على قلب الحبيب ، لأن الملامة روضة العاشقين ، ونزهة المحبين ، وراحة المشتاقين ، وسرور المريدين . وهذه الطائفة من الثقلين

(١) أحمد بن فائق بن سعيد : كتيبه : أبو الفائق . بغدادى . صاحب الجنيد والنورى .

كان تلميذا للحلاج وخادما له . (انظر مرجعته في نحات الانس ص ١٥٢) .

(٢) الحسين بن منصور الحلاج : من أهل بيشاور فارس . نشأ بواسط والعراق ، وقتل ببغداد سنة تسع وثلاثمائة (ارجع الي ما ورد من الحلاج في القسم الاول ص ، ترجمة الحلاج في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٣٠٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٤٦ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٨٦ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٣٥ ، نحات الانس ص ١٥٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٧٨) .

(٣) ورد في الرسالة العشرية : سئل عن الصوفي فقال : وجداني الذات لا يقبله أحد ، ولا يقبل أحدا . (انظر الرسالة ج ٢ ص ٥٥١) وعلى هذا تكون العبارة السابقة لهذا القول : ويكونوا وجدانيين في أوصافهم .

(٤) يقول ابن حزم أن فرق القرنين بلمة الاسلام خمسة وهم : أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والشيعية والخوارج . واقترب فرق المرجئة إلى أهل السنة من ذهب مذهب أبي حنيفة إلى أن الايمان هو التصديق باللسان والقلب معا ، أما فلاة المرجئة فطائفتان : أحدهما تقول أن الايمان عقد بالقلب فقط وأن أظهر الكفر والتثليث بلسانه ، والطائفة الثانية تقول أن الايمان هو القول باللسان وأن اعتقد الكفر بقلبه (انظر : الفصل في الملل ج ٢ ص ١١١ - ١١٢ ، ج ٤ ص ٢٠٤) .

(٥) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ١٢٩) .

مخصوصون بملامة الجسد من أجل سلامة القلب ، ولم تكن لاي أحد من الخلائق المقربين والكروبيين والروحانيين هذه الدرجة ، ولم تكن هذه المرتبة أيضا لمن كانوا من الزهاد والعباد أعيان الخلق من الأمم السابقة إلا لهذا الفريق من هذه الأمة ، الذين سلكوا طريق انقطاع القلب .

أما عندي ، فطلب الملامة عين الرياء ، والرياء عين النفاق ، لأن المرائي يسلك الطريق الذي يقبله الخلق ، والملائي يسلك بالتكلف الطريق الذي يردده الخلق . وهذان الفريقان ظلوا في الخلق ولا مخرج لهم منهم ، حتى تكون طائفة قد خرجت بهذه المعاملة ، والأخرى خرجت بذلك . ولا يخطر على قلب الفقيه غير حديث الحق ، وحين يقطع قلبه عن الخلق يكون فارغا من هذين المعنيين ، ولا يقيد به شيء .

وقد انتقت لى ذات مرة صحبة أحد الملامية في ما وراء النهر ، وعندما تملكنى في الصحبة حال من البسط قلت له : يا أخى ! ما مرادك من هذه الأنفعال المشوشة ؟ قال : خلوا الخلق منى . فقلت له : هؤلاء الخلق كثير ، ولن تجد العمر والزمان والمكانة لاخلاء الخلق منك ، فاخل أنت نفسك من الخلق لتخلص من هذه المشاغل ! ويوجد فريق منشغلون بالخلق ويظنون أن الخلق مشغولون بهم . أن أحدا لا يراك ، فلا تر أنت نفسك ! وآفة حالك من عينك . ثم ، ما شأنك بالغير ؟ من يلزمه طلب الشفاء من الاحتشاء ويطلبه من الغذاء ، فليس من الناس .

وهناك أيضا جماعة يمارسون الملامة لرياضة النفس ، لتتأدب نفوسهم باحتقار الخلق لهم ، وينتصفون منها ، لأن أطيب أوقاتهم ما يجدون فيه نفوسهم في البلاء والمهانة .

ويروى عن السيد إبراهيم بن أدهم رحمه الله أنه سئل : أرأيت نفسك قد بلغت المراد أبدا ؟ قال : نعم ، رأيت ذلك مرتين : مرة ، كنت قد ركبت سفينة لم يعرفنى بها أحد ، وكنت ألبس خلعا ، وقد طال شعرى ، وكنت على حال كان أهل السفينة معه يسخرون منى ويهزأون بى . وكان مع القوم مهرج يأتى الى كل لحظة ويشد شعرى وينتزع منى ، ويستخف بى على سبيل السخرية . وكنت أجد نفسى على مرادى ، وأفرح بذلك نفسى ، الى أن بلغ السرور يوما غايته بأن قام المهرج وتبول على !

والمرة الثانية : انى بلغت قرية في مطر عظيم ، وقد غلبنى برد الشتاء وابتلت المرتقة على جسدى ، فوصلت الى مسجد فلم يدعونى ادخل هنالك . وقصدت مسجدا ثانيا وثالثا حتى عجزت ، وعصف بى البرد ،

فدخلت في موقد حمام ، وبسطت ذيلي على النار ، وتصاعد الدخان من
تحتي فاسود ثوبي ووجهي ، فبلغت مرادي في تلك الليلة .

وقد وقعت لي أنا على بن عثمان الجلابي — وفقني الله — واقعة ذات
مرة ، وقمت بكثير من المجاهدة على أمل أن تحل تلك الواقعة ، فلم تحل .
وكانت قد وقعت لي مثل تلك الواقعة من قبل ، فأتيت مجاورا على قبر
الشيخ أبي يزيد (البسطامي) إلى أن حلت ، فقصدت هنالك هذه المرة
أيضا ، وبقيت على قبره مجاورا ثلاثة أشهر ، وكنت أغتسل كل يوم ثلاث
مرات ، وأتوضأ ثلاثين مرة ، أملا في كشف تلك الواقعة ، فلم تحل البتة .
ونہضت وذهبت إلى خراسان (١) ، وبلغت في الليل قرية في ولاية
« كمش » (٢) حيث توجد خانقاة بها جماعة من المتصوفة ، وكنت وفقا
للسنة المتبعة ، ارتدى مرقعة خشنه ، ولم يكن معي من آلة أهل الرسم
غير عصا وركوة ، وبدوت حقيرا جدا في أعين تلك الجماعة ، ولم يعرفني
منهم أحد ، وأخذ كل منهم يقول للآخر اني لست منهم ، وكان ذلك حقا
لأنني لم أكن منهم ، ولكن كان لابد من قضاء تلك الليلة في ذلك المكان !
وفي تلك الليلة اجلسوني على سطح ، وذهبوا هم إلى سطح أعلى ،
واجلسوني على أرض جافة ووضعوا أمامي خبزا غفنا ، وكانت تصل إلى
رائحة الاحسية التي كانوا يأكلونها ، وأخذوا يسخرون مني من ذلك
السطح العلوي ، فلما فرغوا من الطعام أخذوا يأكلون الخربوز (٣) ،
ويلقون بقشره فوق رأسي على سبيل المزاح . وكنت أنحمل استخفافهم
راضيا وأقول : يا الهي ، لو لم يكونوا يرتدون ثياب احباك لما تحملت
منهم هذا . وكلما ازدادت سخريتهم بي ازداد قلبي سرورا ، حتى حلت
واتعتى بتحمل هذا العبء . وأدركت في الحال لماذا أنسح المشايخ —
رحمهم الله — للجهال طريقا بينهم ، ويحتملون عبثهم .

هذه هي أحكام الملامة كاملة أوضحتها . وبالله التوفيق .

(١) « خراسان » : بلاد واسعة أول حدودها ما يلي العراق ، وآخر حدودها ما يلي
الهند طخارستان وفزنه وسجستان وكرمان وليس ذلك منها انما هو اطراف حدودها .
وتشتمل على امهات من البلاد منها نيسابور وهراة وهره وهي كانت قصبته وبلغ
وطالقان ونسا وابيورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون .
وقد فتحت اكثر هذه البلاد عنوة وصلحا سنة ٢٠ في أيام عثمان . ونيسابور اكبر
مدن خراسان وقد صارت عاصمة هذا الاقليم منذ اتخذها امراء الطاهريين عاصمة
لهم (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٠٩ وما بعدها) .

(٢) كمش : « قوس » : كورة واسعة تشتمل على مدن وقري ومزارع وهي في ذيل
جبال طبرستان وقصبته دامغان وهي بين الري ونيسابور . ومن مدنها الشهيرة
بسطام (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٠٣) .

(٣) الخربوز معرب (خربوزه) نوع من أنواع الشمام طو المذاق جدا وتوامه من
الداخل أصلب من الشمام وأبيض اللون ، أما لون قشره من الخارج فأغبر تغلب
عليه الخضرة الداكنة المعرة ، وأجود أنواعه باصفهان .

الباب السابع

باب في ذكر أئمتهم من الصحابة والتابعين واتباع التابعين رضي الله عنهم أجمعين

والآن أذكر طرفا من أحوال أئمتهم من الصحابة الذين كانوا هداة لهم وقدوتهم في المعاملة ، وانفاسهم وقوادهم في الأحوال بعد الانبياء من السابقين الأولين من المهاجرين والانصار رضوان الله عليهم ، ليكون تأكيدا لاثبات مرادك ان شاء الله تعالى عز وجل .

منهم شيخ الاسلام وبعد الانبياء خير وافضل الانام ، خليفة النبي ، وامام وسيد اهل التجريد، وهادي أرباب التفريد ، والبعيد عن الآفات النفسية، « أبو بكر عبد الله بن عثمان الصديق (١) » رضي الله عنه ، صاحب الكرامات المشهورة ، والآيات والدلائل الظاهرة في المعاملات والحقائق . وقد ذكر طرف من أحواله في باب التصوف. ويعدده المشايخ مقدم أرباب المشاهدة، لقلة حكاياته ورواياته ، ويعدون عمر رضي الله عنه مقدم أرباب المجاهدة ، لصلابته ومعاملته .

(١) اسمه عبد الله ، واسم أبيه ، أبو حمزة عثمان ، وكان اسم أبي بكر في الجاهلية ، عبد الكعبة ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، ولقبه عتيقا . ويقال لقب عتيقا لجباله ، ويقال لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أنت عتيق من النار . وسى صديقا ، لتصديقه خبر الاسراء ، فهو : عبد الله ابن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . وينسب أبو بكر الى تيم قريش فيقال له التيمي ، وهو يلتقى مع الرسول عليه السلام عند مرة بن كعب .

وكان أول من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به من أصحابه على بن أبي طالب ثم زيد بن حارثة ثم أبو بكر . وبويع أبو بكر في اليوم الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ستيفة بنى ساعده بن كعب بن الخزرج . ثم بويع بيعة العابة . وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسع ليال . مات في جبادي الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة . دفن مع النبي صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة ابنته زوج الرسول صلى الله عليه وسلم . والصوفية يعدون أبا بكر إمامهم وقدوتهم في التجريد . يقول أبو بكر الواسطي « أول لسان الصوفية : ظهرت في هذه الأمة على لسان أبي بكر. رضي الله عنه إشارة فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء . ويقول السراج في شرح قول الواسطي : انه يشير بهذا الى قول أبي بكر ، عندما سأله النبي صلى

ومستور في الأخبار الصحاح ، ومشهور بين أهل العلم ، ان أبا بكر حين كان يصلى بالليل ، كان يقرأ القرآن بصوت خفيض ، وكان عمر عندما يصلى ، يقرأ بصوت جهير . وسأل الرسول عليه السلام أبا بكر : لم تقرأ بصوت خفيض ؟ قال : « اسمع من أناجي » فانا أعرف انه غير بعيد عني ، ويستوى لدى سماعه الخفيض والجهير . وسأل عمر ، فقال : « أوقف الوسنان وأطرد الشيطان » ، فدل هذا (عمر) على المجاهدة ، وذلك (أبو بكر) على المشاهدة . ومقام المجاهدة في جنب مقام المشاهدة مثل قطرة في بحر ، ولهذا السبب قال النبي عليه السلام لعمر : « وهل أنت الا حسنة من حسنات أبي بكر » فاذا كان عمر — وهو الذي كان به عز الاسلام — حسنة من حسنات أبي بكر ، فانظر كيف يكون العالمون ؟ !!

يرد عنه انه قال : « دارنا فانية ، وأحوالنا عارية ، وأنفاسنا معدودة ، وكسلنا موجود » .

فعمارة الدار الفانية من الجهل ، والاعتماد على الحال العارية من البله ، وتوطين القلب على الأنفاس المعدودة من الغفلة ، وتسمية الكسل بالدين من الغين ، لأن ما هو عارية يسترد ، وما هو عابر لا يبقى ، وما يأتي تحت العدد ينتهي ، وليس للكسل دواء .

وقد بين لنا رضى الله عنه انه لا خطر للدنيا والديوى حتى ينبغي شغل الخاطر بهما ، لأنك اذا شغلت بالفانى حجبت عن الباقي ، ولما صارت النفس والدنيا حجابا للطالب عن الحق ، أعرض أعباؤه عنهما . ولما عرفوا ان الدنيا عارية ، والعارية ملك لآخر ، كفوا عن التصرف في ملك الآخرين .

ويرد عنه أيضا انه رضى الله عنه قال في مناجاته : « اللهم أبسط لى الدنيا وزهدينى فيها » وتحت هذا رمز يعنى : أعطنى الدنيا أولا لأشكر ، ثم وفقنى لكى أكف عنها وأعرض عنها من أجلك ، لاكون قد أدركت درجة

= الله عليه وسلم : ايش خلعت لعياك ؟ قال : الله ورسوله ، فهى اشارة جليلة لأهل التوحيد في حقائق التجريد .

وحكى عن الجنيد البغدادي ، انه قال : أشرف كلمة في التوحيد قول أبى بكر : سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالمعجز من معرفته » .

(أنظر المعارف ص ٧٢ — ٧٧ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٠٦ — ١١٧ ، مروج الذهب ج ١ ص ٤١٢ ، اللع ص ١٦٨ — ١٧٢ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٤ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٧ — ٩) .

الشكر والانفاق ، وكذلك مقام الصبر ، وحتى لا أكون مضطرا في الفقر ، فيكون الفقر لى باختيارى .

وهذا رد شيخ المعاملة الذى قال : من يكون فقره اضطرارا فهو اثم ممن يكون فقره اختيارا ، لانه اذا كان فقره اضطراريا كان هو صنعة للفقر ، واذا كان فقره اختيارا كان الفقر صنعة له ، وعندما يكون كسبه منقطعا عن جلب الفقر فانه يكون افضل من ان يجعله لنفسه درجة بالتكلف .

ونقول : ان صنعة الفقر تكون اظهر عند من تستولى ارادتها على قلبه في حال الغنى ، الى حد ان يصرف عن محبوب آدم وفريته ، الا وهو الدنيا ، وليس ذلك الذى تستولى على قلبه في حال الفقر الرغبة في الغنى الى حد انها تدفعه الى اعتاب الظلمة والسلطين من اجل المال ، فصنعة الفقر هى الانتقال من الغنى الى الفقر ، لا طلب الرياسة في الفقر .

والصديق الاكبر رضى الله عنه — وهو المقدم على كل الخلق بعد الانبياء ولا يجوز ان يتقدمه احد — قد قدم الفقر الاختيارى على الفقر الاضطرارى . وكل مشايخ المتصوفة على هذا ، الا ذلك الشيخ الذى ذكرنا حجه ومقاتله ورددنا عليه . ثم ان الصديق الاكبر اكد هذا ، ودلل عليه بالدليل الواضح .

روى عنه الزهرى انه حين بويع بالخلافة ، اعتلى رضى الله عنه المنبر وخطب ، وقال في اثناء الخطبة : « والله ما كنت حريصا على الامارة يوما ولا ليلة قط ، ولا كنت فيها راغبا ، ولا سألتها الله قط في سر ولا علانية ، وما لى في الامارة من راحة » .

وحين يوصل الله عز وجل العبد الى كمال الصدى ، ويكرمه في محل التمكين ، فانه ينتظر وارد الحق ليرى على اى صفة يجرى ويمضى عليها ، فاذا جاء الامر له بالفقر يكون فقيرا ، واذا جاء الامر بالغنى يكون غنيا ، فلا يتصرف في هذا ولا يختار ، كما فعل الصديق رضى الله عنه في البداية . ولا يكون له فيه ايضا الا التسليم ، كما فعل في النهاية ، فبه اقتداء هذه الطائفة في التجريد والتمكين ، والحرص على الفقر ، وترك الرياسة ، من بعد ان أصبح ائمة دين المسلمين عامة ، وامام اهل هذه الطريقة خاصة ، رضى الله عنه .

ومنهم : قائد اهل الايمان وفقير اهل الاحسان ، امام اهل الحقائق ،

وغريق بحر المحبة ، أمير المؤمنين « أبو حفص عمر بن الخطاب (١) » رضى الله عنه ، صاحب الكرامات المشهورة والفراسات المذكورة ، خصه الله بالفراسة والصلابة ، وله لطائف في هذه الطريقة ، وحقائق في هذا المعنى ، كما قال عليه السلام : « الحق ينطق على لسان عمر (٢) » . وقال أيضا عليه السلام : « قد كان في الأمم محدثون فان يك في أمتي نفعي (٣) » . وله في هذه الطريقة رموز لطيفة كثيرة لا يمكن حصرها كلها في هذا الكتاب .

ويرد عنه انه قال : « العزلة راحة من خطاء السوء » . والعزلة على نوعين ، أولهما : الاعراض عن الخلق ، والآخر : الانتقطاع عنهم .

(١) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قوط بن رزاح بن عدى بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، وينسب إلى عدى فيقال العدوى ، ويكنى أبا حفص . وكان يدعى الفاروق لأنه أعلن الاسلام ونادى به والناس يخفونه ، ففرق بين الحق والباطل . وكان المسلمون يوم أسلم تسعة وثلاثين رجلا وامرأة يمكة نكلهم عمر أربعين . وقال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر . عهد إليه أبو بكر واستخلفه بعده . وكان أول عمل قام به ، رد سبايا أهل الردة إلى عشائهم وقال : انى كرهت أن يصير السبى سنة على العرب . وحج بالناس عشر سنين متوالية ، ثم صدر إلى المدينة ، فقتله (فيروز أبو لؤلؤة) غلام المغيرة بن شعبه في أواخر ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، وقبر في حجرة عائشة رضى الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضى الله عنهما . وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال . من عمر قيام شهر رمضان وكتب بذلك إلى البلدان . سعى أمير المؤمنين ، وكان يسمى خليفة رسول الله . وكتب إليه أبو موسى الأشعري « لعبد الله عمر أمير المؤمنين » ووجرت عليه . كان في وجهه خطن من كثرة البكاء ، وكان يحب الصلاة في وسط الليل ، وكان يمر بالآية في ورده فتخفته العبرات نبيكى حتى يسقط ثم يلزم بيته حتى يباد ، يحسبونه مريضا .

كان في أعلى درجات الصديقين وظهرت عليه دلائل ذلك ، وهو ما ذكر عنه من أنه كان يخطب نصاح فقال في وسط خطبته : يا سارية الجبل ! وسارية في عسكر على باب نهاوند . نسمع صوت عمر رضى الله عنه وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو . وقيل لسارية : كيف علمت ذلك ؟ قال : سمعت صوت عمر رضى الله عنه يقول : يا سارية ! الجبل ! الجبل ! وكان رضى الله عنه يقول : لو كان الصبر والشكر بعميرين لم أبال أيهما ركبت .

ويقول السراج : لأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمير ، رضى الله عنه ، بمعاني . خص بذلك عمر من اختياره لبس الرقعة والخشونة ، وترك الشبوات واجتناب الشبهات ، وإظهار الكرامات ، وقلة المبالاة من لائمة الخلق عند انتصاب الحق ، ومحق الباطل ، ومساوات الأقارب والإباعد في الحقوق ، والتبسك بالأشد في الطامات وغير ذلك مما روى عنه وبيانه يطول .

(أنظر ترجمته في : المعارف ص ٧٧ - ٨٢ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١١٧ - ١٣٩ ، مروج الذهب ج ١ ص ١١٦ ، اللبص ص ١٧٢ - ١٧٥ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٤ - ١٥ ، خزينة الأصفاء ج ١ ص ٩ - ١٢) .

(٢) رواه الحكيم عن الفضل بن عباس : « الحق بعدى مع عمر حيث كان » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٥٩) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة : « قد كان فيها مضي قبلكم من الأمم أناس محدثون فان يك في أمتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٢) .

والاعراض عن الخلق هو اختيار مكان خال ، وتجنب صحبة الأجناس بالظاهر ، والركون الى النفس لرؤية الأعمال ، وتخليص النفس من مخالطة الناس ، وتأمين الخلق من شرك .

اما الانقطاع عن الخلق فيكون بالقلب ، وليس لصفة القلب اى تعلق بالظاهر ، فحين ينقطع الشخص بقلبه عن الخلق وصحبته ، لا تكون له دراية بالخلوقات حتى يستولى التفكير فيهم على قلبه ، ومن ثم فان هذا الشخص وان يكن بين الخلق ، فانه يكون وحيدا ، وتكون هيمته فريدة عنهم . وهذا مقام عال وبعيد جدا وصحيح . وكانت هذه صفة عمر رضى الله عنه ، الذى اثار الى راحة العزلة ، وان كان بالظاهر فى ولاية الامارة والخلافة .

وهذا دليل على أن أهل الباطن وان خالطوا الخلق فى الظاهر ، فان قلوبهم تكون متعلقة بالحق ، ويكونون راجعين اليه فى كل حال ، ويعدون ذلك القدر من صحبتهم للخلق بلاء من الحق . وهم لا يتحولون عن الحق تعالى بصحبتهم للخلق ، لأن الدنيا لا تصفو أبدا لأحباب الحق ، ولا تنها أحوالها ، كما قال عمر رضى الله عنه : « دار أسست على البلوى بلا بلوى محال » .

وكان عمر رضى الله عنه من خواص أهل الرسول عليه السلام وأصحابه ، وكان مقبولا فى حضرة الحق تعالى بجميع انفعاله ، الى حد أن جاء جبريل عليه السلام عندهما أسلم عمر وقال للرسول عليه السلام : « يا محمد قد استبشر أهل السماء اليوم بإسلام عمر » . وبه اقتداء هذه الطائفة فى لبس المرتعة والصلابة فى الدين من بعد أن صار رضى الله عنه اماما للخلق فى كل شيء .

ومنهم ايضا : جوهر كنز الحياء ، واعبد أهل الصفاء ، والمتعلق بأعقاب الرضا ، والمتكئ على طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه : « أبو عمرو عثمان بن عفان (١) » رضى الله عنه . ذو الفضائل الواضحة ، والمناقب الظاهرة فى جميع المعانى .

(١) هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة ، ويجمع نسبته مع النبي صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف ، زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته : رقية وأم كلثوم . سمي ذا النورين لجمعه بينهما . وهو من المهاجرين الأولين ، هاجر الى الحبشة وهاجر الى المدينة . اشترى بئر رومة فى المدينة ، وكان لليهودى يبيع ماءها للمسلمين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من يشترى رومة فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه فى دلائهم وله بها مشرب فى الجنة ؟ فأتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها =

ويروى عبد الله بن رباح وأبو قتادة — رضى الله عنهما — أنه في يوم حرب الدار ، كنا عند عثمان رضى الله عنه ، فلما اجتمع الغوغاء على بابه ، شهر غلمانة السلاح ، فقال لهم : عثمان : كل من لا يخلع السلاح فهو حرمى . وخرجنا خوفا على أنفسنا ، فلاح الحسن بن على في الطريق ، ورجعنا معه ، ودخلنا على عثمان لنرى لم أقبل الحسن رضى الله عنه ، فلما دخل الحسن ، حياه وعزاه على تلك البلية ، وقال : يا أمير المؤمنين ! أنا لا أستطيع أن أسل السيف على المسلمين بدون أمرك وأنت أمام القوم ، فمرنى أن أدفع عنك بلاء هؤلاء القوم . فقال له عثمان : « يا ابن أخى ! ارجع واجلس في بيتك حتى يأتى الله بأمره ، فلا حاجة لنا في اهراق الدماء » .

وهذا علامة التسليم في حال ورود البلاء ، في درجة الخلّة ، كما حدث لإبراهيم عليه السلام عندما أشعل النمرود النار وألقى به فيها ، فقد جاءه جبريل عليه السلام وقال : « هل لك من حاجة » قال : « أما اليك ، فلا » فقال : فسل الله . قال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » ، فعثمان في مكان الخليل ، والغوغاء في مكان النبار ، والحسن في مكان جبريل . ولكن إبراهيم عليه السلام قد نجا من البلاء ، وعثمان رضى الله عنه هلك في البلاء .

فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين . فكان يوم له ويوم لعثمان . فإذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكتفون يومين ، فقال اليهودى لعثمان : أفسدت على ماشرت النصف الآخر فاشتره بثمانية آلاف درهم . وبوع في غرة محرم سنة أربع وعشرين وهو ابن تسع وستين سنة . وكانت أيامه اثنى عشرة سنة وحج بالناس إليه كلها إلا السنة الأولى . حوصر أربعين يوما وقتل في ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، وقيل أن الذين قتلوه : محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن أبى خزيمة وابن حزم . فلما دخلوا عليه من دار بنى حزم ضربه أحدهم بسحق في وجهه فسال الدم على المصحف في حجره . ثم أخذ محمد ابن أبى بكر بلحيته ... ودفن بالبقيع ليلا وأخفوا قبره .

ويقول السراج أن عثمان رضى الله عنه خص بالتكئين ، والتكئين من أعلى مراتب المحتقين . وما يتعلق به أهل الحقائق بعثمان ، ما روى عنه من أنه حمل حزمة حطب من بعض يسائنه ، وكان له عدة مباليك ، فقيل له : لو دعتنا إلى بعض عبيدك ؟ فقال : انى قد استطعت أن أعمل ذلك ، ولكن أردت أن أجرب نفسى هل يعجز عن ذلك وهل تكره ذلك ؟ فدل على أنه كان لا يدع اقتصاد نفسه ، وكان يفتقد رياضة نفسه لئلا يسكن إلى ما جمع إليه من الأموال لانه ليس في ذلك كفره .

وما يدل على تخصيصه بالتكئين والثبات والاستقامة ما روى عنه أنه يوم قتل لم يبرح موضعه ، ولم يأن لأحد بالقتال ، ولا وضع المصحف من حجره إلى أن قتل ، رضى الله عنه ، وسال الدم على المصحف وتلطخ بالدم ووقع الدم على موضع الآية : « فسيتكبرهم الله وهو السميع العليم » .

(انظر ترجمته في المعارف ص ٨٢ — ٨٥ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١٢٩ — ١٥٢ ، مروج الذهب ج ١ ص ٢٢٢ ، اللع ص ١٧٦ — ١٧٨ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ١٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١٢ — ١٥) .

والنجاة تعلق بالبقاء ، وللهلاك تعلق بالفناء ، وقد ذكرت طرفا من الحديث في هذا المعنى من قبل .

فاقتداء هذه الطائفة بعثمان رضى الله عنه في بذله المال والحياة ، والتسليم في الأمور ، والاخلاص في العبادة . وهو على الحقيقة امام حق في الحقيقة والشرعية ، وطريقته في المحبة ظاهرة . وبالله التوفيق .

● ومنهم ابن عم المصطفى ، وغريق بحر البلاء ، وحريق نار الولاء ، وقدرة الاولياء والاصفياء ، « أبو الحسن على بن أبى طالب (١) » كرم الله

(١) هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . ويكنى أبا الحسن ، ابن عم الرسول عليه السلام وزوج ابنته فاطمة . ببيع بيعة العامة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مقتل عثمان بأربعة أيام . وباع له بالمدينة طلحة والزبير . وسار الى البصرة سنة ست وثلاثين وفيها كتلت واقعة الجبل بينه وبين طلحة والزبير وعائشة . وقتل طلحة وهزم من كان معهم . ورجع الزبير فقتل بوادي السباع . وأحيط بعائشة فأخذت ، ودخل على البصرة فبايعه أهلها . وأرسل عائشة الى المدينة ووجه معها سبعين امرأة من عبد القيس في ثياب الرجال حتى وافوا بها المدينة ، ثم انصرف على بعد ذلك الى الكوفة واستعمل على البصرة عبد الله بن عباس . ونهيا لحرب معاوية فسار بأهل العراق ، وأقبل معاوية في أهل الشام ومن أتبعه فكانت مؤتمنة صنفين ثم الحكماء . ولم يزل في حرب الى أن قتل رحمه الله ولم يحج لشغله بالحروب . وكان مقتله في رمضان سنة أربعين ، وقاتله عبد الرحمن بن ملجم ، ودفن بالكوفة عند مسجد الجامعة في قصر الإمارة . وكانت ولايته خمس سنين الا ثلاثة أشهر . ويقول السراج : لأمر المؤمنين على رضى الله عنه خصومية من بين جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعاني جليلة وإشارات لطيفة ، والفاظ مفردة ، وعبارة وبيان للتوحيد والمعرفة والإيمان ، والعلم وغير ذلك ، وخصال شريفة تعلق وتخلق بها أهل الحقائق من الصوفية : من ذلك أنه سئل : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفني نفسه ، لا تشبه صورته ، ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس ، قريب في بسمه ، بعيد في قربه ، فوق كل شيء ولا يقال شيء تحته ، وتحت كل شيء ولا يقال شيء فوقه ، أمام كل شيء ولا يقال شيء أمامه ، داخل في الأشياء لا كشيء ولا من شيء ولا في شيء ولا بشيء . سبحانه من هو هكذا ولا هكذا غيره .

وسأله رجل من الإيمان فقال : الإيمان على أربع دعائم : على الصبر واليقين والعدل والجهاد ، توصف كل واحد منها على عشر مقامات ، فان صح ذلك عنه فهو أول من تكلم في الأحوال والمقامات .

ونكر عنه أنه وقف على باب خزانة الأموال وقال : يا صفراء ويا بيضاء غري غري . ويقال أنه كان إذا جاء وقت الصلاة يتزلزل ويتغير لونه ، فيقال له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : جاء وقت آية عرشها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال فابين أن يحلنها وأشفقن منها وحلها الإنسان ، فلا أدري أحسن أداء ما احتلت أم لا ؟

وكان رضى الله عنه يقول : القلوب أوعية وخيرها أوعاها . ويقول : التقوى هي ترك الإصرار على المصيبة وترك الاغترار بالطاعة .

وكان الجند يقول : رضوان الله عليه أمير المؤمنين على لولا انشغاله بالحروب لأنادنا من ملينا هذا معاني كثيرة ، ذاك امرؤ أعطى العلم اللدني . والعلم اللدني هو العلم الذي خص به الخضر عليه السلام .

(انظر : المعارف ص ٨٨ - ٩٠ ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٤ - ١٨٩ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢ - ٥ ، الملح ١٧٩ - ١٨٢ ، طبقات الشعرائي ج ١ ص ١٥ - ١٧ ، خزينة الاصفياء ط ص ٥ - ٢٦) .

وجهه . وله في هذه الطريقة شأن عظيم ، ودرجة رفيعة . وكان له حظ تام . في دقة التعبير عن أصول الحقائق الى حد أن قال الجنيد رحمه الله : « شيخنا في الأصول والبلاء على المرتضى » رضى الله عنه .

أى أن عليا رضى الله عنه هو امام هذه الطريقة في العلم والمعاملة ، فأهل الطريقة يطلقون على علم الطريقة اسم الأصول ، ويسمون تحمل البلاء فيها بالمعاملات .

ويحكى أن رجلا ذهب اليه وقال له : يا أمير المؤمنين ! أوصنى . فقال له : « لا تجعل أكبر شغلك بأهلك وولدك ، فان يكن أهلك وولدك من أولياء الله ، فان الله لا يضيع أولياءه ، وان كانوا أعداء الله ، فما همك وشغلك لأعداء الله » .

وهذه المسألة تتعلق بانقطاع القلب عما دون الحق جل جلاله ، لأنه يحفظ عباده كما يريد متى كان يقيئهم صادقا ، كما ترك موسى عليه السلام ابنه شعيب عليه السلام في حال قاسية وأسلم أمرها الله ، وكما حمل إبراهيم هاجر وإسماعيل عليهما السلام الى واد غير ذى زرع ، وأسلم أمرهما لله جل جلاله ، ولم يجعلهما أكبر شغلها ، وربط قلبيهما بالحق تعالى حتى تحقق مرادهما في الدنيا والآخرة في حال انعدام المراد ، بتسليم الأمور لله عز وجل .

وهذا شبيه بما قاله على كرم الله وجهه لسائل كان قد سألته : ما أظهر الكسب ؟ قال : « غناء القلب بالله » .

وكل قلب يكون غنيا بالله تعالى لا يصيره عدم الدنيا فقيرا ، ووجودها لا يسره . وترجع حقيقة هذا الى الفقر والصفوة ، وقد مر ذكرهما . فأهل هذه الطريقة يقتدون به في حقائق العبارات ودقائق الإشارات ، والتجرد عن معلوم الدنيا ، والنظر في تدبير الحق .

ولطائف كلامه أكثر من أن تحصي ، ومنهجى في هذا الكتاب هو الاختصار ، وبالله التوفيق .

الباب الثامنة باب في ذكر أئمتهم من أهل البيت

واهل بيت النبي عليه السلام هم اولئك الذين اختصوا بطهارة الأصل ،
ولكل منهم في هذه المعاني قدم راسخة ، وكانوا كلهم قدوة هذه الطائفة ،
الخواص منهم والعوام . وابين طرفا من أحوال طائفة منهم ، ان شاء
الله عز وجل .

● منهم فلذة كبذ المصطفى ، وريحانة قلب المرتضى ، وقرّة عين الزهراء :
« أبو محمد الحسن بن علي (١) » كرم الله وجهه ، كان ذا نظر صائب في
هذه الطريقة ، وحظ وافر في دقائق العبارات ، الى حد انه عندما أوصى
قال : « عليكم بحفظ السرائر فان الله تعالى مطلع على الضمائر » .

وحقيقة هذا ان العبد مخاطب بحفظ الأسرار مع الحق ، وحفظ الاظهار
من مخالفة الجبار .

(١) كان يكنى أبا محمد ، بويح بعد وفاة أبيه في رمضان سنة أربعين ، ووجه عماله
الى السواد والجليل ، ودعا بمبد الرحمن بن بلجم وقتله . وقدم معاوية العراق ،
وكان الحسن عليلا . تد تفرق عنه أصحابه فلما رأى انه لا قوة به ، صالح معاوية ،
وصنع المنبر وقال : « ايها الناس ! ان الله هداكم باولنا وحقق دماغكم بآخرنا ،
وقد سالت معاوية ، وان ادري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » . ودخل معاوية
الكوفة بعد صلح الحسن . ومات الحسن في ربيع الاول سنة احدى
وأربعين وهو ابن خمس وخمسين سنة ، ودفن بالبقيع مع امه فاطمة بنت رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وبقي خليفة بالحجاز واليمن والمراق نحو سبعة
اشهر .

ويقال ان معاوية حرص عليه امراته جعدة بنت الاشعث بن قيس ، فغدى اليها
انك ان احتلت في قتل الحسن وجهت اليك بمائة ألف درهم وزوجتك يزيد :
فكان ذلك الذي بعثها على سمه ، فلما مات وفي لها معاوية المال وأرسل اليها :
انا نحب حياة يزيد ولولا ذلك لوئنا لك بتزويجه .

كان رضى الله عنه يقول : انى لأستحي من ربي عز وجل ان ألقاه ولم أمش
الى بيته تمشي عشرين مرة الى مكة من المدينة على رجليه . وكانت الجنائب تغاد
معه . وخرج من ماله لله تعالى مرتين . وكان اذا اشترى أحد حائطا ثم افتقر
البائع يرد عليه الحائط ويردنه بالثمن معه . وما قال قط لسائل : لا . ولما
نزل الموت به بعد شربه السم ، قال أخرجوا فراشي الى صحن الدار ، فأخرج ،
فقال : اللهم انى احتسب نفسي عندك فانى لم أصب بظلمة ، ثم قبض .
(انظر : المعارف ص ٩٢ ، اليمقوبى ج ٢ ص ١٦١ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٥٠ .
— ٥٣ — طبقات الشمرانى ج ١ ص ٢١ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٦) .

ويرد عنه أنه عندما غلب شأن القدرية ، وتشتت مذهب الاعتزال في الدنيا ، كتب الحسن البصرى رضى الله عنه الى الحسن بن على رضى الله عنهما ، كتابا قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : السلام عليك يا ابن رسول الله وقرّة عينه ورحمة الله وبركاته . أما بعد ، فانكم معشر بنى هاشم كالفلك الجارية في اللجج ، ومصاييح الدجى ، وأعلام الهدى ، والائمة القادة الذين من تبعهم نجا كسفينة نوح المشحونة التى يأول اليها المؤمنون ، وينجو فيها المتسكون . فما قولك يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند حيرتنا فى القدر ، واختلافنا فى الاستطاعة ؟ لتعلمنا بما تأكد عليه رأيك ، فانكم ذرية بعضها من بعض ، يعلم الله علمتم ، وهو الشاهد عليكم ، وانتم شهداء الله على الناس . والسلام » .

وعندما وصل الكتاب كتب الجواب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد انتهى الى كتابك عن حيرتك وحيرة من زعمت من امتنا ، والذي عليه رأى أن من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد كفر ، ومن حمل المعاصى على الله فقد فجر . ان الله لا يطاع باكره ولا يعصى بقلبة ، ولا يهمل العباد من الملكة ، لكنه المالك لما ملكهم والقادر على ما غلبه قدرتهم ، فان ائتمروا بالطاعة لم يكن لهم صادا ولا لهم عنها مطبعا ، فان اتوا المعصية وشاء أن يمن عليهم فيحول بينهم وبينها ، فعل ، وان لم يفعل فليس هو حملهم عليها اجبارا ولا الزمهم اياها اكراها ، باحتجاجه عليهم أن عرفهم ومكنهم وجعل لهم السبيل الى أخذ ما دعاهم اليه وترك ما نهاهم عنه . ولله الحجة البالغة . والسلام » .

اى أن انكار التقدير مذهب التدر ، وحمل المعاصى على الله مذهب الجبر ، فالعبد مختار فى كسبه بقدر ما حباه الله عز وجل من استطاعة ، والدين بين الجبر والقدر .

ولم يكن مرادى من هذا الكتاب أكثر من كلمة ، غير انى أوردته كله لانه غاية فى الفصاحة والعذوبة . وقد أوردت كل هذا لكى أبرهن على أنه رضى الله عنه كان فى علم الحقائق والاصول الى حد أن اشارة الحسن البصرى — مع علو مكانته فى العلم — كانت اليه .

ووجدت فى الحكايات أن اعرابيا جاء من البادية ، وكان جالسا على بابيه فى الكوفة ، فسبه وسب أمه وأباه . فنهض وقال له : يا أعرابى ،

إذا كنت جائعا يحضر لك الطعام ، وإذا كنت ظمأنا يؤتى لك بالماء ،
والا ماذا ألم بك ؟ وكان الاعرابى يقول له : أنت كذا ، وأمك كذا ، وأبوك
كذا . فأمر الحسن رضى الله عنه غلامه فأحضر بكرة دنانير ، وقال له :
أيها الاعرابى ! أسألك المعذرة ، فلم يبق ببيتنا أكثر من هذا والا ما منعناك
إياه . فلما سمع منه الاعرابى هذا قال : أشهد أنك ابن رسول الله صلى
الله عليه وسلم ! وقد جئت هنا لتجربة حلمك .

وهذه صفة محققى المشايخ ، رضوان الله عليهم ، الذين يستوى لديهم
مدح الخلائق وذمهم ، ولا تغيرهم الجفوة فى القول ، والله اعلم .

● ومنهم شمع آل محمد ، المجرد من العلائق ، سيد زمانه ، « أبو عبد الله
الحسين بن أبى طالب (١) » رضى الله عنهما . كان من الأولياء المحققين
وقبلة أهل البلاء ، وقتل صحراء كربلاء (٢) . وجميع أهل الطريقة متفقون
على صحة حاله لأنه كان متابعاً للحق ما دام الحق ظاهراً ، فلما فقد
الحق شهر سيفه ، ولم يهدأ حتى جعل روحه العزيزة قداء الشهادة لله
عز وجل . وللرسول فيه اشارات خصه بها ، كما روى عمر بن الخطاب

(١) « أبو عبد الله » كنيته . وورد عنه أنه لما مات معاوية طولب (الحسين) بالببيعة
ليزيد بالمدينة ، فسأما التأخير وخرج الى مكة . وكتب أهل العراق اليه ووجهوا
الرسول ، فوجه اليهم مسلم بن عقيل وكتب اليهم وأعلمهم أنه أثر كتابه . فلما
قدم مسلم بن عقيل بالكوفة بايعه أهلها . وخرج الحسين من مكة يريد العراق ،
وكان يزيد قد ولى على العراق عبيد الله بن زياد وكتب اليه يقول : قد بلغنى
أن أهل الكوفة قد كتبوا الى الحسين فى القدوم عليهم وأنه قد خرج من مكة متوجهاً
نحوهم . وقد بلى بلدك من بين البلدان وأهلك من بين الأيام ، فان قتلته والا رجعت
الى نفسك والى أبوك عبيد فاحذر أن يفوتك » . وسار الحسين الى العراق وفى
الطريق أتاه الخبر بقتل مسلم بن عقيل فأراد أن يرجع ، فبعث اليه عبيد الله
بالحر بن يزيد فنهض ، ثم بعث اليه بعمر بن سعد بن أبى وقاص فى جيش فلقى
الحسين فى كربلاء وقتل . وكان الذى قتله رجل من مزحج واجتز رأسه وانطلق به
الى ابن زياد فبعث به الى يزيد وبه الرأس . وكان مقتله يوم عاشوراء سنة
أحدى وستين وهو ابن ست وخمسين . وحملت رأسه الى مصر ودفنت بالمشهد
المشهور بها وبشئ الناس أمامها حفاة من معينة غزا الى مصر تعظيماً لها .
قيل له رضى الله عنه : ما سمعت من رسول الله ؟ قال : سمعته يقول : أن
الله يحب معالي الأمور ويكره سلسانها . وعظمت عنه أنه يكبر ماكبر خلفه فإذا
سبح تكبى أعاد التكبير حتى يكبر سبعاً . وسمعه يقول : من يطع الله يرفعه ،
ومن يعص الله يرضه ، ومن يخلص نيته لله يزيه ، ومن يثق بما عند الله يثقه ،
ومن يتهزز على الله يذله .

وقال بعضهم : سمعت الحسين يقول : الصديق عز والكذب عجز ، والسر
أمانة ، والجوار قرية ، والمؤنة صداقة ، والصمل تجرية ، والخلق الحسن
عبادة ، والصمت زين ، والشح فقر ، والسفاه غنى ، والرفق لب .
(انظر : المعارف ص ٩٣ ، اليمقوبى ج ٢ ص ٢١٥ - ٢١٨ ، مروج الذهب
ج ٢ ص ٨٦ - ٩٠ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٢١ ، خزينة الاصفاء ج ١
ص ٢٨ - ٣٠) .

(٢) « كربلاء » : الموضع الذى قتل فيه الحسين بن على رضى الله عنه فى طرف البرية
عند الكوفة . (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٤٩) .

رضى الله عنه ، قال : جئت النبي عليه السلام يوما ، فرأيت أنه كان قد أركبه على ظهره ، ووضع حبلا في فمه ووضع طرفه في يد الحسين ، حتى كان الحسين يسير وهو عليه السلام يسير خلفه على ركبتيه ، فلما رأيت هذا قلت : « نعم الجمل جملك يا أبا عبد الله » . فقال النبي عليه السلام : « نعم الراكب هو يا عمر » .

وله كلام لطيف في طريقة الحق ، ورموز كثيرة ومعاملات طيبة . ويروى عنه أنه قال : « اشفق الإخوان عليك دينك » ، لأن نجاة المرء تكون في متابعة الدين ، وهلاكه في مخالفته ، فالرجل العاقل هو الذي يكون عند أمر المشفقين ، ويدرك أنهم يشفقون عليه ، ولا يسير إلا متابعا لهم . والآخر هو الذي يبدي النصيحة ، ولا يفلق باب الشفقة .

ووجدت في الحكايات أن رجلا جاءه يوما وقال : يا ابن رسول الله عز وجل ! أنا رجل فقير ولى أطفال ، وأريد منك قوت ليلتي ! فقال له الحسين : اجلس فان لنا رزقا في الطريق الينا ، فانتظر حتى يحضره . ولم يمض كثير حتى جاء إليه بخمس صرر من عند معاوية ، في كل منها ألف دينار ، وقالوا ان معاوية يعتذر لك ويقول : انفق هذا المقدار على أتباعك ، إلى أن تأتيك بعده معونة أوفى . فأنشأ الحسين رضي الله عنه أن أعطاها لذلك الفقير ، فأعطوه الصرر الخمس ، واعتذر إليه قائلا : لقد بقيت كثيرا ، ونلت قليلا ، ولو كنا نعرف أنه هذا المقدار لما حملناك على الانتظار ، فاعذرنا لأننا من أهل البلاء ، وقد تخلفنا عن كل راحات الدنيا ، وفقدنا مرادنا فيها ، ويجب أن نعيش لمراد الآخرين .

ومناقبه أشهر من أن تخفى على أحد من هذه الأمة ، والله أعلم .

● ومنهم أيضا : وارث النبوة ، وسراج الأمة ، السيد المظلوم ، والإمام المحروم ، زين العباد ، وشمع الأوتاد : « أبو الحسن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب (١) » رضي الله عنه . كان أكرم وأعبد أهل زمانه ، وهو مشهور بكشف الحقائق والنطق بالحقائق .

(١) الإمام الرابع من الأئمة الاثني عشر ويكنى بزين العابدين وهو علي الأصغر ، وأما الأكبر فقتل مع الحسين . وليس للحسين رضي الله عنه عقب إلا من ولد زين العابدين هذا . أمه بنت يزيد جد آخر ملوك الفرس . قال عنه الزهري : ما رأيت قرشها أفضل منه . وكان يثنى على أبي بكر وعمر وعثمان ويترحم عليهم ، ويمسح على كل يوم وليلة ألف ركعة . قيل توفي سنة أربع وتسعين أو اثنتين وتسعين للهجرة بالمدينة ودفن بالبقيع في قبر مع الحسين بن علي رضي الله عنه ، وقيل توفي سنة تسع وتسعين وهو ابن ثمان وخمسين سنة . قال أبو خالد الكابلي : سمعت علي ابن الحسين يقول : « من عرف من محارم الله كان عبدا ، ومن رضي بقسم الله كان غنيا ، ومن أحسن مجاورة من جاوره كان مسلما » . (انظر المصنف ٩٤ ، البيهقي ج ٣ ص ٤٥ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٠ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٢٥ ، خزينة الأصباء ج ١ ص ٣٠) .

سئل : من أسعد أهل الدنيا والآخرة ؟ قال « من إذا رضى لم يحمله رضاه على الباطل ، وإذا سخط لم يخرجه سخطه من الحق » . وهذا من أوصاف الكمال للمستقيمين ، لأن الرضا بالباطل باطل ، والكف عن الحق في حال الغضب باطل ، ولا يكون المؤمن مبطلا .

ويروى عنه أنه حين قتل الحسين بن علي مع أولاده ، رضوان عليهم ، في كربلاء ، لم يبق سواه ، لأنه كان قريبا على النساء ومريضا . وكان أمير المؤمنين الحسين رضى الله عنه يدعو علي الأصغر — فلما حملوهم على أبل عارية إلى دمشق^(١) لدى يزيد بن معاوية — أخزاه الله — قال له رجل : « كيف أصبحت يا علي ، ويا أهل بيت الرحمة ؟ » قال : أصبحنا من قومنا بمنزلة قوم موسى من آل فرعون : يذبون أبناءنا ويستحيون نساءنا فلا ندري صباحنا من مساءنا ، وهذا من حقيقة بلائنا » ، ونحن نشكر الله جل جلاله على نعمائه ، ونحمده على بلوائه .

ورد في الحكايات أن هشام بن عبد الملك بن مروان^(٢) ذهب للحج عاما ، وكان يطوف بالكعبة . وأراد أن يقبل الحجر ، فلم يجد طريقا إليه لكثرة الزحام ، فصعد المنبر وخطب . وفي أثناء الخطبة دخل زين العابدين على ابن الحسين المسجد بوجه مقمر ، وخد منور ، وثوب معطر وطاف بالبيت . فلما اقترب ، ألقى الناس الحجر تعظيما له حتى يقبله . فلما رأى ذلك رجل من أهل الشام^(٣) ، قال لهشام : يا أمير المؤمنين ! لم يفسحوا لك الطريق إلى الحجر وأنت أمير ، فمن كان ذلك الفتى الجليل الذي جاء

(١) « دمشق » : مدينة جليلة قديمة . وهي مدينة الشام في الجاهلية والإسلام . ونهرها الأعظم يقال له بردا ، افتتحت في خلافة عمر بن الخطاب سنة أربع عشرة (البلدان ص ٨٧) . وقد روى عن كعب الأحبار أن أول حائط وضع في الأرض بعد الطونان حائط دمشق وحران (معجم البلدان ج ٢ ص ٥٨٩) .

(٢) هشام بن عبد الملك بن مروان ، كان يكنى أبا الوليد . بويع بعد يزيد بن عبد الملك ويقاتل وافته بالخلعة وهو بقرية يقال لها الزيتونة من الجزيرة تجاه البريد نسلم عليه بالخلعة ، فركب من الرصافة حتى جاء دمشق ، وكان ذلك في رمضان سنة خمس ومائة . وفي عهده قتل زيد بن علي الشهيد سنة مائة وأحدى وعشرين وتحركت الشيعة في خراسان وظهر أمرهم . كانت ولايته عشرين سنة إلا خمسة أشهر وتوفي بالرصافة سنة خمس وعشرين ومائة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة . (انظر : اليعقوبي ج ٢ ص ٥٧ — ٦٨ ، المعارف ص ١٥٩ ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٠)

(٣) « الشام » : سميت بذلك لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض تشبهت بالشامات . وقال آخرون سميت بالشام بسم بن نوح وذلك أنه أول من نزلها فجعلت السنين شيئا .

أما أحدهما من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية ، وأما عرضها فمن =

فتفرق الناس جميعا عن الحجر وأخلوا المكان ؟ فقال هشام : لا أعرفه —
 مخافة أن يعرفه أهل الشام ويتولون اليه ، ولا يرغبون في إمارته — وكان
 الشاعر الفرزدق (١) هناك فقال : أنا أعرفه ، قالوا : من هو ، يا أبا فراس ؟
 أخبرنا لأننا رأيناه فتى مهيبا جدا . فقال الفرزدق : انصتوا لأرتجل لكم
 نسبه .

(شعر عربي)

هذا الذي تعرف البطحاء وطاته
 هذا ابن خير عباد الله كلهم
 هذا ابن فاطمة الزهراء ويحكم
 إذا راته قريش قال قائلها
 ينمى إلى ذروة العز التي قصرت
 من جده دان فضل الأنبياء له
 ينشق نور الدجى عن نور طلعه
 يكاد يسكه عرفان راحته
 يغضى حياء ويغضى من مهابته
 في كنه خيزران ريحها عبق
 مشتقة من رسول الله تبعته
 كلنا يديه غياث عم نفعهما
 عم البرية بالاحسان فانتشمت
 لا يستطيع جواد بعد غايتهم
 هم الغيوث إذا ما أزمة أزمتم
 من معشر حبههم دين وبعضهم
 أن عد أهل التقى كانوا أئمتهم

والحل يعرفه والبيت والحرم
 هذا التقى التقى الطاهر العلم
 وابن الرضى على خيركم قدم
 إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
 عن نيلها عرب الاسلام والعجم
 وفضل أمته دانت له الأمم
 كالشمس ينجاب اشراقها الظلم
 ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
 فما يكلم إلا حين يتقسم
 من كف أروع في عرينه شمس
 طابت عناصره والخيم والشميم
 يستو بكان ولا يعرفهما العدم
 عنه الغيبة والاملاق والظلم
 ولا يدانيهم قوم وان كرموا
 والاسد اسد الشرى والبأس يحتلم
 كثر وقربهم منجا ومعتصم
 أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

= جبل طبرستان من نحو القبلة إلى بحر الروم .. وبها من أمهات المدن حلب وحماة
 وحمص ودمشق وبيت المقدس .. وهي خمسة أجناد : جند مسرين وجند دمشق
 وجند الأردن وجند فلسطين وجند حمص (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٤)
 وقد بدئ بفتح الشام سنة ثلاث عشرة وتم فتح معها سنة سبع عشرة (فتوح
 البلدان ج ١ ص ٢٥ - ٤٤) .

(١) « الفرزدق » : أبو فراس صام الفرزدق ، ويقال هيب بالتصغير . الشاعر
 المشهور وسأب جريز وهما الشاعران المعروفان بالمهاجاة . وقد جمع لهما كتاب
 يسمى « النقاظ » وهو من الكتب المشهورة . وتوفي الفرزدق بالبصرة سنة عشر
 ومائة قيل جريز باريمن يوبا وقيل ثباتين يوبا . وقيل لما مات الفرزدق وبلغ
 خبره جريز بكى وقال : أما والله أنى لا أعلم أنى قليل البقاء بعده ، ولقد كان
 نجما واحدا ، وكل واحد منا مشتول بصاحبه ، وقلبا مات ضد أو صديق
 إلا وتبعه صاحبه .

قيل التقى الحسن البصرى والفرزدق في جنازة فقال الفرزدق للحسن البصرى :

وقال في مدحهم أبياتا كثيرة كهذه ومدحه ومدح أهل بيت النبي عليه السلام ، فغضب عليه هشام وأمر بحبسه بعسفان — وهو موضع بين مكة (١) والمدينة (٢) — ونقلوا هذا الخبر بعينه الى (زين العابدين) فأمر فحملوا اليه اثني عشر ألف درهم ، وقال : قولوا له : يا أبا فراس ، اعذرنا لاتنا معسرون لانملك أكثر من هذا والا أرسلناه لك . فاعاده الفرزدق وأرسل يقول : يا ابن رسول الله ، لقد قلت شعرا كثيرا قبل هذا من أجل المال ، وذكرت في تلك المدايح الكذائب ، فقلت هذه الأبيات ، لكفارة بعضها ، من أجل الله ومحبة رسول الله وأولاده . فلما أبلغوا زين العابدين الرسالة قال : ارجعوا واعيدوا اليه المال ، وقولوا له : يا أبا فراس ، اذا كنت تحبنا فانك لا ترتضى أن نستعيد شيئا وهبناه وأخرجناه من ملكنا . وعندئذ قبل الفرزدق المال .

ومناقب هذا السيد أكثر من أن يمكن جمعها ، والله أعلم .

● ومنهم : الحجة على أهل المعاملة ، وبرهان أهل المشاهدة ، إمام أولاد النبي ، والمختار من نسل على ، « أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب » كرم الله وجهه ، ورضى عنهم . ويقال أيضا أنه كان يكنى بابي عبد الله (٣) ، ويلقب بالباقر .

= اتخرى ما يقول الناس يا أبا سميد ؟ يقولون : اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشرف الناس . فقال الحسن : كلا ، لست خيرهم ولست بشرهم ، ولكن ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله منذ ستين سنة . (انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٤ ، ج ٢ ص ١٦٦ — ٢٠٢) . وقد وردت هذه الحكاية والتمسيدة في وفيات الأعيان في ترجمة الفرزدق . ونجد هنا اختلافا في ترتيب بعض الأبيات ، وتحريفا في بعض المفردات . (انظر : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠) .

(١) « مكة » المكرمة : تقع بين جبال عظام . وهي أودية ذات شعاب نجبالها المحيطة بها أبو قبيس الجبل الأعظم منه تشرق الشمس على المسجد الحرام ، وتعمقان وفاضح والمصب وثور عند الصفا وحراء وثير وتفاحة والمطائع والفلق والحجون وسقر . لها من الشعاب كثير يقع المسجد الحرام بين جبال وتعمقان . وقد زاد في بنائه وتوسيعه — حتى صارت الكعبة في وسطه — الخليفة المهدي في سنة أربع وستين ومائة (انظر : البلدان ص ٧٨ — ٨٠) .

(٢) « المدينة » المنورة : كما سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة في مستوى من الأرض مذهب بركة جبلية وذلك أن لها جبلين أحدهما : أحد الآخر . مير ، وأهلها المهاجرون والانسار والتابعون وبها قبائل العرب . وقد انتقل إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب معانيلها واختلط الناس بها الخلط وكانوا قتل ذلك متفرقين واتصل البنيان بعضه ببعض حتى صارت مدينة . ومن المدينة الى مكة عشر مراحل عامرة أهلة (انظر : البلدان ص ٧٦ — ٧٨) .

(٣) هذه الكنية ليست له وإنما لابنه جعفر الصادق (انظر : تاريخ البعوث ج ٢ ص ١١٥ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١٠٥) .

كان مخصوصا بدقائق العلوم ، ولطائف الاشارات في كتاب الله عز وجل ، وكانت له كرامات مشهورة ، وآيات زاهرة ، وبراهين نيرة .

ويقال ان ملكا قصد هلاكه يوما ، وأرسل اليه رجلا ، فلما دخل عليه اعتذر له الملك ، وقدم له هدية ، وردده بالاحسان ، فقيل له : ايها الملك ! لقد كنت تقصد اهلاكه ، ورايناك معه على حال آخر ، فماذا حدث ؟ قال : لما دخل على رأيت اسدين عن يمينه ويساره ، وكنا يقولان لى : اذا قصدته بسوء اهلكناك .

ويرد عنه انه قال في تفسير قول الله عز وجل « فمن يكثر بالطاغوت ويؤمن بالله (١) » قال : « كل من شغلك عن مطالعة الحق فهو طاغوتك » ، فتبين بأى شيء حجبت وتخلفت ، وتخل عنه لتحظى بالكشف . والمحجوب ممنوع ، والممنوع ينبغي ان لا يدعى القربة .

يروى عنه واحد من خواصه انه حين كان يمضى هزيع من الليل ، ويفرغ من أوراده ، كان يرفع صوته مناجيا ويقول : يا الهى وسيدى ! اقبل الليل ، وانتهت ولاية تصرف الملوك ، وظهرت النجوم فى السماء ، ونام جميع الخلق ، وهدأت أصوات الناس ونامت أعينهم ، وجفلوا عن ابواب بنى امية واختفت رغائبهم ، واغلق بنو امية ابوابهم ووكلوا بها حراسهم ، وتخلى كل ذى حاجة اليهم عن حاجته . يا الهى انت الحى ، العليم ، البصير ، لا تجوز عليك سنة ولا نوم ، ومن لا يعرفك بهذه الصفة لا يستحق نعمتك . انت يا من لا يردك شيء عن شيء ، ولا يتطرق الخل الى بقائك ليلا ونهارا ، ابواب رحمتك مفتوحة لمن يدعوك ، وخزائنك كلها فداء من يثنى عليك ! انت الاله الذى لا يجوز عليك رد سائل حين يدعوك مؤمن ، ولا راد لسائل بابك من خلق الارض والسماء ، يا الهى حين اذكر الموت والقبر والحساب ، كيف اسعد القلب بالدنيا ؟ وحينما اذكر الكتاب كيف أقر بشيء من الدنيا ؟ وحين اذكر ملك الموت كيف اقبل نصيبا من الدنيا ؟ فانا اطلب منك يا الهى لانى اعركك ، وابحث عنك لانى ادعوك أن تمنحنى فى حال الموت راحة تخلو من العذاب ، وفى حال الحساب عيشا بلا عقاب . كان يقول كل هذا ويبكى ، حتى قلت له ذات ليلة : ياسيدى وسيد آبائى ! الام تبكى والام تصيح ؟ قال : يا صديقى ، لقد ضاع ليعقوب ولد فبكى حتى كف بصره وابيضت عيناه ، وانا فقدت ثمانية عشر فردا مع أبى — اى الحسين وقتلى كربلاء — فلا اقل من ان تبيض عيناى على مفراقهم .

(١) سورة « البقرة » آية ٢٥٦ .

وهذه المناجاة في العربية فصيحة جدا ، ولكنني جئت بمعانيها بالفارسية تجنبنا للاطالة حتى لا تتكرر ، ثم اجيء بها في موضع آخر ، ان شاء الله رب العالمين .

● ومنهم سيف السنة ، وجمال الطريقة ، ومعبّر المعرفة ، ومزين لصفوة ، « أبو محمد (١) جعفر بن (محمد بن) علي بن الحسن بن علي » الصادق (٢) ، رضوان الله عليهم أجمعين . كان عالي الحال وحسن البسرة مزين الظاهر وعامر السريرة . وله اشارات جيلة في كل العلوم . وهو مشهور بين المشايخ ، رضى الله عنهم أجمعين ، بدقة كلامه ووقوفه على المعاني . وله كتب معروفة في بيان الطريقة .

يروي عنه انه قال : « من عرف الله أعرض عما سواه » ، لأن معرفته هي عين الإنكار للغير ، فأنكار غيره هو معرفته ، ومعرفة غيره هي إنكاره ، والعارف منقطع عن الخلق ومتصل بالحق ، وليس للغير في قلبه من القدر ما يجعله يلتفت اليهم ، أو يجعل لوجودهم كبير خطر يعقد ذكركم في خاطره .

ويروي عنه ايضا انه قال : « لا يصح العبادة الا بالتوبة » ، فقدم التوبة على العبادة ، لأن الله تعالى قدم التوبة على العبادة في قوله تعالى : « التائبون العابدون (٣) » ، لأن التوبة بداية المقامات ، والعبودية نهاية المقامات . ولما ذكر الله جل جلاله العصاة أمر بالتوبة وقال : « وتوبوا الى الله جميعا (٤) » ولما ذكر الرسول عليه السلام ، ذكره بالعبودية وقال : « فأوحى الى عبده ما أوحى (٥) » .

(١) كنيته : « أبو عبد الله » (انظر : تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١١٥) .
(٢) الإمام السادس من الائمة الاثني عشر : « جعفر الصادق » : ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم .
وأمه نروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه . لقب بالصادق لصدقه في مقالته . وله كلام في صنعة الكيمياء والزجر والفأل . ألف تليذه أبو موسى جابر بن حيان كتابا يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق ، وهي خمسمائة رسالة . توفي سنة ثمان وأربعين ومائة ودفن بالبقيع في قبر أبيه وجده . دخل عليه سيان الثوري يوما فرأى عليه جبة من خز ، فقال له : أنتم في بيت النبوة تلبسون هذا ؟ فقال : ما تدري أدخل بك ، ماذا تحته مسح من شعر خشن .

(انظر ترجمته في : تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٠٥ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٢٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٩٠ ، خزينة الاسماء ج ١ ص ٣٩) .

(٣) سورة « التوبة » آية ١١٢

(٤) سورة « الزور » آية ٣١

(٥) سورة « النجم » آية ١٠

ووجدت في الحكايات أن داود الطائى رحمه الله جاء إليه وقال : يا ابن رسول الله ! عظمى ! فقد أسود قلبي . قال : يا أبا سليمان ! أنت زاهد زمانك ، فما حاجتك إلى عظمى ؟ . قال : يا ابن رسول الله ! إن لك على جميع الخلق فضلا ، وعظمتك لكل الخلق واجب . قال : يا أبا سليمان ، إنى أخشى أن يتعلق بى جدى يوم القيامة قائلا : لم لم تؤد حق متابعتى ؟ فهذا الأمر لا يكون بالنسبة الصحيحة ولا بالنسب القوى ، وإنما بالمعاملة الحسنة في حضرة الحق تعالى . فبكى داود وقال : يا الهى ! إذا كان من طبيعته معجونة بماء النبوة ، وتركيب طبيعته من أصل البرهان والحجة ، جده الرسول ، وإمه البتول ، بهذه الحيرة ، فمن يكون داود حتى يعجب بمعاملته ؟ .

ويرد عنه أيضا أنه كان قد جلس يوما بين مواليه وأخذ يقول لهم : تعالوا لنبايع ونتعاهد على أن كل من يفوز منا يوم القيامة يشفع للجميع . فقالوا : يا ابن رسول الله ! ما حاجتك إلى شفاعتنا ، وجدك الشفيع لجميع الخلق ؟ قال : إنى أخجل بأفعالى هذه أن أنظر إلى وجه جدى يوم القيامة .

وهذا كله من رؤية عيوب النفس ، وهى صفة من صفات الكمال . وجميع المتكئين في حضرة الله عز وجل من الأولياء والأنبياء والرسل كانوا على هذا . والرسول عليه السلام قال : « إذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه وعيوب الدنيا (١) » . وكل من يخفض رأسه من قبيل تواضع المبودية ، يرفع الله تعالى شأنه في الدنيا والآخرة .

وإذا ذكرت أهل البيت جميعا ، وأحصيت مناقبهم فردا فردا لا يكفى هذا الكتاب ، بل أن كتبنا كثيرة لا تحتل عشر عشر منها ، فهذا المقدار كاف لقوم يكون لعقولهم لباس الإدراك ، من مريدى ومنكرى هذه الطريقة .

والآن ، أورد ذكر أصحاب صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الإيجاز والاختصار ، في هذا الكتاب . وقد ألفنا قبل هذا كتابا وأسميته « منهاج الدين » ، بينت فيه مناقب كل منهم بالتفصيل ، ولكنى سأذكر هنا أسماءهم وكنياتهم بمفردها ، ليتم مقصودك — أعزك الله — وبالله التوفيق .

(١) رواه أبو منصور الديلى في مسند الفردوس ، والبيهقى في شعب الإيمان عن أنس : « إذا أراد الله بعبد خيرا فقه في الدين وزهده في الدنيا وبصره بعيوبه » (اشرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٦) .

الباب التاسع باب في ذكر أهل الصفة

أعلم أن الأمة — زاد الله من عددهم — مجتمعة على أنه كان للنبي عليه السلام فريق من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يلزمون مسجده ، وهبوا أنفسهم للعبادة ، وكفوا أيديهم عن الدنيا ، وأعرضوا عن الكسب . وأن الله عز وجل عاتب النبي عليه السلام من أجلهم ، فقال عز من قائل : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي (١) » وكتاب الله عز وجل ناطق بفضائلهم ، وللرسول عليه السلام في مناقبهم أقوال كثيرة بلغتنا في ذكرهم رحمة الله عليهم أجمعين ، وقد ذكرت طرعا منها في مقدمة هذا الكتاب .

ويروى عن ابن عباس (٢) رضي الله عنه ، عن النبي عليه السلام ، قال : « وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم ، وطيب قلوبهم ، فقال : « أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذي أنتم عليه ، راضيا بما فيه فته من رفاقي في الجنة » .

نذكر منهم : مؤذن حضرة الجبار ، ومختار محمد المختار : « بلال بن رباح (٣) » رضي الله عنه .

(١) سورة « الانعام » آية ٥٢ .

(٢) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم : ابن عم النبي عليه السلام وصاحبه ، وحبر الأمة ونقيها . مات سنة ثمان وستين بالطائف (انظر : المعارف ص ٥٢ ، خلاصة تذهيب الكمال ص ١٧٢) .

(٣) بلال بن رباح : كان من مولدى مكة لرجل من بنى جحج ، فأسر ، فاشتراه أبو بكر بخمس أواق فاعنته . وكان يعذب في الله . وشهد بدرًا والمشاهد كلها . وهو أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قبض رسول الله أتى أبا بكر فاستأذنه الى الشام فأذن له ، فلم يزل مقبلا بها . ولم يؤذن بعد النبي ، فلما قدم عمر الى الشام فأمره فأذن فبكى عمر والمسلمون . مات بدمشق سنة عشرين (المعارف ص ٧٦) .

ومنهم : حبيب الله الحكيم ، ومحرم أحوال النبي : « أبو عبد الله سلمان الفارسي » رضى الله عنه .

ومنهم : قائد المهاجرين والأنصار ، والمتوجه الى الله الغفار : أبو عبيده عامر بن عبد الله بن الجراح (١) رضى الله عنه .

ومنهم : مختار الأصحاب وزينة الأرياب : « أبو اليقظان عامر بن ياسر (٢) » رضى الله عنه .

ومنهم : كنز العلم ، وخزينة الحلم : « أبو مسعود عبد الله بن مسعود الهذلي (٣) » رضى الله عنه .

ومنهم المتمسك بباب الحرمة ، الميراث من العيب والأمة : « عتبة بن مسعود (٤) » : أخو عبد الله ، رضى الله عنه .

ومنهم : سالك طريق العزلة ، والمعرض عن عصائب الزلة : « المقداد ابن الأسود » رحمه الله .

ومنهم : راعى مقام التقوى ، الراضى بالبلاء والبلوى : « خباب بن الارت (٥) » رضى الله عنه .

(١) أبو عبيدة بن عبد الله الجراح نسبة الى جده . اسمه عامر وهو من بنى الحارث ابن فهر بن مالك بن النضر . وبنو فهر هم قريش ومن فهر تنوعت قبائلها . وأمه من بنى الحارث بن فهر وقد أسلمت وزوجها . قال فيه الرسول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة . شهد بدر . ومات سنة ثمان عشرة بالشام ودفن بغوربيسان (انظر : المعارف ص ١٠٨ ، اللبح ص ١٨٦ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٧) .

(٢) عامر بن ياسر بن عامر بن مالك بن عنسى ، وعنسى من مذحج من اليمن ، ويأسر قدم من اليمن الى مكة وحالف أبا حذيفة بن الغيرة المخزومي وزوجه أبو حذيفة أمة له اسمها سمية . ولم يزل ياسر وعمار ابنه مع حذيفة الى أن مات وجاء الاسلام فأسلم ياسر وعمار وسمية . وسمية أم عامر أول شهيدة في الاسلام ، قتلها أبو جهل بحرية . وشهد عامر صنفين مع على بن أبى طالب فقتل ودفن هناك ، وصلى عليه على (انظر : المعارف ص ١١١) .

(٣) من بنى عامر بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل . وكان من خلفاء بنى زهرة . شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا وبيعة الرضوان وجميع المشاهد . وكان على قضاء الكوفة وبيت مالها لعمرو وصدرًا من خلافة عثمان ، ثم صار الى المدينة فتوفى بها سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع . (انظر المعارف ص ١٠٩ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٨) .

(٤) كان تميم الاسلام . ولم يرو عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا ، ومات في خلافة عمر . وكان له ابن يقال له عبد الله ويكنى أبا عبد الرحمن مات بالكوفة في خلافة عبد الملك بن مروان . وكان كثير الحديث والفيا ، فنيها (انظر المعارف ص ١٠٩) .

(٥) من بنى سعد بن زيد مائة من تميم . ويكنى أبا عبد الله . أصابه سباه ببيع بمكة فاشترته أم سباع الخزاعية فاعتقته . كان رجل فتيا . وابنه عبد الله بن خباب هو الذي قتل الخوارج نسال دمه كانه شرك نمل . مات بالكوفة سنة سبع وثلاثين ، وهو أول من قبره على بالكوفة وصلى عليه . (انظر المعارف ص ١٢٨ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٨) .

ومنهم : قاصد باب الرضا ، وطالب اللقاء في الفنا : « صهيب بن سنان (١) » رضى الله عنه .

ومنهم : درج السعادة ، وبحر القناعة : « عتبة بن غزوان (٢) » رضى الله عنه .

ومنهم : أخو الفاروق والمعرض عن الكونين والمخلوق : « زيد بن الخطاب (٣) » رضى الله عنه .

ومنهم : صاحب المجاهدات في طلب المشاهدات : « أبو بكشة (٤) » مولى رسول الله ، رضى الله عنه .

ومنهم : العزيز التائب ، وعن كل الخلق آيب : « أبو مرثد كنان بن حصين الغنوى (٥) » رضى الله عنه .

ومنهم عابر طريق التواضع ، وسالك محجة التقاطع : « سالم مولى حذيفة اليماني (٦) » رضى الله عنه .

(١) صهيب بن سنان بن مالك . بدرى ، وجميع الذين يثبتون نسبه في النمر بن قاسط . وأمه سلمى من مازن تميم . وقال بعضهم . كان أبوه سنان عاملاً لكسرى وكانت منازلهم بأرض الموصل فأغارتم الروم على تلك الناحية فسيبوا صهييا وهو غلام صغير فتشأ بالروم ، فابتاعته كلب منهم ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جعدان وأعتقه ، وبعث به إلى النبي صلى الله عليه وسلم . كان مزاحاً ، قال له النبي : أتناكل تمراً وبك رمد ؟ فقال : يا رسول الله إنما أضع بالناحية الأخرى ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم منه . توفي بالمدينة سنة ثمان وثلاثين ، ودفن بالبقيع (المعارف ص ١٤ - ١٥) .

(٢) عتبة بن غزوان بن الحرث بن جابر من بني مازن أخى سليم بن منصور بن عكرمة . من المهاجرين الأولين ، وهو ممن شهد بدرًا وكان من الرماة المذكورين ، وهو الذى انتزع الإبله واخطت البصرة وأمر محجن بن الأزرع فاخطع مسجد البصرة . قدم المدينة في الهجرة ، وتوفى في طريق مكة بسمند بنى سليم في خلافة عمر سنة سبع عشرة . (المعارف ص ١١٩) .

(٣) زيد بن الخطاب : أبه أسماء من بنى أسد بن خزيمه ، وكان إسلامه قبل اسلام عمر . شهد بدرًا وكان بينه وبين عمر درع فجعل كل واحد منهما يقول والله لا يلبسها غيرك . ثم شهد يوم أحد فصير في أربعة أنفس ولم يهرب فيمن هرب . وشهد يوم ميسلة سنة اثنتى عشرة فقتل . (المعارف ص ٧٨) .

(٤) أبو بكشة : اسمه « سليم » . من مولدى أرض دوس ، ويقال من مولدى مكة . ابتاعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعتقه . توفى أول يوم استخفف فيه عمر ابن الخطاب . (المعارف ص ٦٤) .

(٥) أبو مرثد كنان بن حصين : من غنى ولذا يسمى بالغنوى . كان تريا لحزبة بن عبد المطلب ، وأخى الرسول عليه السلام بينه وبين عبادة بن الصامت . وأخى بين ابنه مرثد وبين ابن الصامت أخى عبادة . مات في خلافة أبى بكر سنة اثنتى عشرة ، وقتل مرثد في حياة الرسول يوم الرجيع شهيدا وكان أمير السرية . (المعارف ص ١٤٣) .

(٦) سالم مولى حذيفة اليماني : كان يكنى أبا عبد الله . وهو بدرى ، وأخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبى بكر . وكان ولاء سالم لأجرة أبى حذيفة . استشهد يوم اليمامة ولا عقب له . (المعارف ص ١١٨) .

ومنهم : الخائف من العقوبة ، والهابط من طريق المخالفة : « عكاشة ابن محصن (١) » رضى الله عنه .

ومنهم : زين المهاجرين والأنصار ، وسيد بنى قار : « مسعود بن الربيع القارى » رضى الله عنه .

ومنهم : حائظ انفس النبى ، وباب كل الخيرات : « عبد الله بن عمر (٢) » رضى الله عنه .

ومنهم : شبيه عيسى فى الزهد ، وبدرجة موسى فى الشوق : « أبو ذر جندب بن جنادة (٣) » رضى الله عنه .

ومنهم : المقيم فى الاستقامة ، والمستقيم فى المتابعة : « صفوان بن البيضاء » رضى الله عنه .

ومنهم : صاحب الهمة والخالى من التهمة : « أبو الدرداء عويمر بن عامر (٤) » رضى الله عنه .

ومنهم : شرف كيمياء الدين ، وصدق در التوكل : « عبد الله بن بدر الجهمى » رضى الله عنه .

(١) عكاشة بن محصن بن حرثان : من أسد خزيمية . بدرى يكنى أبا محض ، واخته أم قيس بنت محصن التى دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم بآبى لها قد أمقلت عليه بالمعزة ، والمعزة وجع الحلق ، كان عكاشة من أجبل الرجال وبشره الرسول بالجنة بغير حساب ، وقتل ببزاة فى خلافة أبى بكر . (المعارف ص ١١٩) .

(٢) عبد الله بن عمر : كان يكنى أبا عبد الرحمن ، وأسلم مع اسلام أبيه بمكة وهو صغير ، وشهد المشاهد بعد يوم بدر واحد ، وبقي الى زمن عبد الملك ، ويقال مات بمكة ودفن بنخ ، وهو آخر من مات بمكة من الصحابة . (المعارف ص ٨٠ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٢٠) .

(٣) أبو ذر الغفارى : يقال اسمه جندب بن السكن ، ولقبه برير . وقال آخرون : جندب بن جنادة . وعن حفص بن المعتمر قال : جئت وأبو ذر أخذ بقلعة باب الكعبة وهو يقول : أنا أبو ذر الغفارى ، من لم يمرقنى فانا جندب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله يقول : مثل أهل بيتى مثل سفينة نوح من ركبها نجا . وهو من غفار ، وغفار قبيلة من كنانة . أسلم أبو ذر بمكة ولم يشهد بدرا ولا أحدا ولا الخندق لانه حين أسلم رجع الى بلاد قومه ، فأتاه حتى مضت هذه المشاهد ، ثم قدم المدينة . وكان عثمان سيره الى الريزة فمات بها سنة اثنتين وثلاثين . (المعارف ص ١١٠) .

(٤) عويمر بن عامر بن الحرث بن الخزرج : كان آخر أهل داره اسلاما ، وكان قبل اسلامه تاجرا . مات بالشام سنة اثنتين وثلاثين (انظر ترجمته فى : المعارف ص ١١٦ ، اللبع ص ١٨١ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٩)

ومنهم : المتعلق بباب الرجاء ، ومختار رسول مالك الملك : « أبو لبابة
ابن عبد المنذر (١) » رضى الله عنه .

واذا ذكرتهم جميعا يطول بنا الكلام . وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن
محمد بن الحسين السلمى (٢) رضى الله عنه — وكان يقال الطريقة وراوى
أقوال المشايخ — كتابا منفردا فى تاريخ أهل الصفة (٣) ذكر فيه مناقبهم
وفضائلهم وأسماءهم وكنياتهم ، ولكنه ذكر من جملتهم « مسطح بن أثانة
ابن عباد » (٤) ، وأنا أبغضه لأنه كان هو البادىء بآفك أم المؤمنين عائشة
رضى الله عنها .

أما « أبو هريرة (٥) » و « ثوبان (٦) » و « معاذ بن الحارث » و « سائب
ابن الخلد » و « ثابت بن الوديع » و « أبو عبيس عويم بن ساعد »

(١) أبو لبابة الاتمارى ، مكى بنيت له كانت تحت زيد بن الخطاب . اسمه بشير ،
ويقال رفاعه بن المنذر . توفى بعد مقتل عثمان وقبل قتل على (المعارف ص ١٤٢)
(٢) محمد بن الحسين بن محمد بن موسى السلمى النيسابورى ، العربى الأصل ،
المعروف بابى عبد الرحمن السلمى . اشتهر بنسبه الى السلميين وهم قبيلة والفته ،
فهو حنيد أبى عمرو بن نجيد السلمى . تتليذ على عدد كبير من شيوخ الحديث
والصوفية ، وعلى رأسهم جده أبو عمرو بن نجيد ، والدراتنى وأبو نصر
السراج الطوسى . كان مريدا لأبى القاسم النضرابادى وتسلم منه الخرقه .
وتتليذ عليه عدد كبير من كبار الصوفية منهم الصوفى الفارسى أبو سعيد أبى
الخير ، وأبو القاسم القشبرى . ألف السلمى كتبا كثيرة فى الحديث والتفسير
والتصوف ، والذي اشتهر به هو تاليفه فى التصوف المعروف بطبقات الصوفية .
توفى سنة اثنتى عشرة وأربعمائة ، ودفن فى نيسابور .
(انظر ترجمته فى نحات الاتس ص ٢١١) .

(٣) كتاب تاريخ أهل الصفة : نقل عنه أبونعيم الاصفهاني فى حلية الأولياء . ويسميه
حاجى خليفة : « تاريخ أهل الصفة » . (انظر : « كشف الظنون » ج ١
عبود ٢٨٦) .

(٤) مسطح بن أثانة بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف ، ويكنى أبا عباد . شهد
بدرأ واحدا والمشاهد كلها . وكان أبو بكر بجرى عليه . وهو الذى تنف عاتشة
رضى الله عنها ، وتوقف أبو بكر عن الاتفاق حتى نزلت الآية : « ولا يأتل أولو
الفعل منكم والسمة أن يؤتوا أولى القرى » فقال أبو بكر : والله لأحب أن
يفخر الله لى أرجع الى مسطح تنفته التى كان ينفقها عليه (المعارف ص : ١٤٣)
(٥) أبو هريرة : اختلفوا فى اسمه ، فمنهم من قال هو عبد الله بن عمرو ، وقال
غيره هو عبد الرحمن ، وتيل عبد شمس . كان من قبيلة من اليمن يقال لها دوس
وهو دوس بن عدنان من الأزد . قال أبو هريرة : نشأت يتيما وهاجرت مسكينا ،
وكتبت أجيرا لبصرة بنت غزوان لطعام يطنى . وكان يكنى بابى هريرة بهرة كان
يلعب معها . وكان قدومه المدينة سنة سبع والنبي صلى الله عليه وسلم بخيبر ،
فسار الى خيبر حتى قدم مع النبي . توفى بالمدينة سنة تسع وخمسين . لما حضرته
الوفاة بكى فقتل له فى ذلك فقال : أبكى على بعد سلى وقلة زادى وانى أصبحت
على مهبط جنة أو نار لا أدري أيهما يأخذ بى . (انظر : المعارف ص ١٢٠ ،
اللبع ص ١٨٨ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٢٠) .

(٦) ثوبان : مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكنى أبا عبد الله ، وهو من
أهل السراة . أصابه سبب فاشتراه النبي وأعتقه ، ولم يزل معه حتى قبض
ثم تحول الى الشام فنزل حمص ومات سنة أربع وخمسين فى خلافة معاوية
(المعارف ص ٦٤) .

و « سالم بن عمر بن ثابت » و « أبو اليسر كعب بن عمرو بن وهب بن معقل (١) » و « عبد الله بن أنيس (٢) » و « الحجاج بن عمرو الأسلمي » رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد كانوا منهم وان تعلقوا من حين لحين بسبب ، ولكنهم كانوا جميعا بدرجة واحدة . وفي الحقيقة كان قرن الصحابة خير القرون ، وفي كل درجة كانوا فيها ، كانوا أحسن الخلق وأفضلهم في كل فن ، بعد أن وهبهم الله سبحانه وتعالى صحبة النبي عليه السلام ، وحفظ أسرارهم من جميع العيوب ، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٣) » وقال الله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان (٤) » .

والآن أثبت ذكر بعض من التابعين ، في هذا الكتاب ، لتتم الفائدة ، وتتصل القرون بعضها ببعض ، ان شاء الله العزيز .

(١) أبو اليسر كعب بن عمرو : من الأنصار . أسر العباس بن عبدالمطلب يوم بدر ، فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم . توفي سنة خمس وخمسين في خلافة عثمان (المعارف ص ١٤٢) .

(٢) عبد الله بن أنيس الأنصاري : كان يكنى أبا يحيى ويعرف بالجهني ، وجهنة من قضاة . اختطفوا في بدر هل شهدا أم لا . وهو الذي يقال فيه : ليلة الجهني ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن ينزل من بادية إلى مسجده فيصلي فيه ليلة ثلاث وعشرين ، فكان يدخل المسجد ليلة ثلاث وعشرين إذا صلى العصر ، ثم لا يخرج عنه إلا لحاجة حتى يصلي الصبح ثم يخرج إلى أهله ، نقيل ليلة الجهني . وهو الذي روى عن الرسول في ليلة القدر أنه قال : التمسوها الليلة ، وكانت ليلة ثلاث وعشرين . مات بالمدينة في خلافة معاوية . (المعارف ص ١٢١) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن ابن مسعود . (شرح إجماع المفسر ج ٢ ص ١٢) .

(٤) سورة « التوبة » آية ١٠٠ .

الباب العاشر باب في ذكر أئمتهم من التابعين وإلزامهم رضوان الله عليهم أجمعين

● منهم شمس الأمة ، وشمس الدين والملة :

« أويس القرني » رضى الله عنه . كان من مشايخ أهل التصوف ، ومعاصرا للرسول عليه السلام ، غير أنه منع من رؤية الرسول عليه السلام بشيئين ، أولهما : غلبة الحال ، والثاني : حق الوالدة .

وقال عنه النبي عليه السلام للصحابة : يوجد رجل من قرن (١) اسمه أويس يشفع يوم القيامة لعدد من أمتي مساو لأغنام رببعة ومضر . والتفت الى عمر وعلى رضى الله عنهما وقال لهما : انظرا ، وهو رجل عني ، متوسط القامة ، غزير الشعر ، توجد على جنبه الايسر شامة بيضاء في حجم الدرهم ، وبكفه بياض كالبرص ، وهو يشفع في عدد من أمتي مساو لعدد رببعة ومضر ، وحين تريانه أبلغاه سلامي ، وقولا له أن يدعو لأمتي .

ولما قدم عمر مكة بعد وفاة النبي عليه السلام ، وكان معه أمير المؤمنين على ، قال في خطبته : يا أهل نجد (٢) قوموا ، فنهض أهل نجد ، فقال : أيوجد بينكم رجل من قرن ؟ قالوا : نعم ، وأرسلوا اليه بنفر . فاستخبرهم أمير المؤمنين عن أويس فقالوا : يوجد رجل مجنون يدعى أويسا ، لا يرد إلا ماكن العامرة ، ولا يصاحب الناس ، ولا يأكل ما يأكله الناس ، ولا يعرف الترح والفرح : يبكي حين يضحك الناس ، ويضحك حين يبكون . فقال :

(١) « قرن » بفتح القاف والراء : بطن من مراد - اليمنى العابد . والنسبة اليها :

قرني (معجم البلدان ج ٤ ص ١) .

(٢) « نجد » : نجد الحجاز ونجد اليمن : وجنوبي نجد الحجاز يتصل بشمالى نجد

اليمن ، وبين النجدين وعمان برية مستنمة (معجم البلدان ج ٤ ص ٧٥١) .

أريده . قالوا : انه بالصحراء على مقربة من ابلنا . فنهض الامران
رضى الله عنهما وذهبا اليه . ووجداه واقفا يصلى ، فجلسا حتى فرغ من
الصلاة وسلم عليهما واراها علامتى جنبه وكفه فعرفاه ، وطلبا منه الدعاء ،
وابلغاه سلام النبى عليه السلام ، واوصياه بالدعاء للامة . وظلا معه
بعض الوقت الى ان قال لهما : عودا الان فان القيامة قريب ، ومن ثم تتعذر
رؤيتنا ، حيث لا رجعة ، لانى الان مشغول باعداد عدة الطريق الى
القيامة .

ولما رجع اهل قرن الى بلدهم صارت له خزمة وجاه بينهم ، وغادرها
الى الكوفة (١) . وقد رآه هرم بن حيان رضى الله عنه يوما ، ولم يره
أحد بعد ذلك ، الى ان وقعت الفتنة والحرب مع امير المؤمنين على
كرم الله وجهه ، فنجاه وكان يحارب معه أعداءه حتى استشهد فى موقعة
صفين (٢) : « عاش حميدا ومات شهيدا » .

ويروى عنه انه قال : « السلامة فى الوحدة » ، لان قلب المنفرد عن
الناس يكون متحررا من التفكير فى الغير ، ويانسى من الخلق فى جميع
الأحوال ، ليسلم من كل آفاتهم ، ويعرض عنهم جميعا .

اما اذا ظن احد معنى الوحدة أن يعيش المرء منفردا ، فهذا محال ،
لانه طالما يصحب الشيطان قلبه ويكون للنفس سلطان على صدره ، وتخطر
الدنيا والعقبى على فكره ، ويجول التفكير فى الخلق فى رأسه ، لا تكون
هناك وحدة بعد ، لان عين الشئ والتفكير فى الشئ كلاهما واحد .
والمشغول لا تكون العزلة سبب فراغه . وعلى ذلك فالوحيد اذا صاحب
لا تراحم الصحبة وحدته ، والمشغول لا تكون العزلة سبب فراغه ،
فالانقطاع عن الانس لا يكون بالانس . ومن يكون له انس بالحق تعالى
لا تضر مخالطة الانس انسه ، ومن يانس بالانس لا يخطر الانس على
قلبه ، ولا يدري شيئا عن الانس مع الحق ، لان الوحدة صفة عبد صاف
سمع قوله تعالى : « ليس الله بكاف عبده (٣) » .

• ومنهم ايضا شيخ الصفاء ومعن الوفاء :

(١) « الكوفة » : اختطها سعد بن أبى وقاص الزهري سنة سبع عشرة وهو عامل
عمر بن الخطاب . وهى أول مدينة اختطها المسلمون بالمراق (البلدان ص
٧٣ ، ٤) .

(٢) « صفين » موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربى . وكانت
موقعة صفين بين على رضى الله عنه ومعاوية سنة ١٧ هـ (معجم البلدان ج ٣
ص ٤٠٢) .

(٣) سورة « الزمر » آية ٢٦ .

« هرم بن حيان » رضى الله عنه ، كان من عظماء الطريقة ، ذا حظ موفور في المعاملة . وقد أكثر من صحبة الصحابة وكرامهم . وقصد زيارة أويس ، ولما سار الى قرن كان (أويس) قد غادرها ، فرجع يائسا . ولما عاد الى مكة علم انه بالكوفة ، فذهب اليها ولم يجده . وظل هناك مدة طويلة ، فلما أراد ان يرحل عنها الى البصرة لقيه في الطريق على شاطئ الفرات (١) يتوضأ ، وقد ارتدى مرقعة ، فعرفه . ولما تنحى (أويس) عن الشاطئ ومشط ذقنه ، تقدم اليه هرم وسلم عليه ، فقال له : عليك السلام يا هرم بن حيان . فسأله : كيف عرفت انى هرم ؟ قال : عرفت روحى روحك . وجلسا معا برهة ، وصرفه .

قال هرم : لقد حدثنى كثيرا عن الأميرين — أى عمر وعلى رضوان الله عليهما — وقال لى ان عمر روى له عن الرسول عليه السلام قوله عليه السلام : « انما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة يتزوجها ، فهجرته الى ما هاجر اليه (٢) . ثم قال : « عليك بحفظ قلبك » . وفي رواية : « عليك بقلبك » . أى : عليك بحفظ قلبك من التفكير فى الغير .

ولهذا الكلام معنيان ، أولهما : أن يجعل القلب متابعا للحق بالمجاهدة ، والثانى : أن يجعل نفسه متابعا للقلب بالمشاهدة ، وكلاهما أصل قوى .

وجعل القلب متابعا للحق شأن المريدين الذين يردون القلب عن ممارسة الشهوة ومؤانسة الهوى ، فتقطع عنه الأفكار غير الملائمة ، الى حد انه لا يبقى له فكر آخر سوى ذكر الحق .

وجعل النفس متابعة للقلب شأن الكاملين الذين ينور الحق تعالى قلوبهم بنور جماله ، ويحررها من جميع الاسباب والعلل ، ويبلغها أعلى الدرجات ، ويخلع عليها خلعة القرب ، ويتجلى عليها بالطائفة ، ويتولاها بالمشاهدة والقرب ، ومن ثم يجعل البدن موافقا للقلب .

فالطائفة الاولى اصحاب قلوب ، وهؤلاء مغلوبو قلوب ، وصاحب القلب هو مالك القلب وباتى الصفة ، ومغلوب القلب فانى الصفة .

(١) « الفرات » (نهر) : الفرات معرب عن لفظه ، وله اسم آخر وهو «فراز رود» لانه بجانب دجلة ، والهيئة تسمى بالفارسية « فراز » و « رود » = نهر

(مجمع البلدان ج ٣ ص ٨٤٠)

(٢) رواه الشيخان عن عمر ، ومالك فى الموطأ .

وَحَقِيقَةُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مُرَدُّهَا إِلَى تَوَلِّهِ عَزَّ وَجَلَّ : « أَلَا عِبَادُكُمْ مِنْهُمْ الْمَخْلُصِينَ » (١) — بِفَتْحِ اللَّامِ — وَالْمَخْلُصُ بِكَسْرِ اللَّامِ هُوَ الْفَاعِلُ وَبِاقِي الصِّفَةِ . وَالْمَخْلُصُ يَفْتَحُ اللَّامَ هُوَ الْمَفْعُولُ وَفَائِي الصِّفَةِ . وَسَأُورِدُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ أَكْثَرَ تَشْرِيحًا فِي مَكَانٍ آخَرَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَالْحَقِيقَةُ إِنْ فَائِي الصِّفَةِ اعْظَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْجَسَدَ مُوَافِقًا لِلْقَلْبِ ، لِأَنَّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ مَحْوَلَةَ فِي حَضْرَةِ الْحَقِّ وَقَائِمَةَ فِي مَشَاهِدَةِ الْحَقِّ أَكْثَرَ مِنْ بَاقِي الصِّفَةِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْقَلْبَ مُوَافِقًا لِلْأَمْرِ بِالتَّكْلِيفِ .

وَبِنَاءِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَائِمٌ عَلَى أَصْلِ الصَّحْوِ وَالسُّكْرِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالْمَشَاهِدَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

وَمِنْهُمْ أَيْضًا : إِمَامُ الْعَصْرِ وَغَرِيدُ الدَّهْرِ :

أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيُّ « رَحِمَهُ اللَّهُ » . وَهَنَّاكَ غَرِيقٌ يَجْعَلُونَ كُنْيَتَهُ « أبا مُحَمَّدٍ » ، وَآخَرُونَ يَجْعَلُونَهَا « أبا سَعِيدٍ » . وَلَهُ قَدَرٌ كَبِيرٌ وَشَأْنٌ عَظِيمٌ عِنْدَ أَهْلِ هَذَا الْعِلْمِ (أَيْ عِلْمِ التَّصَوُّفِ) بَلْ كُلِّ الْعُلُومِ . وَكَانَ لَطِيفَ الْإِشَارَةِ فِي الْمَعَامِلَةِ .

وَقَدْ قَرَأْتُ فِي الْحِكَايَاتِ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَهُ وَسَّأَلَهُ عَنِ الصَّبْرِ ، فَقَالَ لَهُ : الصَّبْرُ نَوْعَانِ : أَوَّلُهُمَا : الصَّبْرُ فِي الْمَصَائِبِ وَالْبَلِيَّاتِ ، وَآثَانِي : الصَّبْرُ عَنِ الْمُنْهَيَّاتِ . فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : أَنْتَ زَاهِدٌ مَا رَأَيْتُ أَزْهَدَ مِنْكَ . فَقَالَ الْحَسَنُ : يَا أَعْرَابِي ! أَمَا زَهْدِي فَكُلُّهُ رَغْبَةٌ ، وَأَمَا صَبْرِي فَكُلُّهُ جُزَعٌ . فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : فَسِرْ لِي هَذَا الْكَلَامَ ، فَقَدْ اضْطَرَبَ اعْتِقَادِي . فَقَالَ لَهُ : صَبْرِي فِي الْبَلَاءِ أَوْ الطَّاعَةِ نَاطِقٌ بِخَوْفٍ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ ، وَهَذَا عَيْنُ الْجُزَعِ . وَزَهْدِي فِي الدُّنْيَا رَغْبَةٌ فِي الْآخِرَةِ ، وَهَذَا عَيْنُ الرِّغْبَةِ ، بَخْ بَخْ لَنْ كَانَ يَأْخُذُ نَصِيحَتِهِ فِي الْوَسْطِ . حَتَّى يَكُونَ صَبْرُهُ خَاصًّا بِالْحَقِّ جَلَّ جَلَالُهُ لَا خَوْفًا مِنْ جَهَنَّمَ ، وَزَهْدُهُ مُطْلَقًا لِلْحَقِّ عَمَّ نَوَالِهِ لَا لِلْوَصُولِ إِلَى الْجَنَّةِ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الْإِخْلَاصِ .

وَيُرْوَى عَنْهُ أَيْضًا ، رَحِمَهُ اللَّهُ ، أَنَّهُ قَالَ : « صَحْبَةُ الْأَشْرَارِ تَوْرَثُ سُوءَ الظَّنِّ بِالْأَخْيَارِ » .

وَهَذَا قَوْلٌ جَدُّ مُحْكَمٌ ، وَالْيَقِينُ لِأَهْلِ زَمَانِنَا هَذَا الَّذِينَ كُلُّهُمْ مُنْكَرٌ لِأَعْزَاءِ حَضْرَةِ الْحَقِّ جَلَّ جَلَالُهُ . وَقَدْ حَدَّثَ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَصْحَبُونَ الْمُسْتَصَوْنَ

(١) سُورَةُ « الْحَجَرِ » آيَةُ ٤٠ .

واهل الرسم ، ويرون اعمالهم قائمة على الخيانة ، والسنتهم تفيض كذبا وغيبة ، وسعيهم منصرفا الى استماع « الدوبيات(١) » المليئة بالهزل والبطلان ، واعينهم مملوءة باللغو والشهوة ، وكل همتهم جمع الحرام والشبهة . ويظنون ان هذه هى معاملة المتصوف ، وان مذهب المتصوفة هكذا . وليس الامر كذلك ، بل فعلهم كله طاعة ، ولسانهم ذاكر للحق والحقيقة ، وآذانهم محل استماع الشريعة ، واعينهم موضع جمال المشاهدة ، وهمتهم كلها جمع فى محل الرؤية . فاذا ظهر قوم قد سلكوا طريق الخيانة ، فخيانة الخائنين تعود اليهم لا الى احرار الدنيا وسادات الزمان هؤلاء . واذا صحب احد اشرار قوم فان ذلك يرجع الى شره ، لأنه لو كان فيه خير لصاحب الخيار ، اذ الجنس اميل الى الجنس(٢) . فمِلامة كل امرئ عليه ، لأنه يصحب صنوه وكفاه .

والمنكرون على الصوفية هم اشر خلق الله جل جلاله وارذلهم ، لأن صحبتهم كانت مع اشرهم وارذلهم ، فلما لم يدركوا هوى ومرادا أنكروا عليهم . أو أنهم اقتدوا بهم فلما هلكوا ، لم يتجهوا الى هؤلاء الاخيار والأعزاء على الله تعالى ، فينظروا بعين الرضا الى اخيارهم ، ويشترخوا صحبتهم بأرواحهم وقلوبهم ، ويختاروا من العالم طريقتهم ، وينالوا ببركاتهم مقصودهم فى الدارين وينقطعوا عن الكل . وقد قيل فى هذا المعنى : (بيت من الشعر العربى)

فلا تحقرن نفسى وانت حبيبها * فكل امرئ يصبو الى من يجانس

● ومنهم : رئيس العلماء ، وقدوة الفقهاء : « سعيد بن المسيب »(٣) رحمه الله . كان عظيم الشأن ، رفيع القدر ، عزيز القول ، حميد الصدر ، وله مناقب كثيرة فى فنون العلم : من فقه وتوحيد وحقائق وتفسير وشعر ولغة وغير ذلك .

(١) « الدوبيت » : شعر مكون من أربع شطرات ، وهو نوع من الرباعيات يترنم به الصوفية فى حلقات السماع .

(٢) العبارة فى الاصل : « الجنس مع الجنس أثر » .

(٣) أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب بن مخزوم القرشى المذنب . أحد الفقهاء السبعة بالدينة . كان سيد التابعين ، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع ، سجع سعد بن أبى وقاص الزهرى وأبى هريرة رضى الله عنهما ، ولقى جماعة من الصحابة وسبع منهم . ودخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهم . أكثر روايته المسند عن أبى هريرة ، وكان زوج ابنته . ضرب عبد الملك بن مروان والبسة المسوح وطاف به أسواق المدينة حين امتنع عن مبايعته ، ومنع من مجالسته . كان يقول لنفسه اذا دخل الليل : قومى يا مأوى كل شر ، والله لادعئك تزحفى زحف البعير . قيل توفى بالمدينة سنة أربع وتسعين للهجرة وقيل سنة خمس ومائة (انظر ترجمته فى المعارف ص ١٩٣ - ١٩٤ ، ونبات الاعيان ج ١ ص ٢٠٦ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٢٤) .

ويقولون انه كان رجلا عياراً (١) المظهر زاهد الطبع ، لا زاهد المظهر عيار الطبع . وهذه طريق مخمودة في الطريقة ، ومقبولة لدى جميع المشايخ رضى الله عنهم .

ويروى عنه أنه قال : « ارض باليسر من الدنيا مع سلامة دينك ، كما رضى قوم بكثيرها مع ذهاب دينهم » . أى أن الفقر مع السلامة خير من الغنى مع الغفلة ، لأن الفقير اذا نظر في قلبه لا يجد فيه التفكير في الزيادة ، واذا نظر في يده يجد التناعة . والغنى حين ينظر الى قلبه يجد فيه التفكير في زيادة الدنيا ، وعندما ينظر في يده يرى الدنيا المليئة بالشبهات .

اذن فرضاء الأحباب بربوبية الله بلا غفلة خير من رضاء الغافلين بالدنيا المليئة بالغرور والآفة والحسرة والندامة والزللة والمعصية .

وحينما يحل البلاء يقول الغافلون : الحمد لله اذ أنه لم يحل بالجسد ، ويقول الأحباب : الحمد لله أنه لم يحق بالدين . واذا كان الجسد في بلاء ، فما دام القلب في اللقاء ، يطيب للجسد البلاء . وحين يكون القلب في الغفلة فإنه وان يكن الجسد في النعمة ، فإنها لا تكون نعمة ، بل نقمة . وفي الحقيقة فان الرضا بقليل الدنيا هو كثير الدنيا ، والرضا بكثير الدنيا هو قليل الدنيا ، لأن قليلها مثل كثيرها .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه كان جالسا في مكة وجاء اليه رجل وقال له : أخبرنى عن حلال ليس فيه حرام ، وحرام ليس فيه حلال . فقال رضى الله عنه : « ذكر لله حلال ليس فيه حرام ، وذكر غيره حرام ليس فيه حلال » ، لأن النجاة في ذكره والهلاك في ذكر غيره ، والله أعلم بالصواب ..

(١) العيار : هو الرجل الكثير المجيء والذهاب ، الذكى ، الكثير الطواف . وقيل الذى يتردد بلا عمل . ومنه العيار من الرجال ، الذى خلى نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها (أقرب الموارد) .

الباب الحادى عشر باب فى ذكر أئمتهم من اتباع التابعين إلى يومنا

منهم شجاع الطريقة ، والمتمكن فى الشريعة ، « حبيب العجى (١) » ،
رضى الله عنه . كان على الهمة ، جليل القدر ، وله فى مراتب الرجال
قيمة وخطر عظيم .

وكانت توبته فى البداية على يد حسن البصرى ، فقد كان فى أول عهده
يقرض بالربا ، ويعيث فسادا ، ووهبه الله عز وجل بكمال لطفه التوبة
النصوح ، ومن عليه بالتوفيق ، حتى أناب إلى حضرته جل جلاله ، وتعلم
تدرا من العلم .

وعن الحسن (البصرى) أن لسانه كان أعجيا ، ولم يكن جاريا على
العربية . وقد خصه الله تعالى وتقدس بكرامات كثيرة إلى حد أن الحسن
مر يوما بباب صومعته وقت صلاة العشاء ، وكان قد أقام الصلاة ووقف
يصلى ، فدخل الحسن ولم يقتد به ، لأن لسانه لم يكن جاريا على قراءة
القرآن . ولما نام (الحسن) رأى الله سبحانه وتعالى فى منامه ، فقال:
يا الهى إذا الجلال ! فميم يكون رضاؤك ؟ فقال : يا حسن ، كنت قد أدركت
رضاءنا فلم تعرف قدره . فقال : يا الهى تعاليت ! ما هو ؟ قال : لو أنك
صليت خلف حبيب بالأمس ، ولم يردك عن صحة نيته انكار عبارته ،
لكننا رضىنا عنك .

(١) ورد عنه أن أحمد بن حنبل والشافعى كانا قد اجتمعا يوما ، فدخل عليهما حبيب .
فقال أحمد : سأله سؤالا ، فقال الشافعى : لا تفعل ، فهو رجل عجيب
فقال أحمد : لا مناص لى من ذلك . ولما اقترب حبيب منهما سأل : ما قولك
فى حق رجل فانتته صلاة من الصلوات الخمس ولا يعرف أى واحدة هى ، ماذا
يجب عليه أن يفعل ؟ قال حبيب : هذا قلب غفل من الله فليؤدب ، وينبغى عليه
أن يغضى الصلوات الخمس . (انظر ترجمته فى تذكرة الأولياء ج ١ ص ٩٦) .

ومن المعروف بين هذه الطائفة أنه عندما فر الحسن من رجال الحجاج (١) ، دخل صومعة حبيب ، فلما جاعوا اليها قالوا : يا حبيب ، هل رأيت الحسن؟ قال : نعم ، قالوا : أين ؟ قال : هاهو في صومعتي ، فدخلوا الصومعة فلم يروا أحدا ، وظنوا أن حبيبا يهزأ بهم ، فأغلظوا له قائلين : أنك تكذب . واقسم لهم قائلا : انى أقول الصدق ، وها هو في صومعتي . فدخلوا الصومعة ثانية وثالثة ولم يجدوه ، فانصرفوا . وخرج الحسن وقال : يا حبيب انى أعرف أن الله تعالى لم يظهرنى لأولئك الظلمة ببركاتك ، فلماذا قلت لهم : انه هنا ؟ قال : يا استاذ ! انه لم يكن ببركاتى ان الله لم يظهرك لهم ، بل كان ببركات الصدق ، ولو كنت كذبت لفضحونى ، انا وانت (٢) .

وله من هذا القيل كرامات كثيرة .

سئل : فبم يكون رضاء الله تعالى ؟ . قال : « في قلب ليس فيه غبار النفاق » . ذلك ان النفاق خلاف الوفاق ، والرضا عين الوفاق ، ولا تعلق للمحبة بالنفاق ، ومحلها الرضا ، فالرضا صفة الاحباب ، والنفاق صفة الاعداء . وهذا قول عظيم أبينه ان شاء الله في موضع آخر .

● ومنهم بقية اهل الانس ، وزين جملة الجن والانس :

(مالك بن دينار) رضى الله عنه . كان صاحب الحسن البصرى ، ومن كبار هذه الطريقة ، وله كرامات كثيرة مشهورة ، وفي الرياضة خصال مذكورة .

وكان دينار عبدا ، وقد ولد (مالك) في حال عبودية أبيه .

(١) الحجاج بن يوسف الثقفى . كان يكنى أبا محمد . ولى شرط أبان بن مروان في بعض ولايات أبان فلما خرج بن الزبير أولده عبد الملك بن مروان مع جيش من أهل الشام لقتاله فحاصره وقتله وصلبه . وولاه عبد الملك الحجاز ثلاث سنوات . وفي سنة ٧٤ هـ . ولاه عبد الملك العراق فوليها عشرين سنة وأصلحها وذل أهلها . وتوفي سنة ٩٥ هـ في عهد الوليد عبد الملك (انظر : المعارف ص ١٧٣ ، البعوث ج ٢ ص ١٧ - ٢٤) .

(٢) وردت هذه الحكاية على لسان أبى طالب المكي ، قال : « حدثونا أن الحسن رحمه الله اخفى عند حبيب العجبي من الحجاج ، فسمى به فدخل عليه الشرط ففرغ الحسن وذهب ليتصور الحائط ويهرب ، فقال له حبيب : أبا محمد ، اتعد حتى تبصر ، فقال : فدخل الشرط فقالوا أين الحسن ؟ قيل لنا انه عندك . فقال : هل ترون شيئا ؟ ففتشوا الدار كلها وخرجوا وهم لا يرونه ، فقال له الحسن : كيف لم ينظروا الى ؟ قال : لاني كنت عند الله فلم يروك ، ولو كنت همدى لأبصرك . قال له الحسن : انى رأيك لما دخلوا هبمت بشيء ، فهل خكرت اسم الله الاعظم ؟ قال : لا ، ولكن قلت : اللهم اجعله عندك حتى لا يبصروه ، (توت القلوب ج ١ ص ١٢٧) .

وكانت بداية أمره أنه ذات ليلة ، شاء صبح السعادة الالهية أن ينثر شعلة من أنواره على روح مالك بن دينار ، وكان في تلك الليلة مشغولا بالطرب بين جماعة من رفاقه ، ولما ناموا جميعا أيقظ الحق جل جلاله بخته ، فانبعث من خلال العود الذي كان يضرب عليه صوت جميل يقول : « يا مالك مالك أن لا تتوب ؟ » . فكف يده عن هذا كله ، وجاء الى الحسن وتاب على يديه توبة نصوحا .

ويبلغ من منزلته أنه ركب ذات مرة سفينة ، فضاع فيها جوهرة ، وكان يبدو أكثر القوم نكرا (١) ، فاتهموه بسرقتها . ورفع رأسه الى السماء ، فخرج في الحال كل ما في البحر من السمك على الماء ، وقد أمسكت كل سمكة بفمها جوهرة ، فأخذ من كل تلك جوهرة واعطاها للرجل ، ووضع قدمه على الماء وسار عليه في يسر حتى خرج الى الساحل .

يرد عنه أنه قال : « أحب الأعمال الى (٢) الاخلاص في الأعمال » .

ذلك أن العمل يصير عملا بالاخلاص ، والاخلاص للعمل بمنزلة الروح للجسد . وكما أن الجسد بلا روح يكون جمادا ، كذلك الشخص الذي يؤدي العمل بالظاهر الف عام لا يصير عمله عملا ما لم يربط الاخلاص به .

أما الاخلاص فهو من جملة الأعمال الباطنة ، والطاعات من جملة الأعمال الظاهرة . والأعمال الظاهرة تتم بالأعمال الباطنة ، والأعمال الباطنة تكتسب قيمتها بالأعمال الظاهرة ، فلو أن انسانا أخلص بقلبه الف عام فانه ما لم يعمل بالاخلاص لا يكون اخلاصه اخلاصا . وإذا عمل أحد بالظاهر الف عام فانه ما لم يتصل الاخلاص بعمله لا يصير عمله عملا .

● ومنهم الفقير الخطير ، وعلى سائر الاولياء الامر :

« أبو حاتم حبيب بن سليم الراعي (٣) » رضى الله عنه . كان عظيم المنزلة بين المشايخ ، وله في جملة الأحوال آيات وبراهين كثيرة نيره . وكان صاحب سلمان الفارسي رضى الله عنه . ويروى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « نية المؤمن خير من عمله » .

وكان صاحب أغنام ، يقيم على شاطئ الفرات ، ويسلك طريق العزلة . ويروى أحد المشايخ قائلا : مررت به فوجدته يصلى ويحرس غنمه ذئب !

(١) أى مجهولا من الجميع أكثر من أى شخص آخر : إذ النكر بمعنى الجهل .

(٢) في الأصل « على » .

(٣) لم ترد له ترجمة في الكتب التي رجعت اليها .

فقلت : فلأزر هذا الشيخ فأنى أرى فيه آية كبرى . وبقيت لحظة حتى فرغ من الصلاة ، وسلمت عليه ، فقال : يا بنى ! لآى أمر جئت ؟ قلت : لزيارتك . قال : خيرك الله : قلت : أيها الشيخ ! أنى أرى الذئب موافقا للغنم ! فقال : لأن راعى الغنم موافق للحق . قال هذا ، وكان لديه وعاء خشبى ! تحت حجر ، تجرت فيه عينان : أحدهما لبن ، والأخرى عسل . فقلت له : يا شيخ ! بم نلت هذه الدرجة ؟ قال : بمتابعة محمد عليه الصلاة والسلام . يا بنى ! لقد كان قوم موسى يخالفونه ، ومع هذا حباهم الصخر الماء ، ولم يكن موسى فى درجة محمد ، وبما أنى متابع لمحمد ، فقد حبانى الله العسل واللبن ، فلا عجب . فقلت له : عظمى ! قال : « لا تجعل قلبك صندوق الحرص وبطنك وعاء الحرام » ، لأن هلاك الخلق فى هذين ، ونجاتهم فى حفظهما .

وكان لشيخى — رضوان الله عليه — روايات كثيرة عنه ، ولكن ليس من الميسر فى هذا الوقت أكثر من هذا ، لأن كتبى بقيت فى حضرة غزني — جرسها الله — وأنا فى ديار الهند ، فى بلدة لها نور^(١) من توابع الملتان ، أسير بين أناس ليسوا من جنسى ، والحمد لله رب العالمين .

● ومنهم الشيخ الصالح ، وبصلاحه الصالح ، « أبو حازم المدنى »^(٢) رحمه الله ، كان قدوة لبعض المشايخ ، وله فى المعاملات حظ وافر وخطر كبير ، وفى الفقر قدم ثابتة ونفس صادق ، وفى المجاهدات مسلك كامل .

ويروى عنه عمرو بن عثمان المكى^(٣) رضى الله عنه — وكلامه فى كل القلوب مقبول ، وفى كثير من الكتب مسطور — انه قيل له : « ما مالك ؟ قال : « الرضا عن الله والفتاء عن الناس » .

وكل من يرضى بالحق يستغنى لا محالة عن الخلق . والكثر الأكبر للمرء : رضاء الله تعالى وتقدس .

(١) « لاهور » .

(٢) يسميه نريد الدين المطار ، أبا حازم المكى . (انظر ترجمته فى تذكرة الاولياء ج ١ ص ٥٦) .

(٣) عمرو بن عثمان بن كعب : كنيته أبو عبد الله . كان ينتسب الى الجنيد فى الصحبة وصحب أبا سعيد الخراز وغيره ، روى عن محمد بن اسماعيل ويونس بن عبد الاملى وسليمان بن سيف الحرائى وغيرهم . مات ببغداد سنة احدى وتسعين ومائتين (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٠٠ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ١٢١ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٦ ، نفحات الانس ص ٨٤ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١٧١) .

والإشارة — هنا — الى الغناء بالله جل جلاله ، فكل من يغنى به يستغنى عن غيره ، ولا يعرف طريقا الى غير حضرته ، ولا يعرف غيره في الخلا والملا ، ولا يدعو غيره ، ولا يعرف معزا ومذلا غيره .

ويقول واحد من المشايخ : دخلت عند « أبى حازم » فوجدته نائما ، وبقيت برهة حتى استيقظ ، فقال : رأيت النبی عليه الصلاة والسلام في هذه الساعة في المنام ، وقد حملنى اليك رسالة وقال : ان رعاية حق الام افضل من الحج ، فعد واطلب رضا قلبها . فرجعت من عنده ، ولم اذهب الى مكة . ولم أسمع منه اكثر من هذا .

● ومنهم داعى اهل المجاهدة ، والتائم في محل المشاهدة ، « محمد بن واسع (١) » رضى الله عنه ، الذى لم يكن له مثل في زمانه ، وكان قد أدرك صحبة كثير من الصحابة والتابعين ، ورأى طائفة من الشيوخ المتقدمين .

وكان رضى الله عنه ذا حظ واف في هذه الطريقة ، وانفاس عالية واشارات كاملة في الحقائق .

ورد عنه انه قال : « ما رأيت شيئا الا ورأيت الله فيه » . وهذا مقام المشاهدة ، لأن العبد في غلبة محبة الفاعل عليه يصل الى درجة انه ينظر في فعله فلا يرى الفعل ، ويرى الكل فاعلا . كما ينظر شخص الى الصورة يرى الصور .

وحقيقة هذا ترجع الى قول الخليل عليه السلام الذى قال : لكل من القمر والشمس والنجم : « هذا ربي (٢) » ، وكان ذلك في حال غلبة الشوق ، لأنه كان يرى كل ما يراه في صفة محبوبه ، فالأحبة حين ينظرون الى العالم يرونه مقهور قهر الله وأسير سلطانه ، فيتلاشى وجود العالم في جنب قدرة فاعله ، ويصير في ذل قوله تعالى « كن » (٣) لا شيء . وهم ينظرون فيه بعين الاستيقاق ، فلا يرون المقهور ويرون القاهر ، ولا يرون

(١) محمد بن واسع بن جابر الأزدي ، أبو بكر البصري الزاهد . روى عن أنس بن مالك والحسن البصري . توفي سنة عشرين ومائة ، وقبل ثلاث وعشرين ومائة . كان يلبس الصوف ، فدخل يوما على قتيبة بن مسلم فقال له قتيبة : ما دعاك الى لبس الصوف ؟ فسكت ، فقال : ألكم فلا تجيبني ؟ فقال : أكره أن أقول اني زاهد فأزكي نفسي ، أو أقمر فأشكو ربي عز وجل (انظر ترجمته في المعارف ص ٢٠٩ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٢٩ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٤٨) .

(٢) إشارة الى الايات ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ من سورة « الانعام » .

(٣) إشارة الى الآية : « واذا قضى أمرا فانه يقول له كن فيكون » سورة « البقرة » آية ١١٧ .

المفعول ويرون الفاعل ، ولا يرون المخلوق ويرون الخالق . وسأوضح هذا في باب المشاهدة ان شاء الله تعالى .

وهنا يخطيء فريق اذ يقولون : ان الرجل قال : « رأيت الله فيه » ، وهذا يقتضى المكان والتجزئة والحلول ، وهو كفر محض ، لأن المكان يكون جنس المتمكن ، واذا قدر شخص ان المكان مخلوق ، فلا بد وان يكون المتمكن مخلوقا ايضا ، واذا قدر ان المتمكن قديم ، فلا بد وان يكون المكان قديما ايضا .

وبهذا القول يحصل نوعان من الفساد : فاما ان يقال ان الخلق قديم ، او ان الخالق محدث ، وهذان كلاهما كفر . فرؤيته هذه (أى رؤية الله فى الأشياء) بمعنى رؤية آياته وادلته وبراهينه فيها ، بالمعنى الذى ذكرته أولا .

وفى هذا المعنى رموز لطيفة اجيء بها فى موضعها ان شاء الله تعالى .

● ومنهم امام العالم ومقتدى الخلق وشرف الفقهاء وعز العلماء : « أبو حنيفة النعمان بن ثابت الخزاز » رضى الله عنه ، كان له فى العبادات والمجاهدات قدم ثابتة ، وشأن عظيم فى اصول الطريقة .

تصد فى بداية حاله العزلة ، وتبرا من جملة الخلق ، واراد ان ينسلخ عنهم — لانه كان قد طهر قلبه من ريائهم وجاههم ، وهذب — للحق — الى أن رأى فى منامه ليلة أنه كان يجمع عظام النبی عليه السلام من لحدده ويتخير بعضها من بعض ، فهب من نومه فزعا من ذلك ، وسأل واحدا من أصحاب محمد بن سيرين (١) فقال له : ستصل فى علم النبی عليه السلام وحفظ سنته الى درجة عظيمة بحيث تتصرف فيها وتميز الصحيح من السقيم .

ومرة أخرى رأى النبی عليه الصلاة والسلام فى النوم ، وقال له : يا أبا حنيفة ! لقد جعلت سببا لحياء سنتى فلا تقصد .

(١) أبو بكر محمد بن سيرين البصرى . كان من سبى ميسان . روى عن أبى هريرة وعبد الله بن عمر وغيرهم . وروى عنه قتادة بن دعابة وخالد بن الحذاء وغيرهم . احد فقهاء البصرة صاحب الحسن البصرى ثم تهاجرا فى آخر الامر فلما مات الحسن لم يشهد ابن سيرين جنازته . كتبت نه اليد الطولى فى تعبير الرؤيا . توفى سنة عشر ومائة بالبصرة بعد الحسن البصرى بمائة يوم .
(انظر ترجمته فى المعارف ص ١٦٥ ، ونيات الاعيان ج ١ ص ٤٥٣) .

وكان استاذًا لكثير من المشايخ مثل : ابراهيم بن ادهم ، والفضيل ابن عياض ، وداود الطائي ، وبشر الحافى وغيرهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ومدون لدى العلماء أنه في عهد أبى جعفر المنصور (١) ، فكروا في أن ينصبوا رجلا من بين أربعة قاضيا ، أولهم الامام الأعظم ابو حنيفة ، وثانيهم سفيان (٢) وثالثهم مسعر بن كدام (٣) ، ورابعهم شريك (٤) ، رحمة الله عليهم ، وكان هؤلاء الأربعة من محول علماء الدهر ، وبعثوا رسولا لاجسادهم جميعا . واثناء سيرهم في الطريق قال ابو حنيفة رضى الله عنه : سأتفرس في كل منا غراسة في ذهابنا هذا ! قالوا : يستصوب ، قال : أنا ادفع عن نفسى هذا القضاء بحيلة ، ويفر سفيان ، ويتصنع مسعر الجنون ، ويصير شريك قاضيا .

وفر سفيان في الطريق ، ولجا الى سفينة وقال : خبئونى لانهم يريدون قطع راسى ، وذلك بتأويل الخبر الذى ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : « من جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين (٥) » ، فأخفاه الملاح . وحمل الثلاثة الى المنصور ، فقال اولا لأبى حنيفة رحمه الله : ينبغى أن تتولى القضاء ! فقال : يا أمير المؤمنين ! أنا رجل غير عربى ومن موالى العرب ، ولا يرضى سادات العرب بحكمى . فقال ابو جعفر : هذا

(١) عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس . الخليفة العباسى . بويج في اليوم الذى توفى فيه أبو العباس سنة ١٣٦ هـ ، وكان حاجا فأتاه له عمه عيسى بن على البيعة على من حضر من الهاشبيين والقواد بالأنبار وواناه الخبر بذلك بايعه ابو مسلم ومن حضر من القواد . قتل أبى مسلم سنة ١٣٧ هـ . وبأيع ابنه المهدي بولاية العهد سنة ١٤٧ هـ . توفى عند وصوله مكة وهو حاج سنة ١٥٨ هـ ودفن بها . (انظر تاريخ البعقوبى ج ٢ ص ١٠٠ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٨ وما بعدها) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) مسعر بن كدام — بكسر الكاف — طلبه أبو جعفر المنصور ليؤليه القضاء فقال له : مهلا يا أمير المؤمنين . ان اهلى يطلبون حاجة بدرهم ، فاقول لهم أنا اشتري لكم ، فيقولون لا ترضى بشرائك . فإذا كان اهلى لا يرضون بشرائى لهم حاجة بدرهم ، (فكيف) يولئنى أمير المؤمنين القضاء ؟ فأعاده . دخل عليه سفيان الثوري في مرض موته فقال له : ما هذا الجزع يا مسعر ؟ والله لو ددت أنى مت الساعة . فقال : انك اذا لوائت بملكك ياسفيان ! لكنى والله كائى على شاقى جبل لا أدرى أين أهبط . فبكى سفيان وقال : أنت أخوف لله عز وجل منى يا أخى . توفى بالكوفة سنة خمس وخمسين ومائة . (انظر ترجمته في طبقات الشعرائى ج ١ ص ٤٦) .

(٤) أبو عبد الله شريك بن عبد الله بن أبى شريك النجفى . تولى القضاء بالكوفة أيام المهدي ثم عزله موسى الهادى ، وتولاه بالاهواز . توفى بالكوفة سنة سبع أو ثمان وسبعين ومائة . (انظر ترجمته في المعارف ص ٢٢٢ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٥) .

(٥) رواه أحمد في مسنده ، وابن داود ، وابن ماجه والحاكم من أبى هريرة : « من جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٩١)

العمل لا يتعلق بالنسب ، وينبغي له العلم ، وأنت مقدم علماء الزمان .
فقال : أنا لا أليق لهذا العمل ، وفي هذا القول اذ قلت : لا أليق ،
لا يخرج عن اثنتين : اذا قلت الصدق ، فقد قلت بنفسى : لا أليق . واذا
كذبت ، فالكاذب لا يليق للقضاء بين المسلمين ، وأنت لا تجيز أن تأتى
بكاذب وتجمعه خليفتك ، وتكل اليه أموال المسلمين وفروجهم ، وأنت
خليفة الله . قال هذا ونجا .

وعندئذ تقدم مسعر رحمه الله وأمسك بيد الخليفة وقال له : كيف
حالك وأولادك ، وكيف حال دوابك ؟ فقال الخليفة : أخرجوه فإنه مجنون .

وقالوا لشريك : يجب أن تتولى القضاء . فقال : أنا رجل سوداوى
وراسى خفيف ! فقال له المنصور : عالج نفسك بالمصائد الموافقة والابتذلة -
المثلثة ليكتمل عقلك . وعندئذ أسند القضاء الى شريك . وقاطعه أبو حنيفة
رضى الله عنه ، ولم يكله قط . وهذه علامة على كمال حاله ، لعنيين :
أولهما : صدق فراسته فى كل منهم ، وثانيهما : سلوكه طريق السلامة
وصحة الملازمة ، واقتصاده الخلق عن نفسه ، وعدم الاغترار بجاههم .

وهذه الحكاية دليل قوى على صحة الملازمة ، اذ أقصى هؤلاء الشيوخ
الثلاثة الكبار أنفسهم عن الخلق بالحيلة . واليوم ، لا ينظر جملة العلماء
الى هذا الجنس من المعاملة ، لأنهم ركنوا الى أهوائهم ، ونفروا من
طريق الحق ، وجعلوا ديار الإمراء قبلتهم ، وصيروا دور الظلمة بيتهم
المعمور ، وجعلوا بساط الجبايرة موازيا (لمنزلة) قاب قوسين أو أدنى
وينكرون كل ما يخالف هذه المعانى .

ذات مرة كان أحد مدعى الإمامة والعلم قد قال فى حضرة غزنين -
حرسها الله - أن لبس المرتقة بدعة ! فقلت : أن الثياب الحشيشية
الديباجية والديبقتية (١) ، وكلها مصنوعة من الأبريسم (٢) المحرم على
الرجال ، أخذها من الظلمة وجميعها من الحرام بالالاحاح واللجاج ، حرام
مطلق ، وهم يلبسونها ولا يقولون انها بدعة ، فلماذا يكون الثوب الحلال ،
من المكان الحلال ، المشتري بمال حلال بدعة ؟ ولو لم تكن رعونة الطبع
وضلالة العقل وسلطة عليك ، لقلت كلاما أكثر اتزاناً من هذا . والثياب
الأبريسمية حلال للناس ومباحة للمجانين ، فاذا اقررت بأحد هذين فقد
عذرت نفسك ، والا فنعوذ بالله من عدم الانصاف .

(١) نسبة الى ديبق بلد بسر واليه تنسب الثياب الدبيقية . اقرب الموارد .

(٢) نوع من الحرير

ويقول الامام الأعظم أبو حنيفة رضى الله عنه : حينما حضرت نوفل ابن حيان رضى الله عنه الوفاة رأيت في النوم ان القيامة قامت ، وجيلة الخلق يحاسبون ، ورأيت النبي عليه السلام واقفا متشمرا على حوضه ، والمشايع وقوما عن يمينه ويساره ، ورأيت شيخا حسن الوجه يجال راسه شعر ابيض وقد وضع خده على خد النبي ، ورأيت امامه نوفلا واقفا ، فلما رآنى أقبل على وسلم ، نقلت له : اسقنى فقال : حتى استاذن النبي عليه السلام . فأشار اليه النبي عليه السلام بأصبعه فأعطانى الماء ، فشربت منه وسقيت أصحابى ، ولم ينقص من ذلك القدر شيء قط . وقلت : يا نوفل ! من الشيخ الذى على يمين النبي ؟ قال : انه ابراهيم خليل الرحمن ، والآخر أبو بكر الصديق . وهكذا كنت أسأله وهو يعتقد على أصبعى ، حتى سألته عن سبعة عشر شخصا رضوان الله عليهم أجمعين ، فلما استيقظت وجدت على أصبعى سبع عشرة عقدة .

ويقول يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه : رأيت النبي عليه الصلاة والسلام في النوم ، فنقلت له : أين اطلبك ؟ قال : عند علم أبى حنيفة ، رضى الله عنه .

وله في الورع طرف كثيرة ومناقب مشهورة أكثر من أن يحتملها هذا الكتاب .

وانا على بن عثمان الجلابى - وفقنى الله - كنت بالشام يوما نائما على راس قبر بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم فرأيت نفسى بمكة في النوم واذا بالنبي صلى الله عليه وسلم قد دخل من باب بنى شيبه وقد احتضن شيخا كما يحتضنون الأطفال بشفقة ، فهرعت اليه وقبلت يديه وقدميه . وكنت أتمجب متسائلا : من يكون ذاك ، وما تلك الحال ؟ فأطلع عليه السلام - بحكم اعجازه - على باطنى وفكرى ، وقال لى : هذا امامك وامام اهل ديارك . ولى واهل بلدى امل كبير بذلك الحلم .

وصدق هذا الحلم . لانه كان احد هؤلاء الذين كانوا فائين عن اوصاف الطبع وباتين باحكام اشعر وقائمين به . ولما كان مرشده هو النبي صلى الله عليه وسلم - فانه وان يكن قد مضى - فقد كان باقى الصفة ، وباقى الصفة : اما مخطيء أو مصيب ، وبما ان مرشده كان النبي عليه الصلاة والسلام ، فانه يكون فانى الصفة ببقاء صفة النبي عليه الصلاة والسلام ، ولما كان الخطأ لا يجوز على النبي عليه الصلاة والسلام ، فانه لا يجوز كذلك على القائم به . وفى هذا رمز لطيف .

ويقال انه عندما حصل داود الطائي رحمه الله العلم ، وصار مصدرا
وقدوة ، جاء ابا حنيفة رضى الله عنه ، وقال له : ماذا افعل الآن ؟ فقال
له : عليك بالعمل فان العلم بلا عمل كالجسد بلا روح .

والعلم — فديتك — ما لم يقترن بالعمل ، فانه لا يصفو ولا يخلص
عهده ، وكل من يقنع بالعلم المجرد لا يكون عالما ، لان العالم لا يقنع بمجرد
العلم ، فعين العلم تقتضى العمل ، كما تقتضى عين الهداية المجاهدة .
وكما ان المشاهدة لا تكون بدون المجاهدة ، فان العلم لا يكون بدون العمل ،
لان العلم مواريث العمل ، وتخريج العلم النافع وفتوحه يكون ببركات العمل .
ولا يمكن باى معنى فصل العمل عن العلم ، كما لا يمكن فصل نور الشمس
عن عين الشمس .

وقد اوردنا في بداية الكتاب بابا مختصرا في العلم ، وبالله التوفيق .

● ومنهم سيد الزهاد وقائد الاوتاد : « عبد الله بن المبارك المروزي (١) »
رضى الله عنه . كان من محتشمى القوم ، وعالما بجيلة احوال
واسباب الطريقة والشرعية . وكان امام الوقت في عصره ، وادرك كثيرا
من الشيوخ وصحبهم ، واتصل بالامام الاعظم ابي حنيفة رضى الله عنه ،
واخذ عنه العلم . وله تصانيف مذكورة وكرامات مشهورة في كل فن من
فنون العلم .

والسبب في ابتداء توبته هو انه كان قد فتن بجارية ، وذات ليلة نهض
من بين السكارى ، وصحب احدهم ، ووقف تحت جدار المعشوقة ، وصعدت
هى الى السطح ، ووقف كلاهما في مشاهدة احدهما الآخر حتى الفجر .
وعندما سمع عبد الله اذان الفجر ظنه اذان العشاء ، فلما طلع النهار
عرف انه كان طول الليل مستغرقا في جمال المعشوقة ، فكان له من هذا
زاجر ، فقال لنفسه : خسئت يا ابن المبارك اذ وقفت طوال الليل على
قديمك موافقة لهواك ، ولا تمل ، ولو ان اماما قرا في الصلاة سورة طويلة
لجننت ! فأتين معنى الايمان في مقابل هذه الدعوى ؟ (٢) . وعندئذ تاب

(١) كان يقيم بخراسان ، وكانوا يقدمونه في الادب على سفيان ، وكان سفيان الثوري
يقول : جهدت جهدي على ان اداوم ثلاثة ايام في السنة على ماعليه ابن المبارك
فلم اقدر . وكان يقول : سلطان الزهد اعظم من سلطان الرعية ، لان سلطان الرعية
لا يجع الناس الا بالمعصا ، والزاهد ينذر من الناس فيقيمونه . توفي سنة احدى
وثمانين ومائة . (انظر ترجمته في طبقات الشمراني ج ١ ص ٤٧ ، فذكره الاولياء
ج ١ ص ١٧٩) .

(٢) اورد القشيري هذه الحكاية ضمن ترجمة الفضيل بن عياض وذكر انها كانت السبب
في توبة الفضيل . انظر ترجمة الفضيل : الرسالة القشيرية ج ١ ص ٥٧ .

واشتغل بالعلم وطلبه ، حتى وصل الى درجة أن امه دخلت عليه البستان يوما فرائته نائما وقد أمسكت حية كبيرة بغصن ريحان في فمها وكانت تذب عنه الذباب .

ثم رحل عن مرو (١) وذهب الى بغداد وظل بها مدة في صحبة المشايخ . وذهب الى مكة وجاور هناك أيضا مدة ، ورجع الى مرو فتولاه أهلها ورتبوا له درسا . وفي ذلك الوقت كان نصف أهل مرو يتابع الحديث والنصف الآخر يسلك طريق الرأي ، كما هو الحال اليوم ، وكانوا يسمونه : « رضى الفريقين » بحكم أنه كان موافقا لكل منهما . وقد اختصم فيه كلا الفريقين . واتخذ هناك رباطين : أحدهما لأهل الحديث ، والثاني لأهل الرأي ، وما يزال هذان الرباطان قائمين حتى اليوم ، ويسيران على قاعدة ذلك الأصل .

وقد سئل : ما رأيت من العجائب ؟ قال : رأيت راهبا قد هزل من المجاهدة ، وانحنى عوده من خشية الله ، فسألته : يا راهب ! كيف الطريق الى الله ؟ قال : لو عرفت الله لعرفت الطريق اليه ! ثم قال : أعبد من لا أعرفه وتعصى من تعرفه .

أى أن المعرفة تقتضى الخوف ، وأراك آمنا ، والامن كفر . والجهل يقتضى الكفر ، وأجد نفسى خائفا . قال ابن المبارك : فصارت لى هذه عظة ، ومنعتنى عن كثير مما لا ينبغى عمله .

ويروى عنه أنه قال : « السكون حرام على قلوب أوليائه » . أى أنها مضطربة فى الدنيا فى حال الطلب ، ومضطربة فى العقبى فى حال الطرب ، ولا يجوز لها السكون فى الدنيا بغيبتها عن الحق ، ولا ينبغى لها القرار فى العقبى بحضور الحق وتجليه ورؤيته ، فالدنيا لها كالعقبى ، والعقبى كاللدى ، لأن سكون القلب يقتضى أمرين : إما ادراك المقصود ، أو الغفلة عن المراد ، وادراك المراد لا يجوز فى العقبى والدنيا حتى يسكن القلب عن خفتان المحبة . والغفلة حرام على أحبائه حتى يسكن القلب عن حركات الطلب . وهذا أصل قوى فى طريق المتحققين ، والله أعلم بالصواب .

(١) « مرو » : هى اجل كور خراسان . انتنتها حاتم بن النعمان الباهلى وهو من قبل عبد الله بن عامر فى خلافة عثمان ويقال أن الاحنف بن قيس حضر فتحها وذلك فى سنة احدى وثلاثين (البلدان ص ٤٦) .

● ومنهم ملك أهل الحضرة وسُلطان ولاية الوصل :
«أبو على الفضيل بن عياض» (١) رضى الله عنه . كان من جملة صعاليك الثوم
وكبارهم ، وله فى المعاملات والحقائق حظ وافر ونصيب كامل ، وكان أحد
مشاهير هذه الطريقة ، وممدوحا بكل الألسن بين الملل ، وأحواله عامرة
بالصدق والاخلاص .

وكان فى بداية امره عيارا يقطع الطريق بين مرو وبأورد (٢) . وكان يميل
كل الميل الى الصلاح ، وفى طبعه همة وفتوة ، بحيث اذا كان فى القافلة
امراة لم يكن يحوم حولها ، ولا يأخذ بضاعة من رجل ذى رأس مال قليل ،
وكان يترك لكل رجل شيئا بنسبة رأس ماله . الى أن جاء وقت خرج فيه
تاجر من مرو فقالوا له : خذ معك حارسا لأن الفضيل على الطريق .
قال : سمعت أنه رجل يخشى الله وذو بصيرة ، فلا خوف . وصحب معه
قارئا ، وأركبه جملا ليطلو القرآن ليلا ونهارا ، الى أن بلغت القافلة مكانا
كان الفضيل رحمه الله يكمن فيه . واتفق أن قرأ القارئ قوله تعالى :
« ألم بأن الذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله (١) » ، فبدت رقعة فى قلبه
رضى الله عنه ، وظهرت العناية الأزلية سلطان الطائفة لروحه ، فتاب
عن ذلك العمل ، وكتب رسائل الى خصومه سرتهم .

وذهب الى مكة وظل بها مدة ، وأدرك بعض أولياء الله تعالى . ورجع
الى الكوفة واتصل بالامام الاعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وصحبه مدة ،
وحصل العلوم . وله روايات عالية ومقبولة بين أهل الحديث ، وكلام رفيع
فى حقائق التصوف والمعرفة .

ويرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « من عرف الله حق معرفته عبده بكل
طاقته » . ذلك أن كل من يعرفه يعرفه بالانعام والاحسان والرافة والرحمة ،
فاذا عرفه أحبه ، فاذا أحبه أطاعه قدر طاقته ، لأن اطاعة أوامر الأحبة
لا تكون شاقة ، وكل من يكون أكثر محبة يزداد حرصه على الطاعة . وكثرة
المحبة من حقيقة المعرفة ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :
نهض النبى عليه السلام ذات ليلة من الفراش ، فتصورت أنه ذهب الى

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي . خرساني من ناحية مرو من قرية
يقال لها « قندين » . ولد بمسرقند ، ونشأ بأبيورد . مات سنة سبع وثمانين ومائة .
ورد عنه أنه قال : لا ينبغي لحامل القرآن أن يكون له الى الخلق حاجة لا الى
الخلقاء فمن دونهم ، ينبغي أن تكون حوائج الخلق كلهم اليه . (انظر ترجمته
فى طبقات الصوفية ص ٦ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٥٧ ، وفيات الأعيان ج ١
ص ١٥٤ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٥٤ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٧٤ ، نفحات
الأنس ص ٢٧) .

(٢) « بأورد » ينتج الواو وسكون الراء : وهى أبوبورد : بلد بخراسان بين سرخس
ونساء (معجم البلدان ج ١ ص ٨٥) .

(٣) سورة « الحديد » آية ١٦ .

حجرة أخرى فنهضت ، وكنت أسير على اثره حتى وجدته في المسجد واقفا في الصلاة ، وكان يبكي ، الى أن أذن بلال لصلاة الفجر وهو في الصلاة ، فلما أدى صلاة الفجر ورجع الى الحجرة رأيت كلا قدميه متورمتين وأطراف أصابعها مشققة ، وكان يسيل منها سائل أصفر ، فبكيت وقلت : يا رسول الله ! لقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فلماذا تشق على نفسك كثيرا ، دع هذا لشخص غير مأمون العقوبة ! قال : يا عائشة ! هذا كله من فضل الله ومنته ولطفه ونعمته جل جلاله ، أفلا اكون عبدا شكورا (١) ؟

وقد قبل صلى الله عليه وسلم في ليلة المراج خمسين صلاة ولم يستثقلها ورجع الى الله بكلام موسى ، وعاد بخمس صلوات ، وذلك لأنه لم يكن في طبعه شيء مخالف للأمر قط ، لأن المحبة الموافقة .

ويروى عنه رضى الله عنه أنه قال : « الدنيا دار المرضى والناس فيها مجانين ، وللمجانين في دار المرضى الفل والتقيد » . وغلنا هوى نفوسنا ، وقيدنا معصيتنا .

روى الفضل بن الربيع (٢) ، رحمه الله ، قال : ذهبت الى مكة مع هارون الرشيد (٣) ، فلما حججنا قال لى هارون : أهنا رجل من رجال الله فنزوره ؟

(١) رواه الترمذى عن المغيرة بن شعبة ، والشيخان عن عائشة : « حتى تنظر قدماء » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٠١) .

(٢) أبو العباس الفضل بن الربيع بن يونس : حاجب الرشيد ، ووزير الأمين . سعى بانبرامكة وتمكن بالجالسة من الرشيد فأوغر قلبه عليهم . وزر للرشيد بعد البرامكة ومات الرشيد والفضل مستمر على وزارته . كان في صحبة الرشيد عند وفاته فقرّر الأور للأمين ، ولم يفرج على المأمون وهو بخراسان . خاف من المأمون أن انتهت الخلافة اليه ، فزين للأمين أن يخلع المأمون من ولاية العهد ويجعلها لابنه موسى ، وحصلت الوحشة بين الأخوين الى أن سار المأمون جيشا من خراسان مقدمه طاهر ابن الحسين ووزيره الفضل بن سهل ، وأخرج الأمين جيشا من بغداد بإشارة وزيره الفضل بن الربيع مقدمه على بن عيسى بن ماهان ، فالتقى الجيشان وقتل على بن عيسى ، ولما اضطربت أحوال الأمين وتقويت شوكة المأمون ، استتر الفضل ابن الربيع ثم ظهر لما ادعى ابراهيم المهدي الخلافة ببغداد واتصل به ابن الربيع ، فلما اختل حال ابراهيم استتر ابن الربيع ثانيا ، ولم يزل بطالا الى أن مات . توفي سنة ثمان ومائتين . (انظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٥٩ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤١٢) .

(٣) الخليفة العباسى هارون الرشيد بن محمد المهدي . تولى الخلافة يوم أن توفي أخوه موسى سنة ١٧٠ هـ . وكانت ولايته ثلاثا وعشرين سنة . ولما انفقت اليه الخلافة دعا يحيى بن خالد فقال له : يا أبت ! أنت اجلسنى في هذا المجلس ببركك وبينك ، وقد قلدتك الأمر . وفتح خاتمه اليه . بايع لابنه محمد بالعهد من بعده سنة ١٧٥ هـ . وكان الغالب على الرشيد — صدرا من خلافته — يحيى بن خالد بن برمك وأبناء جعفر والفضل ، ثم بطش بهم فقتل جعفر سنة ١٨٧ هـ ومثل بجنته ، واعتقل أباه وأخوته وصادر أملاكهم . ونكل بالموليين . توفي سنة ١٩٣ هـ في طوس في تربة يقال لها « سناباد » (انظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٣٩ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٣ وما بعدها) .

فقلت : نعم ؟ هنا عبد الرزاق الصنعاني (١) . قال : خذني اليه . فلما ذهبا اليه وتحدثنا برهة ، أشار الى هارون أن أسأله أعليه دين ؟ فسألته ، فقال نعم ! فأمر فقمضوا دينه . وخرجنا من هناك وقال — هارون — يا فضل ! ان قلبى ما يزال يتطلب رجلا أكبر من هذا . فقلت : هنا سفيان بن عيينة (٢) ، قال : امض لنذهب اليه . ولما دخلنا وتحدث معه برهة وأردنا العودة ، أشار الى ثانية أن أسأله ، فقال : نعم ، على دين ، فأمر فقمضوا دينه . وخرجنا من هنالك فقال : يا فضل ! لم يحصل مقصودى بعد . فتذكرت أن الفضيل بن عياض رحمة الله عليه ورضى الله عنه موجود ، فصحبته اليه . وكان يقيم في غرفة يطو القرآن . وطرقنا الباب ، فقال : من ؟ قلت : أمير المؤمنين . فقال رضى الله عنه : « مالى ولا أمر المؤمنين » . قلت : سبحان الله ، ألم يرو عن النبي عليه السلام أنه قال : « ليس للعبد أن يذل نفسه في طاعة الله ، فقال : بلى ، أما الرضا فعز دائم عند أهله » . وعندئذ نزل وفتح الباب ، وأطفا المصباح ، ووقف في ركن ، فكان هارون يبحث عنه حتى وقعت يده عليه ، فقال : آه من يد لم أر أنعم منها إذا نجت من عذاب الله . فغلب هارون البكاء وظل يبكي حتى غشي عليه ، فلما أفاق قال له : عظمى ! قال : يا أمير المؤمنين ! قد كان أبوك عم المصطفى صلوات الله عليه فطلب اليه أن : اجعلنى اميرا على قوم ، « قال : يا عم ، بك نفسك » . يعنى : « لأن تكون لحظة في طاعة الله ، خير من طاعة الخلق لك ألف عام ، « لأن الامارة يوم القيامة الندامة » .

قال هارون : زد في عطيتى ؟ قال : لما نصب عمر بن عبد العزيز (٣) للخلافة ،

(١) « عبد الرزاق الصنعاني » : أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحيرى الصنعاني البصري من رواية البخارى ، ولد سنة ١٢٠ هـ — ٧٢٧ م ، وتوفى سنة ٢١١ هـ — ٨٢٦ م . من مؤلفاته : تركية الأرواح ، تفسير القرآن ، الجامع الكبير ، كتاب السنن في الفقه ، كتاب المنازى . قال فيه مؤلف « تابوس الاعلام » : كان من مشاهير العلماء والمحدثين .. وكان الناس يقصدونه من كل فج عميق لزيارة علمه ، وكان يروى عنه المشاهير مثل سفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل .
ومما هو جدير بالذكر أن أبا بكر الصنعاني من الشيوخ الذين ألصق بهم البهض قصة « شيخ صنعان » التي وردت في الرسالة الفارسية « تحفة الملوك » المنسوبة الى الإمام الخزالي ، وفي المنظومة الرمزية « منطق الطير » للشاعر الصوفي الفارسي « فرید الدین المطار » . (انظر : « بحث في حقيقة شيخ صنعان » أحمد ناجى القيسى : بغداد ١٣٨٤ هـ — ١٦٥ م) .

(٢) سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي . أحد أئمة الاسلام . قال الشافعى عنه : لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز . مات سنة ثمان وتسعين ومائة .
(« خلاصة تذهيب الكمال » ص ١٢٤) .

(٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب . الخليفة الأموى الزاهد العابد العادل : استخلف في صفر سنة تسع وتسعين ، وتوفى بدير صنعان من أعمال حمص في رجب سنة احدى ومائة . وكانت خلافته ثلاثين شهرا . وقبره في هذا الموضع لم يتعرض لنهبه كقبور غيره من بني أمية . كان في نهاية النسك والتواضع ، ترك لمن على عليه السلام على المنابر وجلل مكانه . ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في لُبونا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم . (تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٤ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها) .

استدعى سالم بن عبد الله ورجاء بن حيوة ، ومحمد بن كعب القرظي (١) .
رحمهم الله وقال : لقد ابتليت بهذه البلية ، فما تدبيري ؟ فتى ارى هذا بلاء
مهما يظنه الناس نعمة . فقال واحد منهم : اذا أردت أن يكون لك الفوز
والنجاة غداة القيامة فاعتبر شيوخ المسلمين كأبيك ، وشبابهم كأخوتك ،
وأطفالهم كابنائك ، وحينئذ عاملهم كما تعامل أباك وأخاك وولدك في دارك ،
لأن جميع ديار الاسلام بيتك ، وأهلها عيالك : « فزر أباك ، وأكرم أخاك ،
وأحسن الى والدك » .

ثم قال الفضيل : يا أمير المؤمنين ، انى أخشى على وجهك الجميل أن
يبتلى بنار جهنم ، فآخس الله تعالى ، وأدحقه خيرا من هذا .

وقال له هارون بعد ذلك : أعليك دين ؟ قال : نعم ، دين الله على وهو
طاعته ، فإذا قضيته نجيتنى من الويل . فقال : يا فضيل ، اتكلم من دينك
للخلق . فقال : الحمد والثناء والشكر لله جل جلاله ، اذ لدى منه نعم
كثيرة ، وليس لى منه أى شكوى حتى أشكوه الى عباده . وعندئذ وضع
هارون أمامه صرة ذهب بها ألف دينار وقال له : اصرف هذا فى وجه من
الوجوه . فقال الفضيل : يا أمير المؤمنين ! ان عطاتى هذه لم تفدك قط ،
ومن هنا اخذت فى الجور وبدات الظلم . قال : أى ظلم فعلت ؟ قال الفضيل :
أنا أدعوك الى النجاة وانت توقعنى فى الهلاك ، أفلا يكون هذا ظلما ؟ فبكى
هارون ، وخرج من عنده وقال : يا فضل بن الربيع ! ان الملك حقا هو
الفضيل .

وهذا كله دليل صولته فى الدنيا وأهلها ، وحقارة زينتها فى قلبه ، وتركه
التواضع لأهل الدنيا من أجل الدنيا .

وله مناقب أكثر من أن يستوعبها الفهم .

● ومنهم سفينة التحقيق والكرامة ، وخزانة الشرف فى الولاية :
« أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصرى (٢) » رضى الله عنه ، كان صيبا
نوبيا اسمه « ثوبان » ، وكان من أخيار القوم وكبار هذه الطريقة وعياريها ،
سلك طريق البلاء ، وسار فى طريق الملامة .

وكان أهل مصر جميعا متحيرين فى شأنه ، ومنكرين عليه فى حياته . ولم
يعرف أحد من أهل مصر جمال حاله الى وقت وفاته . وفى تلك الليلة التى

(١) سالم بن عبد الله ورجاء بن حيوة ومحمد بن كعب القرظي : من الفقهاء فى أيام
عمر بن عبد العزيز . (تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٥١) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

فارق فيها الدنيا ، رأى سبعون رجلا النبی علیه السلام فی النوم یقول :
ان حبیب الله ذا النون یزعم المجرء وقد جئت لاستقباله . وحين مات ظهر
مکتوبا علی جبینہ : « هـذا حبیب الله ، مات فی حب الله ،
قتیل الله » . فلما حملوا جنازته ، تجمعت طيور السماء وظللت
جنازته ، فتحير اهل مصر جميعا ، وتابوا عما كانوا قد ارتكبوه معه من
جفاء .

وله طرف كثيرة وكلمات طيبة فی حقائق العلوم ، کتوله : « العارف کل
يوم اخشع ، لانه فی كل ساعة اقرب (١) » .

ومن یکن الاقرب تکن حیرته اکثر لا محالة ، وخشوعه أوفر ، لانه صار
علیها بهیة الحق وسلطانہ ، فقد استولی جلال الحق علی قلبه فلا یرى
نفسه بعيدا عنه وعن وصله ، فیزداد خشوعا علی خشوع ، كما قال موسى فی
حال مکالمته : « یا رب ! این اطلبک ؟ قال : عند المنکسرة قلوبهم » ، والیائسین
من صلاحهم . قال : یا الهی تعالیت ، لا قلب اکثر یأسا وانکسارا من قلبی !!
فقال : فانا حیث انت .

نمدعی المعرفة بلا وجل وخشوع جاهل لا عارف . وحقیقة المعرفة
علامة علی صدق الارادة ، والارادة الصادقة صارمة للأسباب ، وقاطعة
للعبء عما سوى الله عز وجل ، کقول ذی النون رضی الله عنه : « الصدق
سیف الله فی أرضه ، ما وضع علی شئ الا قطعه (٢) » ، والصدق رؤیة
المسبب لا اثبات السبب ، فاذا ثبت السبب انتقی حکم الصدق وسقط .

وقرات فی الحکایات ان (ذا النون) کان ذات یوم راكبا سفينة مع
اصحابه للنزهة فی النیل ، کعادة اهل مصر ، وكانت سفينة اخرى قادمة
وبها جماعة من اهل الطرب یعبثون ، فکبر ذلک علی تلاميذه ، فقالوا : ایها
الشیخ ! ادع لیغرق الله هؤلاء جمیعا ، وینقطع عن الخلق شؤمهم . فنهض
ذو النون رحمه الله ورفع یدیه وقال : یا الهی جل جلالک ! كما حیوت
هؤلاء فی الدنيا عیشا طیبا ، امنحهم فی الآخرة ایضا طیب العیش ! فتعجب
المريدون من قوله . ولما اقتربت السفينة ووقعت أعین راکبها علی ذی
النون ، بکوا ، وحطموا أعوادهم ، وتابوا وأنابوا الی الله . فقال رحمه الله
لتلاميذه : ان طیب عیش الآخرة توبة الدنيا ، أما رأیتم ان المراد کله قد
حصل ؟ وبلغتم انتم وایاهم مرادکم دون ان یصیب أحدا أذى ؟

(١) ورد بنصه فی طبقات الصوفیة (انظر : ص ٢٦) .

(٢) ورد بنصه فی طبقات الصوفیة (انظر : ص ٢٣) .

وكان ذلك من غاية شفقة الشيخ على المسلمين . وقد اقتدى في هذا بالنبي عليه السلام ، اذ كان كلما زاد الكفار من جفائهم لا يغضب ، وكان يقول : « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » .

ويرد عنه انه قال :كنت قادما من بيت المقدس(١) قاصدا مصر ، فرأيت في الطريق شيخا مهيبا من بعيد ، فخطر بقلبي أن أسأله سؤالا . فلما اقترب مني ، رأيته عجوزا بيدها عكاز ، وعليها جبة من صوف . فقلت : من اين ؟ قالت : من الله ! قلت : الى اين ؟ قالت : الى الله ! وكان معي دينار فأخرجته لأعطيها لها ، فلوحت بيدها في وجهي وقالت : ياذا النون ! ان الصورة التي تصورتها عنى من ركافة عقلك . اننى اعمل لله ، ولا آخذ شيئا من سواه ! وكما انى لا أعبد غيره ، فانى لا آخذ (شيئا) من غيره .

وفي هذه الحكاية رمز لطيف ، اذ قالت العجوز : انا اعمل لله ، فهذا دليل صدق المحبة ، لأن الخلق في المعاملة نوعان :

فريق يعملون ويخالون أنهم يعملون من أجل الله ، وهم في الحقيقة يعملون من أجل انفسهم ، ومهما يكن أربهم منقطعاً دنيوياً ، فانهم — على كل حال — يرجون ثواب الآخرة .

والفريق الآخر ، انقطعت عن معاملاتهم ارادة الثواب (وخشية) العقاب في الآخرة ، والرياء والسمة في الدنيا . وكل ما يعملونه انما يعملونه من أجل تعظيم امر الحق جل جلاله . ومحبة الحق تعالى تقتضيهم ترك نصيبهم ، في طاعته . ويخيل لهؤلاء — وهم لا يدرون — أن كل ما يعملونه من أجل الآخرة هو ايضا لهم ، ولا يعرفون أن نصيب المطيع في الطاعة اكثر من راحة العاصي في المعصية ، لأن راحة العاصي في المعصية ساعة ، وراحة المطيع في الطاعة دائمة .

وأى فائدة لله تعالى وتقدس من مجاهدة الخلق ، وأى ضرر عليه في تركها ؟ ولو عمل كل الخلق بصدق أبى بكر ، فمرد ذلك اليهم . وان عملوا

(١) « بيت المقدس » أو « القدس » : مدينة على نضاء وسط الجبال ، والمسجد الاقصى في طرفها الشرقي نحو القبلة . يتدسها المسلمون والنصارى واليهود ، فاليها كان مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالقرب منها ولد المسيح ، وفيها مكى اليهود . فتحت صلحا في عهد عمر بن الخطاب سنة سبع عشرة (معجم البلدان ج ٤ ص ٥٩٠ — ٦٠٢) وقيل فتحت سنة خمس عشرة أو ستة عشرة . ولما دخل عمر ببيت المقدس كشف عن الصحراء وأمر ببناء مسجد عليها (الفتوحات الإسلامية ج ١ ص ٤٠ — ٤٢) .

بكذب فرعون ، ففسر ذلك عليهم ، لقوله تعالى : « ان احسنتم احسنتم لانفسكم (١) » : وقوله تعالى : « ومن جاهد غانما يجاهد لنفسه (٢) » .

والخلق انما يطلبون لانفسهم الملك الأبدى ، ويقولون اننا نعمل من اجل الله . اما سلوك طريق محبته فشيء آخر ، انهم (الاحبة) يرعون في اطاعتهم للأمر حصول امر الحبيب ولا يتطلعون لشيء آخر . وسوف يرد في هذا الكتاب امثال هذا القول في باب الاخلاص ، ان شاء الله تعالى .

• ومنهم امير الامراء ، وسالك طريق اللقاء :

« ابو اسحاق ابراهيم بن ادهم بن منصور (٣) » رضى الله عنه . كان اوحده زمانه ، وسيد اقرانه في عصره ، وملك ملوك الرجال . وكان مريد « الخضر » عليه السلام ، أدرك كثيرا من قدماء الشيوخ ، واختلط بالامام الاعظم ابي حنيفة رضى الله عنه ، وتعلم منه العلم .

وكان في بداية امره . امير بلخ (٤) ، فلما اراد الحق تعالى أن يكون سلطان عالم ، خرج يوما للصيد ، وانفصل عن عسكره ، وركض خلف غزال ، فأنطقه الله عز وجل له ، فقال بلسان عربى فصيح : « ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ » . وكان هذا القول دليلا له ، فتاب (٥) وكف يده تماما عن ممالك الدنيا ، وسلك طريق الزهد والورع ، وأدرك الفضيل بن عياض وسفيان الثوري وصحبهما .

(١) سورة « الامراء » آية ٧ .

(٢) سورة « العنكبوت » آية ٦ .

(٣) سيق الاشارة اليه

(٤) « بلخ » مدينة مشهورة بخراسان ، على الشاطيء الجنوبي لنهر جيحون على رانده دلس . منها الى نرغانه ثلاثون مرحلة مشرقا ، وإلى الرى ثلاثون مرحلة مغربا ، وإلى سجستان ثلاثون مرحلة مما إلى القبله ، وإلى كابل وقندهار ثلاثون مرحلة (انظر : « البلدان » ص ٥٣) انتفع بلخ الاخضر حين قيس من قبل عبد الله بن عامر في زمن عثمان (معجم البلدان ج ١ ص ٧١٢) .

(٥) ورد في طبقات الصوفية أن ابا عبد الله السنجارى قال له : يا ابا اسحاق ! خبرنى عن بدء امرك كيف كان ؟ قال : كان أبى من ملوك خراسان ، وكنت شابا فركبت الى الصيد ، فخرجت يوما على دابة لى ومعى كلب ، فأتيت ارنبا أو ثعلبا ، فبينما أنا أطلبه اذ هتف بى هاتف لا اراه فقال : يا ابراهيم ، ألهذا خلقت أم بهذا أمرت . ففزعت ووقفت . ثم عدت فركضت ثانية ، ففعل بى مثل ذلك ثلاث مرات . ثم هتف بى هاتف من قريبوس السرج : والله ما ألهذا خلقت ولا بهذا أمرت . قال : فصادفت راعيا لأبى يرعى الغنم فأخذت جيته الصوف فلبستها ، ودفعته اليه الفرس وما كان معى ، وتوجهت الى مكة . فبينما أنا فى البادية اذا برجل يسير . ليس معى اذاء ولا زاد . فلما أمتى وصلى المغرب حرك شفتيه بكلام لم أقمه ، فاذا أنا ببناء فيه طعام وانه فيه شراب ، فاكلت وشربت . وكنت معى على هذا أياها . وعلينى اسم الله الأعظم ثم غاب عنى وبقيت وحدى . فبينما أنا ذات يوم مستوحش من الوحدة ، دعوت الله به فاذا أنا بشخص أخذ بحجزتى وقال : سل تعط . فراعنى قوله ، فقال : لا روع عليك ولا بأس عليك . أنا أخوك الخضر (انظر : طبقات الصوفية ص ٢٩) .

ولم يأكل طيلة عمره الا من كسب يده . وله معاملات ظاهرة وكرامات مشهورة ، وفي حقائق التصوف كلمات بديعة ولطائف نفيسة . قال عنه الجنيد رحمة الله : « مفاتيح العلوم ابراهيم » .

ويروى عنه انه قال : « اتخذ الله صاحباً وذراً اثناً جانباً (١) » .

والمراد من هذا القول انه حين يصح اقبال العبد على الحق تعالى ، ويخلص في توليه ، فان صحة اقباله على الحق تقتضى الاعراض عن الخلق ، لانه لاشأن قط لصحبة الخلق مع حديث الحق . وصحبة الحق هي الاخلاص في انفاذ امره ، والاخلاص في طاعته من خلوص محبته ، وخلوص محبة الحق يتأتى من معاداة النفس والهوى ، لان كل من يعرف الهوى ينفصل عن الله عز وجل ، وكل من ينقطع عن الهوى يسكن الى الله . فانت في الحق ، كل الخلق ، فاذا اعرضت عن نفسك فقد اعرضت عن الجميع . ومن يعرض عن الخلق ويقبل على نفسه فانه يكون كما لو ان الخلق جميعاً على صواب فيما هم فيه بحكم التقدير ، وقد صار لك معك شأن .

وبناء استقامة الظاهر والباطن للطالب في شيئين : احدهما ، ما ينبغى معرفته ، والآخر : ما ينبغى عمله .

وما ينبغى معرفته : هو رؤية تقدير الحق من خير أو شر ، لانه في كل الملك لا يسكن أى متحرك ولا يتحرك أى ساكن الا بالحركة التى يخلقها الله تعالى فيه ، والسكون الذى يضعه الله تعالى فيه .

وما ينبغى عمله : هو انفاذ الأمر ، وصحة المعاملة وحفظ النكيف ، فلا يصير تقديره بأى حال حجة لترك امره .

والاعراض عن الخلق لا يستقيم ما لم تعرض عن نفسك ، واذا اعرضت عن نفسك فانه يلزم كل الخلق لحصول مراد الحق ، واذا اقبلت على الحق تعالى فانت تلزم لاقامة امره . اذن ، فلا وجه للركون الى الخلق .

وان اردت ان تركن الى شئ بدون الحق ، فاركن الى الغير (٢) ، لان الركون الى الغير رؤية للتوحيد ، والركون الى النفس اثبت للتعطيل ،

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر : ص ٢٧) .

(٢) أى : الى غير نفسك .

ولهذا السبب كان شيخ الشيوخ أبو الحسن بن سألبة (١) رحمه الله يقول :
لأن يكون المريد في حكم هرة خير من أن يكون في حكم نفسه ، لأن صحبة
الغير تكون من أجل الله ، وصحبة النفس تكون من أجل تربية الهوى .
وسيتأتى الكلام في هذا المعنى في موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله
تعالى .

وقرات في الحكايات أن إبراهيم بن أدهم قال : لما وصلت البادية ، أقبل
شيخ وقال لى : يا إبراهيم ! اتعرف أى مكان هذا حتى تسنير بغير زاد
ولا راحلة ؟ .

قال : فعرفت انه الشيطان . وكان معى أربعة دوانق ، كنت قد بعثت
بها زنبيلًا في الكوفة ، فأخرجتها من جيبى وقذفت بها ، ونذرت أن أصلى
بكل ميل أربعمئة ركعة . وبقيت في البادية أربعة أعوام ، وكان الحق تعالى
يبعث الى بالرزق عند الحاجة ، دون عناء . واتفق لى في ذلك الوقت
صحبة الخضر عليه السلام ، وعلمنى اسم الله الأعظم ، وعندئذ فرغ
قلبي كلية من الغير .

وله مناقب كثيرة ، وبالله التوفيق .

● ومنهم سرير المعرفة ، وتاج أهل المعاملة : « بشر بن الحارث الحافى (٢) »
رضى الله عنه ، كان ذا شأن كبير في المجاهدة ، وحظ واف في المعاملة ،
أدرك صحبة الفضيل بن عياض ، وكان مريداً لخاله على بن خشرم (٣) ،
وعالماً بعلم الأصول والفروع .

وكانت بداية حاله انه كان يسير ذات يوم ثملاً في الطريق فوجد قطعة
ورق فتناولها بتعظيم ، ورأى مكتوباً عليها : « بسم الله الرحمن الرحيم (٤) » ،
فعطرها ووضعها في مكان طاهر . ورأى الله تعالى في تلك الليلة في النوم
يقول له : يا بشر ! طيب اسمى ، فبعزتى لأطيين اسمك في الدنيا والآخرة ،
فلا يسمع أحد باسمك الا وتسرى في روحه راحة . وعندئذ تاب وسلك
طريق الزهد .

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) عبد الرحمن بن على بن خشرم بن هلال بن ماهان بن عبد الله . وكان عبد الله
يسمى « يعفور » فأسلم على يد على بن أبى طالب فسماه عبد الله . وبشر ابن
الحارث وعبد الرحمن في القرابة متساويان ، وكان الحارث وخشرم أخوين من أب
وأم . (انظر : طبقات الصوفية ص ٣٩ حاشية ١) . وورد في الرسالة انه ابن
أخت على بن خشرم (انظر : الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٨) .

(٤) سورة « الفاتحة » آية ١ .

ولم يكن — من شدة الغلبة في مشاهدة الحق — يتعمل شيئا قط ،
فسئل عن علة ذلك فقال : الأرض بساطة ، وأنا لا أجز أن أدوس بساطه
وبين قدمي والأرض واسطة . وهذا من غرائب معاملاته ، إذ غدا النعل
حجابا له في جمع همته بالحق ! .

ويرد عنه أنه قال : « من أراد أن يكون عزيزا في الدنيا ، شريفا في الآخرة ،
فليجتنب ثلاثا : لا يسأل أحدا حاجة ، ولا يذكر أحدا بسوء ، ولا يجيب
أحدا إلى طعامه » .

أما كل من يعرف الطريق إلى الله تعالى فلا يطلب من الخلق حاجة ،
إذ أن الحاجة إلى الخلق دليل عدم المعرفة ، لأنه لو كان عارفا بقاضى
الحاجات لما طلب حاجة من (مخلوق) مثله : « استعانة المخلوك بالمخلوق
كاستعانة المسجون بالمسجون » (١) .

وأما كل من يسئ القول إلى أحد ، فهذا تصرف في حكم الله تعالى ،
لأن ذلك الشخص وفعله من خلق الله عز وجل ، فعلى من ترده ؟ ومن يعيب
الفعل يكن قد عاب الفاعل ، (وذلك) بخلاف ما أمر به (الله) من ذم الكفار
موافقة له .

وأما قوله : تعففوا عن طعام الخلق ، فذلك لأن الرازق هو الله جل
جلاله ، فإذا جعل مخلوقا سبب رزقك ، فلا تنظره ، وأعلم أن ذلك رزقك
الذى أوصله الله تعالى إليك ، وليس ملكا له . وإذا خال أنه له ، وامتن
به عليك ، فلا تجبه ، إذ ليس لأحد على أحد منة في الرزق ، لأن الرزق
عند أهل السنة والجماعة غذاء ، وعند المعتزلة ملك ، والله هو الذى يمد
الخلق بالأغذية لا المخلوق . ولجاز هذا القول معنى آخر ، والله أعلم .

● ومنهم نك المعرفة ، وملك المحبة :

« أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي (٢) » رضى الله عنه ، كان من جلة
المشايخ وأكبرهم حالا وأعظمهم شانا ، إلى حد أن قال الجنيد رحمه الله :
« أبو يزيد منا بمنزلة جبريل من الملائكة » .

(١) ورد في الأصل : استعانة المخلوق إلى المخلوق كاستعانة المسجون إلى المسجون .
ورد في طبقات الصونية كما أثبتته وهو الأصح . (انظر طبقات الصونية ص ١٢٦) .
سبق الإشارة إليه
(٢) سبق الإشارة إليه .

وكان جده مجوسيا ، وأبوه أحد عظماء بسطام (١) ، وله في أحاديث النبي عليه السلام روايات عالية .

كان أحد الائمة العشرة المعروفين ، ولم يكن لأحد قبله في حقائق هذا العلم كل تلك الاستنباطات التي له . وكان في كل الأحوال محبا للعلم ومعظما للشريعة برغم ما يقال من أن فريقا يرمونه بالالحاد .

وكان وقته في البداية مبينا على المجاهدة وممارسة المعاملة . ويرد عنه انه قال : « عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته . ولولا اختلاف العلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة الا في تجريد التوحيد (٢) » .

والحقيقة أن الطبع أميل الى الجهل منه الى العلم ، ويمكن عمل الكثير بالجهل دون مشقة ، ولا يمكن الخطوة واحدة بالعلم دون عناء ، وصراط الشريعة أدق وأخطر كثيرا من صراط الآخرة . فيجب عليك أن تكون في كل الأحوال بحيث إذا تخلفت عن الأحوال الرفيعة والمقامات الخطيرة وسقطت ، أن تسقط في ميدان الشريعة . وإذا زايك كل شيء يجب أن تبقى معك المعاملة ، لأن أعظم الآفات للمريد ترك المعاملة . وكل دعاوى المدعين تتلاشى في ممارسة الشريعة ، ويتعري أمامها كل أرباب اللسان .

ويرد عنه رحمه الله انه قال : « الجنة لا خطر لها عند أهل المحبة ، وأهل المحبة محجوبون بمحبتهم (٣) » .

أي أن الجنة ، وإن تكن كبيرة ، مخلوقة . ومحبته : صفته ، وليست مخلوقة ، وكل ما يبقى للمخلوق مما هو مخلوق ، لاخطر له . والأحباب محجوبون بالمحبة ، ذلك أن وجود المحبة يقتضي الثنائية ، والثنائية لا تتأني في أصل التوحيد ، وطريق الأحباب من وحدانية الى وحدانية .

وفي طريق المحبة تتأني علة المحبة ، وآفة ذلك أنه يلزم في المحبة مريد ومراد ، فأما أن يكون المريد الحق والعبد المراد ، ولما أن يكون المراد الحق والتعبد المريد . فإذا كان المريد الحق والمراد العبد ، فإن وجود العبد

(١) « بسطام » بكر الباء ثم السكون : بلدة كبيرة يقوم على جادة الطريق الى نيسابور بعد دامنجان بهرختين . نتحت مع الري وقومس على يد نعيم بن مفرن في عهد عمر بن الخطاب سنة تسع عشرة أو ثمان عشرة (معجم البلدان ج ١ ص ٦٢٢) .

(٢) (٣٤٢) وردا بنصهما في طبقات الصوفية . (انظر ص ٧٠) .

يثبت في مراد الحق . واذا كان المريد العبد والمراد الحق فلا سبيل لطلب
وارادة المخلوق اليه . ويبقى هنا في كلا الحالين ، آفة وجود المحب .

اذن ففناء المحب في بقاء المحبة اصح وأتم من قيامه ببقاء المحبة .

ويرد عنه رضى الله عنه انه قال : صرت مرة الى مكة ، فرأيت البيت
مفردا ، فقلت : حجى غير مقبول ، لأنى رأيت أحجارا كثيرة من هذا الجنس .
وذهبت مرة أخرى فرأيت البيت ورب البيت ، قلت : لا حقيقة للتوحيد
بعد . وذهبت مرة ثالثة فرأيت الكل رب البيت ، ولا بيت . فنوديت في
سرى أن : يا أبا يزيد ! اذا لم تر نفسك ورأيت العالم كله لما كنت مشركا .
واذا لم تر العالم كله ورأيت نفسك كنت مشركا . وعندئذ تبنت ، وتبت أيضا
عن رؤية وجودى .

وهذه حكاية لطيفة في صحة حاله ، وعلامة طيبة لأرباب الأحوال ،
والله اعلم .

● ومنهم امام الفنون وجاسوسن الظنون :

« أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى (١) » رضى الله عنه . كان عالما
بالأصول والفروع ، وكان جميع أهل العلم في زمانه يتولونه ويقتدون به . وقد
عمل كتابا في أصول التصوف اسمه « الرعاية (٢) » . وله تصانيف أخرى
كثيرة غيره .

وكان في كل فن عالى الحال عظيم الهمة ، وكان شيخ مشايخ بغداد
في وقته .

يروى عنه انه قال : « العلم بحركات القلوب في مطالعة الغيوب ، اشرف
من العمل بحركات الجوارح » .

والمراد بهذا أن العلم محل الكمال ، والجهل محل الطلب . والعلم في
الرواق افضل من الجهل في البلاط ، لأن العلم يبلغ بالرجل درجة الكمال ،
والجهل لا يتخطى به الاعتبار .

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) ذكره انسلمى باسم : « الرعاية لحقوق الله » (انظر طبقات الصوفية ص٥٦) .
وذكر باسم : « الرعاية في التصوف » في كشف الظنون ج ١ هامود ٩٠٨ ، هدية
العارفين ج ١ هامود ٢٦٤ . وقد نشر كتاب الرعاية لحقوق الله في سلسلة جب
التذكارية سنة ١٩٤٠ .

ومما هو جدير بالذكر أن هناك كتابا باسم : «الرعاية بحقوق الله» اشار اليه
الهجویری ونسبه الى محمد بن خضرويه (انظر : كشف المحجوب ص ٤٣٩) :

والعلم — فى الحقيقة — اعظم من العمل ، لانه يمكن معرفة الله تعالى بالعلم ، ولا يمكن ادراكه بالعمل . ولو كان للعمل بغير العلم طريق اليه ، لكان النصرى والرهبان فى محدة اجتهامهم : فى المشاهدة ، ولكان عصاة المسلمين : فى المغايبة .

اذن ، فالعمل صفة العبد ، والعلم صفة الله تعالى .

وقد اخطأ بعض رواة هذا القول ، وهم يروون كلا — الكلمتين (اى العلم والعمل) : « العمل » ويقولون — ان المحاسبى يقول — « العمل بحركات القلوب اشرف من العمل بحركات الجوارح(١) » وهذا محال ، لان عمل العبد لا يتعلق بحركات القلب . واذا كانوا يريدون بهذا ، فكرة ومراقبة أحوال الباطن ، فهذا ذاته ليس غريبا ، لان الرسول عليه السلام قال : « تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » .

وفى الحقيقة : اعمال السر افضل من اعمال الجوارح ، وتأثير اعمال الباطن اتم من تأثير اعمال الظاهر ، ولذلك قيل : « نوم العالم عبادة ، وسهر الجاهل معصية » لان سر (العالم) مغلوب فى النوم واليقظة ، وعندما يغلب السر ، يغلب الجسد ايضا ، فالسر المغلوب بغلبة الحق افضل من النفس الغالبة بحركات الظاهر والمجاهدة .

ويرد عنه رحمة الله انه قال يوما لدرويش : « كن لله والا فلا تكن » يعنى : ابق بالحق ، او افن عن وجودك .

اى : كن مجتهدا بالصفوة او مفترقا بالفقر ، وابق بالحق او افن عن نفسك . او : كن على تلك الصفة حيث يقول الحق تعالى : « اسجدوا لادم(٢) » ، او على تلك الصفة حيث يقول : « هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا(٣) » ، فاذا كنت لنفسك باختيارك فقيامك بنفسك ، وان لم تكن باختيارك فقيامك بالحق . وهذا المعنى لطيف والله اعلم بالصواب .

● ومنهم الامام المعرض عن الخلق وطلب الرياسة ، والمتقطع عن الخلق بالعزلة والقناعة : « ابو سليمان داود بن نصير الطائى(٤) » رضى الله

(١) ورد على هذا النحو فى طبقات الصوفية : انظر ص ٥٩ .
(٢) سورة « البقرة » آية ٢٤ ، سورة « الاعراف » آية ١١ ، سورة « الكهف » آية ٥٠ ، سورة « طه » آية ١١٦ .
(٣) سورة « الانسان » آية ١ .
(٤) سبق الإشارة اليه .

عنه . كان من كبار المشايخ وسادات أهل التصوف ، منقطع النظر في زمانه ، وتلميذ الإمام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، ومن أقران الفضيل وإبراهيم بن أدهم وغيرهما ، ومريد حبيب الراعى رضى الله عنه .

وكان فى كل العلوم ذا حظ وافر ، وفى درجة عليا . وفى الفقه فقيه الفقهاء . اختار العزلة ، وأعرض عن طريق الرياسة والدنيا ، وسلك طريق الزهد والتقوى ، وله مناقب كثيرة ، وفضائل مذكورة ، فقد كان عالما فى المعاملات ، وكاملا فى الحقائق .

يرد عنه أنه قال لمريد من مريديه : « ان أردت السلامة سلم على الدنيا ، وان أردت الكرامة كبر على الآخرة » .

أى ان هذين المحلين حجاب ، وكل الفراغ منوط بهما ، فكل من يريد أن يفرغ بالجسد ، قل له : أعرض عن الدنيا ، وكل من يريد أن يفرغ بالقلب قل له : انزع من قلبك ارادة العقبى .

ومشهور فى الحكايات أنه كان يخالط محمد بن الحسن ، ويتقى عنه أبا يوسف ، فقيل له : كلاهما عظيم فى العلم ، فلماذا تعز أحدهما وتتقى عنك الآخر ؟ قال : لأن محمد بن الحسن أقبل على العلم وهو صاحب دنيا ونعم كثيرة ، وصير العلم سبب عز دينه وذل دنياه ، وأبا يوسف أقبل على العلم من الذل والفقر ، وصير العز سبب جاهه وجماله وعزه ، فمحمد ليس مثله .

ويروى عن معروف الكرخى رحمه الله أنه قال : لم أر أحدا كانت الدنيا أهون فى عينيه مما كانت فى عين داود الطائى ، فلم تكن الدنيا وأهلها جميعا لديه بمقدار جناح بعوضة ، وكان ينظر الى الفقراء بعين الاحترام وان كانوا ملأى بالآفات . وله مناقب كثيرة ، والله أعلم .

● ومنهم شيخ أهل الحقائق ، والمنقطع عن جملة العلائق :

« أبو الحسن سرى بن المفلس السقطى (١) » رحمه الله . كان خال الجنيذ ، وعالما بجملة العلوم ، وذا شأن عظيم فى التصوف .

(١) قال عنه أنسبى : أنه أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، وكان إمام البغداديين وشيخهم فى وقته . مات سنة احدى وخمسين ومائتين . (انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٤٨ ، الرسالة التفسيرية ج ١ ص ٦٤ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٠٠ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٥٦ ، تذكره الأولياء ج ١ ص ٢٧٤ ، نفحات الانس ص ٥٢) .

وكان رحمه الله أول من خاض في ترتيب المقامات وبسط الأحوال ،
واكثر مشايخ العراق (١) من مريديه . رأى حبيب الراعى وصحبه ، وكان
مريد معروف الكرخي .

كان يتجر في سوق بغداد ، وعندما احترق السوق قالوا له : احترق
دكانك . فقال : فرغت من قيده . ولما نظروا ، لم يكن دكانه قد احترق
واحترقت كل الدكاكين من جهاته الأربع ! فلما رأى ذلك ، وهب الفقراء
كل ما يملك ، واختار طريق التصوف .

سئل : كيف كانت بداية حالك ؟ قال : مر حبيب الراعى بدكاني ذات
يوم ، فاعطيته كسرة قانلا : اعطها للفقراء ؟ فقال لي : خيرك الله ! ومنذ
ذلك اليوم الذي سمعت فيه دعاءه هذا ، زابلنى الفلاح الدنيوى .

ويرد عنه أنه قال : « اللهم مهما عذبتنى بشيء فلا تعذبني بذل
الحجاب (٢) » ، لأنه حين لا أكون محجوبا عنك ، يسهل على بذرك
ومشاهدتك العذاب والبلاء ، ومتى أكون محجوبا عنك يصبح نعيمك الأبدى
هلاكا لي ، بذل حجابك .

ذلك ان البلاء الذي يكون في مشاهدة المبلى لا يكون بلاء بل يكون نعمة ،
والنعمة في حجاب المبلى هي البلاء الحقيقي ، لأنه لا يوجد في الجحيم
بلاء أشد من الحجاب ، ولو كان اهل الجحيم في الجحيم مكاشفين لله
تعالى ، لما خطرت الجنة لعصاة المؤمنين ، لان رؤية الحق عز اسمه تمنح
الروح من السررات ما ينسيها عذاب الجسد ، ويثقلها عن بلاء البدن .
ولا يوجد في الجنة نعمة اتم من الكشف ، لأنه لو كانت كل تلك النعم ومئات
من أمثلها حاصلة لهم (٣) وهم محجوبون عن الله لتصاعد الهلاك من قلوبهم
وأرواحهم .

اذن ، فسنة الله تعالى أنه يجعل قلوب أحبائه بصيرة به في جميع الأحوال
حتى تستطيع تحمل جميع المشقات والرياضات والبلايا بشرابه ، ويكون
دعائهم : أن كل ألوان العذاب احب الينا من حجابك ، لأنه حين ينكشف
جمالك لقلوبنا ، لا نبالي بالوان العذاب . والله اعلم .

(١) « العراق » : العراق المشهور : بلاد ، والعراقان : الكوفة والبصرة . قال قطرب

انما سمي العراق عراقا لانه دنا من البحر . وقال الخليل : العراق شاطئ البحر

وسمى العراق عراقا لانه على شاطئ دجلة والفرات (معجم البلدان ج٢ ص ٤٢٨) .

(٢) ورد في طبقات الصوفية : اللهم ما عذبتنى بشيء (انظر ص ٥١) .

(٣) أى لاهل الجنة .

● ومنهم قائد اهل البلوى ، وأساس الزهد والتقوى :

«أبو على شقيق بن إبراهيم الأزدي(١)» رضى الله عنه . كان عزيز القوم ومقتداهم ، وعالما بجميع علوم الشرع والمعاملات والحقائق ، وله مؤلفات كثيرة في فنون العلم . صحب إبراهيم بن ادهم ، ورأى كثيرا من المشايخ وأدرك صحبتهم .

يرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « جعل الله اهل طاعته أحياء في مماتهم واهل المعاصي أمواتا في حياتهم(٢) » .

أى أن المطيع يكون حيا وإن يكن ميتا ، لأن الملائكة تتننى على طاعته الى يوم القيامة ، وثوابه مؤبد ، فهو باق في فناء الموت ببقاء الله .

ويرد عنه أن شيخا جاءه وقال : يا ششيخ ! ذنوبى كثيرة وأريد أن أتوب ؟ فقال له : تأخرت ! قال : كلا ، بل بكرت ! فقال له كيف ؟ قال : كل من يأتى — للتوبة — قبل الموت وإن يكن جاء متأخرا فهو مبكر .

ويقال : كانت بداية حاله أنه كان قد حدث في سنة من السنين قحط في بلخ ، وكان الناس يأكلون بعضهم ، وكان المسلمون مهمومين ، فرأوا غلاما كان يضحك ويمرح في السوق ، فقال له الناس : لم تضحك ؟ ألا تجبل من أن كل الناس في حزن وانت تفرح الى هذا الحد ؟ فقال : لا هم لى قط ، فأنا عبد لسيد يملك قرية ، وقد أخلى قلبى من شغلى . فقال شقيق رضى الله عنه : يا الهى تعاليت ! أن هذا الغلام فرح كل هذا الفرح بسيد يملك قرية ، وانت مانك الملك ، وقد تكفلت بأرزاقنا ، وقد وكلنا بقلوبنا كل هذا الحزن !! وانصرف عن شغل الدنيا ، وسلك طريق الحق ، ولم يهتم برزقه قط . وكان لشدة تواضعه يقول دائما : أنا تلميذ غلام ، وما أدركته أدركته به .

وله مناقب كثيرة ، والله أعلم .

(١) كنيته « أبو على » أو « أبو موسى » . من مشاهير مشايخ خراسان ، من أهل بلخ . له لسان في التوكل ، وقيل أنه أول من تكلم في علم الأحوال بكورة خراسان .

يقول الجاسى أنه توفي سنة أربع وسبعين ومائة في « الختل » وقبره بها . (أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٦١ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٧٧ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ١٩٦ ، نفحات الانس ص ٤٩ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٤٣) .

(٢) ورد بنصه في طبقات الصوفية (أنظر ص ٦٦) .

● ومنهم شيخ وقته ، والمجرد لطريق الحق :

« أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني (١) » رضى الله عنه ، كان عزيز القوم ، وريحانة القلوب ، اخص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة ، وكان عالما بعلم الوقت ، ومعرفة آفات النفس وبصيرا بكمائناتها ، وله كلام لطيف في المعاملات وحفظ القلوب ورعاية الجوارح .

ويرد عنه أنه قال : « اذا غلب الرجاء على الخوف فسد الوقت (٢) » ، لان الوقت رعاية الحال ، ومادام العبد يرمى الحال لا يستولى الخوف على قلبه ، فاذا زال ذلك ، يصير تارك الرعاية ويفسد وقته ، واذا غلب الخوف على الرجاء يبطل توحيده ، لأن غلبة الخوف من اليأس ، واليأس من الحق شرك . فحفظ التوحيد في صحة رجاء العبد ، وحفظ الوقت في صحة خوفه ، واذا تساوى : يحفظ التوحيد والوقت ، ويكون العبد مؤمنا بحفظ التوحيد ، ومطيعا بحفظ الوقت .

وتعلق الرجاء ينصرف الى المشاهدة التى يكون فيها الاعتقاد جملة ، وتعلق الخوف ينصرف الى المجاهدة التى يكون فيها الاضطراب جملة ، والمشاهدات موارد مجاهدات .

ومعنى هذا أن كل الآمال تتولد من اليأس : وكل من يقنط من فلاحه بعمله ، يقوده قنوطه الى النجاح والفلاح بكرم الحق تعالى وتقديس ، ويفتح عليه باب الانبساط ، وينجو قلبه من آفات الطبع ، وتتكشف له جميع الأسرار الربانية ، كما يقول أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله : كنت أؤدى الصلاة فى الخلوة ذات ليلة ، وشعرت بكثير من الراحة فى تلك الأثناء ، وفى اليوم التالى حدثت أبا سليمان بذلك ، فقال : انت رجل ضعيف لأن الخلق لا يزالون أمامك ، فأنت فى الخلاء على حال وفى الملا على حال آخر . وليس فى الدنيا والآخرة شئ قط له من الخطر ما يمنع العبد عن الحق ، وحين يجلون المروس على الملا ، فانهم يفعلون ذلك ليراها الخلق ، ويكون لها مزيد من العز بمشاهدة الخلق . ولكن ينبغى أن لا ترى نفسها بغير ذلك القصد ، حتى لا يكون لها من مشاهدة الخلق مذلة . فلو رأى الخلق عز طاعة المطيع فلا ضير عليه ، وانما الضرر يكون فى رؤيته لطاعته ، فان فى ذلك هلاكه . والله أعلم .

(١) عبد الرحمن بن عطية ، ويقال : عبد الرحمن بن أحمد بن عطية . وهو من أهل « داريا » : قرية من قرى دمشق . مات سنة خمس عشرة ومائتين . انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٧٥ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٨٦ ، ونيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٦ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٦٣ ، فكرة الأولياء ج ١ ص ٢٢٩ ، نفحات الانس ص ٣٩ ، خزينة الأصفاء ج ٢ ص ١٢٥ .
(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر ص ٧٦) .

● ومنهم المتعلق بحضرة الرضا ، وريبب على بن موسى الرضا :
« أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي (١) رضى الله عنه ، كان من تدماء
المشايخ وسادتهم ، معروفا بالفتوة ، ومذكورا بالورع والانتابة .

وكان ينبغي تقديم ذكره عن هذا الترتيب — ولكنى ذكرته في هذا الموضع
موافقة لشيخين : أحدهما صاحب نقل ، والآخر صاحب تصرف : أولهما
الشيخ المبارك أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله ، الذى كتابه على
هذا الترتيب ، والثانى : الأستاذ أبو القاسم القشيري رضى الله عنه
الذى ذكره فى كتابه على هذه الجملة ، فائتته فى هذا الموضع — لأنه كان
استاذ السرى السقطى ، ومريد داود الطائى .

يرد عنه انه قال : « للفتيان ثلاث علامات : وفاء بلا خلاف ، ومدح
بلا جود ، وعطاء بلا سؤال (٢) .

اما الوفاء بلا خلاف ، فهو ان العبد فى العبودية يحرم على نفسه المخالفة
والمعصية .

واما المدح بلا جود فهو ان يثنى على شخص لم ير منه احسانا .

واما العطاء بلا سؤال فهو ان لا يميز فى العطاء عند الميسرة ، وعندما
يعرف حال أحد لا يسأله . وهذا كله يكون من الخلق للخلق .

وهذه الصفات الثلاث عارية فى الخلق جميعا ، لأنها صفات الحق جل
وعلا ، وافعال له مع عباده : لأنه فى الوفاء لا يخالف أحياءه ، فمهما خالفوه
فى وفائهم ، يزيدجل جلاله لطفه بهم . وعلامة وفائه ان العبد دعاه فى الأزل
بلا فعل ، وهو لا يصدده عنه اليوم بمعصيته .

والمدح بلا جود لا يفعله غيره ، لأنه جل جلاله فى غير حاجة الى فعل
العبد ، ويثنى على العبد على قليل من الفعل . له الحمد فى الآخرة
والاولى .

(١) معروف بن فيروز ، ويقال معروف بن على . كان بعد اسلامه يحجب لملى ابن
موسى الرضا ، فارتحم الشيعة يوما على باب على بن موسى فكسروا أضلع
معروف ، فمات ودفن ببغداد وقبره يستشفى به . يقول البغداديون : قبر
معروف ترياق مجرب . توفي سنة مائتين ، وقيل سنة احدى ومائتين . (انظر
ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٨٢ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٠ ،
(وفيات الاعيان ج ١ ص ١٠٤ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٥٧ ، تذكرة الاولياء
ج ١ ص ٢٦٩ ، تنقحات الانس ص ٢٨) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٨٩) .

والعطاء بلا سؤال لا يستطيعه غيره ، لأنه كريم يعلم حل كل فرد ،
ويحقق مقصود كل واحد دون سؤال .

وإذا كرم الله عز وجل العبد وعظمه وخصه بقربه ، وفعل معه هذه
الأمور الثلاثة ، وهو يجتهد بقدر إمكانه أن يعامل الخلق هذه المعاملة ،
فإنهم عندئذ يطلقون عليه اسم الفتوة ، ويثبتون اسمه في زمرة الفتيان .
وكانت هذه الصفات الثلاث لإبراهيم عليه السلام على الحقيقة ،
وسأورد هذا في موضعه إن شاء الله عز وجل .

● ومنهم زين العباد وجمال الأوتاد :

« أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم (١) » رضى الله عنه . كان من
محتشمى بلخ ، ومن قدماء مشايخ خراسان . مريد شقيق ، واستاذ أحمد
ابن خضرويه رحمه الله . ولم يخط في كل أحواله من البداية الى النهاية
خطوة بغير صدق ، حتى قال الجنيد عنه : « صديق زماننا حاتم الأصم » .

وله كلام عال في دقائق رؤية آفات النفس ورعونات الطبع ، وتصانيف
مشهورة في علم المعاملات .

يرد عنه أنه قال : « الشهوات ثلاث : شهوة في الأكل ، وشهوة في
الكلام ، وشهوة في النظر . فاحفظ الأكل بالثقة ، واللسان بالصدق ،
والنظر بالعبرة (١) » .

نكل من يتوكل في الأكل ينجو من شهوة الأكل ، وكل من يتحدث بلسان
الصدق ينجو من شهوة اللسان ، وكل من يرى بعين الصواب ينجو من
شهوة العين .

وحقيقة التوكل من صدق معرفته ، لأنك إذا عرفت صدقت بمنحه
الرزق ، ومن ثم يتكلم (العبد) بصدق المعرفة ، وينظر بصدق المعرفة ،
فلا يكون أكله وشربه غير المحبة ، ولا تكون عبارته غير الوجد ، ولا يكون
نظره غير المشاهدة .

(١) فكر في الرسالة : حاتم بن عنوان الأصم . ويقال حاتم بن يوسف الأصم .
مات بقرية من ترى ما وراء النهر اسمها « واشجرد » سنة سبع وثلاثين ومائة .
(انظر ترجمته في : طبقات الصوفية ص ٩١ ، الرسالة التشريعية ج ١ ص ٨٩ ،
طبقات الشمراني ج ١ ص ٦٤ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٤٤ ، فتحات الانس
ص ٦٤ ، خزينة الأصفاء ج ٢ ص ١٣٩) .
(٢) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر ص ٩٦) .

وعندما يصح معرفة العبد يكون أكله حلالا ، وعندما يصح كلامه يتحدث بذكره ، وعندما يصح نظره يشاهده ، لأن أكل غير ما أعطاه باذنه لا يحل ، وذكر أحد سوى ذكره في الثمانية عشر ألف عالم لا يصح ، والنظر إلى غير جماله وجلاله في الموجودات لا يجوز . فإذا أخذت منه وأكلت باذنه فلا شهوة ، وإذا تحدثت عنه وتكلمت باذنه فلا شهوة ، وإذا رايت فعله ورايت باذنه فلا شهوة . وأيضا ، إذا أكلت بهواك فانه وإن يكن حلالا يكن شهوة ، وإذا تكلمت بهواك فانه وإن يكن ذكرا يكن كذبا وشهوة ، وإذا نظرت بهواك فانه وإن يكن استدلالا يكن وبالا وشهوة .

وهو أعلم .

● ومنهم الإمام المطلبى ، وابن عم النبى : « أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى (١) » رضى الله عنه ، كان من كبار وقته ، وأما في جميع العلوم ، ومعروفا بالفتوة والورع ، وله مناقب كثيرة ومشهورة ، وكلام عال .

وكان أولا تلميذ الإمام مالك (٢) طالبا كان بالمدينة ، فلما قدم العراق اختلف إلى محمد بن الحسن رضى الله عنه .

وكان في طبعه دائما الميل إلى العزلة ، ويطلب تحقيق هذه الطريقة ، حتى اجتمع عليه قوم واقتدوا به ، وكان منهم أحمد بن حنبل ، ثم انشغل بطلب الجاه ومزاولة الإمامة وتخلف عنه .

وكان محمود الخصال في جميع الأحوال ، وفي بداية حاله كان في قلبه تسوة على المتصوفة ، إلى أن رأى سليما الراعى وتقرب إليه . وكان بعد ذلك طالبا للحقيقة أينما ذهب .

(١) أحد الأئمة الأربعة . يلتقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في النسب في عبد مناف . ولد بغزة وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين ونشأ بها وترا القرآن ، ورحل إلى الإمام مالك بالمدينة . أقام بمصر أربع سنوات وتوفى بها سنة أربع ومائتين . كان كثير المناقب ، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام وكلام الصحابة وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة ما لم يجتمع في غيره حتى قال أحمد بن حنبل عنه : ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى . (أنظر ترجمته في : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٤٧ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٤٠ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٠٩ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٥٠) .

(٢) مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر . أحد الأئمة الأربعة ، وإمام دار الهجرة ، قال عنه الشافعى : « مالك حجة الله تعالى على خلقه » . وقال ابن وهب : سمعت مناديا ينادى بالمدينة : « ألا لا يفتى الناس إلا مالك بن أنس وابن أبى ذئب » . ضرب سبعين سوطلا لفتوى لم توافق السلطان . توفى سنة تسع وسبعين ومائة وكانت وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع (أنظر ترجمته في : المعارف ص ٢١٨ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣٩ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٤٢ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٤٦) .

يرد عنه أنه قال : « اذا رأيت العالم يشغف بالرخص فليس يجيء منه شيء » .

أى أن العلماء قبله كل أصناف الخلق ، فلا يجوز أن يتقدمهم أحد فى أى معنى ، ولا يمكنهم السير فى طريق الحق بغير الاحتياط والمبالغة فى المجاهدة ، وطلب الرخص شأن من يهرب من المجاهدة ويريد أن يخفف على نفسه ، فطلب الرخص درجة العوام حتى لا يخرجوا عن دائرة الشريعة ، وممارسة المجاهدة درجة الخواص ليجدوا ثمرة ذلك فى أسرارهم ، العلماء خواص ، وحين يرضى الخاص بدرجة العام لا يتأتى منه شيء .

وطلب الرخص أيضا تخفيف للأمر ، والعلماء أحباء الحق تعالى ، والحبيب لا يخفف أمر الحبيب ولا يختار أدنى درجاته ، وإنما يحتاط فى ذلك .

يروى أحد المشايخ قائلا : رأيت الرسول عليه السلام فى النوم فقلت له : يا رسول الله ! روى لى عنك أن الله عز وجل أوتادا وأولياء فى الأرض . فقال : لقد صدقت الراوى عنى هذا الخبر . قلت : يا رسول الله ! يلزمنى أن أرى واحدا منهم . فقال : محمد بن إدريس واحد منهم .

وله مناقب كثيرة غير هذا .

● ومنهم شيخ أهل السنة ، وقاهر أهل البدعة : « أبو عبد الله أحمد ابن حنبل (١) » رضى الله عنه . اختص بالورع والتقوى . وكان حافظا لحديث النبى عليه السلام . وكانت هذه الطبقة بجملة من الفريقين تتبرك به .

(١) الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، من بنى شيبان بن ذهل . ولد فى بغداد سنة أربع وستين ومائة . كان إمام المحدثين ، صنّف كتابه « المسند » وجمع فيه من الحديث ما لم يتوفر لغيره . وقيل أنه كان يحفظ ألف ألف حديث . كان من أصحاب الإمام الشافعى وخوادمه ، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعى إلى مصر وقال فى حقه : خرجت من بغداد وما خللت فيها ألقى ولا أمتة من ابن حنبل . دعى إلى القول بخلق القرآن فلم يجب فغضب وحبس وكان خزيه فى سنة عشرين ومائتين فى عهد المعتصم ، ولم يزل يعذب إلى أن مات المعتصم وتولى بعده الواثق ، فاشتد الأمر عليه وقال لا أسكن بلد الحد فيه . ماتم مختفيا لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولى المتوكل نزع المحنة من أحمد وأمر بإحضاره وإكراهه وأعزازه ، وكتب إلى الواثق برفع المحنة وإظهار السنة وأن القرآن غير مخلوق ، وخمدت المعتزلة . توفى ببغداد سنة أربعين ومائتين ودفن بمقبرة باب حرب (انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٤٢ ، تفكرة الأولياء ج ١ ص ٢١٤ ، خزينة الأصفاء ج ٢ ص ٦٤) .

وكان قد أدرك صحبة المشايخ الكبار مثل ذى النون المصرى ، وبشر الحافى ، وسرى السقطى ، ومعروف الكرخى وأمثالهم رضى الله عنه .
كان ظاهر الكرامات وصحيح الفراسات ، وكل ما ينسبه اليه اليوم بعض المشبهة (١) انها هو محض افتراء وموضوع ، وهو برىء من كل ذلك .
وله اعتقاد فى اصول الدين ومرضى من كل العلماء .

ولما غلب المعتزلة فى بغداد قالوا : يجب أن يكلف بأن يقول ان القرآن مخلوق . وكان شيخا وضعيفا ، فشدوا ذراعية على العقبين (٢) وضربوه الف سوط وهم يقولون : قل ان القرآن مخلوق ! فلم يقل . وفى أثناء ذلك حل رباط أزراره وكانت يداه مفلولتين فظهرت يدان أخريان وعقدتا الأزار ، فلما راوا هذا البرهان تركوه . وقد مات متأثرا بتلك الجراح .

وفى أواخر عهده جاء اليه قوم وقالوا له : ماذا تقول غيبن ضربوك ؟ فقال : ماذا أقول ، لقد ضربونى من أجل الله لأنهم ظنوا انى على باطل ، فان يكونوا على حق ، فأننى لن اختصمهم يوم القيامة لمجرد جرح .

وله كلام عال فى المعاملات . وكل من كان يسأله عن مسألة كان يجيبه عنها اذا كانت من المعاملات ، ويحيله على بشر الحافى اذا كانت من الحقائق ، كما حدث أن جاء اليه رجل ذات يوم وقال : « ما الاخلاص ؟ قال : الاخلاص هو الخلاص من آفات الأعمال » . قال : « ما التوكل ؟ قال : الثقة بالله » . قال : « ما الرضا ؟ قال : تسليم الأمور الى الله » . قال : « ما المحبة ؟ » قال : سل عن هذه بشرا الحافى ، فانه طالما كان حيا لا أجيب عن هذا .

وكان أحمد بن حنبل رحمه الله ممتحنا فى جميع الأحوال : فى حال حياته

(١) المشبهة صنفان : صنف شبهوا ذات البارى بذات غيره ، وصنف شبهوا صفاته بصفات غيره . وكل صنف من هذين الصنفين ملتزمون على أصناف شتى .
والمشبهة الذين ضلوا فى تشبيه ذاته بغيره منهم السبائية الذين سبوا عليا الها وشبهوه بذات الله ، والبيانية أتباع بيان بن سيمان الذى زعم أن معبوده إنسان من نور على صورة الإنسان فى أعضائه ، وأنه يبنى كله الا وجهه . ومنهم المغيرة أتباع المغيرة بن سميذ الذى زعم أن معبوده ذو أعضاء وأن أعضائه على صورة حروف الهجاء . ومنهم المنصورية والخطابية والحلولية والمقنمية والهشامية والمشبهة المنسوبية الى داود للجوارى .

وأما المشبهة لصفات الله بصفات المخلوقين فاصناف : منهم الذين شبهوا ارادة الله تعالى بارادة خلقه ، ومنهم الذين شبهوا كلام الله بكلام خلقه ، ومنهم الزرارية الذين قالوا ان جميع صفات الله من جنس صفاتنا . (« الفرق بين الفرق » أبو منصور البغدادى : القاهرة ١٩٤٨ أنظر : ص ١٢٨ - ١٤١) .
(٢) آلة للتنقيب يوثق عليها المجرمون .

بطمن المعتزلة ، وفي حال ممته باتهامات المشبهة ، الى حد أن اهل السنة والجماعة الذين لم يقفوا على حالة يتهنونه ، وهو برىء من ذلك ، والله أعلم .

● ومنهم سراج الوقت والمشرق على آفات المقت : « أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري (١) » رضى الله عنه ، كان من اجلة مشايخ الشام ، وممدوح جملة المشايخ ، الى حد أن قال الجنيد : « أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام » .

وله كلام عال واشارات لطيفة في فنون علم هذه الطريقة ، وروايات صحيحة من حديث النبی عليه السلام . وكان اليه رجوع اهل وقته في وقعاتهم .

وكان مريد أبي سليمان الداراني رضى الله عنه ، وقد صحب سفيان ابن عيينه (٢) ومروان بن معاوية الفزازي (٣) والنباجي (٤) وأخذ عن كل منهم أدبا وفائدة .

ويرد عنه انه قال : « الدنيا مزيلة ومجمع للكلاب ، واقل من الكلاب من عكف عليها ، فان الكلب يأخذ منها حاجته وينصرف عنها ، والمحِب لها لا يزول عنها بحال (٥) » ..

هكذا كان من حقارة الدنيا لدى همة ذلك الشهم أن شَبَّوها بالمزيلة وشبهه أهلها بأقل من الكلاب ، وعلل ذلك بأن الكلب حين يأخذ حاجته من المزيلة ينصرف عنها ، أما اهل الدنيا فقد عكفوا دائما على جمع أسبابها ولا يرجعون أبدا عن محبتها وجمعها .

وهذه علامة على انقطاعه عن الدنيا واخواتها ، واعراضه عن اصحابها . والانقطاع عن الدنيا مجال طيب ، وروضة ناضرة .

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) مروان بن معاوية الفزازي : كان واسع الرواية جدا ، وكان ثقة ثبتا حافظا . مات نجاة سنة ثلاث وتسعين ومائة (خلاصة تذهيب الكمال ص ٢١٩) .

(٤) سعيد بن يزيد التَّبَاجِي : كنيته أبو عبد الله . من قديم المشايخ من أقران ذي النون المصري ومن أساتذة أحمد بن أبي الحواري ، يحكى عنه أحمد بن أبي الحواري وغيره حكايات واحوالا (انظر ترجمته في «نفعات الانس» ص ٩١) .

(٥) ورد في طبقات الصوفية : « والمحِب لا يزالها بحال » (انظر ص ١٠٢) .

وقد طلب العلم في البداية ، وبلغ درجة الإمامة ، ثم حمل كتبه وألقى بها في البحر وقال : « نعم الدليل أنت ، وأما الاشتغال بالدليل بعد الوصول محال » ، لأن الدليل إنما يكون طالما كان المريد في الطريق ، فإذا لاحت الحضرة فما قيمة السدة والطريق ؟

وقد قال المشايخ إنما يكون هذا في السر ، ومن قال في هذا الطريق : « وصلت ، فقد فصل ، لأن الوصول تخلف ، فالشغل شغل ، والفراغ فراغ ، والوصول وصول .

والنسبة تكون في الشغل والفراغ لأنها صفتان للعبد ، أما الوصل فهو عناية الحق وأرادته الأزلية لخير العبد ، وهذا لا يتأتى بشغل العبد أو فراغه ، فلا أصول لوصله ، ولا تجوز عليه — سبحانه وتعالى — الملازمة والقرب والمجاورة ، ووصلة كرامة للعبد ، وهجرة أهانة له ، ولا يجوز على صفاته التغير .

ويقول على بن عثمان الجلابي رضى الله عنه : من المحتمل أن يكون مراد ذلك الشيخ الكبير في لفظ الوصول : الوصول إلى طريق الحق ، إذ أن طريق الحق ليس في الكتب ليعبر عنه ، لأنه حين يتضح الطريق تنقطع العبارات ، فالمبارات تكون لها القوة في غياب المقصود ، فإذا حصلت المشاهدة تلاشت العبارات . وإذا كانت الألسنة كليلة في صحة المعرفة ، فمن الأولى أن تضع (المعرفة) من عبارات الكتب .

وقد فعل غيره من المشايخ عين هذا ، مثل شيخ المشايخ أبى سعيد فضل الله بن محمد الميهني وغيره ، حين القوا بكتبهم في البحر (١) . وقد قلد فريق من المترسمين الأحرار في ذلك ، لكسلهم وجهلهم . ويبدو أن أولئك الأحرار لم يكونوا يريدون بذلك غير انقطاع العلائق ، وترك الالتفات ، وفراغ القلب مما دون الحق . وهذا لا يصح إلا من سكر الابتداء ، وحرارة الصبا ، لأن المتمكن لا يحجبه الكونان حتى تحجبه قطعة ورق ، فإذا ما انقطع للقلب عن العلائق فما قيمة قطعة ورق .

وأما من مراده بغسل الكتب نفى العبارات عن تحقيق المعنى — كما

(١) ورد في أسرار التوحيد أن الشيخ أبى سعيد عندما تحول عن دراسة علوم الدين وامتنع الصوفية جمع كتبه ومذكراته ودفنها وشيد فوقها دكانا وزرع غصنا امتدت فروعه ونما في وقت قصير وصار شجرة كبيرة . واعتاد أهل ميهنة عند ولادة الأطفال وغسل المولود أن يستحلوا بعض أغصان هذه الشجرة أهلا في الحصول على البركة .

(انظر « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ٦١) .

ذكرنا — فالأولى أن تنتفى العبارات من اللسان ، لأن مافى الكتاب عبارة مكتوبة ، وما على اللسان عبارة جارية ، وليست عبارة أولى من عبارة .

ويخيل لى أن أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله ، لم يجد مستمعا فى غلبة حاله ، فشرح حاله على الورق ، ولما اجتمع له من ذلك شيء كثير ولم يجده جديرا بالنشر ،لقى به فى الماء وقال : « نعم الدليل أنت » ، أما وقد تحقق مرادى فمن المحال أن أنشغل عنه بك .

ويجتمل أيضا أن يكون قد اجتمعت لديه كتب كثيرة ، وكانت تمنعه عن الأوراد والمعاملات وتشغله ، فأزال الشغل من أمامه ، وطلب فراغ القلب للمعنى ، وقال بترك العبارات .

● ومنهم قائد الفتيان وشمس خراسان : « أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخى (١) » رضى الله عنه . كان مخصوصا بعلو الحال وشرف الوقت . وكان فى زمانه مقتدى القوم ، ومرضيا لدى الخاص والعام ، سلك طريق الملامة ، وارتدى ثياب الجنود .

وكان لفاطمة زوجه شأن عظيم فى الطريقة ، فقد كانت ابنة أمير بلخ ، ولما رغبت فى التوبة بعثت رسولا الى أحمد تقول : اطلبنى من أبى ، فلم يجبها ، فأرسلت اليه تقول : يا أحمد ! لم أكن أظنك ذلك الرجل الذى يقطع طريق الحق ، فكان دليلا هاديا لا قاطعا . فأرسل أحمد رجلا وطلبها من أبيها ، فاعطاها لأحمد بن خضرويه بحكم التبرك . وقالت فاطمة بترك الانشغال بالدنيا ، واستراحت بحكم العزلة مع أحمد ، الى أن قصد زيارة السيد بايزيد فرافقته فاطمة . ولما أقبلت على بايزيد رفعت انبرقع عن وجهها ، وكانت تتحدث معه بجرأة ، فتعجب أحمد من ذلك ، واستولت الغيرة على قلبه ، فقال : يا فاطمة ! أى جرأة تلك التى كانت لك مع بايزيد ؟ فقالت : لآنك أنت محرم طبيعتى وهو محرم طريقتى ، والدليل على هذا أنه فى غنى عن صحبتى وأنت محتاج الى .

وكانت دائما جريئة مع بايزيد ، حتى وقعت عينه يوما على يدها فوجدها مخضوبة بالحناء ، فقال : يا فاطمة ! لم الخضاب بالحناء ؟ قالت : يا بايزيد لقد كنت أتبسط معك طالما لم تكن رايت يدي وحنائى ، والآن وقد وقعت عينك على يدي فقد صارت صحبتنا حراما .

(١) سبق الإشارة اليه .

ورجعا من عند بايزيد ، واتهما في نيسابور (١) . وكانت علاقة اهل نيسابور ومشايخها بأحمد طيبة .

وعندما جاء يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله من الري (٢) الى نيسابور ، وقصد بلخ ، أراد أحمد أن يدعوه ، فشاور فاطمة فيما ينبغي لدعوة يحيى ، فقالت : يلزم كثير من البقر والخراف والحوائج والتوابل ، وكثير من الشمع والعطر ، ومع كل هذا يلزم أيضا ذبح عشرين حمرا . فسألها أحمد : ما معنى ذبح الحمير ؟ قالت : حين يكون كريم ضيفا ببيت كريم أما يجب أن تعرف كلاب الحى ذلك ؟

وقال أبو يزيد رضى الله عنه : « من أراد أن ينظر الى رجل من الرجال مخبوء تحت لباس النسوان فلينظر الى فاطمة » .

ويقول أبو حفص الحداد رحمة الله : « لولا أحمد بن خضروية ماظهرت الفتوة » .

وكان له كلام عال ، وأنفاس مهذبة ، وتصانيف مشهورة في كل فن من فنون المعاملات والأدب ، ونكت لا يحة في الحقائق .

ويرد عنه أنه قال : « الطريق واضح ، والحق لا يح ، والداعى قد اسمع ، فما التحير بعدها الا من العمى (٣) » .

أى أن البحث عن الطريق خطأ ، لأن طريق الحق واضح كالشمس الساطعة ، فابحث عن نفسك أين أنت ، فان وجدتتها فاسلك الطريق ، لأن الحق اظهر من أن يجيء تحت طلب الطالب .

(١) « نيسابور » : عاصمة اقليم خراسان . وهى بلد واسع كثير الكور ، فمن كور نيسابور الطبرسين وقومستان ونسا وابيورد وابر شهر وجام وباخرز وطوس . ومن نيسابور الى مرو عشر مراحل ، وإلى هراة عشر مراحل وإلى جرجان عشر مراحل وإلى القننجان عشر مراحل وإلى سرخس ست مراحل (البلدان ص ٤٥) .

(٢) « الري » : على جادة طريق خراسان ، واسم مدينة الري « المحمدية » وسيت بهذا الاسم لأن المهدي نزلها في خلافة المنصور لما توجه الى خراسان لمحاربة عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ، وبناها وبها ولد الرشيد لأن المهدي أقام بها عدة سنين . افتتح الري قرضه بن كعب الأنصاري في خلافة عمر ابن الخطاب سنة ثلاث وعشرين (البلدان ص ٤٢) وورد في معجم البلدان أن الذى فتحها زياد الخيل الطائى في عهد عمر بن الخطاب سنة عشرين من الهجرة (معجم البلدان ج ٢ ص ٨٩٢) .

(٣) ورد في طبقات الصونية (انظر ص ١٠٥) .

ويرد عنه أنه قال : « استر عز فقرك » . أى لا تقل لأحد أننى فقير حتى لا ينكشف سرى ، لأنه كرامة عظيمة من الله تعالى .

ويرد عنه أيضا أنه قال : دعا فقير فى شهر رمضان واحدا من الأغنياء ، ولم يكن فى منزله غير رغيف يابس ، فلما عاد الغنى أرسل إليه صرة ذهب ، فلم يقبلها ، وقال : هذا جزاء من يكشف لك سره ، أو يعتبر الأغنياء أهلا لعز الفقر .

وهذا لصحة صدق فقرة ، والله اعلم .

● ومنهم امام المتوكلين ونخبة اهل زمانه : « أبو تراب عسكر بن حصين الفخشبى (١) » رضى الله عنه . كان من اجلة مشايخ خراسان ومن سادتهم ، ومشهورا بالفتوة والزهو والورع ، وله كرامات كثيرة وعجائب لا تحصى رآها فى البادية .

وكان من كبراء سياحى المتصوفة ، قطع بوادى كثيرة على التجرد ، وكانت وفاته فى بادية البصرة . وبعد بضع سنوات جاء جماعة فوجدوه واقفا على قدميه ووجهه الى القبلة ، وقد اسلم الروح ، وبس . وقد وضع ركوة امامه وامسك بيده عصا . ولم يحم حوله أى سبع من السباع (٢) .

يرد عنه أنه قال : « الفقير قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث نزل (٣) » لان التصرف فى هذه الثلاثة شغل . وقد بقى اهل العالم جميعا فى بلاء هذه الثلاثة لانهم يتكلفون ، وهذا من وجهة المعاملة ، ولكن من وجهة التحقيق ، فغذاء الفقير الوجد ، ولباسه التقوى ، ومسكنه الغيب ، لأن الله عز من قائل قال : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا (٤) » . وقال تعالى أيضا : « وريثا ولباس التقوى (٥) » . وقال الرسول عليه السلام : « الفقر وطن الغيب (٦) » . فحين يكون

(١) يقل له : عسكر بن محمد حصين . تلقه على مذهب الامام الشافعى ، واخذ عنه الامام أحمد بن حنبل . صاحب أبا حاتم المطار البصرى وحاشا الاسم البلخى . توفى سنة خمس وأربعين ومائتين (انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ١٤٦ ، الرسالة ج ١ ص ٩٧ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٣٩٨ ، نفحات الانس ص ٥١) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية والرسالة من وفاته انه نهشته السباع .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية بنصه (انظر ص ١٤٩) .

(٤) سورة « الجن » آية ١٦ .

(٥) سورة « الاعراف » آية ٢٦ .

(٦) لم أجد له سفدا .

غذاؤه ومشربه من شراب القربى ، ولباسه التقوى والمجاهدة ، ووطنه الغيب وانتظار الوصل : يكون طريق الفقر واضحا ومعاملاته لا نحة ، وهذه درجة الكمال .

● ومنهم لسان المحبة والوفاء ، وزين الطريقة والولاء : « أبو زكريا بن معاذ الرازي (١) » رضى الله عنه ، كان على الحال ، حسن السيرة ، وكانت له في حقيقة الرجاء في الحق تعالى قدم ثابتة : حتى ليقول عنه الحصرى رحمه الله : كان لله تعالى رجلان يسميان يحيى ، أحدهما من الأنبياء والثانى من الأولياء ، فأما يحيى بن زكريا عليه السلام فقد سلك طريق الخوف بحيث ينس كل مدعى الخوف من فلاحهم ، وأما يحيى بن معاذ فقد سلك طريق الرجاء على نحو مرغ أيدى ادعاء الرجاء في التراب . قالوا : حال يحيى بن زكريا عليه السلام معروف ، فكيف كان حال يحيى هذا ؟ قال : بلغنى أنه لم تكن له جاهلية ، ولم تجر عليه كبيرة ، وكان جادا في المعاملة والرياضة ، فلم يكن لأحد من الأصحاب طاقته .

قليل له : أيها الشيخ ، مقامك مقام الرجاء ، ومعاملتك معاملة الخائفين . قال : أعلم يابنى أن ترك العبودية ضلالة ، وأن الخوف والرجاء قائمتا الايمان ، فمحال أن يقع أحد في الضلالة بممارسة ركن من أركان الايمان . فالخائف يعبد خشية القطيعة ، والراجى أملا في الوصل ، ومالم توجد العبادة لا يصح الخوف ولا الرجاء ، فإذا حصلت العبادة يكون الخوف والرجاء جملة عبادة ، وحيثما تجب العبادة لا تنفد العبادة .

وله في هذه المسائل تصانيف كثيرة ، ونكت وإشارات بديعة . وكان أول من اعتمد المنبر بعد الخلفاء الراشدين من مشايخ هذه الطريقة . وأنا أحب كلامه جدا لأنه رقيق في الطبع ، ولذيذ في السمع ، ودقيق في الأصل ، ومفيد في العبارة .

يرد عنه أنه قال : « الدنيا دار الأشغال ، والآخرة دار الأهوال . ولا يزال العبد بين الأشغال والأهوال ، حتى يستقر به القرار إما إلى الجنة وإما إلى النار (٢) » . يخ بخ لذلك القلب الذى نجا من الاشتغال بالدنيا ، وأمن أهوال الآخرة ، وقطع همته عنهما ، واتصل بالحق .

وكان مذهبه : تفضيل الغنى على الفقر . وحين تجبعت عليه فى الرى ديون كثيرة قصد خراسان ، فلما بلغ بلخ احتجزه الناس فيها ، فتكلم هناك مدة ، ونصحهم ووعظهم . وقدم له الناس مائة ألف درهم ففضة ، فلما

(١) سبق الإشارة إليه .

(٢) ورد فى طبقات الصونية (انظر ص ١١٠) .

رجع ليعود الى الرى قطع عليه اللصوص الطريق ، واخذوا منه المال كله ، فجاء الى نيسابور مجردا ، وكانت وفاته بها .
وكان عزيزا فى كل الاحوال ، وحيدا بين الخلق .

● ومنهم شيخ مشايخ خراسان ، ونادرة كل الدنيا والزمان : « ابو حفص عمر بن سالم النيسابورى (١) » الحداد « رضى الله عنه . كان من كبار القوم وسادتهم ، وممدوح كل المشايخ ، صحب ابا عبد الله الابيوردي ، ورافق احمد بن خضروية ، وجاءه شاه بن شجاع من كرمان (٢) للزيارة ، وذهب (ابو حفص) الى بغداد لزيارة المشايخ .

ولم يكن له نصيب من العربية ، فلما جاء بغداد قال المريدون لبعضهم البعض : انه لشين أن يلزم لشيخ شيوخ خراسان ترجمان ليترجم كلامه . فلما ورد مسجد الشونيزيه « اجتمع حوله المشايخ جملة ، وكان معهم الجنيد ، فكان يتحدث اليهم بعربية فصيحة بحيث حاروا جميعا من فصاحته ، وسالوه : ما الفتوة ؟ قال فلتبدلوا بواحد منكم ، ولتلكموا ! فقال الجنيد : « الفتوة عندي ترك الرؤية واسقاط النسبة » . فقال ابو حفص : « ما احسن ما قال الشيخ ! ولكن الفتوة عندي اداء الانصاف وترك مطالبة الانتصاف (٣) » ، قال الجنيد رحمه الله : « قوموا يا اصحابنا فقد زاد ابو حفص على آدم وذريته » ، فى الفتوة .

ويقال انه فى بداية حاله كان قد فتن بجارية ، فقبل له ان بمدينة نيسابور يهوديا ساحرا ، ولديه احتيال امرك هذا . فذهب اليه ابو حفص ، وشرح له حاله ، فقال له اليهودى : ينبغى لك ان تكف عن الصلاة اربعين يوما وليلة ، والا تحوم حول الحق واعمال الخير والنية الحسنة ، لاحتل لك ، ويتحقق مرادك ، ففعل . ولما انتقضت الاربعون يوما ، صنع له اليهودى الطلسم : ولم يتحقق المراد . فقال اليهودى : لا محالة انه قد مر عليك شيء ، ففكر جيدا جدا . فقال ابو حفص : انا لا اعلم انه قد جرى على ظاهرى وباطنى شيء من أعمال الخير ، ولا اذكر الا انى كنت قادما فى الطريق فابعدت حجرا بقدمى حتى لا ترتطم به قدم انسان . فقال له اليهودى : لا تغضب ذلك الاله الذى اضعمت امره اربعين يوما ، ولم يضع هذا المقدار من تعبك ! غتاب ، واسلم اليهودى .

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) « كرمان » : ولاية مشهورة ، وناحية كبيرة معبورة ذات بلاد وقرى ومدن واسمة بين فارس وكرمان وسجستان وخراسان . فتحت فى عهد عمر بن الخطاب (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٦٢) .

(٣) ورد بنصه فى طبقات الصوفية . (انظر ص ١١٨) .

وظل يعمل حدادا حتى صار الى باورد ، ورأى ابا عبد الله الباوردي ، وعاهده على أن يكون مريدا له . ولما عاد الى نيسابور كان هناك رجل خفيف يقرأ القرآن يوما بالسوق ، وكان قد جلس على باب دكانه ، فغلبه السماع وغاب عن نفسه ، وادخل يده في النار وأخرج حديدة محمأة دون ملط ، فلما رآه تلاميذه صاحوا قائلين : يا استاذ ، يدك ! يدك ! وزايلهم صوابهم ، فلما عاد أبو حفص الى حال صحوه ، كف يده عن الكسب ، ولم يأت أيضا الى الدكان .

ويرد عنه أنه قال : « تركت العمل ثم رجعت اليه ، ثم تركت العمل فلم أرجع اليه (١) » ، لأن كل شيء يكون تركه بتكلف العبد وكسبه ، تركه أولى من فعله في صحة هذا الأصل ، إذ أن جملة الاكتساب محل الآفة ، والقيمة للمعنى الذي يأتي من الغيب بلا تكلف ، وفي كل محل يحصل الاختيار ويتصل به العبد ، تزول عنه لطيفة الحقيقة .

اذن ، فالترك والأخذ لا يصحان أبدا على العبد ، لأن العطاء والزوال من الله تعالى وتقدس ، وبتقديره ، فإذا جاء العطاء من الحق ، جاء الأخذ ، وإذا جاء الزوال ، جاء الترك ، وإذا كان هكذا ، فالقيمة له لأن الأخذ والترك به ، لا أن العبد جالب ودافع لها بالاجتهاد .

وإذا قال المريد الى سنة بقبول الحق ، فانه لا يكون كما يقول الحق بقبوله لمحّة ، لأن الاقبال الذي لا يزال ، منعقد في القبول الازلي ، والسرور السرمدى في السعادة السابقة ، ولا سبيل للعبد الى الخلاص الا بخلوص عناية الحق . والعبد الكثير العزة هو الذي يدفع المسبب الاسباب عن حاله ، والله اعلم .

● ومنهم تدوة أهل الملامّة ، والراضى بالبلاء من السلامة : « أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصصار (٢) » رضى الله عنه ، كان من قدماء المشايخ ومتورعيهم ، وكان على أعلى درجة في الفقه والعلم ، وذهب بذهب الثوري .

وكان (في الطريقة) مريد أبى تراب النخشبى ، ومن أتباع على النصرابادى وله رموز رقيقة في المعاملات ، وكلام دقيق في المجاهدات .

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (أنظر ص ١١٨) ..

(٢) « أبو صالح حمدون » : شيخ أهل الملامّة في نيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامّة . توفي سنة احدى وسبعين ومائتين ، ودفن في مقبرة الحيرة . (أنظر ترجمته في : طبقات الصوفية ص ١٢٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٢ ، طبقات الشمرلانى ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٢١ ، نفحات الانس ص ٦٠ ، خزينة الأصفاء ج ٢ ص ١٦٠) .

ويروى أنه لما عظم شأنه في العلم ، جاءه أئمة وكبار نيسابور ، وقالوا له : ينبغي اعتلاء المنبر وعظة الخلق ليكون كلامك فائدة للقلوب . قال : لا يجوز لى الكلام . قالوا : لماذا؟ قال : لأن قلبي متعلق بالدنيا وجاهاها ، فلا يفيد كلامى ولا يؤثر في القلوب ، والكلام الذى لا يؤثر في القلوب يكون استخفافا بالعلم أو استهزاء بالشرعية . والكلام مسلم به لمن يكون في صمته خلل الدين ، فإذا تكلم ارتفع الخلل .

وسئل : ما بال كلام السلف أنفع للقلوب من كلامنا ؟ قال : « لأنهم تكلموا لعز الاسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفس ، وطلب الدنيا ، وقبول الخلق » (١) ، فمن تكلم وفق مراد الحق تعالى وينطق بالحق ، يكون في ذلك الكلام قهر وسطوة تؤثر على الأسرار ، ومن يتكلم وفق مراد نفسه ، يكون في كلامه من الهوان والذل ما لا يكون للخلق منه فائدة ، وصمته خير من كلامه ، فخير للمرء أن يتجنب الكلام .

وأنا أعرف أن ذلك العظيم قد دفعهم عن نفسه تركا للجاه والشهرة .

● ومنهم الشيخ ذوالوقار ، والمثرف على الخواطر والأسرار : « أبوالمسرى منصور بن عمار » (٢) رضى الله عنه ، كان من عظماء المشايخ في الدرجة ، ومن كبرائهم في المرتبة ، محبوبا من العراقيين ، ومقبولا من الخرسانيين . وكان أحسن الكلام في الموعظة كلامه ، والطف البيان بيانه ، وكان يعظ الناس بفنون العلم والروايات والدرابات والأحكام والمعاملات . وبعض المتصوفة يبالغون في أمره بمبالغة تفوق الحد .

يرد عنه أنه قال : « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب الزاهدين أوعية القناعة ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع » (٣) .

وفي هذا عبرة هي : أن الله تعالى أودع في كل عضو خلقه معنى متجانسا ، كما خلق الأيدي محل البطش ، والأرجل محل المشي ، والأعين محل النظر ، والأذان محل السمع ، واللسان محل النطق ، وهي لا تختلف كثيرا في ظهور هذه المعاني وخفائها . وأما القلوب ، فقد أودع في كل منها معنى

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر : ص ١٢٥) .
(٢) أسله من مرو ، من قرية « داندانقان » وقيل من « أبيسورد » وقيل من « بوشنج » . أقام بالسمرة ، وكان من أحسن الناس كلاما في الموعظة ، وأسند الحديث (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ١٣٠ ، الرسالة ج ١ ص ١٠١ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٢٥ ، تفحات الآس ص ٦١) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية على هذا النحو : « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل ، وقلوب الفقراء أوعية القناعة ، وقلوب المتوكلين أوعية الرضا » (انظر ص ١٣٥) .

مختلفا ، و ارادة مغايرة ، وهوى مختلفا : فجعل قلبا محلا للمعرفة ، وآخر موضعا للضلالة ، وثالثا موضعا للقناعة ، وهكذا . ولا شيء قط يكون فيه اعجوبة الخالق اظهر منها في القلوب .

ويرد عنه ايضا انه قال : « الناس رجلان : عارف بنفسه فشفله في المجاهدة والرياضة ، وعارف بربه فشفله بخدمته وعبادته ومرضاته » (١) ، فالعبادة رياضة للعارفين بانفسهم ، ورياسة للعارفين بالحق ، فهذا يعبد لينال درجة ، وذاك يعبد وقد نال كل شيء ، وشتان ما بين المنزلتين : عبد قائم بالمجاهدة ، وآخر قائم بالمشاهدة .

ويرد عنه انه قال : « الناس رجلان : مفتقر الى الله فهو في أعلى الدرجات على لسان الشريعة ، وآخر لا يرى الافتقار لما علم من فراغ الله من الخلق والرزق والاجل والحياة والسعادة والشقاوة ، فهو في افتقاره اليه واستغنائه به » (٢) ، فذاك الفريق في افتقاره ، محجوب عن رؤية التقدير برؤية الافتقار ، وهذا الفريق في تركه لرؤية افتقاره ، مكاشف ومستغن به ، فأحدهما مع النعمة ، والآخر مع المنعم ، فمن يكن مع النعمة في رؤية النعمة فهو فقير وان يكن غنيا ، ومن يكن مع المنعم ومشاهدته فهو غنى وان يكن فقيرا . والله أعلم .

● ومنهم ممدوح الأولياء ، وقدوة اهل الرضا : « أبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكي (٣) » رضى الله عنه ، كان من اعيان القوم وساداتهم ، وعالما بطولم الشريعة والاصول والفروع والمعاملات . عمر طويلا ، وصحب القدماء ، وأدرك اتباع التابعين . وكان من أقران بشر والسرى ، ومريد الحارث المحاسبى ، وكان قد رأى الفضيل وصحبه .

وكان ممدوحا بكل اللسن ، وله اقوال عالية ، ولطائف سامية في فنون علم هؤلاء القوم .

يرد عنه — رضى الله عنه — انه قال : « انفع الفقر ما كنت به متجملا ، وبه راضيا (٤) » . أى ان جمال الخلق جميعا في اثبات الاسباب ، وجمال الفقير في نفى الاسباب واثبات المسبب ، والرجوع اليه ، والرضا بأحكامه ،

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر ص ١٣٦) .
(٢) ورد في طبقات الصوفية مع اختلاف يسير في ترتيب الكلمات (انظر ص ١٣٥) .
(٣) من الطبقة الاولى من الصوفية ، ومن اساتذة أحمد بن أبي الحواري . وكان أبو سليمان الداراني يسميه : جاسوس القلب لحدّة فراسته (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ١٣٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٠ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١ ، نفعات الانس ص ٦٢) .
(٤) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر ص ١٣٨) .

لأن الفقر فقد السبب ، والفنى وجود السبب . وفائد السبب يكون مع الحق ، وصاحب السبب يكون مع نفسه . فصار السبب محل الحجاب ، وترك الاسباب محل الكشف ، وجمال الدنيا والآخرة فى الكشف والرضا ، وسخط كل العالم فى الحجاب .

وهذا بيان واضح فى تفضيل الفقر ، والله أعلم .

● ومنهم سالك طريق الورع والتقوى ، وهو فى الأمة بزهد يحيى : « أبو محمد عبد الله بن خبيق (١) » رضى الله عنه ، كان من زهاد القوم ومتورعيهم فى كل الأحوال ، وله روايات عالية فى الحديث .

وكان على مذهب الثورى فى الفقه والمعاملة وحقيقتها ، ورأى أصحابه وصحبهم ، وله فى معاملات هذه الطريقة أقوال لطيفة .

يرد عنه انه قال : « من أراد أن يكون حيا فى حياته ، فلا يسكن الطمع فى قلبه (٢) » ليتحرر من الكل ، لأن الطماع ميت فى قيد طمعه ، فالطمع فى القلب كالطمع على القلب ، والقلب المختوم ميت لا محالة ! بنح بنح للقلب الذى يموت عما سوى الحق ويحيا بالحق ، لأن الله تعالى خلق الذل ، والطمع ذل . وخلق الذكر ، والذكر عز .

كما قال أيضا : « خلق الله تعالى القلوب مساكن الذكر فصارت مساكن الشهوات ، ولا يحو الشهوات الا خوف مزعج أو شوق مقلق (٣) » ، فالخوف والشوق قائمتا الايمان ، وحين يكون القلب محل الايمان يكون قرينه النقاة والذكر ، لا الطمع والغفلة . فتلب المؤمن لا يكون طماعا ولا متابعا للشهوات ، لأن الطمع والشهوة نتيجة الوحشة ، والمستوحش لا علم له بالله ولا بالايمان ، لأن الايمان أنس بالحق ووحشة من غيره ، كما قيل : « الطماع مستوحش منه كل واحد » . والله أعلم .

● ومنهم شيخ المشايخ فى الطريقة ، وإمام الأئمة فى الشريعة ، « أبو المقاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد القواريرى (٤) » رضى الله عنه ، كان مقبولا لدى

(١) عبد الله بن خبيق بن سابق الأنطاكى — ولى طبقات الشمرانى : عبد الله ابن حنيف — من زهاد الصوفية . أصله من الكوفة ، ولكنه من النائلة الى انطاكية . وطريقته فى التصوف : طريقة النورى (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٤١ ، الرسالة ج ١ ص ٩٩ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣ ، نلحات الانس ص ٦٦) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية : « من أراد أن يعيش غنيا فى حياته فلا يسكن الطمع فى قلبه » (انظر ص ١٤٤) .

(٣) ورد بنمى فى طبقات الصوفية (انظر ص ١٤٤) .

(٤) سبق الإشارة اليه

اهل الظاهر وأرباب القلوب ، وكاملا في فنون العلم ، ومفتيا واماما لأصحاب
أبي ثور في الأصول والفروع والوصول والمعاملات . وله أقوال عالية واحوال
كاملة ، فكل اهل الطريقة متفقون على امامته ، ولا مجال لاعتراض واعراض
فيه لاى مدع او متصرف .

وكان ابن اخت السرى السقطى ومريده . سئل السرى يوما : هل يكون
لمريد درجة أعلى من درجة الشيخ ؟ قال : نعم ، وبرهان هذا ظاهر ،
فللجنيد درجة فوق درجتى . وكان هذا القول من ذلك الشيخ العظيم
تواضعا ، وما قاله قاله بالبصرة ، ولا رؤية لأحد لما فوقه ، فالرؤية
تتعلق بما تحت ، وقوله دليل واضح ، فقد رأى الجنيد فوق درجته ، وهو
وان رآه — حين رآه — فوق ، فهو تحت .

ومشهور أنه في حال حياة السرى قال المريدون للجنيد : فليكلنا الشيخ
ليكون في ذلك راحة لقلوبنا ، فلم يجبههم ، وقال : ما دام شيخى موجودا
فأنا لا أتكلم . الى أن كان نائما ذات ليلة فرأى النبى عليه السلام في النوم
يقول : يا جنيد ! كلم الخلق ، لأن كلامك سبب راحة قلوب الخلق ، وقد
صير الله تعالى كلامك سبب نجاة عالم . فلما استيقظ وقر في قلبه أن
درجته جاوزت درجة السرى ، وقال لقد جاءنى من الرسول صلوات الله
عليه الأمر بالدعوة . ولما كان الصباح ، أرسل السرى مريدا وقال له :
حينما يسلم الجنيد من صلاته ، قل له : أنك لم تتحدث الى المريدين بناء
على قولهم ، ورددت شفاعة شيوخ بغداد ، وأرسلت لك رسالة أيضا فلم
تتكلم . والآن قد أمرك الرسول عليه السلام فاطع أمره ! قال الجنيد رضى
الله عنه : فذهب ذلك خاطر من راسى ، وأدركت أن السرى في كل الاحوال
مطلع على ظاهرى وباطنى ، وأن درجته فوق درجتى ، لأنه مشرف على
أسرارى ، وأنا لا أعلم لى بأحواله . وذهبت اليه وطلبت منه المغفرة ،
وسألته : كيف عرفت أنى رأيت النبى عليه السلام في النوم ؟ قال : قد
رأيت الله تعالى وتقدس في النوم ، وقد قال لى : انى أرسلت الرسول
— عليه السلام — ليقول للجنيد : عظ الخلق ، ليتحقق منه مراد اهل
بغداد .

وفى هذه الحكاية دليل واضح على أن الشيوخ — بأى صفة يكونون —
مشرفون على أحوال مريديهم .

واللجنيد كلام عال ، ورموز لطيفة .

يرد عنه رضى الله عنه انه قال : « كلام الانبياء نبأ عن الحضور ، وكلام الصديقين اشارة عن المشاهدات » (١) ، فصحة الخبر من النظر ، وصحة المشاهدة من الفكر . ولا يمكن الاخبار الا عن عين ، والاشارة لا تكون عن عين ، فكمال ونهاية الصديقين ، بداية للانبياء . والفرق واضح بين الولي والنبي وتفضيل الانبياء على الاولياء ، خلافا لما ينزع اليه فريقان من الملاحدة ممن يؤخرون الانبياء في الفضل ويقدمون الاولياء .

ويرد عنه انه قال : تمنيت وقتا ما ان ارى ابليس — عليه اللعنة — وذات يوم كنت واقفا بباب المسجد ، فاذا بشيخ يقبل من بعيد متجها الى ، فلما رايتة احسست وحشة في قلبي ، فلما اقترب منى قلت : من انت ايها الشيخ ، اذ لا طاقة لعيني برؤية وجهك من الوحشة ، ولا طاقة لقلبي بالتفكير فيك من الهيبة ؟ قال : انا الذى تمنى مشاهدتى . قلت : يا ملعون ! ما منعك ان تسجد لادم ؟ قال : يا جنيد ! كيف تصور انى اسجد لغيره ؟ قتال الجنيد : فتحررت في كلامه ، فنوديت في سرى ان : « قل له : كذبت ، ولو كنت عبدا لما خرجت عن امره ونهيه . فسمع النداء من قلبي ، فصاح وقال : احرقتنى بالله ! وغاب » .

وفى هذه الحكاية دليل على حفظه وعصمته ، لان الله سبحانه وتعالى يحفظ اوليائه في كل الاحوال من كيد الشيطان .

ويرد عنه ان مريدا من مريديه مرض قلبه يوما وظن انه بلغ درجة ، فاعرض عنه ، وجاء ذات يوم لتجربته . وكان (الجنيد) بحكم اشرافه مطلعا على مراده . وسأله (المريد) سؤالا ، فقال له الجنيد : اتريد جوابا عباريا ام معنويا ؟ قال : كلاهما : فقال الجنيد : ان اردت العباري ، فلو انك جربت نفسك لما احتجت الى تجربتى ولما جئت الى هنا للتجربة . وان اردت المعنوى ، فقد عزلتك من ولايتك . فأسود وجه المريد في الحال وصاح : لقد ضاع من قلبي راحة اليقين ! وانشفل بالاستغفار ، وكف عن الفضول . وعندئذ قال له الجنيد : انك لم تعرف ان اولياء الله تعالى هم اولياء الاسرار ، ولا طاقة لك بتجربتهم . ونفخ عليه ، فعاد الى مراده ، وتاب عن التصرف في المشايخ رحمهم الله . والله اعلم .

● ومنهم ملك اهل التصوف ، والميرزا من آفة التكلف : « ابوالحسن احمد ابن محمد النورى (٢) » رضى الله عنه ، كان له احسن المعاملات وابين

(١) ورد في طبقات الصوفية : « كلام الانبياء نبأ عن حضور ، وكلام الصديقين

اشارات عن مشاهدات » . (انظر ص ١٦٢) .

(٢) سبق الاشارة اليه

الكلمات ، وأظرف المجاهدات . وله مذهب خاص في التصوف ، وتوجد
فرقة من المتصوفة يقال لها « النورية » يقتدون به ، ويقولونه .
وجملة المتصوفة اثنتا عشرة فرقة ، منهم فرقتان مردودتان ، وعشر
مقبولة .

وأولى الفرق المقبولة : المحاسبية ، والثانية : القُصَّارية ، والثالثة :
الطيفورية ، والرابعة : الجنيدية ، والخامسة النورية : والسادسة :
السهلية ، والسابعة : الحكيمة ، والثامنة : الخرازية ، والتاسعة :
الخفيفية ، والعاشر السيارية . وهؤلاء جملة من المحققين وأهل السنة
والجماعة .

أما الفرقتان المردودتان ، فواحدة منهما : الحلوية المستوية الى الحلول
والامتزاج ، واليهيم ينتمى السالبة والمشبهة . والآخرى : الحلاجيون
المردودون لتركهم الشريعة والحادهم ، واليهيم ينتمى الإباحيون والفارسيون .
وسوف أورد في هذا الكتاب — في موضعه — بابا في الفرق بين الفرق ،
وأبين اختلاف تلك الفرق العشر ، واختلاف هاتين الفرقتين ، لتتم الفائدة
إن شاء الله تعالى .

أما طريق (النورى) فكان محمودا في ترك المداهنة ، ورفع المسامحة ،
ودوام المجاهدة .

ويرد عنه أنه دخل على الجنيد ورآه جالسا في الصدر ، فقال له :
« يا أبا القاسم ! غششتهم فصدروك ، ونصحتهم فرموني بالحجارة » .
لأن المداهنة توافق الهوى ، والنصيحة تخالفه ، والإنسان يعادى من يخالف
هواه ، ويحب من يوافق به .

وكان أبو الحسن النورى رفيقا للجنيد ومريدا للسرى ، وقد رأى كثيرا
من المشايخ وصحبهم ، وأدرك صحبة أحمد بن أبى الحوارى .

وله في طريقة التصوف اشارات لطيفة وأقاويل جميلة ، وفي فنون العلم
نكت عالية .

يرد عنه أنه قال : « الجمع بالحق تفرقة عن غيره ، والتفرقة عن غيره
جمع به » (١) . أى أن كل من همته مجتمعة بالحق تعالى فهو مفترق عن
غيره ، وكل من هو مفترق عن غيره مجتمع به ، فجمع الهمة بالحق تعالى ،
افتراق عن التكثير في المخلوقات ، فإذا صح الاعراض عن المكونات ، صح

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر ص ١٦٦) .

الابتئال بالحق ، واذا صح الابتئال بالحق ، صح الاعراض عن الخلق ،
لأن الضدين لا يجتمعان .

وورد في الحكايات أن (النورى) فى وقت ما ، ظل يصرخ لمدة ثلاثة ايام
وليل فى بيته ، واقفا فى مكان واحد ! فأخبروا الجنيد ، فنهض وذهب اليه ،
وقال : يا ابا الحسين ! اذا كنت تعرف أن الصراخ يفيد معه ، فأخبرتنى
لأصرخ أنا أيضا ، وأن كنت تعرف أنه لا يفيد ، فأرض بالتسليم ليسعد
قلبك . فكف النورى عن الصراخ وقال : ما أحسنك معلما لنا يا ابا
القاسم !

ويرد عنه أنه قال : « أعز الأشياء فى زماننا شيئان : عالم يعمل بعلمه ،
وعارف ينطق عن حقيقة » (١) .

أى أن العلم والمعرفة كلاهما عزيزان فى هذا الزمان ، لأن العلم بلا عمل
لا يكون علما ، والمعرفة بلا حقيقة لا تكون معرفة . وقد دل الشيخ بهذا
الكلام على زمانه ، ولئن كان ذلك عزيزا فى كل الاوقات ، فهو اليوم أعز .
وكل من ينشغل بطلب عالم وأعارف تتشوش أوقاته ، ولا يجد (طلبته) ،
فيجب أن ينشغل المرء بنفسه ليرى كل العالم عالما ، وأن يرجع عن نفسه
الى الله ليرى كل العالم عارفا ، لأن العالم والعارف عزيزان ، والعزیز صعب
التمال ، والشئ الذى يصعب ادراكه ، طلبه اضاعة للعمر . فيجب طلب
العلم والمعرفة من نفسك ، والعمل والحقيقة من ذاتك .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « من عقل الأشياء بالله فرجوعه
فى كل شئ الى الله » (٢) ، لأن الإقامة ملك ، والملك بالمالك ، فالاستراحة
تكون فى رؤية المكون لا فى رؤية الكون ، لأن (العبد) اذا اعتبر الأشياء
علة للأفعال يتألم دائما ، ورجوعه الى كل شئ يكون منه شركا ، لأنه
يرى أسبابا للفعل ، والسبب لا يقوم بنفسه ، بل هو قائم بالسبب ،
فاذا رجع الى مسبب الأسباب ، نجا من الانشغال .

● ومنهم مقدم السلف ، والخلف من السلف :

« أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيرى » (٣) رضى الله عنه ، كان من
قدماء الصوفية واجلتهم ، والأوحد فى زمانه ، وقدره رفيع فى كل القلوب .

(٢٤١) وردا بنصها فى طبقات الصوفية (انظر ص ١٦٦) .

(٣) سعيد بن اسماعيل بن منصور الحيرى النيسابورى . أصله من الرى .
كان فى وقته أوحد المشايخ فى سيرته ، ومنه انتشرت طريقة التصوف بنيسابور ،
ومات بها سنة ثمان وتسعين ومائتين . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٧٠)
الرسالة ج ١ ص ١٠٩ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٦٩ ، تذكرة الأولياء ج ٢
ص ٥٥ ، نفحات الانس ص ٨٧) .

وكان قد صحب في البداية يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه ، ثم كان في صحبة شاه بن شجاع الكرمانى مدة ، وذهب معه الى نيسابور لزيارة أبى حفص الحداد ، فتوقف عنده ، وقضى عمرا في صحبته .

ويروى الثقة عنه انه قال : كان قلبى دائما يطلب الحقيقة في حال الطفولة ، وينفر من اهل الظاهر . وكنت اعتقد أن للشريعة ، لا محالة ، سرا غير الظاهر الذى تجرى عليه العامة ، حتى أدركت البلوغ . وكنت يوما بمجلس يحيى بن معاذ رضى الله عنه ، فأدركت ذلك السر ، وتحقق مقصودى ، فتعلقت بصحبته ، الى أن جاء جماعة من عند شاه بن شجاع وتحدثوا عنه ، فوجدت قلبى مائلا لزيارته . فقصدت كرمان من الرى ، وكنت أطلب صحبة (شاه) فلم ياذن لى ، وقال : ان طبعك ربيب الرجاء ، وقد صحبت يحيى ، وله مقام الرجاء ، والشخص الذى اشرب مشرب الرجاء لا يتأتى منه سلوك الطريقة ، لأن تقلد الرجاء يورث الكسل . فتضرعت اليه كثيرا وبكيت ، وأقمت عشرين يوما على اعتابه حتى اذن لى وقبلنى . ولبثت في صحبته مدة ، وكان رجلا غيورا ، الى أن خطر له قصد نيسابور لزيارة أبى حفص ، فذهبت معه . وفي اليوم الذى دخلنا فيه على أبى حفص كان شاه يلبس قباء ، فلما رآه أبو حفص نهض على قدميه ، وتقدم اليه وقال : « وجدت في القباء ما طلبت في العباء » . وبقيت هناك وقد استولت صحبة أبى حفص على كل همى ، ومنعتنى حشمة شاه بن شجاع من مداومة خدمته ، ورأى أبو حفص في تلك الإرادة . وكنت اتضرع الى الله أن ييسر لى صحبة أبى حفص دون أن يتأذى منى شاه بن شجاع ، الى أن قصد شاه العودة ، فانتعلت نعلى موافقة له ، وقلبى كله عند أبى حفص ، الى أن قال رضى الله عنه لشاه مباسطا : اترك صحبة هذا الصبى هنا ، لأنى مسرور منه . فالتفت شاه الى وقال : « أجب الشيخ » . ورحل هو ، وبقيت هنالك حتى رايت ما رايت من العجائب في صحبة أبى حفص رضى الله عنه ، وكان له مقام الشفقة .

وقد أجاز الله عز وجل أبا عثمان من ثلاثة مقامات بثلاثة شيوخ ، وهذه الاشارات الثلاثة التى أشار اليها في نفسه هى : مقام الرجاء بصحبة يحيى ابن معاذ ، ومقام الفيرة بصحبة شاه بن شجاع ، ومقام الشفقة بصحبة أبى حفص .

ويجوز أن يصل المرید الى المنزل بجمس أو بسمت أو بأحتر من هذه الصحبة ، ويصير كل شيخ وصحبة ، سبب كشف مقام له . ولكن الأفضل أن لا يشوب المشايخ بمقامه ولا يستهدف نهاياتهم في ذلك المقام ، ويقول : كان هذا نصيبى من صحبتهم ، ولكنهم كانوا فوق هذا ، ولم يكن لى منهم

نصيب اكثر من هذا ، ويكون هذا اقرب الى الادب ، لانه لا شأن ابدا
لبالغى طريق الحق بالمقامات والاحوال .

وكان (ابو عثمان) السبب في انتشار التصوف في نيسابور وخراسان .
وقد صحب الجنيد ورويا ويوسف بن الحسين ومحمد بن الفضل رحمة
الله عليهم . ولم يدرك اى من المشايخ من قلوب شيوخه ذلك الحظ الذى
أدركه .

وقد وضع له اهل نيسابور منبرا ليتحدث اليهم بلسان التصوف وله
كتب عالية ، وروايات متينة في فنون علم الطريقة .

ويرد عنه انه قال : « حق لمن اعزه الله بالمعرفة ان لا يذله بالمعصية » (١) .
ويكون تعلق هذا بكسب العبد ومجاهدته على دوام رعاية امور الحق .
واذا كان هنالك راي على هذا المعنى ، فهو : ان الله عندما يعز شخصا
بالمعرفة فانه لا يذله بالمعصية ، لان المعرفة عطاؤه ، والمعصية فعل العبد ،
ومن يعز بعطاء الحق لا يذل بفعل نفسه ، مثل آدم عليه السلام الذى
اعزه (الله) بالمعرفة ، ولم يذله بزلته .

● ومنهم : سهيل المعرفة ، وقطب المحبة :

« ابو عبد الله احمد بن يحيى بن الجلاء » (٢) رضى الله عنه . كان من
كبار القوم ، وسادات الوقت ، وصاحب طريق حسن وسيرة مرضية .
صحب الجنيد ، ورأى ابا الحسن النورى وجماعة من كبار الصوفية رضى
الله عنهم . وله كلام عال في الحقائق ، واشارات لطيفة .

يرد عنه انه قال : « هبة العارف الى مولاه فلم يعطف الى شىء سواه » (٣)
لانه لا يكون للعارف شىء قط غير معرفته ، فحين يكون رأس مال قلبه المعرفة
يكون مقصود هيته الرؤية ، لان تشتت الهم يثمر الهموم ، والهموم ترد
عن حضرة الحق .

ويحكى عنه انه قال : رايت ذات يوم نصرانيا حسن الوجه ، فتحريت
في جماله ، وتوقفت قبله ، فمر على الجنيد رحمه الله ، فقلت : يا استاذ !
لن يحرق الله تعالى مثل هذا الوجه بنار الجحيم ! فقال رضى الله عنه :

(١) ورد بنصبه في طبقات الصوفية (انظر ص ١٧٣) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) ورد في طبقات الصوفية : « سبت هم العارفين الى مولايم ، فلم تمك على

شىء سواه ، وسبت هم المريدين الى طلب الطريق اليه ، فأنفوا نفوسهم في الطلب .
(انظر : ص ١٧٩) .

يا بنى ! هذه سويقة النفس التى تحملك على هذا ، لا نظرة العبرة ،
لأنك اذا نظرت بالعبرة فى كل ذرة من الموجودات ، فهذه الاعجوبة موجودة .
ولكن سرعان ما تعذب بهذا الخرى ! قال : فلما انصرف عنى الجنيد نسيت
القرآن فى الحال ، وظللت سنوات اطلب العون من الله تعالى ، وتبت حتى
استعدت القرآن . والآن لا اجرؤ على الالتفات الى شئ او اضيع وقتى
فى النظر الى الأشياء .

● ومنهم : وحيد العصر وامام الدهر :

((أبو محمد رويم بن أحمد)) (١) رضى الله عنه ، كان من جملة اجلة المشايخ
وسادتهم ، ومن اصحاب سر الجنيد وأقرانه ، وعلى مذهب داود (٢) فقيه
الفقهاء رضى الله عنه .

كان ذا حظ وافر فى علم التفسير والقراءات ، ولم يكن فى ذلك الزمان
مثيله فى فنون العلم . وقد بلغ منزلته بعلو الحال ورفعة المقام والسفر
الطويل بالتجريد ، والرياضات الشديدة فى التفريد .

وفى آخر عمره اخفى نفسه بين اصحاب الدنيا ، واعتمد عليه فى القضاء ،
وكانت درجته اكمل من أن يحجب بذلك ، حتى قال عنه الجنيد : نحن
الفارغين مشغولون ، ورويم المشغول فارغ .

وله تصانيف فى هذه الطريقة فى السماع ، وبخاصة الكتاب الذى اسماه
« غلط الواجدين » ، وأنا مفتون به .

ويرد أن رجلا جاء اليه يوما وقال : « كيف حالك ؟ » فقال : « كيف حال
من دينه هواه ، وهيمته دنياه ، ليس بصالح تقى ، ولا بعارف تقى » (٣) .

وقد اشار بهذه الاشارة الى عيوب نفسه ، لأن الدين يكون لدى النفس
هوى ، ومتابعو النفس قد أسموا الهوى دينا ، ومتابعة الهوى ممارسة
للشرعية ، وكل من يكون على مرادهم وان يكن مبتدعا فهو لديهم دين ،
وكل من يسير على خلاف هواهم وان يكن متقيا فهو لديهم لا دين له .
وهذه الآفة شائعة فى زماننا ، فنعمود بالله من صحبة من تكون هذه صفته .
اما ذلك الشيخ فقد اشار على التحقيق الى زمان السائل . ويجوز

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) داود بن علي بن خلف : امام اهل الظاهر . ولد بالكوفة سنة مائتين أو اثنتين
ومائتين . كان أحد ائمة المسلمين وهداتهم ، واليه انتهت رئاسة العلم ببغداد .
أصله اصهبان ، ومولده بالكوفة ومنشؤه ببغداد وبها تبرزه . مات سنة سبعين
ومائتين . (طبقات الشافعية ج ٢ ص ٤٢ وما بعدها) .

(٣) ورد فى طبقات الصونية (انظر ص ١٨٤) .

ايضا انه — في تلك الحال — قد ترك لنفسه ، حتى عبر عن وصف وجوده وانصف صفته .

● ومنهم : بديع العصر ، ورنيع القدر :

« أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي » (١) رضى الله عنه . كان من كبار أئمة وقته ، وقدماء الشيوخ في زمانه . عمر طويلا ، وكان مريدا لدى النون المصرى ، وصحب كثيرا من الشيوخ وخدمهم جميعا .

يرد عنه انه قال : « أذل الناس الفقير الطموع ، والمحِبُّ لمحبوبه » (٢) . أى أن الفقراء الطماعين هم أذل الناس ، كما أن الفقراء الصادقين أشرفهم . والطمع يلتقى بالفقر في ذل الدنيا والآخرة ، لأن الفقراء أنفسهم حقراء في نظر أهل الدنيا ، فإذا طمعوا صاروا أحقر . فالغنى بالعز أتم من الفقر بالذل . والطمع ينسب الفقير الى الكذب الصرف .

ثم إن المحب كذلك ، يكون بالنسبة لمحبوبه أذل الخلق طرا ، لأن المحب يرى نفسه في مقابل محبوبه حقيرا ، وهو يتواضع له ، وهذا أيضا من نتائج الطمع ، وعندما ينقطع عنه الطمع يصير ذله كله عزا . وطالما كانت زليخا طامعة في يوسف ، كانت تزداد كل لحظة ذلا ، وعندما انقطع عنها الطمع ، رد الله تعالى إليها جمالها وشبابها .

وقد جرت السنة على أن اقتبال المحب يقتضى اعراض المحبوب ، فإذا كتم المحب المحبة في صدره ، وفرغ بصرف المحبة من الحبيب ، وسكن الى المحبة ، فلا محالة أن يقبل عليه الحبيب . والمحِبُّ عزيز في الحقيقة ما لم يطمع في الوصل ، وعندما يطمع فيه ولا يدركه يصير عزه ذلا . وكل محب لا يشغله وجود المحبة عن وصال الحبيب وفراقه ، تكون محبته معلولة .

● ومنهم : شمس سبأ المحبة ، وقدوة أهل المعاملة :

« أبو الحسن سمنون بن عبد الله الخواص » (٣) رضى الله عنه . كان

(١) شيخ الري والجيل في وقته . كان أوحداً في طريقته في استقاط الجاه وترك التصنع واستعمال الاخلاص . وكان عالماً ديناً . مات سنة أربع وثلثمائة . وروى الحديث . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ١٨٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٦ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢١٦ ، نفحات الأنس ص ٩٧) .

(٢) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ١٨٩) .

(٣) سمنون بن عبد الله : أبو الحسن الخواص ، ويقال كثيرون أبو القاسم . سمي نفسه سمنون الكذاب لكتبه عمر البول بلا تضرر . صاحب سرى السقطى ومحمد ابن على القصاب وأبا أحمد الغلاتسى وكان يتكلم في المحبة بأحسن كلام . من كبار مشايخ العراق . مات بعد الجئيد ، أى بعد سنة سبع وتسعين ومائتين (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ١٩٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٢ ، طبقات =

منتقطع النظر في زمانه ، وذا شأن عظيم في المحبة . وكان جميع المشايخ يعظمونه ويسمونهم « سمنون الحب » ، واسمى هو نفسه : « سمنون الكذاب » !

وقد عانى متاعب كثيرة من (غلام الخليل) (١) . فقد شهد عليه عند الخليفة بأشياء غير صحيحة ، وكان الشيوخ جميعا يتألمون لذلك .

وكان (غلام الخليل) هذا ، رجلا مرائيا ويدعى الزهد والتصوف . وصير نفسه — بمكره وشعوذته — معروفا عند الخليفة واهل السلطان ، وباع — مثل الكثيرين في عصرنا — الدين بالدنيا . وقد آلى على نفسه التشهير بالمشايخ وال دراويش لدى الخليفة ، وكان مراده أنه طالما هجر المشايخ ، ولم يتبرك بهم أحد ، بقى جاهه على حاله ! بنح بنح لسمنون وغيره من المشايخ الذين لم يتصد لهم أكثر من واحد بهذه الصفة ! واليوم ، في هذا الزمان ، يوجد لكل رجل محقق مائة ألف (غلام الخليل) ! ولكن لاضرير ، فالعقبان أولى بالجيف .

ولما كبر جاه سمنون في بغداد وتقرب كل شخص اليه ، تالم من ذلك (غلام الخليل) واخذ في اختلاق الأوضاع ، حتى وقعت عين امرأة على جمال سمنون ، وعرضت المرأة نفسها عليه ، فأبى . وذهبت هذه المرأة الى الجنيد قائلة : قل لسمنون أن يتزوجنى ، فغضب منها الجنيد وزجرها . فذهبت الى (غلام الخليل) واتهمت (سمنون) بتهمة مما تتهم به النساء الرجال ، واستمع (غلام الخليل) اليها كما يسمع الأعداء ، واخذ في السعاية ، وغير عليه الخليفة حتى أمر بقتله . فلما أحضروا السياف ، واستنؤذن الخليفة ، انعقد لسانه حين اصدار الأمر ! ولما جن الليل ، نام نمرأى في النوم من يقول له : ان زوال روح سمنون رهين بزوال ملكك ! وفي اليوم التالى اعتذر لسمنون ورده مكرما (٢) .

وله كلام عال واشارات دقيقة في حقيقة المحبة .

واتفق انه حين كان قادما من الحجاز ، أن قال له أهل قيد (٣) : حدثنا ، فاعتلى المنبر ، وكان يتحدث ولا مستمع له ، فالتفت الى القناديل وقال : انى اتحدث اليك ! فاصطكت كل تلك القناديل وتحطمت .

=الشمرائى ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٨٣ ، نفحات الانس ص ١٠٠ ، خزينة الأصفاء ج ٢ ص ١٧٢ .

(١) أحمد بن محمد بن خالد بن مرداس . ولد بالبصرة ، وتوفى ببغداد سنة ٢٦٢ هـ . كان مشهورا بالورع والتقوى ، لكنه كان مكروها من أهل مصره الذين رموه بالرياء (ميزان الاعتدال : ص ٦٦) .

(٢) وردت هذه الحكاية في اللبح ، وهنا بعض الاختلاف (أنظر اللبح ص ٤٩٨) .

(٣) « قيد » : هى المدينة التى ينزلها عمال طريق مكة ، وأهلها طيء ، وهى فى سفح جبالهم المعروف بسلمى (البلدان ص ٧٦) .

ويرد عنه ، رضى الله عنه ، انه قال : « لا يعبر عن شيء الا بما هو ارق منه ، ولا شيء ارق من المحبة فبمعبر عنها ؟ » (١) .

والمراد من هذا : ان العبارة منقطعة عن المحبة ، لان العبارات صفة المعبر ، والمحبة صفة المحبوب ، فعبارة هذا لا تستطيع ادراك حقيقة ذاك . والله اعلم بالصواب .

● ومنهم : سلطان الشيوخ ، ومن التغير عن عهده منسوخ :

« أبو الفوارس شهاب بن شجاع الكرمانى » (٢) ، رضى الله عنه . كان من ابناء الملوك ، وفريدا في عصره ، صاحب ابا تراب النخشبى ، وادرك كثيرا من المشايخ . وقد ذكر طرف من حاله في ذكر ابنى عثمان الحيرى .

وله في التصوف رسالات مشهورة ، وعمل كتابا يسمى « مرآة الحكماء » ، وله اقوال عالية .

ويرد عنه انه قال : « لاهل الفضل فضل مالم يروه ، فاذا راوه فلا فضل لهم ، ولاهل الولاية ولاية مالم يروها ، فاذا راوها فلا ولاية لهم » (٣) . والمراد من هذا القول انه حيثما يوجد الفضل والولاية تسقط عنهما الرؤية ، وعندما تحدث الرؤية يسقط معناهما ، لان الفضل صفة لا يراها الفضل ، والولاية صفة لا تراها الولاية . فاذا قال شخص : انا فاضل ، او : انا ولى ، فانه لا يكون فاضلا ولا ولى .

وورد في آثاره انه لم ينم لاربعين عاما ، وعندما نام رأى الله سبحانه وتعالى في النوم ، فقال : يا الهى ! كنت اطلبك بسهر الليل فرايتك في النوم ! فقال : يا شهاب ! لقد ادركت في النوم بغيتك بسهرك الليل ، ولو كنت نمت هنالك ، لما رايت هنا . والله اعلم .

● ومنهم سرور القلوب ونور الأسرار :

« عمرو بن عثمان المكي » (٤) رضى الله عنه . كان من كبراء اهل الطريقة وساداتهم ، وله تصانيف مشهورة في حقائق هذا العلم .

وكان ينتسب الى الجنيد بعد ان رأى ابا سعيد الخراز وصاحب النباجى ، وكان امام الوقت في الأصول .

(١) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ١٩٦) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ١٩٣) .

(٤) سبق الإشارة اليه .

يرد عنه أنه قال : « لا يقع على كيفية الوجد عبارة ، لأنه سر الله عند المؤمنين (١) » . وكل ما تستطيع عبارة العبد التصرف فيه لا يكون سرا للحق ، لأن كلية تكلف العبد منقطعة عن الأسرار الربانية .

ويقال انه حين جاء عمرو الى أصفهان ، اتصل بصحبته حدث ، وقد منعه أبوه من صحبة عمرو الى أن مرض . ومضت مدة ، ونهض الشيخ يوما وذهب لعيادته مع جماعة من الدراويش ، فأشار الحدث الى الشيخ ليقول للقول أن ينشد شعرا ، فقال عمرو للقول : انشد . فقال :

(شعر عربى)

مالى مرضت فلم يمدنى عايد منكم ويمرض عبدكم فاعود
فلما سمع المريض ، نهض وجلس ، وقل لهب المرض وسلطانها ، وقال :
زدنى . فأنشد القول :

واشد من مرضى على صدودكم وصدود عبدكم على شديد
فنهض المريض وقد زايه الله (٢) ، وأذن له والده بصحبة عمرو ، وتاب
عما كان يهجم في قلبه ، وصار ذلك الحدث من عظماء الطريقة .
● ومنهم : مالك القلوب ، وماحى العيوب :

« أبو محمد سهل بن عبد الله التستري » (٣) رضى الله عنه . كان امام
وقته ، مدوحا بكل اللسن ، وله رياضات كثيرة ، ومعاملات طيبة ، وكلام
لطيف فى الاخلاص وعبوب الأفعال .

ويقول عنه علماء الظاهر : « هو جمع بين الشريعة والحقيقة » .
وهذا خطأ ، لأن أحدا لا يفرق بينهما ، فالشريعة ليست سوى الحقيقة ،
والحقيقة ليست سوى الشريعة . وهم يقولون هذا بحكم أن عبارات ذلك
الشيخ أسهل فى الإدراك ، وأيسر فى الفهم على الطبائع . وبما أن الحق
تعالى قد جمع بين الحقيقة والشريعة ، فمحال أن يفرق بينهما أولياؤه .

(١) ورد فى طبقات الصوفية بتحريف بسيط (انظر ص ٢٠٢) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى طبقات الصوفية (انظر ص ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

(٣) سهل بن عبد الله بن يونس ، صاحب خاله محمد بن سوار ، وشاهد ذا النون
المصرى سنة خروجه الى الحج بمكة . توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين . (انظر
ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٠٦ ، الرسالة ج ١ ص ٨٢ ، طبقات الشمرانى
ج ١ ص ٦١ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٨ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٥١ ،
نجات الانس ص ٦٩ ، خزينة الاسماء ج ٢ ص ١٦٤) .

واذا حصل الفرق ، فلا محالة أن يتأتى رد واحدة منها وقبول الأخرى .
ورد الشريعة الحاد ، ورد الحقيقة شرك .

وهذا الفرق الذى يغرقونه ليس لتفريق المعنى ، بل لاثبات الحد ،
كقولك : « لا اله الا الله » ، فهذا حقيقة ، وقولك : « محمد رسول الله »
شريعة . واذا أراد أحد — فى حال صحة الايمان — أن يفصل بينهما ،
لا يستطيع ، وتكون ارادته باطلة .

وفى الجملة : الشريعة فرع الحقيقة ، كما أن المعرفة هى الحقيقة ،
وقبول الأمر بالمعروف : شريعة ، واهل الظاهر هؤلاء ينكرون ما لا يتفق
مع طباعهم ، والانتكار لأصل من اصول طريق الحق أمر خطير . والحمد
لله على الايمان .

ويرد عنه أنه قال : « ما طلعت شمس ولا غربت على وجه اهل الأرض
الا وهم جهال بالله ، الا من يؤثر الله على نفسه وروحه ودنياه وآخرته » (١) .

يعنى : أن كل من يعتقد أن له بدا فى نصيبه ، فذلك دليل على أنه
جاهل بالله عز وجل ، لأن معرفته تقتضى ترك التدبير ، وترك التدبير تسليم ،
واثبات التدبير من الجهل ، والله أعلم .

● ومنهم اختيار اهل الحرمين ، ولجملة المشايخ قرة العين :

« أبو عبد الله محمد بن الفضل الباخي » (٢) رضى الله عنه . كان من
جملة الشيوخ ، ومرضيا لدى اهل العراق وخراسان ، ومريدا لأحمد ابن
خضرويه . وكان لأبى عثمان الحيرى ميل عظيم اليه .

وقد أخرجه المتعصبون من بلخ لايتقتان الناس بمذهبه ، فصار الى
سمرقند (٣) ، وقضى هناك عمره .

يرد عنه أنه قال : « أعرف الناس بالله ، أشدهم مجاهدة فى أوامره ،
وأتبعهم لسنة نبيه » (٤) .

(١) ورد فى طبقات الصوفية : « ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض
الا وهم جهال بالله ، الا من يؤثر الله على نفسه وزوجه ودنياه وآخرته »
(انظر ص ٢٠٧) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) « سمرقند » : من أجل البلدان وأعظمها قدرا وأشدّها امتناعا . انفلت
سمرقند بعد أن انتحنت عدة مرات لمنعتها وشجاعة رجالها وشدة إبطالها .
انتقمها قتيبة بن مسلم الباهلى فى أيام الوليد بن عبد الملك وصالح ملوكها
(البلدان ص ٥٨) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٢١٤) .

وكل من يكون أقرب الى الحق ، يكون أحرص على اتباع أوامره ،
وكل من يكون أبعد عنه يكون أبعد عن متابعة رسوله ، وأشد اعراضا .

ويرد عنه أنه قال : « عجبت ممن يقطع البوادي والقفار والمفاوز حتى
يصل الى بيته وحرمه ، لأن فيه آثار أنبيائه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه
حتى يصل الى قلبه لأن فيه آثار موله » (١) .

أي أن القلب ، وهو محل المعرفة ، أعظم من الكعبة وهي قبلة الخدمة .

والكعبة هي ما يكون اليه نظر العبد دائما ، والقلب ما يكون اليه نظر
الحق دائما — حيثما يكون قلب الحبيب فأنا هناك ، وحيثما يكون حبه
فمرادى هناك ، وحيثما يكون أثر أنبيائي ، فقبلة أحيائي هناك — والله
أعلم .

● ومنهم : الشيخ ذو الخطر ، والفاتى عن أوصاف البشر :

« أبو عبد الله محمد بن علي الترمذى » (٢) رضى الله عنه . كان كاملا
واماما في فنون العلم ، ومن الشيوخ المحتشمين ، وله تصانيف كثيرة طيبة ،
وكرامات مشهورة . مثل كتاب : « ختم الولاية » ، وكتاب « النهج » ،
وكتاب « نواذر الأصول » . وقد عمل كتباً أخرى كثيرة غير هذه . وهو
معظم لدى جدا لأن قلبى صيد له ، وكان شيخى يقول : « محمد در يتيم » ،
اذ لا قرين له في العالم كله .

وله كتب في علوم الظاهر ، واسناد عال في الأحاديث . وكان قد بدأ
تفسيرا ، فلم يف العبر باتمامه ، وهو منتشر بين أهل العلم بالقدر الذى
عمله .

وكان قد قرأ الفقه على واحد من خواص أصحاب أبى حنيفة . ويسمونه
في ترمذ (٣) : محمد الحكيم ، ويقتدى به الحكيمية من المتصوفة . وله مناقب
كثيرة ، منها أنه كان قد صحب الخضر عليه السلام .

ويروى مريده أبو بكر الوراق الترمذى أن الخضر كان يأتى اليه كل
يوم أحد ، وكانا يتساءلان الوقائع .

(١) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ٢١٤) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) « ترمذ » : مدينة مشهورة . راجعة على نهر جيحون من جانبه الشرقى . واشهر
من أخرجتهم من الملاء أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، الترمذى الضعيف ،
صاحب الصحيح . أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في الحديث (معجم البلدان ج ١
ص ٨٤٣) .

ويرد عنه أنه قال : « من جهل أوصاف العبودية ، فهو بنفوت الربانية أجهل » (١) . أى : كل من لا يصل الى معرفة النفس وهى مخلوقة ، فانه لا يصل الى معرفة الحق تعالى وهو الخالق ، وكل من لا يرى آفات الصفة البشرية ، أنى له أن يرى لطائف صفات الربوبية ؟! لأن الظاهر يتعلق بالباطن ، وكل ما يتعلق بالظاهر دون الباطن ، محال . وكل ما يتعلق بالباطن دون الظاهر ، محال . فأوصاف الربوبية منعقدة فى صحة أركان العبودية ، ولا تصح بغيرها .

وهذه الكلمة أصيلة جدا ومفيدة ، وسنتمها فى موضعها ان شاء الله عز وجل .

● ومنهم : شرف زهاد الأمة ، ومزكى أهل الفقر والصفوة :

« أبو بكر محمد بن عمر الوراق » (٢) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ وزهادهم ، رأى أحمد بن خضرويه ، وصحب محمد بن على ، وله كتب فى الآداب والمعاملات . وقد دعاه المشايخ رحمة الله عليهم : « مؤدب الأولياء » .

ويحكى عن محمد بن على الحكيم فيقول : أعطانى كراسة قائلا : ألقها فى جيحون (٣) ! فلم يطعننى قلبى ، وأخفيتها فى منزلى ، وجئته وقلت : ألقيتها . فقال : ماذا رايت ؟ قلت : لم أر شيئا . قال : لم تلقها ، عد وألقها فى البحر . فرجعت وقد استحوز وسواس ذلك البرهان على قلبى ، وألقيتها فى الماء ، فانشق الماء وظهر صندوق مفتوح ، فلما وقعت فيه أغلق الغطاء . فعدت ورويت له ما حدث ، فقال : الآن ألقها . وقلت : أيها الشيخ ! ما سر هذا ؟ حدثنى به . قال : كنت قد صنفت تصنيفا فى الأصول والتحقيق ، يعجز الفهم عن ادراكه ، فطلبه منى أخى الخضر عليه السلام ، فأمر الله تعالى الماء أن يوصله اليه .

ويرد عنه أنه قال : « الناس ثلاثة : العلماء والفقراء والأمراء . فإذا فسد العلماء ، فسد الطاعة ، وإذا فسد الفقراء ، فسد الأخلاق ، وإذا فسد الأمراء ، فسد المعاش » (٤) .

(١) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٢١٩) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) « جيحون » (نهر) : وهو اسم أعجمى . سعى بذلك لاجتياحه الأرضين . وقال ابن الفقيه يجرى جيحون من موضع يقال له « ريوساران » وهو جبل يتصل بتاحية السند والهند وكابل ، ومنه عين تخرج من موضع يقال له « عنديميس » (مجمع البلدان ج ٢ ص ١٧١) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية : « الناس ثلاثة : العلماء والأمراء والفقراء . فإذا فسد الأمراء فسد المعاش ، وإذا فسد العلماء فسد الطاعات ، وإذا فسد الفقراء فسد الأخلاق » (انظر ص ٢٢٢) ، وورد فى طبقات الشعرانى باختلاف فى ترتيب الفئات (انظر ج ١ ص ٧٣) .

فساد الأمراء والسلاطين يكون بالجور ، وفساد العلماء يكون بالطمع ، وفساد الفقراء يكون بالرياء . وما لم يعرض الملوك عن العلماء ، لا يفسدون . وما لم يصحب العلماء الملوك ، لا يفسدون . وما لم يطلب الفقراء الرياسة — بمعنى العظمة — لا يفسدون ، لأن جور الملوك من الجهل ، وطمع العلماء من عدم التدين ، ورياء الفقراء من عدم التوكل . فالأمر بلا علم ، والعالم بلا تقوى ، والفقير بلا توكل ، كلهم أقران الشيطان ، وفساد الخلائق جميعا مرتبط بفساد هذه الطوائف الثلاث .

● ومنهم : سفينة أهل التوكل والرضا ، وسالك طريق الفناء :

« أبو سعيد بن عيسى الخراز » (١) رضى الله عنه . وكان لسان أحوال المريدين ، وبرهان أوقات الطالبين ، وأول من عبر عن مقام الفناء والبقاء . وله مناقب مشهورة ، ورياضات ونقاط مذكورة ، وتصانيف متألثة ، وكلام ورموز عالية . وقد صحب ذا النون المصرى وبشرا الحافى ، والنرى السقطى .

ويرد عنه أنه قال فى قول النبى عليه السلام : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها » (٢) : وأعجبا لمن لم ير محسنا غير الله ، كيف لا يميل بكليته الى الله » (٣) . لأن الاحسان على الحقيقة هو ما يفعله مالك الأعيان . والاحسان هو عمل الخير لمن يكون فى حاجة الى ذلك الخير ، ومن يلزمه الاحسان من الغير ، كيف يستطيع الاحسان ؟

أى أن الملك والملك لله جل جلاله ، لأنه مستغن عن الغير ، وجميع أهل الدنيا والآخرة وما فى الكونين محتاجون اليه ، ولما عرف أحبباء الحق هذا المعنى ، راوا المنعم والمحسن فى الانعام والاحسان ، فصارت تلوهم بكليتها أسيرة لمحبهه ، وأعرضوا عن غيره . والله أعلم .

● ومنهم : شاهد المحققين ، ودليل المريدين :

« أبو الحسن على بن محمد الأصفهاني » (٤) رضى الله عنه . ويقال له

(١) من أهل بغداد ، صحب ذا النون المصرى وأبا عبد الله النجاشى وأبا مبيد البهرى . مات سنة تسع وسبعين ومائتين (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٢٨ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٩ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٧٣ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٤٠ ، نفحات الانس ص ٧٣) .

(٢) رواء ابن عدى فى الكامل ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها . ويفض من أساء إليها » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٤٦) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٢٢١) .

(٤) على بن سهل بن الأزهر . من قدماء مشايخ أصفهان . صحب محمد بن يوسف ابن معدان المعروف بالبناء المتوفى سنة ست وثمانين ومائتين (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٣٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٢ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١٠ ، نفحات الانس ص ١٠٣) .

ابضا : « على بن سهل » . كان من كبار المشايخ . وللجنيد معه مكاتبات
لحيفة . وقام عمرو بن عثمان بزيارته في اصفهان .

وكان محفوظا من الفتن والآفة ، وذا لسان طيب في الحقائق والمعاملات
وبيان لطيف في الدقائق والاشارات .

يرد عنه انه قال : « الحضور افضل من اليقين ، لان الحضور وطنات ،
واليقين خطرات » (١) . لان الحضور متوطن القلب ولا تجوز عليه الغيبة ،
واليقين خاطر يرد حيناً ويذهب حيناً ، فالحاضرون يكونون في الحضرة ،
والموقنون على الاعتاب . وسأورد بابا في الغيبة والحضور في هذا الكتاب .

وقال رحمة الله عليه : « من وقت آدم الى قيام الساعة ، الناس يقولون :
القلب ، القلب ، وانا احب ان ارى رجلا يصف ايش القلب أو كيف القلب ،
فلا ارى » (٢) .

والعوام يسمون تلك القطعة من اللحم : القلب ، وتلك تكون للمجانين
والصبية والاطفال والمفلوبين ، ولكنهم بلا قلب . فما هو القلب ، فاننا
لا نسمع عنه الا العبارة .

اى : اذا اسمينا العقل القلب ، فذلك ليس القلب ، واذا كنا ندعو
الروح قلبا ، فذلك ليس القلب . واذا قلنا للعلم القلب ، فهو ليس بالقلب .
وقيام كل شواهد الحق بالقلب ، ولا يوجد منه سوى العبارة .

● ومنهم : شيخ اهل التسليم ، وفي المحبة : المستقيم :
« ابو الحسن محمد بن اسماعيل » (٣) : (خير النساج) رضى الله عنه .
كان من كبار المشايخ في وقته ، وذا معاملة وبيان حسن في المعطات ،
وعبارة مهذبة في الاشارات . عمر طويلا ، وتاب الشبلى وابراهيم الخواص
كلاهما في مجلسه ، وبعث بالشبلى الى الجنيد ، حفاظا على حرمة الجنيد
رضى الله عنه .

وكان مريدا للسرى ، ومن اقران الجنيد ، وأبى الحسين النورى ، وكان
الجنيد يحترمه كثيرا ، وقد اجازه أبو حمزة البغدادي .

(١) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ٢٣٤) .

(٢) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ٢٣٥) .

(٣) أصله من « سامرا » وأقام ببغداد . صاحب أبا حمزة البغدادي . وكان من اقران
النورى وطبقته . عمر مائة وعشرين سنة ، وتوفى سنة اثنين وعشرين وثلثمائة
(انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٢٢٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٥ ، وفيات
الاعيان ج ١ ص ١٧٥ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٨٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢
ص ١١١ ، نفحات الانس ص ١٣٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٧) .

ويروى أن السبب في تسميته بخير النساج ، أنه عندما خرج من موطنه « سامرا » (١) قاصدا الحج ، مر بالكوفة ، فأمسك به مكار على باب الكوفة ، وقال له : أنت عبدى ، واسمك خير . فرأى ذلك من الحق ، ولم يخالفه . وظل سنوات طويلة يقوم له بالعمل ، وكلما كان يقول له : يا خير ! يقول : لبيك ، الى أن ندم الرجل على فعلته ، وقال له : اذهب ، لقد أخطأت ، ولست عبدى ! فذهب ، وصار الى مكة ، وبلغ تلك الدرجة التى قال معها الجنيد : « خير خيرنا » .

وكان أحب اليه أن يدعى خيرا ، ويقول : لا يجوز أن أغير اسما اسمائى به رجل مسلم .

ويقال انه حين اقتربت وفاته ، حان وقت الصلاة ، فلما أفاق من غشية الموت ففتح عينيه ونظر نحو الباب ، وقال رضى الله عنه : « قف عافاك الله ، فانما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور . وما أمرت به لا يفرتك ، وما أمرت به فهو شيء يفوتنى ، فدعنى امضى فيما أمرت ثم امض بما أمرت » (٢) .

أى : دعنى أؤدى صلاة العشاء لأتضى أمر الحق ، لأتركك أنا ايضا تؤدى أمر الحق . ثم طلب الماء وتوضأ ، وصلى صلاة العشاء ، وأسلم الروح . رحمة الله عليه .

وقد رآه بعضهم فى النوم فى تلك الليلة ، فقيل له : ما فعل بك الله عز وجل ؟ قال رحمه الله : « لا تسألنى عن هذا ، ولكن استرحت من دنياكم » (٣) .

ويرد عنه أنه قال فى مجلسه : « شرح الله صدور المتقين بنور اليقين وكشف بصائر الموقنين بنور حقائق الايمان » (٤) ، فحيثما يكن الايمان يكن اليقين ، وحيثما يكن اليقين تكن التقوى ، لأنهما قرينا أحدهما الآخر ، وكل واحد منهما تابع للآخر .

(١) « سامرا » : تخفيف « سر من رأى » وهى وبغداد مدينتا الملك ودار الخلافة . كانت صحراء من أرض الطبرهان لا عمارة بها ولا أنيس فيها الا دير للنصارى اشترى أرضه المتصم المباسى سنة احدى وعشرين ومائتين وبنى المدينة وخط القطائع للقواد والكتاب والناس وخط المسجد الجامع والأسواق ، وأورد قطائع الأتراك عن قطائع الناس وأورد لكل مهنة مكانا وأخذ يزيد فى البقاء حتى توفى سنة سبع وعشرين ومائتين وولى الخلافة الواثق فزاد من عمرائها وسكنها من جاء بعده من الخلفاء (انظر : البلدان ص ٢٢ - ٢٥) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية بتحريف طفيف (انظر ص ٢٢٢) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية « استرحت من دنياكم الوضرة » (انظر ص ٢٢٢) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية « شرح صدور المتقين ، وكشف بصائر المهتدين بنور حقائق الايمان » (انظر ص ٢٢٤) .

● ومنهم : داعى العصر ، وفريد الدهر :

« أبو حمزة الخراسانى » (١) رضى الله عنه ، كان من قدماء مشايخ خراسان ، صاحب ابا تراب ، وراى الخراز . وكان ذا قدم ثابتة فى التوكل .

ومن المشهور فى الحكايات انه كان يسير يوما فى طريق ، فوقع فى بئر ، وظل بها ثلاثة ايام وليال ، ف جاء جماعة من السيارة الى البئر ، فقال لنفسه ، اناديهم ، ثم قال : لا ، لا يحسن ان استعين بغير الحق ، وهذه تكون شكاية اشكوها اليهم ، فكانى اقول : ان الله تعالى اوقعنى فى البئر فاخرجونى ! ولما اقتبلوا وراوا بئرا فى وسط الطريق بلا جائل وحاجز ، قالوا : تعالوا نغط رأس هذه البئر لكيلا يقع فيها أحد . قال : فاضطربت ويئست من حياتى . فلما احكموا فوهة البئر ومضوا ، ناجيت الحق تعالى ، ووطنت قلبى على الموت ، ويئست من الخلق جميعا . فلما حل الليل ، سمعت صوتا من رأس البئر ، فلما امعنت النظر ، نزع شخص الغطاء عن البئر ، فرأيت حيوانا ضخما ، فامعنت النظر ، فكانت حية دلت بذيلها ، فادركت ان نجأتى فى ذلك ، وانها رسول الحق تعالى وتقدس ، فتعلقت بذيلها حتى اخرجتنى . وهتف بى هاتف : يا ابا حمزة ! ما احسنها نجاة نجاتك هذه ، فقد نجيناك من التلف بالتلف (٢) .

وسئل : من الغريب ؟ قال : « المستوحش من الالف » (٣) ، اذ لا وطن للفقير فى الدنيا والعقبى ، والالفة فى غير الوطن وحشة ، ومن تنقطع الفتة من الكون مستوحش من الجميع ، ومن ثم يكن غريبا .

وهذه درجة رفيعة ، والله اعلم .

● ومنهم : داعى المريدين بحكم الامر :

« أبو العباس أحمد بن مسروق » (٤) رضى الله عنه . كان من كبار واجلة خراسان ، وكان باجماع اولياء الله عز وجل من اوتاد الأرض ، وقد صاحب القطب المدار عليه .

(١) اصله من نيسابور منحلة لمقاباد . صاحب مشايخ بغداد ، وهو من اقربان الجنيد ، ومن اقربى المشايخ وأورعهم ، مات سنة تسعين ومائتين (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٢٦ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٧ ، طبقات الشجرانى ج ١ ص ٨٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١١٢ ، نلحات الانس ص ٧٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٦) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى الرسالة القشيرية مع اختلاف فى ان الذى نجاه : « سبع » (انظر ج ١ ص ٢٨٠) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٢٢٦) .

(٤) اسمه : أحمد بن محمد بن مسروق . من اهل طوس ، وسكن بغداد ، ومات بها . توفي سنة تسع وتسعين ومائتين . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٢٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٢١ ، طبقات الشجرانى ج ١ ص ٧٤ . تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١١٥ ، نلحات الانس ص ٨٩) .

سئل : من القطب ؟ قال : لم يظهر ، ولكن يبدو من الإشارة أنه الجنيد
رضي الله عنه ، فقد خدم أربعين من أصحاب التمكن وافتاد منهم ، وكلن
فارسا في علوم الظاهر والباطن .

ويرد عنه أنه قال : « من كان سروره بغير الحق ، فسروره يورث الهموم ،
ومن لم يكن أنسه في خدمة ربه ، فانه يورث الوحشة (١) » .

أي أن كل ما سواه فناء ، وكل من يسر بالفناء فانه عندما يفنى الفناء
يفتقر . وكل ما سوى خدمته هباء ، وعندما تظهر حقارة المكونات يصير
أنسه كله وحشة ، ففهم كل العالم ووحشته في رؤية الغير ، والله أعلم .

● ومنهم أستاذ المتوكلين ، وشيخ المحققين : « أبو عبد الله محمد بن
إسماعيل المغربي (٢) » رضي الله عنه . كان من كبار ومقدمي وقته ، ومقبول
الاستاذة في زمانه ، ومراعيا لمريديه .

وكان إبراهيم الخواص وإبراهيم بن شيبان كلاهما من مريديه . وله
كلام عال وبراهين واضحة ، وقدم راسخة في التجريد .

ويرد عنه أنه قال : « ما رأيت شيئا أنصف من الدنيا ، أن خدمتها
خدمتك ، وأن تركتها تركتك (٣) » .

أي أنها تطلبك مادمت تطلبها ، وإذا أعرضت عنها واقبلت على خدمة
الله تعالى تفر منك ، ولا يتعلق فكرها بقلبك ، فكل من يعرض بصدق عن
الدنيا يأمن شرها ، وينجو من آفتها ، أن شاء الله تعالى .

● ومنهم : شيخ زمانه ، وأوحد عصره وأوانه : « أبو علي الحسن بن
علي الجوزجاني (٤) » رضي الله عنه . كان منقطع النظر في وقته ، وله
تصانيف زاهرة في علم المعاملات ورؤية الآفات .

(١) ورد في طبقات الصوفية : « من لم يكن أنسه في خدمة ربه فهو من أنسه في وحشة »
(انظر ص ٢٤١) .

(٢) أبو عبد الله المغربي : صاحب علي بن رزين . وعاش ، كما قيل ، مائة وعشرين
سنة ، ومات على جبل طور سيناء ، وقبره عليه ، مع قبر أستاذه علي بن رزين .
مات سنة تسع وتسعين ومائتين (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٢٤٢ ،
الرسالة ج ١ ص ١٣٠ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٧٤ ، تذكرة الأولياء ج ٣
ص ١١٦ ، نفحات الانس ص ٩٠) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية (انظر ص ٢٤٣) .

(٤) ورد في الأصل : أبو علي الحسن بن علي « الجرجاني » . وورد في طبقات الصوفية :
« أبو علي الجوزجاني » ، وفي نفحات الانس : « أبو العلي الجوزجاني » : من
كبار مشايخ خراسان . له التصانيف المشهورة . تكلم في علم الآفات والرياضات
المجاهدات ، صاحب محمد بن علي الترمذي (٢٨٥ هـ) ومحمد بن الفضل (٣١٩ هـ)
وهو قريب السن منها . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٢٤٦ ، طبقات الشمراني
ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١٨ ، نفحات الانس ص ١٢٨) .

وكان مريد محمد بن على ، ومن أقران أبى بكر الوراق . وكان ابراهيم السمرقندى مريدا له .

يرد عنه انه قال : « الخلق كلهم فى ميادين الغفلة يركضون ، وعلى الظنون يعتمدون ، وعندهم أنهم فى الحقيقة يتقلبون ، وعن المكاشفة ينطقون (١) » .

وكانت اشارة الشيخ الى خيلاء الطبع ورعونة النفس ، لأن الشخص وان يكن جاهلا فانه يعتقد فى جهله ، وبخاصة جهال المتصوفة . وكما ان علماءهم اعز ما خلق الله ، فجهالهم اذل ما خلق الله ، فما يكون لعلمائهم حقيقة يكون لجهالهم ظنا لا حقيقة . وهم يرتعون فى ميدان الغفلة ويخالونه ميدان الولاية ، ويعتمدون على الظن ويخالونه يقينا ، ويسيرون مع الرسم ويظنونهم حقيقة ، وينطقون عن الهوى ويتوهمون انه المكاشفة ، لأن الظن لا يفارق رأس الآدمى الا برؤية جلال الحق وجماله ، لانه فى اظهار جماله يرويه كل شىء فيفنى ظنهم ، وفى كشف جلاله لا يرون انفسهم فيتبدد ظنهم ، والله اعلم .

● ومنهم : باسط العلوم ، وواسط الرسوم : « ابو محمد احمد بن الحسين الجريرى (٢) » رضى الله عنه . كان من اصحاب سر الجنيد ، وأدرك صحبة سهل بن عبد الله . وكان خبيرا فى مختلف العلوم ، وامام الوقت فى الفقه ، وعلى علم جيد بالاصول ، وبلغ فى طريقة التصوف درجة جعلت الجنيد يطلب منه أن يؤدب مريديه ، ويشرف على رياضاتهم . وكان بعد الجنيد ولى عهده الذى خلفه .

ويرد عنه انه قال : « دوام الايمان وقوام الاديان وصلاح الابدان فى خلال ثلاث : الاكتفاء ، والانتقاء ، والاحتفاء . فمن اكتفى بالله صلحت سريرته ، ومن اتقى ما نهى الله عنه استقامت سيرته ، ومن احتفى ما لم يوافقه ارتاضت طبيعته ، فثمرة الاكتفاء صفوة المعرفة ، وعاقبة الانتقاء حسن الخليفة ، وغاية الاحتفاء اعتدال الطبيعة (٣) » .

أى أن كل من يكتفى بالله : تصفو معرفته ، وكل من يستمسك بالمعاملة : يحسن خلقه فى الدنيا والآخرة ، كما قال النبى عليه السلام : « من أكثر

(١) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٢٤٨) .

(٢) أبو محمد الجريرى : يقال أن اسمه : أحمد بن محمد بن الحسين . مات سنة احدى عشرة وثلثمائة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٥٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٣ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٢٢ ، نجات الانس ص ٣٩١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٦) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية : « قوام الاديان ، ودوام الايمان ... الخ » (انظر ص ٢٦٢) .

صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار (١) . و في خبر آخر ان المتقين يأتون يوم القيامة « ووجوههم نور على منابر من نور » . وكل من يسلك طريق الاحتماء : يحفظ جسده من العلة ، ونفسه من الشهوة .

وهذه اقوال جامعة وحسنة ، والله أعلم .

● ومنهم : شيخ الظرفاء ، وقدوة الأصفياء : « أبو العباس أحمد بن سهل الأنمي » (٢) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ وأكثرهم حشمة ، مبجلا بين أقرانه ، وعالما بعلوم التفسير والقراءات ، وكان ذا بيان في فهم القرآن ولطائفه ، اختص به .

وكان من كبار مريدي الجنيد ، وصحب إبراهيم المارستاني . وكان أبو سعيد الخراز يجله كثيرا ، ولا يسلم لأحد غيره بالتصوف .

ويرد عنه أنه قال : « السكون الى مآلوفات الطبع يقطع صاحبها عن بلوغ درجات الحقائق (٣) » .

أى أن كل من يسكن الى مآلوفات الطبع يتخلف عن الحقيقة ، لأن الطباع أدوات النفس وآلاتها ، والنفس محل الحجاب ، والحقيقة محل الكشف ، والمريد المحجوب والساكن لا يكشف أبدا ، فادراك الحقائق منعقد في الأعراض عن مآلوفات الطباع . والطبع يألف اثنتين ، أحدهما : الدنيا وأخواتها ، والأخرى : العقبي وأحوالها ، فهو يألف الدنيا بحكم الجنسية ، ويألف العقبي بحكم الظن . والفه يكون مع وهم العقبي لا مع عين العقبي ، لأنه لو عرفها حق المعرفة ، لانتقطع عن هذه الدار الفانية ، وإذا ما انتقطع عن هذه (أى الدنيا) تفنى ولاية الطبع ، ومن ثم يكون كشف انحقاق ، لأنه لا صلة لتلك الدار (أى العقبي) بالطبع الا بفناء الطبع ، « لأن فيها مالا خطر على قلب بشر » . وخطر العقبي في أن طريقها مملوء بالخطر ، وكل ما يخطر في الخواطر ليس فيه كثير خطر . ولما كان الوهم عاجزا عن معرفة حقيقة العقبي ، فكيف يكون للطبع الف مع عينها ؟

أذن ، فقد صح أن الف الطبع يكون مع وهم العقبي ، والله أعلم .

● ومنهم : مستغرق المعنى ، ومستهلك الدعوى : « أبو مفيت الحسين

(١) رواه ابن ماجه عن جابر : « من كثرت صلاته » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣١٤) .

(٢) هو أبو العباس بن عطاء : سبق الإشارة اليه .

(٣) ورد في طبقات الصوفية (انظر : ص ٥٧٢) .

ابن منصور الحلاج (١) « رضى الله عنه ، كان من سكارى هذه الطريقة ومشتاقياها ، وإذا حال قوى وهمة عالية .

ومشايع هذه الطريقة مختلفون في شأنه ، فهو مردود عند طائفة ، ومقبول عند أخرى ، فقد رده فريق من أمثال عمرو بن عثمان ، وأبى يعقوب النهرجورى ، وأبى يعقوب الاقطع ، وعلى بن سهل الاصفهاني وغيرهم . وقبله ابن عطاء ، ومحمد بن خفيف ، وأبو القاسم النصر ابادى وجملة المتأخرين من الصوفية . وتوقف في امره فريق مثل : الجنيد والشبلى والجربرى والحصرى وغيرهم ، ونسبة فريق آخر الى السحر وأسبابه .

أما في إيماننا هذه ، فقد كان للشيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، والشيخ أبى القاسم الجرجاني ، والشيخ أبى العباس الشقاني — رضى الله عنهم — في حديثه سر ، وكان لديهم معظما . وأما الأستاذ أبو القاسم القشيري رضى الله عنه ، فيقول : إذا كان من أرباب المعانى والحقيقة فلن يصير مهجورا بهجر من رده ، وإن يكن مردودا من الحق ومقبولا من الخلق ، فلن يصير مقبولا بقبول الخلق . ونحن نتركه لله بحكم التسليم ، ونجمله بقدر ما وجدنا فيه من دلائل الحق (٢) . ولا ينكر كمال فضله وصفاء حاله وكثرة مجاهداته ورياضاته الا قلة من جملة الشيوخ .

وقد كان من غير الامانة اغفال ذكره في هذا الكتاب، لأن بعض أهل الظاهر بكترونة وينكرون عليه ، وينسبون أحواله الى العذر* والاحتيال والسحر ، ويظنون أن الحسين بن منصور الحلاج هو الحسن بن منصور الحلاج (٣) ، ذلك الملقب بالبغدادي الذي كان أستاذ محمد بن زكريا ، ورفيق سعد القرمطي . ولكن الحسين هذا الذي اختلف في أمره كان فارسيا من بيشاورد (٤) ، ولم يكن هجر المشايخ له يعنى الطعن في دينه ومذهبه ، بل في حال دنياه ، فقد كان في بداية أمره يريد سهل بن عبد الله وانصرف عنه دون استئذان ، واتصل بعمرو بن عثمان ، وذهب من عنده بلا إذن وتعلق

(١) أرجع الى ما ورد عن الحلاج في القسم الاول .

(٢) امتنع القشيري عن إيراد ترجمة للحلاج ضمن تراجم الشيوخ في القسم الخاص بالتراجم في الرسالة . * هكذا في الأصل (يقرر) . فقد الرجل عذرا وعذرا (لازم) كثرت ذنوبه وميوبه : (أقرب الموارد) .

(٣) كان الهجویری أول من طرق فكرة أنه كان هناك شخصان باسم الحلاج : أحدهما « الحسن بن منصور » الملقب المنسوب الى بغداد ، والآخر « الحسين بن منصور » الحلاج الحنفي الفارسي المنسوب الى بيشاورد . وقد نقل « المطار » في تفكرة الاولياء و « محمد يارما » في فصل الخطاب هذه الفكرة عنه .

(٤) « البيضاء » (بيشا ورد) : مدينة بفارس وهي أكبر مدينة في كورة اصطخر . وأما سميت البيضاء لأن لها قلعة تبين من بعد ويرى بياضها . وكانت معسكرا للمسلمين يتصدونها في فتح اصطخر . وبينها وبين شيراز ثمانية فراسخ (معجم البلدان ج ١ ص ٧٩١) .

بالجنيد فلم يقبله ، ولهذا السبب هجروه جميعا ، فهو مهجور المعاملة لا مهجور الأصل .

أما رأيت أن الشبلى قال : « أنا والحلاج شيء واحد فخلصنى جنونى واهلكه عقله » ؟ فلو كان مطعونا فى دينه لما قال الشبلى أنا والحلاج شيء واحد ، وقال محمد بن خفيف : « هو عالم ربانى (١) » ومثل هذا ، فغضب شيوخ الطريقة والمشايخ — رضى الله عنهم — وعقوبتهم ، أثر الهجران والوحشة .

وله تصانيف زاهرة ورموز وكلام مهذب فى الأصول والفروع . وأنا على بن عثمان الجلابى رأيت له خمسين تصنيفا (٢) فى بغداد ونواحيها ، وبعضها فى خوزستان (٣) وفارس وخراسان ، ووجدتها جميعا — كما هو الحال فى بداية أمر الريدين — اقوالا — بعضها اقوى ، وبعضها أضعف ، وبعضها أسهل ، وبعضها أشنع . وحين يكون لانسان دليل وبرهان من الحق وتواتيه العبارة بقوة الحال ، ويعينه الفضل ، يصير الكلام معلقا ، خاصة وأن المعبر يغرب فى عبارته ، وعندئذ ترداد نفرة الأوهام من سماعه ، وتمعز العقول عن ادراكه ، ومن ثم يقولون ان هذا الكلام عال ، فينكره فريق عن جهل ، ويقره فريق بالجهل ، ويكون انكارهم كاتقارهم . ولكن حين يراه المحققون وأهل البصيرة لا يتعلقون بالعبارة ، ولا ينشغلون بالغرابة ، ويفرغون من ذمه ومدحه ، ويستريحون من انكاره واقتراره .

ثم ان هؤلاء الذين نسبوا ذلك الرجل الى السحر باطل زعمهم ، لأن السحر فى أصول أهل السنة والجماعة حق كالكرامة ، واطهار السحر فى حال الكمال كفر ، واطهار الكرامة فى حال الكمال معرفة ، لأن الأول يكون نتيجة سخط الله جل جلاله ، والآخر قرينة رضاه . وسنزيد هذا الكلام شرحا فى باب اثبات الكرامات ان شاء الله تعالى .

ويجتمع أهل البصيرة من أهل السنة والجماعة ، لا يكون المسلم ساحرا والكافر مكرما ، لأن الأضداد لا تجتمع . وكان الحسين رضى الله عنه طوال عمره فى لباس الصلاح : من صلوات طيبة ، وأذكار ومناجيات كثيرة ،

(١) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٢٠٨) .

(٢) ذكر ابن النديم أسماء سبعة وأربعين كتابا من كتب الحلاج (انظر الفهرست ص ٢٧١)

(٣) « خوزستان » : (معربها « الأخواص ») وهو اسم لجميع بلاد الخوز .

قال ابن الفقيه الأصمى : الخوز هم النملة الذين بنوا السرخ . وقال أبو زيد :

وليس بخوزستان جبال ولا رمال الا شيء يسير يتأخم نواحي تستر وجند يسابور .

وأما أرض خوزستان فأنشبه شيء بمرض العراق . (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٦٦) .

وصيانات متصلة ، وتحديدات مهذبة ، ونكات لطيفة في التوحيد ، فلو كانت أفعاله سحرا لكان هذا كله منه محالا . فصح اذن انها كانت كرامات ؛ والكرامات لا تكون الا لولى محقق .

وقد رده بعض اهل الأصول ، وهم يعترضون عليه في كلماته التى تعبر عن الامتزاج والاتحاد ، وذلك بمبالغة منه وتهويل في العبارة لا في المعنى ، اذ لا سلطان للمغلوب على العبارة حتى تصح عبارته في غلبة الحال .

ويجوز ايضا ان يكون معنى العبارة مشكلا فلا يستطيعون فهم المعنى المقسود ، ويصور لهم وهمهم صورة عنه ، فينكرونه ، وانكارهم هذا يرجع اليهم لا الى ذلك المعنى .

غير انى رايت غريقا من الملاحدة — أخزاهم الله — في بغداد ونواحيها يدعون توليهم له ، وقد جعلوا أقواله حجة لزندقتهم ، وأسوا أنفسهم الحلاجيين . وهم يغالون في أمره كفلو الرافضة (١) في تولى على رضى الله عنه .

وساورد بابا في الفرق بين الفرق أرد فيه على كلماتهم ان شاء الله عز وجل .

وفي الجملة : أعلم انه لا يجوز الاقتداء بكلامه لانه كان مغلوبا في حاله لا متمكنا ، وينبغى للكلام متمكن حتى يمكن الاقتداء به . وهو عزيز على قلبى كثيرا بحمد الله ، ولكن طريقته غير مستقيمة على أى أصل ، وحاله غير مستقر على أى وجه ، وفي أحواله فتن كثيرة . وكان لى في ابتداء حالى منه قوى في معنى البراهين . وقد صنفت قبل هذا كتابا في شرح كلامه ، وأثبت بالدلائل والحجج علو كلامه وصحة حاله في ذلك الكتاب ، وذكرت بدايته ونهايته في كتاب آخر اسمه المنهاج ، وقد أوردت هنا أيضا هذا المقدار . والطريق الذى ينبغى اثبات أصله بكثير من الاحتراز ، لاسا أن ينتهى الناس اليه ويقتدون به ؟ ولكن الهوى لا يتفق أبدا مع الاستقامة ، ويبحث دائما عن الطريق المعوج ليعتلق به .

(١) « الرافضة » : فرقة من الشيعة سميت بذلك لانه لما خرج زيد بن علي بن الحسين سئل عن رأيه في أبى بكر وعمر فأحسن القول لهما وترحم عليهما ، فرفضه قوم من الشيعة من أجل توليه لهما نسوا رافضة . وانقسم الشيعة اذ ذاك فريقين : رافضة وزيدية ، وكلاهما يفضل عليا على أبى بكر وعمر ، ولكن الزيدية أقل طمعا عليهما وأعدل حكما لهما .

« ضحى الإسلام » أحمد أمين : القاهرة ١٩٥٦ ج ٢ ص ١٢٦

ويرد عنه انه رضى الله عنه قال : « الألسنة مستنطقات تحت نطقها مستهلكات » (١) .

وهذه العبارة كلها آفة ، وفي حقيقة المعنى هذر . وإذا حصل المعنى لا يفقد بالعبارة ، وإذا فقد المعنى لا يوجد بالعبارة ، لأن الوهم يظهر فيها ويهلك الطالب ، لأنه يخال العبارة : المعنى . والله أعلم .

● ومنهم : قائد المتوكلين ، ورئيس المستسلمين : « أبواسحق إبراهيم ابن أحمد الخواص (٢) » رضى الله عنه . كان ذا شأن عظيم ومنزلة رفيعة في التوكل ، أدرك كثيرا من الشيوخ ، وله آيات وكرامات كثيرة ، وتصانيف طيبة في معاملات هذه الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « العلم كله في كلمتين : لا تتكلف ما كفيت ، ولا تضع ما استكنيت » (٣) .

والمراد من هذا هو أن لا تتكلف في القسمة ، لأن القسمة الأزلية لا تتغير بتكلفك . ولا تنصرف في الأمر لأن ترك الأمر يضر لك العقوبة .

وقد سئل : ما رأيت من العجائب ؟ قال : رأيت منها الكثير ، ولكن ليس فيها ما هو أعجب من أن الخضر عليه السلام طلب منى أن يصحبني فلم أجبه . قيل : لم ؟ قال : لا لأنى كنت أطلب رفيقا خيرا منه ، ولكنى خشيت أن أعتد عليه دون الحق ، وتضر صحبته بتوكلى ، وأتخلف بالنافلة عن الفريضة .

وهذا من درجات الكمال ، والله أعلم .

● ومنهم : حجاب الأسرار والتمكين . وأساس اهل اليقين : « أبو حمزة البغدادي البزاز (٤) » رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ ومتكلميهم ،

(١) ورد في طبقات الصوفية : « السنة مستنطقات تحت نطقها مستهلكات . وأنفس مستملكات تحت استعمالها مستهلكات » (أنظر ص ٣١٠) .

(٢) إبراهيم بن أحمد بن اسماعيل : كان أواخر المشايخ في وقته ، ومن أقران الجنيد والنوري . مات في جامع الرى سنة احدى وتسعين ومائتين (أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٢٨٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٦ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٧٧ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١٤٩ ، نفحات الانس ص ١٣٦ ، خزينة الإصفياء ج ٢ ص ١٦٧) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٨٥) .

(٤) اسمه : محمد بن إبراهيم . كان يتكلم ببغداد في مسجد الرصافة قبل كلابه في مسجد المدينة . وكان يفتى الى حسن المسوحى . وتكلم يوما في جامع المدينة ، فغضب عليه حاله ، وسقط عن كرسيه ، ومات في الجمعة الثانية . كان من رفقاء أبى تراب النخشبى في أسفاره ، ودخل البصرة مرارا . وتوفى سنة تسع وثلاثين =

ومريد الحارث المحاسبى ، وصاحب السرى . وكان من اقتران النورى وخير
النساج ، وصاحب محتشمى المشايخ .

كان يعظ في مسجد الرصافة في بغداد ، وكان عالما بالتفسير والقراءات ،
وله في احاديث النبى عليه السلام روايات عالية .

وكان رفيق الثورى في وقته وبلائه اللذين خلصهما الله تعالى منهما ،
وساذكر ذلك في شرح مذهب النورى ان شاء الله عز وجل .

ويرد عنه أنه قال : « اذا سلمت منك نفسك فقد ادبت حقها ، واذا
سلم منك الخلق قضيت حقوقهم (١) » .

اى ان الحقوق اثنان : أحدهما حق نفسك عليك ، والثانى حق الخلق عليك
فاذا منعت نفسك من المعصية ، وطلبت طريق سلامة أخراها ، فانك تكون
قد قضيت حقها ، واذا أمنت الخلق من اذاك ولم تطلب أساءتهم ،
فانك تكون قد قضيت حقهم . فاجتهد أن لا يصيبك والخلق منك اذى ،
ومن ثم انشغل بقضايا حق الحق . والله أعلم .

● ومنهم : الامام في فنه ، العالى الحال ، اللطيف الكلام : « ابوبكر محمد
ابن موسى الواسطى » (٢) رضى الله عنه . كان من محققى المشايخ ، وذا
شان عظيم ودرجة رفيعة في الحقائق ، ومرضيا لدى جملة المشايخ .

وكان من قدماء اصحاب الجنيد ، وذا عبارات غامضة لا يفهمها اهل
الظاهر . ولم يستقر ببلد قط ، فلما ورد مرو قبله أهلها للطف بطبعه
وحسن سيرته ، وسمعوا اقواله . وقضى هنالك عمره .

ويرد عنه أنه قال: « الذاكرون في ذكره اكثر غفلة من الناسين لذكره (٣) »
لانه اذا ذكره الذاكر ، فلا ضير اذا نسي ذكره ، وانما الضير في ان يذكر
ذكره وينساه ، لان الذكر غير المذكور ، فالاعراض عن المذكور مع ذكر
الذكر يكون اقرب الى الغفلة من الاعراض بلا ذكر ، ولا يكون للناسي
في النسيان وغيبة الذكر حضور .

= وماتين (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٢٩٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٩ ،
طبقات الشمراني ج ١ ص ٧٩ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٥٩ ، نفحات الانس

ص ٧١ ، خزينة الاصداء ج ٢ ص ١٦٦) .
(١) ورد في طبقات الصوفية : اذا سلمت منك نفسك فقد ادبت حقها ، واذا سلم منك
الخلق فقد ادبت حقوقهم (انظر ص ٢٩٨) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) ورد في طبقات الصوفية : « الذاكرون في فكره اكثر من الناسين لذكره ، لان ذكره
سواء » (انظر ص ٣٠٥) .

وللذاكر في الذكر والغيبة عن المذكور : ذكر الحضور ، وذكر الحضور
بلا حضور اقرب الى الغفلة من الغيبة بلا ذكر ، لان هلاك ملاب الحق في
ذكرهم ، فحيثما يكون الذكر أكثر ، يكون المعنى اقل . وحيثما يكون المعنى
اقل ، يكون الذكر أكثر . وحقيقة ذكرهم من تهمة العقل ، والعقل يحصل
من الهمة ، ولا اقتران للهمة قط بالتهمة والتهمة .

واصل الذكر يكون في الغيبة أو الحضور ، فحين يكون للذاكر غيبة عن
نفسه وحضور مع الحق تعالى ، فانه لا يكون ذكرا ، بل مشاهدة . وحين
يكون غائبا عن الحق وحاضرا مع نفسه ، فذلك لا يكون ذكرا ، بل غيبة ،
والغيبة من الغفلة ، والله اعلم .

● ومنهم : سكية الأحوال ، وسفينة القتال : « أبو بكر دلف بن جعفر
الشبلي » (١) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ ومذكورهم ، وذا حال
مهذب ووقت مطيب مع الحق تعالى ، وله اشارات لطيفة ومقبولة ، « كما
قال واحد من المشايخ المتأخرين : ثلاثة من عجائب الدنيا : اشارات الشبلي ،
ونكات المرتضى ، وحكايات جعفر » .

وكان من كبار أهل التصوف وسادات الطريقة . وكان أولا ابن حاجب
حجاب الخليفة ، وتاب في مجلس خير النساج رحمه الله ، وصار مريدا
للجنيد ، ورأى كثيرا من المشايخ .

يرد عنه أنه قال في معنى قول الله عز وجل : « قل للمؤمنين يغضوا من
ابصارهم » (٢) أى : ابصار الرعوس عن المحارم ، وابصار القلوب عما سوى
الله ، « فمتابعة الشهوة وملاحظة المحارم من الغفلة ، والمعصية الكبرى
لأهل الغفلة هي أنهم يجهلون عيوبهم ، ومن يكن جاهلا في الدنيا يكن أيضا
جاهلا في الآخرة ، لقوله تعالى : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة
أعمى » (٣) .

وفي الحقيقة انه اذا لم يطهر الله قلب انسان من ارادة الشهوة ، فانه
لا يحفظ عينه من غوامضها ، واذا لم يثبت ارادته في قلب انسان فانه
لا يحفظ بصيرته من النظر الى الغير .

ويرد عنه انه دخل السوق يوما ، فقال قوم : « هذا مجنون » ! . فقال
رضي الله عنه : « انا عندكم مجنون وأنتم عندي أصحاء ، فزاد الله في
جنونى وزاد في صحتكم » ، فجنونى من شدة المحبة ، وصحتكم من غاية

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) سورة « النور » آية ٢٠ .

(٣) سورة « الاسراء » آية ٧٢ .

الغفلة ، فليزد الله في جنوني لأزداد قريبا على قرب ، وليزد في صحتكم (١)
لتزدادوا بعدا على بعد .

وهذا القول من الغيرة ، والا فكيف يكون في تلك الدرجة شخص لا يميز
بين المحبة والجنون ؟!

● ومنهم : حاكي احوال الاولياء بالطف الاقوال والاداء :

« أبو محمد جعفر بن نصير الخلدی (٢) » رضي الله عنه ، كان من كبار
اصحاب الجنيد ، ومن قدماء الصوفية ، متبحرا في فنون هذا العلم ، وحافظ
انفاس المشايخ وراعى حقوقهم .

وله كلام عال في كل فن ، وقد ربط كل مسألة بحكاية ونسبها الى غيره ،
تجنباً للرعونة .

ويرد عنه أنه قال : « التوكل استواء القلب عند العدم والوجود » (٣) .

اي أن التوكل هو أن يكون وجود الرزق وعدمه لدى قلبك سواء ،
فلا تفرح بوجود الرزق ، ولا تغتم لعدمه ، لأن الجسد ملك للمالك ، والحق
تعالى أولى برعايته وهلاكه ، وهو يحفظه كما يريد فلا تتدخل بينهما ،
ودع الملك للمالك ، واتطع تصرفك .

ويروى هذه الحكاية فيقول : دخلت على الجنيد فوجدته محموما ، فقلت
يا استاذ ! ادع الحق تعالى أن يشفيك . فقال : لقد كنت ادعو بالأمس
فنوديت في سرى : ان جسدك ملك لنا ، فاذا شئنا جعلناه صحيحا ، واذا
شئنا جعلناه عليلا ، فمن أنت حتى تتدخل بيننا وبين ما نملك ؟ فاتطع
تصرفك لتكون عبدا . والله أعلم بالصواب .

(١) الكلمة الفارسية في الاصل تعطي معنى « محكوم » .

(٢) اسمه : جعفر بن محمد بن نصير . بغدادى المنشأ والمولد . صاحب الجنيد وابا
الحسين النورى وغيرهم من مشايخ الوقت . وكان المرجع اليه في علوم القوم وكتبهم
وحكاياتهم . وسيرهم . كان من ائمة المشايخ واجلتهم واحسنهم قولا . توفى ببغداد
سنة ثمان واربعين وثلثمائة . اسند الحديث ورواه . (انظر ترجمته في طبقات
الصوفية ص ٤٢٤) الرسالة ج ١ ص ١٦٧ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٩٤ ،
تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨٢ ، نفحات الانس ص ٢٢٣ ، خزينة الاسماء ج ٢
ص ٢٠٠) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية : سئل عن التوكل فقال : استواء القلب عند العدم والوجود ،
بل الطرب عند العدم والخمول عند الوجود ، بل الاستقامة مع الله تعالى على
الحالين » (انظر : ص ٤٢٧) .

ومنهم الشيخ المحمود ، ومعدن الجود :
 « أبو علي بن محمد بن القاسم الرودي (١) » رضى الله عنه كان من
 فتیان المتصوفة وقادتهم ، ومن أبناء الملوك ، وذو شأن عظيم في فنون المعاملات ،
 ومناقب كثيرة وأقوال لطيفة في دقائق الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « المريد لا يريد لنفسه إلا بما إرادته الحق له ،
 والمراد لا يريد من الكونين شيئا غيره (٢) » ، فيجب أن يكون الراضى بإرادة
 الحق تاركا لارادته ، ليكون مريدا . وليس للمحب نفسه إرادة حتى
 يكون له مراد ، ومن يريد الحق لا يريد إلا ما يريده له . والمراد من الحق
 لا يريد غير الحق ، فالرضا من بداية المقامات ، والمحبة من نهاية الأحوال .
 والمقامات تنسب إلى تحقيق العبودية ، والدرجات تنسب إلى تأييد الربوبية .
 وما دام الأمر كذلك ، يكون المريد قائما بنفسه ، ويكون المراد قائما بالحق ،
 والله اعلم .

● ومنهم : خازن التوحيد ، وسمسار التفرید :

« أبو العباس القاسم بن مهدي السيارى (٣) » رضى الله عنه . كان من
 أئمة عصره ، عالما بعلوم الظاهر والباطن ، صاحب أبا بكر الواسطى ، وأخذ
 الأدب عن كثير من المشايخ .

وكان اظرف القوم في الصحبة ، وازهدهم في الآفة ، وله كلام عال
 وتصانيف محمودة .

ويرد عنه أنه قال : « التوحيد أن لا يخطر بقلبك ما دونه (٤) » . لأن
 التفكير في الغير من اثباتهم ، وإذا ثبت الغير : سقط حكم التوحيد .

وكان في البداية من بيت علم ورياسة ، ولم يكن أحد من أهل مرو يتقدم
 على أهل بيته في الجاه ، وورث عن أبيه ميراثا كبيرا ، فدفعه كله ثمنا
 لشعرتين من شعر النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن الله عليه بالتوبة

(١) كتبه أبو علي ، واسمه : أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهریار . من
 أهل بغداد . سكن مصر وصار شيخها ومات بها . صاحب الجند والنورى ومن في
 طبقتهم ، وصحب بالشام ابن الجلاء . كان عالما فقيها عارفا بعلم الطريقة ،
 حافظا للحديث . توفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة (أنظر ترجمته في طبقات
 الصوفية ص ٣٥٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٥١ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٤٨ ،
 تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٢٨٥ ، نفحات الأنس ص ٢٠٠ ، خزينة الأصفاء ج ٢ ص ٢) .

(٢) ورد في طبقات الصوفية (أنظر : ص ٣٥٦) .
 (٣) اسمه القاسم بن القاسم بن مهدي ، كان من أهل مرو وشيخهم ، وأول من تكلم
 عندهم في دقائق الأحوال . كان فقيها عالما ، كتب الحديث الكثير ورواه . توفي
 سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة (أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٤٤٠ ، الرسالة
 ج ١ ص ١٦٨ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٩٤ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣٠٤ ،
 نفحات الأنس ص ١٤٥ ، خزينة الأصفاء ج ٢ ص ١٩٧) .

(٤) ورد في طبقات الصوفية : « حقيقة المعرفة أن لا يخطر بالقلب مادونه » (أنظر ص ٤٤٤)

ببركات ذلك ، وصحب أبا بكر الواسطي رحمه الله ، وبلغ من الدرجة أن صار امام صنف من المتصوفة . ولما أشرف على ترك الدنيا ، أوصى فوضعوا الشعرتين في غمه .

وتبره اليوم ظاهر بهرو ، والناس يذهبون اليه لطلب الحاجات ، وتحقيق الأمنيات ، وهو مجرب ، والله أعلم .

● ومنهم : مالك وقته في التصوف ، والخالى طبعه من التكلف والتصرف ، « أبو عبد الله محمد بن خفيف (١) » رضى الله عنه . كان امام زمانه في مختلف العلوم ، وذا شأن عظيم في المجاهدات ، وبيان شاف في الحقائق ، وعهد مهيا وواضح في التصانيف . وقد أدرك ابن عطاء ، والشبلى ، والحسين بن منصور والجريري ، وصحب أبا يعقوب النهرجورى بمكة ، وقام بأسفار طيبة على التجريد .

وكان من أبناء الملوك ، فرزقه الله تعالى التوبة ، وأعرض عن الدنيا ، وشأنه عظيم عند أهل المعاني .

ويرد عنه أنه قال : « التوحيد : الاعراض عن الطبيعة » . لأن الطبائع كلها مكفوفة عن نعمائه ، ومحجوبة عن آلائه ، فما لم يحصل الاعراض عن الطبع ، لا يتأتى الاقبال على الحق ، وصاحب الطبع محجوب عن حقيقة التوحيد . ومتى رايت آفة الطبع ، بلغت حقيقة التوحيد .

وله آيات وبراهين كثيرة . والله أعلم .

● ومنهم : سيف السياسة ، وشمس السعادة :

« أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي » (٢) رضى الله عنه . كان من كبار أهل التمكين ، ذا حظ وافر في فنون العلم ، وصاحب رياضات وسياسات ، وله في رؤية الآفات آيات كثيرة وبراهين طيبة .

(١) كان شيخ المشايخ في وقته . وكان عالما بعلوم الظاهر وعلوم الحقائق . مات سنة احدى وسبعين وثلاثمائة (أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٦٢) ، الرسالة ج ١ ص ١٧٣ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٩٦ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٢٤ ، نفحات الانس ص ٢٢٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٤) .

(٢) سعيد بن سلام : من ناحية « قروان » وهي مدينة عظيمة بأفريقية ، بصرها عقبة ابن نافع بعد أن أتم فتح أفريقية . أقام بالحرم مدة وكان شيخه . كان أواحد في طريقته في الزهد . ورد نيسابور ومات بها سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة (أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٤٧٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٧٩ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٩٧ ، شذرات الذهب ج ٢ ص ٨١ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٠٦ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٦) .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « من أثر صحبة الأغنياء على مجالسة
الفقراء ابتلاه الله بموت القلب » .

أى قال : ان الصحبة تكون مع الأغنياء ، والمجالسة تكون مع الفقراء .
فإنها يعرض عن الفقراء من يكون قد جالسهم ، لا من يكون قد صحبهم
— لأنه لا اعراض في الصحبة — وحين ينصرف عن مجالستهم الى صحبة
الأغنياء ، يموت قلبه بموت الاحتياج ، ويبتلى جسده بالمعجب والغرور ،
وإذا كان الاعراض عن المجالسة يثمر موت القلب ، فكيف يكون الاعراض
عن الصحبة ؟

وقد ظهر في هذه الكلمات الفرق بين الصحبة والمجالسة ، والله اعلم .

● ومنهم : البارز في صفوف الصوفيين ، والمعبر عن أحوال العارفين ،
« أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن محمود (١) النصر آبادى (٢) » رضى الله عنه .
كان في نيسابور كالمملك شابور (٣) من نسابور ، أى أنه ملك نيسابور بعلو
الحال ومرتبة الرجال ، غير أن عز الملوك يكون في الدنيا ، وعزه في الآخرة .

وله كلمات بدیعة وآيات رفيعة . وكان مريد الشبلى واستاذا للمتأخرين
من أهل خراسان . ولم يكن له مثل في عصره ، فقد كان أعلم وأورع أهل
زمانه في فنون العلم .

(١) ورد هذا الاسم في الأصل « محمود » وفي الحاشية « حمويه » وفي طبقات الصوفية
ونفحات الأنس « محمود » .

(٢) أبو القاسم النصر آبادى : نيسابورى الأصل والمنشأ والمولد . شيخ خراسان في
وقته . أقام بنيسابور ثم خرج في آخر عمره الى مكة وحج سنة ست وثلاثين
وثلاثمائة ، وأقام بالحرم مجاوراً ، مات سنة سبع وستين وثلاثمائة . كتب الحديث
الكثير ورواه ، وكان ثقة . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٤٨٤ ، الرسالة
ج ١ ص ١٨١ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٩٧ ، تفكرة الاولياء ج ٢ ص ٢١١ ،
نفحات الأنس ص ٢٣٠) .

(٣) « شابور » : شابور الاول ابن اردشير بن بابك : الملك الساساني . تولى الملك
بعد أبيه سنة ٢٤١ م ، وفي أيامه ظهر « مانى » وقال بالآيتين ، وعاب مذهبه .
ومال شابور اليه . وقال مالى ان مدبر العالم اثنان وهما شيتان قديان : نور
وظلمة ، خالقان : خالق خير وخالق شر . فلجابه شابور الى هذه المقالة وأخذ بها
أهل مملكته ، وأقام شابور على هذه المقالة عشرين سنة ثم رجع عن الذنوب الى المجوسية ،
وهم يقتل مانى ، فهرب الى بلاد الهند ، وأقام بها حتى مات شابور .
وفي حروبه مع الرومان انتصر عليهم وحاصر ملكهم « فاليريان » بمدينة انطاكية ،
واسره وحمله وجاعة كثيرة معه وأسكنهم « جندى شابور » . ولكن شابور هذا
الذى تغلب على الروم ، استطاع « أذينة » العربى حاكم « تدمر » أن يهزمه وعلى
أثر هذه الهزيمة استولى على آسيا الصغرى والشام وجزء كبير من العراق ،
واعترف به الامبراطور الرومانى « جالينوس » وخلع عليه لقب امبراطور . وخلفته
زوجته « الزباء » بعد وفاته ، واستطاعت بوصفها وصية على ابنها « وهب اللات »
أن تدفع اغارة الجيوش على تدمر .

يرد عنه أنه قال (١) : « أنت بين نسبتين : نسبة الى آدم ، ونسبة الى الحق . فاذا انتسبت الى آدم دخلت في ميادين الشهوات ، ومواضع الآفات والزلات ، وهى نسبة تحقق البشرية لقوله تعالى : « انه كان ظلوما جهولا (٢) » . فاذا انتسبت الى الحق دخلت في ميادين الكشف والبراهين والعصمة والولاية ، وهى نسبة تحقق العبودية لقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا (٣) » .

ونسبة آدم منقطعة يوم القيامة ، ونسبة عبوديته قائمة دائمة ولايتطرق اليها التغير . وعندما ينسب العبد نفسه الى نفسه أو الى آدم ، فان كمال هذه النسبة أن يقول : « انى ظلمت نفسى (٤) » . وخين ينتسب الى الحق يكون الأسمى اهلا لقول الحق تعالى : « ياعباد لا خوف عليكم اليوم (٥) » . والله أعلم .

● ومنهم : سرور سر سالكى الطريق ، وجمال أرواح أهل التحقيق ، « أبو الحسن على بن إبراهيم الحصرى (٦) » رحمه الله ، ورضى عنه . كان من محتشمى أحرار حضرة الحق تعالى ، ومن كبراء أئمة المتصوفة ، ولم يكن له نظير في زمانه ، وله كلام عال وعبارات حسنة في كل المعانى .

== ويتصل بتاريخ سابور أيضا قصته مع صاحب « الحضر » — وكان يقال له : « الساطرون » أو « الضيزن » — وابنته « النضيرة » التى عشقت سابور وعشقتها ، وانفقت معه على حيلة يستطيع بها أن يدخل مدينة أبيها بجيوشه ويقتله في مقابل أن يتزوجها ، فعمل وتداعت المدينة لفتحها عنوة وقتل الضيزن وخرب المدينة وحمل معه النضيرة وتزوجها ثم لم يلبث أن قتلها . وينسب الى سابور بناء مدينة نيسابور في خراسان ، ومدينة « جندى سابور » في الاهواز . وملك سابور احدى وثلاثين سنة . (انظر : تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٢٩ ، مروج الذهب ج ١ ص ١٠٤ ، تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٧) — (٥) .

(١) ورد هذا القول في طبقات الصوفية : « أنت بين نسبتين : نسبة الى الحق ، ونسبة الى آدم . فاذا انتسبت الى الحق دخلت في مقامات الكشف والبراهين والمظلة ، وهى نسبة تحقق العبودية قال تعالى : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » ، وقال : ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » . وقال : فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلماها من لدنا علما » . واذا انتسبت الى آدم دخلت في مقامات الظلم والجهل ، قال الله تعالى : « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » .

(٢) سورة « الأحزاب » آية ٧٢ .

(٣) سورة « الفرقان » آية ٣٦ .

(٤) سورة « القصص » آية ١٦ .

(٥) سورة « الزخرف » آية ٦٨ .

(٦) أبو الحسن الحصرى : بصرى الأصل وسكن بغداد . كان شيخ المراق ولسانها ، ومن أجل المشايخ . له لسان في التوحيد يختص هو به ، ومقام في التفريد والتجريد مسلم له ، لم يشاركه فيه أحد بعده .

استاذ المراتين وبه تأديب من تأديب منهم . صاحب الشبلى وغيره ، وتوفى سنة احدى وسبعمين وثلاثمائة . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٨٩) ، الرسالة ج ١ ص ١٨٢ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٢١٨ . المنتظم ج ٧ ص ١٢٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨٩ ، نفحات الانس ص ٢٢١) .

يرد عنه انه قال : « دعونى فى بلانى ، هاتوا مالكم . الستم من اولاد آدم انذى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، ثم أمره بأمر فخالف ، اذا كان أول الدن درديا (١) فكيف يكون آخره ؟ (٢) » .

أى انه اذا ترك الآدمى لنفسه يكون كله مخالفة ، أما اذا وافاه بعنايته يكون كله محبة .

فعدد حسن عناية الحق ، وقابلها بقبح معاملتك ، واقتض العبر فى هذا . وبالله العون والعصمة .

هذا طرف من سيرة بعض المتقدمين من المتصوفة واهل القدوة منهم رضى الله عنهم ، ولو ذكرتهم جميعا وشرحت أحوالهم العزيزة ، وأوردت حكاياتهم فى هذا الكتاب لعجزت عن المقصود ، ولطال الكتاب .

والآن : أثق بهم فريقا من المتأخرين لتكون الفوائد والموائد أكثر ، وبالله العون والتوفيق .

(١) « درد » كلمة فارسية تعنى : روايب الخبر فى الدن .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٢٩٠) .

الباب الثاني عشر باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين رضوان الله عليهم أجمعين

اعلم — خيك الله — انه يوجد في زماننا هذا جماعة لا قدرة لهم على تحمل الرياضة ، وهم يطلبون الرياسة بدون الرياضة ، ويظنون كل أهل التصوف مثلهم ، وعندما يسمعون أقوال السلف ، ويرون شرفهم ، ويقرأون معاملاتهم ، ينظرون في أنفسهم فيرون أنهم بعيدون عنهم ، ولكنهم لا يقصدون الى القول : اننا لسنا كذلك ، ولكن يقولون : لم يبق في زماننا أمثال هؤلاء. وقولهم هذا محال ، لأن الله تعالى لا يترك الأرض أبدا بلا حجة ، ولا هذه الأمة بلا ولي ، كما قال النبي عليه السلام : « لا يزال طائفة من أمتي على الخير والحق حتى تقوم الساعة » ، ولقوله عليه السلام : « لا يزال من أمتي أربعون على خلق ابراهيم » (١) .

وفريق من أولئك الذين أنكرهم في هذا الباب قد ماتوا وأسلموا الروح للراحة والروح ، وفريق أحياء ، رضى الله عنهم وعنا وعن جميع المسلمين ، واشملنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

● ومنهم : طراز طريق الولاية ، وجمال جمع أهل الهداية :
« أبو العباس أحمد بن محمد القصاب » (٢) رضى الله عنه . وقد أدركه

(١) ورد في طبقات الصوفية : « لا يزال من أمتي أربعون على خلق ابراهيم عليه السلام ، اذا جاء الأمر تبغوا » (انظر ص ٢) .

(٢) أحمد بن محمد بن عبد الكريم القصاب الأملی : خليفة محمد بن عبد الله الطبري ، ومريد أبي محمد الجريري . شيخ أبي سعيد بن أبي الخير ، لجأ اليه أبو سعيد بعد وفاة مرشده أبي الفضل محمد بن حسن السرخسي ، وسائر اليه في أمل وظل يمارس الرياضة تحت إشرافه علما ، ونال على يديه الخرقه الثانية . توفي في أواخر

المتقدمون منا وصحبوه ، وهو معروف ومشهور بعلو الحال ، وصديق فراسة
المقال ، وكثرة البراهين والكرامات .

ويقول أبو عبد الله الخياط امام طبرستان (١) : من أفضال الله عز وجل
ان صير فينا رجلا غير متعلم نسأله اذا اشكل علينا شيء في علوم الدين
وأصوله ومقائق التوحيد ، وهو أبو العباس القصاب رضى الله عنه .

وكان اميا ، غير ان اقواله ونكاته في علم التصوف والاصول كانت رفيعة
جدا . وكان في ابتداء حاله وانتهائه عظيما وحسن السيرة . وقد سمعت
عنه حكايات كثيرة ، ولكن مذهبي في هذا الكتاب هو الاختصار .

يقال ان صبيا كان قد امسك بزمام بعير يحمل حملا ثقيلا ، وكان يسير
به في سوق آمل (٢) — ويوجد وحل هنالك دائما — فانزلت رجل البعير
ووقع وانكسرت رجله ، فقصص الناس انزال الحمل عن ظهر البعير ،
واستغاث الصبي . ومربهم (أبو العباس) وقال : ماذا حدث ؟ فأخبروه ،
فأمسك رضى الله عنه بزمام البعير ، واتجه الى السماء قبله الدعاء ، وقال :
اللهم اشف هذا البعير ، واذا لم تشأ ان تبرئه ، فلم أحرقت قلب القصاب
ببكاء هذا الصبي ! وفي الحال نهض الجبل ، ومضى صحيحا معافى .

ويرد عنه انه قال : يجب على العالم جميعا — ارادوا او لم يريدوا —
ان يأنسوا بالله ، والا فانهم يتألمون . لأنك اذا أنست به ترى الميلى في البلاء
فلا يكون البلاء بلاء ، واذا لم تأنس به فانه عندما يحل البلاء تنأذى ، والله
تعالى لا يغير تقديره برضاء أحد او سخطه ، فرضاؤنا بحكمه راحة لنا ،
وكل من يأنس بالله يرتاح قلبه ، وكل من يعرض عنه يتألم لورود القضاء .
والله اعلم .

= القرن الرابع الهجري . قيل له : ألف السلسي كتابا في طبقات الشيوخ . فسأل :
هل ذكر اسمي فيه ؟ قالوا : لا . قال : لم يفعل شيئا . (انظر ترجمته في تذكرة
الاولياء ج ٢ ص ١٨٥ ، قححات الانس ص ٢٨٦ ، وما ورد عنه من اشارات في أسرار
التوحيد الترجمة العربية ص ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩) .

(١) « طبرستان » : بلد منفرد له ملكة جليلة ولم يزل ملكه يسمى الاصبيد . وهو بلد
كثير الحصون متبع بالآودية وأهله اشرف العجم ابناء ملوكهم (البلدان ص ٤٢)

غزاعا مسعود بن المعاصي في عهد عثمان بن عفان (معجم البلدان ج ٣ ص ٥٠١) .
(٢) « آمل » : مدينة طبرستان الثانية . من الرى اليها مرحلتان . وآمل على بحر
الديلم . (البلدان ص ٤٣) .

● ومنهم : بيان المريدين ، وبرهان المحققين :

« أبو علي الحسن بن محمد بن علي الدقاق » (١) رضى الله عنه . كان امام فقه ، منقطع النظر في زمانه ، وذا بيان صريح ولسان فصيح في كشف طريق الله تعالى . رأى كثيرا من المشايخ وصحبهم ، وكان مريد النصريين ، ويذكر الناس .

يرد عنه انه قال : « من انس بغيره ضعف في حازه ، ومن نطق من غيره كذب في مقالته » ، لان الانس بالغير غاية في الجبل وعدم المعرفة ، والانس به وحشة من الغير . والمستوحش من الغير لا ينطق عن الغير .

وسمعت شيئا يقول : ذهبت يوما الى مجلسه وانا انوى ان اسأله عن حال المتوكلين ، وكان قد لبس عمامة طبرية حسنة ، فمال اليها قلبي . وقلت له : ايها الشيخ ! ما التوكل ؟ قال : ان تقتصر الطمع عن عمام الناس . قال هذا والقي الى بالعمامة ، رضى الله عنه .

● ومنهم : الامام الاوحد ، وشرف اهل الزمان :

« أبو الحسن علي بن أحمد الخرقاني » (٢) رضى الله عنه . كان من اجلة المشايخ وتقدمائهم ، وممدوحا في وقته من جميع اولياء الله . وقد قصد الشيخ أبو سعيد زيارته ، وكانت له معه محاورات لطيفة في كل فن . وحين كان يهيم بالعودة قال له (الخرقاني) قد اخترتك لولاية عهدي .

وسمعت من حسن بن المؤدب خادم الشيخ أبي سعيد انه عندما ذهب الشيخ الى (أبي الحسن الخرقاني) ام يتحدث قط ، وكان فقط يستمع اليه ، ويجيب على أسئلته . وقلت له : ايها الشيخ ! لم صمت هكذا ؟ فلم يجب بغير كلمة واحدة هي : كفى (٣) .

وسمعت الأستاذ أبا القاسم القشيري رضى الله عنه يقول : عندما بلغت

(١) أبو علي الدقاق الصوفي . استاذ أبي القاسم القشيري ومهره . توفي في نيسابور سنة خمس وأربعمائة ، ويقول آخر سنة ست وأربعمائة . (انظر ترجمته في تنكرة الاولياء ج ٢ ص ١٧٧ ، نفحات الانس ص ٢٩١ ، سفينة الاولياء ص ١٥٩ ، خزينة الاسماء ج ٢ ص ٢١٤ ، شذرات الذهب ص ١٧٨) .

(٢) أبو الحسن الخرقاني : اسمه علي بن جعفر . مريد أبي العباس القصاب ، ومن معاصري أبي علي الدقاق وأبي عبد الرحمن السلمى وأبي سعيد بن أبي الخير . من الصوفية أصحاب السكر ، والمروجين لوحدة الوجود ، فقد كان يعتنق مذهب أبي يزيد البسطامي . توفي سنة خمس وعشرين وأربعمائة . (انظر ترجمته في : تنكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٠١ ، نفحات الانس ص ٢٩٨ ، رياض المارئين ص ٤٧ ، خزينة الاسماء ج ١ ص ٥٢٢) .

(٣) انظر قصة زيارة أبي سعيد للخرقاني في اسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ١٦٠ وما بعدها .

خرقان (١) انتهت فصاحتى وزالت عبارتى من حشمة ذلك الشيخ ، حتى ظننت
انى عزلت عن ولايتى .

ويرد عنه انه قال : الطريقان : طريق الضلالة ، وطريق الهداية ،
فطريق الضلالة هو طريق العبد الى الله ، وطريق الهداية هو طريق الله
الى العبد . وكل من يقول : وصلت ، لم يصل . وكل من يقول : أوصلونى ،
وصل ، لان الايصال منعقد فى الوصول ، وعدم الوصول مرتبط بالوصول ،
والله اعلم .

● ومنهم : ملك وقته وزمانه ، والمفرد فى بيانه وعيانه :
أبو عبد الله محمد بن على المعروف بالاداسقانى (٢) « رضى الله عنه .
كان عالما بأنواع العلوم ، وسائسا مهذبا ، ومن محتشمى حضرة الحق .
وله أقوال مهذبة ، وإشارات لطيفة .

وكان الشيخ السهلى (٣) ، امام تلك الديار خلفا طيبا له . وقد سمعت
من السهلى بعض أقواله ، وهى أقوال عالية وطيبة جدا ، كقوله :
« التوحيد عنك موجود ، وأنت فى التوحيد مفقود » .

أى أن التوحيد صحيح عنك ، ولكك غير صحيح فى التوحيد ، لأنك
لاتقوم بمقتضى حقه . وأقل درجة فى التوحيد ، نفى التصرف عنك فى الملك ،
وإثبات التسليم فى أمورك للحق عز وجل .

قال الشيخ السهلى (٣) : فى وقت من الأوقات هجم الجراد على بسطام ،
وقد أسودت الأشجار والمزروعات جميعا من كثرتة ، فضج الناس بالدعاء .
وسألنى الشيخ : ماذا حدث ؟ قلت : أقبل الجراد والناس فى عناء منه .

(١) « خرقان » : قرية من قرى بسطام على طريق استرآباد بها قبر أبى الحسن على
ابن أحمد . له كرامات . مات سنة ٤٢٥ هـ (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٤٤) .
(٢) أبو عبد الله الداسقانى : من أقران أبى الحسن الخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير ،
ومن أتباع مذهب أبى يزيد البسطامى . كان يلقب بشيخ المشايخ . توفى سنة سبع
عشرة وأربعمائة (انظر ترجمته فى نحات الأئس ص ٢٩٩ ، خزينة الأصباء ج ٢
ص ٢١٦) .

(٣) كان شيخ الصوفية فى بسطام . أشار اليه ابن الأثير فذكر أنه عندما حمل الشيخ
أبو إسحاق الشيرازى رسالة الخليفة المقتدى بالله إلى السلطان ملكشاه
السلجوقى والوزير نظام الملك ، كان كلما وصل إلى مدينة من بلاد المعجم خرج
أهلها لاستقباله . ولما وصل بسطام خرج إليه السهلى شيخ الصوفية بها ، وهو
شيخ كبير ، فلما سمع أبو إسحاق بوصوله خرج إليه ماشيا ، فلما رآه السهلى
لقى نفسه من دابة كان عليها ، وقبل يد الشيخ أبى إسحاق ، فقبل أبو إسحاق
رجله وأجلسه فى موضعه . (ابن الأثير : انظر حوادث سنة ٤٧٥) . وهذه القصة
وردت أيضا فى المنتظم فى ترجمة أبى إسحاق الشيرازى (انظر المنتظم ج ٩ ص ٧)

فنهض الشيخ وصعد الى السطح ، ورفع وجهه نحو السماء ، فطار الجراد كله في الحال ! وعند صلاة العصر لم تبق منه واحدة ، ولم تتلف ورقة زرع لآحد . والله أعلم .

● ومنهم : سلطان السلاطين المحبين ، وملك ملوك الصوفيين :
« أبو سعيد فضل الله بن محمد الميمني (١) » رضى الله عنه . كان سلطان الطريقة ، سخر له جميع أهل زمانه : فريق بالمشاهدة ، وفريق بالاعتقاد ، وفريق بقوة الحال .

كان عالما بفنون العلم ، وذا حال عجيبة ، وشأن عظيم في درجة الاشراف على الأسرار . وكان له — غير هذا — آيات وبراهين كثيرة ، كما هو ظاهر من آثاره اليوم في العالم .

ترك في بداية حاله « ميمنه (٢) » وذهب الى « سرخس (٣) » لطلب العلم ، واتصل بأبى على زاهر (٤) رحمه الله ، وكان يصوم يوما كل ثلاثة أيام ، ويقضى تلك الأيام الثلاثة في العبادة ، الى أن رأى فيه ذلك الامام الرشيد ، وزاد في تعظيمه .

وكان ولى الصوفية في سرخس في ذلك الوقت الشيخ أبو الفضل حسن (٥) رحمة الله عليه، وذات يوم كان (أبو سعيد) يسير على شاطئ نهر سرخس، فتقدم اليه أبو الفضل حسن وقال : يا أبا سعيد ! ليس هذا طريقك الذى تسير فيه ، فاسلك طريقك . فتعلق به الشيخ ، ورجع من عنده الى موطنه ، وانتشغل بالرياضة والمجاهدة ، حتى فتح الحق عليه باب الهداية ، وأوصله الى الدرجة الأعلى .

(١) سبق التعريف به في القسم الاول ضمن الشخصيات التى تأثر بها الهجویری .

(٢) « ميمنه » : من قرى خابران . وهى ناحية بين أبيورد وسرخس قد نسب اليها جماعة من اهل العلم والتصوف منهم أبو سعيد أحمد بن أبى سعيد فضل الله بن أبى الخير وأبو الفتح طاهر وكانا من اهل التصوف وبيته (معجم البلدان ج ٤ ص ٧٢٢) .

(٣) « سرخس » من قرى خابران مثل نسا وأبيورد . وقد نجت هذه البلاد في سنة ٢٠ في أيام عثمان رضى الله عنه (معجم البلدان ج ٢ ص ٧١) .

(٤) أبو على زاهر بن أحمد بن محمد بن عيسى السرخسى : اللقبه المقرئ . كان من كبار الشافعية ، وشيخ مصره في خراسان . وكان يعد من تلاميذ الأشعرى في علم الكلام . توفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة : « طبقات الشافعية » انظر : ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٤٣ .

(٥) أبو الفضل حسن : اسمه محمد بن الحسن السرخسى : نسبة الى سرخس . كان مريدا لأبى نصر السراج الطوسى ، وخرشداً لأبى سعيد بن أبى الخير . توفى في أواخر القرن الرابع الهجرى ، ودفن بموطنه سرخس وقبره بها . (انظر ماورد عنه في أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٤٢ - ٧٢ ، ترجمته في تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣٣٧ ، نفحات الأنس ص ٢٨٤) .

سمعت الشيخ ابا مسلم الفارسي (١) يقول : كنت معه دائما في خصومة . وذات يوم ذهبت اليه وقد ارتديت مرقعة صارت كالجلد من القذارة . ولما دخلت عليه وجدته جالسا على سرير وقد ارتدى عباءة مصرية ، فقلت للنفسى : هذا الرجل يدعى الفقر مع كل هذه العلائق ، وانا ادعى الفقر مع كل هذا التجريد ، فكيف اكون على وفاق معه ؟ فأشرف على ما يجول بفكرى ، ورفع راسه وقال : يا ابا مسلم ! في أى ديوان وجدت من كان قلبه قائما في مشاهدة الحق يقع عليه اسم الفقير ؟ .

أى أن أصحاب المشاهدة اغنياء بالحق ، والفقراء هم ارباب المجاهدات . قال (أبو مسلم) فندمت على ظنى ، وطلبت منه المغفرة على سوء ظنى . يرد عنه أنه قال : « التصوف : قيام القلب مع الله بلا واسطة » ، وهذا ايضا اشارة الى المشاهدة .

والمشاهدة تتأتى من غلبة المحبة ، واستغراق الصفة في تحقيق الشوق والرؤية ، وفناء الصفة ببقاء صفة الحق . وسأذكر في كتاب الحج بابا في المشاهدة ووجودها ، ان شاء الله عز وجل .

في وقت من الأوقات ، خرج (أبو سعيد) من نيسابور قاصدا طوس ، وكان فيها عقبة شديدة البرودة ، وكانت قدماء تتجمدان في نعله . قال درويش : فكرت في ان اشق الفوطة نصفين وألقى بها على قدميه ، ولم يطاوعنى قلبى لأنها كانت فوطة جميلة جدا . وعندما بلغنا طوس قلت في المجلس : فليفرق لنا انشيخ بين وسواس الشيطان والهام الحق ؟ قال : الالهام هو ما قيل لك ان مزق الفوطة حتى لا تبرد أقدام « أبى سعيد » والوسواس هو ما منعك .

وقد تواتر عنه من ذلك كثير ، وليس هذا مرادنا . والله اعلم .

● ومنهم زين الأوتاد ، وشيخ العباد :

« أبو الفضل محمد بن الحسن الفختلى (٢) » رضى الله عنه ، وبه قدوتى في هذه الطريقة . كان عالما بعلم التفسير والروايات ، ويذهب في التصوف مذهب الجنيد .

(١) أبو مسلم الفارسي : فارسي بن غالب . من شيوخ الصوفية في فارس . أدرك أبا عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ هـ ، وكان معاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وأبى الفتح بن سألبة المتوفى سنة ٤٧٣ هـ . أشير اليه في أسرار التوحيد : انظر الترجمة العربية ص ١٥٢ ، شد الأزار ص ١٨٠ حاشيته ٣ (٢) أرجع الى ما ورد عنه في القسم الاول ضمن شيوخ الهجویری ، وانظر ترجمته في : نفحات الأئمن ص ٣١٥ ، خزينة الأصفیاء ج ٢ ص ٢٣١ .

كان مريد الحصرى (١) وصاحب سره ، ومن أتران أبى عمرو القزوينى (٢) ،
وأبى الحسن بن سألبة (٣) . وقد ظل ستين عاما وهو يفر الى الزوايا طلبا
للعزلة الصادقة ، واختفى اسمه من بين الخلق ، وكان كثيرا ما يلجأ الى جبل
اللكام .

عمر طويلا ، وكانت له روايات وبراهين كثيرة ، غير انه لم يكن يرتدى
ثياب المتصوفة ويمارس رسومهم ، وكان شديدا مع اهل الرسم . ولم ار
قط من هو اكثر منه مهابة .

وسمعه يقول : « الدنيا يوم ، ولنا فيها صوم » . اى اننا لا نأخذ منها
شيئا ، ولا نتقيد بقيودها ، لاننا راينا آفتها ، ووقفنا على حجبها ، فأعرضنا
عنها .

وذات يوم كنت اصب الماء على يديه للوضوء ، وجال بخاطري انه مادامت
الأعمال بالتقدير والقسمة ، فلم يجعل الأحرار انفسهم عبيدا للشيوخ ؟
فقال لى : يا بنى ! عرفت ما فكرت فيه . واعلم ان لكل حكم سببا ، وحين
يريد الحق تعالى ان يتوج صبيا بتاج الكرامة ، فانه يمنحه التوبة ، ويشغله
بخدمة حبيب لتصير هذه الخدمة سببا لكرامته .

وكانت تظهر لنا منه كل يوم لطائف كثيرة كهذه .

ويوم ان وافته الوفاة « ببيت الجن » — وهى قرية على رأس عقبة بين
بانيار ودمشق — كانت رأسه فى حجرى ، وكان قلبى ممتعضا من أحد
أصحابى ، كما هى عادة الأدبيين ، فقال لى : يا بنى ! سأحدثك فى مسألة
من الاعتقاد ، فإذا قومت نفسك عليها نجوت من كل الآلام ! اعلم ان الله
عز وجل هو خالق الأحوال من خير وشر ، فى كل مكان ، فلا ينبغي ان
تعرض على فعله أو تألم له .

ولم يوص بأكثر من هذا ، واسلم روحه للحق . رحمة الله عليه ، ورضى
الله عنه ، وسقاه صوب رضوانه .

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) أبو الحسن على بن عمرو القزوينى الزاهد . أشار اليه ابن الأثير وفكر انه كان
من الصالحين . روى الحديث والحكايات والأشعار (انظر : الكلبل حوادث ٤٢) ،
صفحة الصفوة ج ٢ ص ٢٧٥ .

(٣) سبق الإشارة اليه :

● ومنهم : الاستاذ الامام ، وزين الاسلام :

« أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (١) » رضى الله عنه ، البديع في زمانه ، والرفيع في قدره . ومنزلته كبيرة ومعلومة لاهل زمانه . وله من أحواله وانواع فضله لطائف كثيرة في كل فن ، وتصانيف نفيسة كلها محققة . وقد حفظ الله تعالى حاله ولسانه من الحشو .

وسمعه يقول : « مثل الصوفي كعلة البرسام : اوله هذيان ، وآخره سكوت ، فاذا تمكن خرس » .

فالصفوة لها طرفان : أحدهما الوجد ، والآخر الدليل . فالدليل يكون للمبتدئين ، والتعبير عن الدليل في الدليل هذيان . والوجد يكون للمتقين ، والتعبير عن الوجد في الوجد محال .

والطالبون ماداموا في حال الطلب ، فانهم يتحدثون في ألهمة بعلو ألهمة ، والنطق يبدو لأهل المنى : هذيانا ، فاذا ما وصلوا فانهم أيضا لا تبقى لهم الى الوصول عبارة وإشارة .

ومثال هذا : أن موسى ، حينما كان مبتدئا ، كانت همته كلها محصورة في الرؤية ، فعبير عن ألهمة ، كما ورد في قوله تعالى بشأنه : « أرني انظر اليك » (٢) . وقد بدت هذه العبارة هذيانا لعدم ادراك المقصود .

والرسول صلى الله عليه وسلم ، كان في نهاية حاله وممكنا ، وعندما وصل شخصه الى مقام ألهمة فنيت همته ، فقال : « لا أحصى ثناء عليك » (٣) . وهذه منزلة رفيعة ، ومقام عال .

● ومنهم : الشيخ الاوحد ، وفي طريقه المفرد :

« أبو العباس أحمد بن محمد الششقي (٤) » رضى الله عنه . كان اماما في فنون العلم أصوله وفروعه ، ناضجا في جميع المعاني ، رأى كثيرا من المشايخ وكان من كبار أهل التصوف وأجلتهم .

(١) أرجع الى ما ورد منه في القسم الاول ضمن من تأثر بهم الهجویری .

(٢) سورة « الأعراف » آية ١٤٢ .

(٣) ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في سجوده : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافائك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك » أنت كما أثنيت على نفسك » (أنظر اللع من ١٥٨) .

(٤) أرجع الى ما ورد منه في القسم الاول ضمن شيوخ الهجویری .

وكان يعبر عن طريقته في الفناء بعبارة مغلفة اخص بها . وقد رايت طائفة من الجبهة قلده في تلك العبارات ، واختاروا شطحاته . والتقليد غير محمود في المعنى ، فكيف به في العبارة ؟ ! .

وكان لى معه انس عظيم ، وكان يشفق على شفقة صادقة ، وكان استاذى في بعض العلوم . وام ار طيلة حياتى قط رجلا من اى صنف كان يعظم الشرع اكثر منه .

وقد انتقطع عن كل الموجودات ، ولم يكن يفيد منه غير الامام المحقق لدقة عباراته . وكان طبعه دائها ينفر من الدنيا والعقبى ، ويصيح قائلا : « اشتهى عدما لاعود فيه » . وكان يقول بالفارسية : لكل آدمى غاية مطلوب ، ولا بد لى ايضا من غاية مطلوب ، وانا اعلم يقينا ان ذلك لن يتحقق ، لأن غايتى هى ان يحملنى الله تعالى الى عدم ليس له وجود قط ، لأن كل ماهو موجود من المقامات والكرامات محل الحجاب والبلاء ، وقد صار الادمى عاشقا لحجابه ، والعدم في المشاهدة خير من الراحة مع الحجاب . ولما كان الحق جل جلاله وجودا لا يجوز عليه العدم ، يكون هناك ضرر في ملكه اذا جعلنى عدما ، لأن ذلك العدم ليس له وجود قط .

وهذا اصل قوى في صحة الفناء . والله اعلم .

● ومنهم : قطب زمانه ، وفريد عصره واوانه :

« أبو القاسم على الجرجاني (١) » رضى الله عنه وأرضاه . لا نظير له في وقته ، ولا بديل له في زمانه ، وكانت له بداية طيبة . وقام بأسفار شائعة في المعاملة . وتتجه اليه في هذا الوقت قلوب اهل الحضرة جبيما ، ويعتمد عليه جملة الطالبين . وهو آية ظاهرة في كشف وقائع المريدين ، وعالم بفتون العلم ، وكل من مريديه زينة لعالم . وسبيقى له من بعده خلف طيب يكون ان شاء الله قدوة القوم ، وهو لسان الوقت أبو على الفضل بن أحمد الفارمدى (٢) — ابقاه الله — الذى تخلى عن نصيبه في حق ذلك الشيخ العظيم ، وأعرض عن انكل ، وجعله الحق تعالى وتقدس ببركاته لسان حال ذلك السيد .

وذات يوم كنت جالسا في حضرة الشيخ (أبى القاسم الجرجاني) أعدد احوالى والرؤى التى ظهرت لى ، لاصنى عليه وقتى ، لانه ناقد الوقت ، وكان هو رضى الله عنه يصفى الى في احترام . وكانت نخوة الصبى وجنوة

(١) أرجع الى ما ورد منه في القسم الاول ضمن شيوخ الهجویری .
(٢) سبق الإشارة اليه في القسم الاول .

الشباب تجعلنى حريصا على قول ذلك ، وقد خطر لى ان : عسى الشيخ لا يكون قد مر بهذا فى البداية ، فهو يبدى نحوى كل هذا الخضوع ، ويتودد الى . ورأى هو فى الحال هذا فى باطنى ، فقال : يا حبيب أبىك ! ان خضوعى ليس لك أو لحالك ، لأن محول الأحوال يجىء فى محل المحال ، فخضوعى هذا لمحول الأحوال . وهذا الذى حدث لك ، يكون عاما لكل الطالبين ، وليس خاصا بك . فلما سمعت هذا استقط فى يدى ، فرأى ذلك فى ، وقال : يابنى ! ليس للآدمى نسبة الى هذه الطريقة أكثر من أنه حين يوصل بها يأخذه الزهو بادراكها ، وحين يعزل عنها ينال زهو العبارة ، فنفىه وإثباته ، وفقده ووجوده كلاهما زهو ، والآدمى لا يخلص أبدا من أسار الزهو ، ويجب عليه أن يستمسك بأعتاب العبودية ، ويدفع عن نفسه كل نسبة غير الآدمية والطاعة .

وكانت لى معه من بعد ذلك اسرار كثيرة ، ولو شغلت باظهار الآيات لعجزت عن المقصود ، والله اعلم .

● ومنهم : رئيس الاولياء ، وناصح أهل الصفاء :

« أبو احمد المظفر بن أحمد بن حمدان (١) » رضى الله عنه . كان متربعا فى الرئاسة ، وقد فتح الله عز وجل عليه أبواب التصوف ، وتوجه بتاج الكرامة . وكان له بيان حسن وعبرة عالية فى الفناء والبقاء .

قال شيخ المشايخ أبو سعيد رحمة الله عليه : لقد جىء بنا الى ساحة الحق عن طريق العبودية ، وجىء بالشيخ المظفر اليها عن طريق السيادة .
أى اننا ادركنا المشاهدة بالمجاهدة ، وجاء هو الى المجاهدة بالمشاهدة .
وقد سمعته يقول : ان ما ادركه العظماء بقطع البوادر والمنافزات ادركته وأنا جالس على الحشايا فى الصدارة .

ويحمل جماعة من أصحاب الرعونة هذا القول من الشيخ على الادعاء ، وذلك لنقص كياستهم ، لأن عبارته عن صدق حاله وليست ادعاء ، وبخاصة انه كان ذا أهل . وقد بقى لنا منه اليوم خلف طيب وعظيم ، وهو السيد أحمد « سلمه الله .

وكنيت لديه ذات يوم ، وكان عنده رجل من أدياء نيسابور ، وكان يقول فى حديثه : انه يغنى حينما يبقى . فقال له السيد المظفر رحمة الله عليه :

(١) ارجع الى ماورد عنه فى القسم الاول ضمن اسانذة الهجویری .

كيف يتأتى البقاء على الفناء ؟ والفناء عبارة عن العدم ، والبقاء اشارة الى الوجود ، وكل واحد منهما ينفى الآخر ، أى أنه ضده .

والفناء معروف ، أما اذا فنى ، فانه ان وجد ، لا يكون عين ذاك ، وانما يكون شيئا آخر .

ولا يجوز ان تنفى الذوات ، ولكن فناء الصفة وفناء السبب جائز ، فاذا فنيت الصفة والسبب ، يبقى الموصوف والمسبب ، ولا يجوز الفناء على ذاته .

ويقول على بن عثمان الجلابى رضى الله عنه : اننى لم اذكر عين عبارة فلك السيد ، أما معناها فهو هذا الذى ذكرته . واوضح الآن المراد من هذه العبارة لتصير اعم .

والمراد منها : ان اختيار العبد صفة له ، والعبد محجوب باختياره عن اختيار الحق ، فصفة العبد حجاب له عن الحق .

واختيار الحق ازلى لا محالة ، واختيار العبد محدث ، ولا يجوز الفناء على الأزلى . وحين يبتى اختيار الحق فى حق العبد ، فان اختياره ينفى لا محالة ، وينقطع تصرنه ، والله اعلم .

وقد دخات عليه يوما فى القبط القائظ ، بثياب الطريق ، اشعث ، فقال لى : قل لى ما تريد فى الحال ؟ قلت : يلزمنى السب . فارسل شخصا فى الحال ، فاحضروا القوال وجماعة من اهل الطرب . وصيرتنى جنوة حدائتى ، وقوة ارادتى ، وحرقة بدايتى مضطربا فى السماع ، فلما انتضى على ذلك وقت ، وقل فى سلطان تلك الآفة وغليناها ، قال لى : كيف كان حالك فى هذا السماع ؟ قلت : ايها الشيخ ! كنت مسرورا جدا . فقال : سوف يأتى وقت يكون هذا ونعيق الغراب كلاهما لديك سواء ، لأن قوة السمع تكون طالما لا تكون المشاهدة ، فاذا حصلت المشاهدة فنيت ولاية السمع . واياك ان تتعود هذا حتى لا يصير طبيعة لك ، وتتخلف بذلك .

والله المستعان ، وعليه التكلان ، وحسبنا الله ونعم الرقيق .

الباب الثالث عشر باب في ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان

وإذا ذكرنا الآن الجميع ، وشرحنا أحوالهم في هذا الكتاب فإنه يطول ،
وإذا أغفلنا البعض فإن المقصود لا يتحقق أيضا .

والآن : أذكر في هذا الكتاب هؤلاء الذين كانوا ولا يزالون (أحياء) في عهدي
من أحاد القوم ومشايخهم من أرباب المعاني ، ممن هم غير أصحاب الرسوم ،
لأكون أقرب إلى حصول مرادى أن شاء الله عز وجل .

من كانوا في الشام والعراق ، منهم :

« الشيخ زكي بن علاء » : كان من كبار المشايخ ، وسادات الزمان .
وقد وجدته شعلة من شعل المحبة ، وذا آيات وبراهين ظاهرة .

والشيخ الكبير : « أبو جعفر محمد بن المصباح الصيدلاني » كان من
رؤساء المتصوفة ، وذا لسان حسن في التحقيق ، وميل عظيم إلى الحسين
ابن منصور . وقد قرأت بعض تصانيفه .

و « أبو القاسم السدسي » : كان شيخا صاحب مجاهدة ، طيب الحال ،
وراعيا للدراويش وموضع اعتقادهم بحسن الاعتقاد .

أما أهل فارس ، فمنهم :

شيخ الشيوخ : « أبو الحسين بن سالبه (١) » : وكان لسانه في التصوف
أفصح لسان ، وبيانه في التوحيد أوضح بيان ، وله أقوال معروفة .

(١) سبق الإشارة إليه . انظر ، ص : ٤٦ .

والشيخ المرشد : « أبو اسحاق بن شهريار (١) » : وكان من محتشمى القوم ، وذا مهابة عامة .

والشيخ الظريف : « أبو الحسن على بن بكران » : وكان من كبار المتصوفة .

والشيخ : « أبو مسلم (٢) » : وكان رجلا عزيز الوقت طيب الحال .

والشيخ : « أبو الفتح بن سالبه (٣) » : وهو خلف طيب لابيهِ ، ومرجوة فيه .

والشيخ : « أبو طالب » : وكان رجلا اسير كلمات الحق .

ولم أر من هؤلاء شيخ الشيوخ والشيخ ابا اسحاق .

اما اهل قهستان (٤) وآذربايجان ، وطبرستان وقومس ، فمنهم :

الشيخ « شقيق فرج » المعروف بأخى الزنجاني (٥) : كان رجلا حسن السيرة ، محمود الطريقة .

والشيخ « وندرى » : وهو من عظماء هذه الطريقة ، وتأثر عنه خيرات كثيرة ، وكان ساطعا ثابا ، ورجلا عيارا فى طريق الحق .

والشيخ « أبو عبد الله الجنيد » : وكان شيخا رفيقا ومحترما .

والشيخ « أبو طاهر المكشوف » : وكان من اجلة وقته .

(١) اسمه ابراهيم بن شهريار الكازرونى . فارسى الأصل والمولد ، ونشأ فى كازرون . كان مريدا للفيروز ابادى ، وصحب كثيرا من رجال الحديث . توفى سنة ست وعشرين وأربعمائة (انظر ترجمته فى نفحات الانس ص ٢٥٤ ، سفينة الاولياء ص ١٦١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٢٥) .

(٢) سبق الإشارة اليه . انظر ، ص : ٣٨٠ .

(٣) سبق الإشارة اليه . انظر ، ص : ٤٩ .

(٤) « قهستان » : مخفف : « قوهستان » تعريب « كوهستان » ومعناها : موضع الجبل . وأكثر بلاد المعجم لا يخلو من موضع يقال له كوهستان واما المشهور بهذا الاسم فأحد اطرافها متصل بنواحي هراة ثم يمتد فى الجبل طولا حتى يتصل بقرب نهاوند وهمدان . فتحبا عبد الله بن هاجر بن كرزى فى أيام عثمان سنة ٢٩ هـ (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٠٥) .

(٥) أخى الزنجاني : من كبار الشيوخ فى وقته . كان مريدا للشيخ أبى العباس النهاوندى مريد جعفر الخلدى تنسب اليه كرامات وخوارق كثيرة . توفى سنة سبع وخمسين وأربعمائة . وقبره فى زنجان (انظر ترجمته فى نفحات الانس ص ١٤٨ ، سفينة الاولياء ص ١١٢ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٨) .

والسيد « حسين السمناني » : وهو رجل ذو بلاء ورجاء .

والشيخ « السهلکی (١) » : وكان من فحول المتصوفة وصعاليكهم .

و « أحمد (٢) » بن شيخ خرقان ، وهو لایبه نعم الخلف .

و « أديب الکندي (٣) » : وكان من سادات زمانه .

وأما أهل کرمان ، فمنهم :

السيد : « علی بن الحسين السیرکائی (٤) » ، وكان سائح الوقت ،
وذا أسفار طيبة ، وابنه « حکیم » رجل عزيز .

والشيخ : « محمد بن سلمة » ، وكان من كبار وقته وقبله كان المكتومون
من أولياء الله عز وجل ، ويوجد الآن شبان وأحداث ذوو رجاء .

وأما أهل خراسان (٥) ، التي يظلها اليوم اقبال الحق ، فمنهم :

الشيخ المجتهد : « أبو العباس الشرمقانی (٦) » وكان ذا عيش حسن ،
ووقت طيب .

والسيد « أبو جعفر محمد بن علی الجوينی (٧) » ، وكان من عظماء هذه
الطائفة والمحققين منهم .

(١) سبق الإشارة إليه .

(٢) أحمد بن أبي الحسن الخرقانی المتوفى سنة ٤٢٥ هـ . وردت عنه اشارة في أسرار
التوحيد : انظر الترجمة العربية ص ١٦٠ .

(٣) أورد له الجلي ترجمة لاتتمدى الإشارة الواردة في كشف المحجوب (انظر نفعات
الأنس ص ٣١٨) .

(٤) اظن أنه : (خواجه) علی بن الحسن الكرمانی : كان من شيوخ کرمان ، ومريدا

للشيخ « صو » المتوفى سنة ٤٤١ هـ . ويبدو مما ذكره مؤلف أسرار التوحيد أن
الكرمانی كان معاصرا لأبي طاهر بن أبي سعيد بن أبي الخير المتوفى سنة ٤٨٠ هـ ،
وأبي علی الخباز (انظر : أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٣٩٤ ، نفعات
الأنس ص ٢٦٢ ، شد الأزار ص ١٨١ حاشية ١) .

(٥) هذه المجموعة من الصوفية من أهل خراسان كانوا جميعا من معاصري أبي سعيد
ابن أبي الخير ، وبعضهم كانوا من طبقة الشيوخ اقران أبي سعيد ، والبعض
الأخر من تلاميذ الشيوخ وابنائهم ، ووردت في أسرار التوحيد اشارات بشأنهم ،
وان كان هناك بعض التحريف في الأسماء .

(٦) الشرمقانی : نسبة الى « شرمقان » : بلدة قريبة من اسفرائين بنواحي نيسابور .

(٧) أبو محمد الجوينی : من معاصري أبي سعيد بن أبي الخير ، وزميله في الدراسة
على أبي بكر القفال . كان اباه من الشافعية ، فلقه على أبي الطيب سهل بن
محمد الصطوكي ، ثم خرج الى أبي بكر القفال وعاد الى نيسابور . كان عالما
بالأدب وغيره من العلوم . توفي سنة ٤٢٨ هـ (انظر : المنتظم ج ٨ ص ١٣٠ ،
الکابل : حوادث سنة ٤٢٨ ، أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٤٠) .

والسيد « أبو جعفر الترشيزي (١) » ، وكان من أعزاء الوقت .

والسيد « محمود النيسابوري (٢) » ، وكان مقتدى الوقت ، وذا لسان حسن .

والشيخ « محمد المشوق (٣) » : وكانت حياته حسنة وطيبة .

والشيخ « حمزة المحب (٤) » : وكان شيخا طيب الباطن ، وميمونا .

والسيد « المظفر (٥) » ابن الشيخ أبي سعيد : وهو ذو رجاء في أن يصير مقتدى القوم وقبلة القلوب .

والسيد « أحمد بن حماد السرخسي (٦) » ، مبارز الوقت ، وكان رفيقي مدة طويلة ، ورأيت من أمره عجائب كثيرة ، وكان من فتيان الصوفية .

والشيخ « أحمد النجار السمرقندي (٧) » ، وكان سلطان زمانه ، يقيم بمر .

والشيخ « أبو الحسن علي بن أبي علي الأسود (٨) » ، وكان خلفا طيبا لأبيه ، وفريد عصره في علو الهمة ، وصدق الفراسة .

-
- (١) أبو علي الترشيزي : من معاصري أبي سعيد وأبي القاسم القشيري . وردت بشأنه حكاية في أسرار التوحيد . (انظر الترجمة العربية ص ١٠٤ - ١٠٦) .
- (٢) محمود النيسابوري : كان يعزف بالمريد ، وبلغ من عظيّمته أن الشيخ أبا سعيد كان يرسل إليه المريدين ، ويقول أنه سالك طيب (أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٨١) .
- (٣) المشوق الطوسي : كان من عتلاء المجانين ، وشيخا عظيما كاملا ، يقيم في طوس . التقى به أبو سعيد بن أبي الخير في طوس وهو في طريقه إلى نيسابور . (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٧٧ ، ترجمته في نلحات الأئس ص ٣٠٩) .
- (٤) حمزة التراب : من معاصري أبي سعيد . من أهل نيسابور . كان يقال له حمزة التراب لأنه كتب يوما رقعة إلى أبي سعيد ووقعها ، لشدة تواضعه ، بكلمة : « تراب القدم » ، فكتب أبو سعيد بيتا من الشعر على ظهر الرقعة وأرسلها إليه . (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٢٣١) .
- (٥) أبو الوفا المظفر : الابن الثاني لأبي سعيد بن أبي الخير (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٣٩٠) .
- (٦) كان رفيقا للجوبيري في ما وراء النهر ، وسائر معه إلى لاهور ، وظل بها إلى أن توفي ، ولا يزال قبره بها داخل غريخ الهجويري ، ومعروفا باسمه . انظر القسم الأول . ص ٩٠ .
- (٧) أحمد النجار : من أقران أبي سعيد : أشير إليه أكثر من مرة في أسرار التوحيد (انظر الترجمة ص ٥٧ ، ٢٨٩ ، ٣٩٩) .
- (٨) هو ابن الشيخ أبي علي الأسود (سباه) المتوفى سنة ٤٢٤ هـ . كان من كبار مشايخ مرو ، ومما صرا لأبي العباس القصاب ، وأبي علي الدقاق وأبي سعيد بن أبي الخير ويبدو أنه لم يكن على وفاق مع أبي سعيد (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ١٩٣ ، ٢٦٩ ، وترجمته في نلحات الأئس ص ٢٩٠) .

واذا عددت جميع المتصوفة من أهل خراسان فان ذلك يصعب ، فقد رأيت ثلثمائه متصوف في خراسان وحدها ، لكل منهم مشرب ، ويكفى ان يكون في العالم واحد منهم ، لان شمس المحبة واقبال الطريقة في طالع خراسان .

وأما أهل ما وراء النهر ، فمنهم :

السيد الامام ، مقبول الخاص والعام ، « أبو جعفر محمد بن الحسين الحرملی (١) » : وهو رجل مستمع ومغلوب ، ذو همة عالية ووقت صافي ، وثفتة كاملة على جميع طلاب حضرة الحق .

والسيد الفقيه ، وبين أصحابه الوجيه : « أبو محمد الباقري » كان ذا وقت طيب ، ومعاملات قوية .

و « محمد الأبلقي » وكان شيخ وقته ، وعظيم زمانه ، وتاركا للرسم والعادات والاسباب .

والسيد « العارف » : وكان فريد وقته ، وبديع عصره .

و « علي بن اسحاق » : وكان سيد زمانه ، ورجلا محتشما ، وذا لسان عذب .

هذه اسماء الجماعة الذين رأيتهم جميعا وعرفت مناقبهم فردا فردا ، وكانوا جميعا من أهل التحقيق .

أما أهل غزني وسكانها ، فمنهم :

الشيخ العارف ، وفي زمانه المنصف ، « أبو الفضل بن أسد » : وكان شيخا عظيما ، وصاحب براهين ظاهرة وكرامات زاهرة . وكان كشعة من نار المحبة ، وحاله مبنى على التلبيس .

والشيخ المجرد ، المفرد من العلانق ، « اسماعيل الشاشي » ، وكان شيخا محتشما ، يسلك طريق الملامة .

(١) علي بن عمر بن محمد بن الحسين الحرملی القزويني : كان من كبار الصالحين ، قال أحمد بن علي بن ثابت : كان أبو الحسن القزويني أحد الزهاد المذكورين من عباد الله الصالحين . وتوفي سنة ٤٢٢ هـ صفة الصفة ج ٢ ص (٢٧٥) .

والشيخ « سالار الطبرى » ، وكان من علماء المتصوفة وصاحب حال طيب .

والشيخ العيار ومعدن الأسرار ، « أبو عبد الله محمد بن الحكيم » المعروف بالمريد ، رحمه الله ، وكان من سكارى قرب حضرة الحق ، وأوحد منه . وحاله مستورة عن الخلق ، وله براهين ظاهرة ، وآيات زاهرة . وكان حاله فى الصحبة أطيب منه فى الرؤية .

والشيخ المحترم والمقدم على جميع العظماء ، « سعيد بن أبى سعيد العيار » : وكان حائظا لحديث النبى ، وعمر طويلا ، ورأى كثيرا من المشايخ . وكان قوى الحال ، ومطاعا ، ولكنه كان يتستر ولا يظهر معناه لأحد .

والسيد العظيم ، وقاعدة الاحترام والوقار ، « أبو العلاء عبد الرحيم ابن أحمد السفرى » ، كان عزيز القوم ، وسيد الوقت ، ويميل قلبى اليه . وهو صاحب وقت مهذب وحال طيب ، وخبر بفنون العلم .

والشيخ الأوحد ، « قسورة بن محمد الجرديزى » : المشفق على اهل الطريقة تمام الشفقة ، ولكل منهم لديه حرمة ، ورأى المشايخ .

وانى ، وفقا لما يرجوه عامة الناس وعلماء تلك المدينة ، أرجو أن يظهر فيها بعد هؤلاء رجال نعتقد فيهم ، وأن تتخلص من الطائفة التى تفرقت فيها وشوهت صورة هذه الطريقة ، وأن تصير أيضا محطاً للأولياء والعظماء ان شاء الله تعالى .

فهرس موضوعات القسم الأول

الصفحة	
٥	كلمة وفاء
٧	تقديم
١٠٦—١٣	الباب الأول : التعريف بالهجويرى
١٥	الفصل الأول : عصر الهجويرى من النواحي السياسية والثقافية والدينية
٢٧	الفصل الثانى : التصوف فى عصر الهجويرى
٣٩	الفصل الثالث : التعريف بالهجويرى : موطنه ، أسرته ، مولده وزواجه
٥٥	الفصل الرابع : ثقافته ، اساتذته وشيوخه ، الشخصيات التى تأثر بها
٧٣	الفصل الخامس : رحلات الهجويرى
٧٩	الفصل السادس : المرحلة الأخيرة من حياة الهجويرى : استقراره فى لاهور ، وفاته ، قبره
٩٧	الفصل السابع : مؤلفات الهجويرى
١٨٨—١٠٧	الباب الثانى : التعريف بكتاب كشف المحجوب
١٠٩	الفصل الأول : تعريف بالكتاب : اسمه ، موضوعه ، تاريخ تأليفه
١٢٣	الفصل الثانى : اقسام الكتاب
١٤٣	الفصل الثالث : مصادر الكتاب
١٥١	الفصل الرابع : مكانة الكتاب بين كتب التصوف

الصفحة

الفصل الخامس : مظاهر التأثير والتأثر ١٦٥

الفصل السادس : القيمة العلمية للكتاب ١٨١

الفصل السابع : مخطوطات الكتاب ، طبعاته ، الترجمة الانجليزية ١٨٥

فهرس موضوعات القسم الثانى

(ترجمة كتاب كشف المحجوب)

مقدمة المؤلف ١٩١

الباب الأول : باب اثبات العلم ٢٠٣

الباب الثانى : باب الفقر ٢١٥

الباب الثالث : باب التصوف ٢٢٧

الباب الرابع : باب لبس المرتعة ٢٤١

الباب الخامس : باب اختلافيهم فى الفقر والصفوة ٢٥٥

الباب السادس : باب بيان الملازمة ٢٥٩

الباب السابع : باب فى ذكر أئمتهم من الصحابة ٢٦٧

الباب الثامن : باب فى ذكر أئمتهم من أهل البيت ٢٧٥

الباب التاسع : باب فى ذكر أهل الصفة ٢٨٥

الباب العاشر : باب فى ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار ٢٩١

الباب الحادى عشر : باب فى ذكر أئمتهم من أتباع التابعين الى
يومنا هذا ٢٩٧

الباب الثانى عشر : باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين ٣٧٥

الباب الثالث عشر : باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين
من أهل البلدان ٣٨٧

الإشراف اللغوى : عبد الرحمن حجازى

الإشراف الفنى : حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

